سلسلة الرسائل الجامعية (١٣)

الاتجاهات العقلانية الحديثة

بقلم

أ. د/ ناصر بن عبد الكريم العقل

أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الفضيلة

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار الفضيلة

الرياض ١١٥٤٣ - ص.ب ٥١١٤٢

تليفاكس ٢٣٣٣٠٦٣

كان أصل هذا البحث أطروحة الماجستير التي تقدم بها المؤلف إلى قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بكلية أصول الدين بالرياض ـ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وبإشراف الدكتور عبدالرحمن راتب عميرة

وقد أجيز من قبل لجنة الحكم والمناقشة المكونة من:

فضيلة المشرف

ومعالي الشيخ الدكتور صالح بن فوزان الفوزان

وفضيلة الشيخ الدكتور جعفر شيخ إدريس

بتقدير ممتاز

* * * * * *

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ومن مضلات الفتن والأهواء.

من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ويشرح صدره للإسلام، ومن يرد الله أن يضله يصرفه عن الحق والصراط المستقيم، فقد قال جل من قائل عليمًا:

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [١٢٥ الأنعام].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق الإنسان وكرمه بالعقل على سائر المخلوقات، وأرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين، وكلفه بعبادته، واتباع شرعه، وسخر له الكون وما في الأرض جميعًا، لينظر ويتفكر، ويعمل بهدي الله ومنهجه القويم.

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [٥٦ ـ ٥٧ الذاريات].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أعقل الخلق وأزكاهم وأرشدهم، أرسله الله إلى العالمين، بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المبطلون.. وبعد:

فإن الله تعالى حين خلق الإنسان لم يخلقه عبثًا، ولم يتركه هملاً، فوهبه العقل ليميز به الخير والشر، والضار والنافع، ويتدبر به أمور معاشه، ويعرف به فضل الله ونعمه، وأرسل رسله إليه، مُعَرِّفين به تعالى، وإلى توحيده وعبادته

داعين، وبالآخرة والجزاء مبشرين ومنذرين.

ولما كان الإنسان مخلوقًا فانيًا، ومحدود الطاقة والمعرفة بحدود العمر القصير، وحدود المكان القريب، وحدود المنفعة العاجلة، فإنه لا يستغني بطاقاته ومداركه عن توجيه العليم الخبير، ولا يستقل بنفسه لإدراك مصالحه العاجلة والآجلة في الدنيا والآخرة.. لأنها من طي الغيب الذي لا يعلمه إلا الله. ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ [١٨٨ الأعراف].

فإنَّ كثيرًا من مصالح الإنسان لا يدركها بمحض عقله، وإن كثيرًا من أمور مستقبله محجوب في علم الغيب، لا يعرف كيف يبلغه. لذا فالإنسان لا بد له من منهج في الحياة يسلكه ويسترشد به ليعرف ويعمل بما يسعده في الدنيا والآخرة، فأرسل الله بذلك رسله، وأنزل معهم الحق والميزان ليقوم الناس بالقسط، ويحكموا بما يُرضي الله ويسعدهم، ويريحهم من عناء التخبط والتِّيه، والاختلاف في البحث عن سبيل الحق، وطريق النجاة.

ومن هنا عرف الإنسان السويّ، أن العقل البشري بمفرده لا يمكن أن يعرف تفصيلات الطريق والشريعة والمنهج المرضية لله، والمسعدة له في الدنيا، والمنجية له في الآخرة، فطلب من الله المدد والعون ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [٥، ٦ الفاتحة].

وأن العقل إنما هو نعمة من نعم الله ومكرمة منه لبني آدم تميزهم عن سائر الحيوان والجماد، وأن هذا العقل أداة ووسيلة لمعرفة وتمييز ما ينفع الإنسان في أمور معاشه القريبة العاجلة، عن طريق التفكير والحواس المحددة ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [٣٦ الإسراء].

لكن هناك أمورًا كثيرة، وكثيرة جدًا، هي في طيِّ الغيب، بل الجانب الأكبر من حياة الإنسان العاجلة والآجلة يكمن في علم الغيب وفي سر القدر، الذي لا يعلمه إلا علام الغيوب ـ سبحانه ـ لذا فالعقل السليم يسلِّم ويرضخ لهذا الواقع،

ويقر بضرورة الالتزام والتسليم لشرع الله وحكمه وقضائه، واتباع وحيه الذي جاء عن طريق عباده المرسلين.

وأن ذلك العقل البشرى مهما أوتي من القدرة والطاقة، فإنه لن يصل إلى أفضل مما جاء عن الله من الوحي والهُدى، وهذه بديهية من بدهيات العقل البشري السليم.

فتقديم حكم العقل البشري القاصر على شرع الله وقوله وحكمه، وإخضاع مقررات الوحي الإلهي ونصوصه لمقررات العقل البشري، نقص وخلل وانحراف عن الحق والهدى وعن السبيل القويم.

وجاء الإسلام في خاتمة الديانات، ليكون دين الله الباقي الخالد إلى أن تقوم الساعة، ولتكون شريعته وعقيدته هي المهيمنة على حياة البشرية كلها بقدر ما تركن إليها في كل زمان، وتكفل الله بحفظ هذا الدين ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [٩ الحجر]، وكلفنا ـ نحن المسلمين ـ بالعمل والجهاد في سبيله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وتحقيقًا لقوله ﷺ فيما رواه المغيرة بن شعبة: «**لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون**»[١] متفق عليه.

وقد شاء الله ـ وتلك سنته في خلقه ـ أن تكون فئات من الناس، بل ومن داخل صفوف المسلمين أنفسهم، تَعْشُو عن هذه الحقيقة، حقيقة هيمنة الدين على الحياة وقدرته على تسييرها وإسعاد البشرية بها، وتركن إلى مقرراتها وقواها العقلية المنحرفة القاصرة لتحكم من خلالها على شرع الله، وتفضلها على نصوص وحيه فتسعى لعزل الدين أو بعضه عن الحياة وعن السلوك، ولتزعم أن

---

(١) رواه البخاري في كتاب الاعتصام ـ باب قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق يقاتلون**» الفتح ١٣/ ٢٩٣، ومسلم في كتاب الإمارة باب قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم..**» حديث رقم ١٩٢١.
وراجع جامع الأصول (جـ٩ ص٢٠٣ ـ ٢٠٤).

العقل قادر بمفرده على إدراك مصلحته والاستقلال بقيادة البشرية إلى الخير والرخاء والنجاة، أو تجعل العقل البشري المحدود القاصر حكمًا وحاكمًا على دين الله وشرعه.

وتلك دعوى كبيرة عريضة وفِرْيَةٌ شنيعة لا تزال قائمة ورائجة: **تروجها العلمانية وتتقبلها النفوس المريضة، والإسلام يكذبها ويفندها**، وجماهير الناس لا تدري أين تسير، فلابد من قائمين بالحق يَسْتَجْلُون هذه الحقيقة ويبينون حكم الإسلام فيها وكلمته الفصل، ليعرف الحق من الباطل، ويدرك العامة المحق من المبطل.. ليهتدي من يريد الله له الهداية على بصيرة، ويضل ويهلك من هلك عن بينة.

وهذا هو موضوع هذا البحث، كان بعنوان: «**المدرسة العقلانية الحديثة في ضوء العقيدة الإسلامية**» أو «**الاتجاهات العقلانية الحديثة ...**» فهما مترادفان عندي؛ لأن المدرسة تمثل مجموعة اتجاهات كما سيأتي بيانه.

* **أما عن سبب اختياري لهذا الموضوع فذلك لأنه:**

- يمثل قضية من أهم قضايا الساعة في العالم الإسلامي، الذي بدأ يدرك أهمية وضرورة الرجوع إلى الإسلام، دين الله الذي ارتضاه لعباده، ودين الدولة والحياة، ودين البشرية، بعد معاناة وتجارب طويلة، وقع فيها المسلمون في أوضار البدع ومتاهات الفرق والسُّبُل، وفي متاهات التقليد الأعمى والتبعية الذليلة للغرب، والولاء لغير دين الله.

- كما ظهرت في الساحة الإسلامية اتجاهات تحمل شعار الدعوة تنزع إلى العقلانية والعصرانية والتجديد بمفهوم غريب ومريب يستهدف التخلي عن مناهج السلف بدعوى المعاصرة والتحرر من القديم، وهذا لعمر الله اتباع لغير سبيل المؤمنين.

ـ فإذا علمنا أهمية تصحيح العقيدة، وسلامتها في توجيه بوادر اليقظة الإسلامية واعتصامها بها، وضرورة التزامها للمنهج الرباني القويم، الذي يرضي الله، ويسعد الناس في الدنيا والآخرة.

ـ إذا علمنا ذلك كله، تصورنا أهمية بحث هذا الموضوع الذي يسهم في كشف البدع وتصحيح المفاهيم، ورد الشبه، والذب عن العقيدة، وبيان الانحرافات العقدية والعلمية والعملية التي وقع فيها كثير من الناس من جراء تساهله في التزام العقيدة الإسلامية الإلهية، ومنهج السلف الصالح.

فإن أي بناء علمي وعملي، وأي إصلاح واستصلاح، لا تكون فيه العقيدة الإسلامية هي المرتكز الأول، والمنطلق الأساسي، ولا تكون فيه العقيدة سليمة لتصحيح التصورات والأهداف والمنطلقات، ورسم معالم الطريق . .

أقول: إن أي عمل لا تكون فيه العقيدة كذلك، فإن مصيره إلى الانحراف والضلال والفشل، وإني لأعتقد أنه يجب على العلماء وطلبة العلم ـ وبالأخص طلبة العلوم الشرعية ـ الإسراع في بذل أقصى الجهد في تخليص أمتهم، من آثار تلك البدع والأهواء، والاتجاهات العقلية التي أرجفت بين المسلمين، وشككت أبناءهم بدينهم وعقيدتهم وتاريخهم، ونشرت الأفكار الهدامة، والاتجاهات المنحرفة، والتحلل الخلقي، تحت شعارات التطوير والتنوير والإصلاح والتجديد، وبجهود أبناء المسلمين أنفسهم، بل ومن بعض مفكريهم وعلمائهم، مما يزيد الموضوع أهمية وخطورة.

فقد واجهت ـ الأمة الإسلامية ـ خلال القرنين الماضيين **غزوًا عقائديّاً، وأخلاقيّاً، وفكريّاً، وسياسيّاً، وعسكريّاً**، مكثفًا مما كان له أكبر الأثر وأسوؤه، فكان له أثره العميق والواضح في ظهور كثير من الاتجاهات والحركات العقلانية، التي استمدت أفكارها ومفاهيمها من الأفكار والمفاهيم والمناهج الغربية الجاهلية أكثر مما استمدت من العقيدة الإسلامية، بل إنها تساهلت في أمر العقيدة الإسلامية إلى حد الهجوم عليها أحيانًا، بدعوى التجديد أو الملائمة مع الفكر الغربي، أو

بدعوى المسايرة، أو بدعوى التطوير، أو بدعوى تجديد النظر في النصوص والأصول والقواعد الشرعية التي سلكها السلف؛ لأنهم رجال ونحن رجال، وغيرها من الدعاوى التي يلتبس فيها الحق بالباطل.

فصار لزامًا على الباحثين المسلمين أن يصححوا هذا الخطأ، ويعيدوا لعقيدتهم الإسلامية ومناهج السلف اعتبارها ومكانتها، ويصونوا الأمة الإسلامية من الضلال والهلكة، بكشف عوار تلك الاتجاهات العقلية، وعرض العقيدة الإسلامية الصافية كما هي، ونشرها بين الناس على أنها هي الأجدر والأوثق والأسلم، ورد الأمة إلى منهج السنة القويم، منهج السلف الصالح، وتخليصها من آثار الشُّبه والشكوك التي آثارها العقلانيون.

ولعل هذا البحث يكون إسهامًا بهذا الصدد بجهد المقل لعل الله ينفعني وينفع المسلمين به. **وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وأصلي وأسلم على البشير النذير والسراج المنير نبي الهدى والرحمة، وآله وصحبه أجمعين.**

* * *

الفصل الأول

«تمهيد»

ويشتمل على:

أولاً : تعريف العقل والعقلانية في اللغة والاصطلاح.

ثانيًا: تعريف المدرسة العقلية الحديثة.

ثالثًا: بيان المنهج الذي سلكته في بحث الموضوع.

رابعًا: مقام العقل ومكانته في الإسلام.

* * * * *

أولاً: تعريف العقل والعقلانية في اللغة والاصطلاح

أ ـ العقل في اللغة:

قال في تاج العروس:

«العقل: العلم، وعليه اقتصر كثيرون، وفي العباب، العقل: الحجر والنُّهية، ومثله في الصحاح، وفي المحكم: العقل ضد الحمق، أو هو العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها، وكمالها ونقصانها.

أو هو العلم بخير الخيرين وشر الشرين، أو مطلق الأمور.

أو لقوةٍ بها يكون التمييز بين القبح والحسن، و لمعانٍ مجتمعة في الذهن ـ يكون بمقدمات يستتب بها الأغراض والمصالح، ولهيئة محمودة للإنسان في حركاته وكلامه»[1].

«وقال الراغب: العقل: يقال للقوة المتهيئة: العلم، ويقال للذي يستنبطه الإنسان بتلك القوة: عقل، ولهذا قال علي ـ رضي الله تعالى عنه ـ: العقل عقلان: مطبوع ومسموع، فلا ينفع مطبوع إذا لم يكن مسموعًا، كما لا ينفع ضوء الشمس وضوء العين ممنوع»[2].

وقال: «واشتقاقه من العقل، وهو المنع، لمنعه صاحبه مما لا يليق، أو من المعقل وهو الملجأ لالتجاء صاحبه إليه»[3]..

وقال الفيروز آبادي في القاموس المحيط: «و[عَقَلَ الدواءُ بطنه يَعْقِلُه،

(١) انظر: تاج العروس لمحمد مرتضى الزبيدي، فصل العين باب اللام مادة (عقل) المجلد الثامن ص٣٥.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

ويَعْقُلُه : أمسكه، والشيءَ: فهمه، فهو عَقول، والبعيرَ: شَدَّ وظيفه إلىٰ ذراعه»[١].

وقال: «والعقل: الدِّيَة والحصن والملجأ، والقلب، وثوب أحمر يُجَلَّلُ به الهودج»[٢].

وقال صاحب المعجم الفلسفي:

«والعقل في اللغة هو الحجر والنهي، وقد سمي بذلك تشبيهًا بعقل الناقة . . لأنه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل، كما يمنع العقال الناقة من الشرود».

ب ـ العقل في الاصطلاح:

تختلف المفاهيم والتعريفات للعقل بين الناس باختلاف مصادرهم ومشاربهم ومذاهبهم، ويهمنا في هذا المقام أهم هذه التعريفات علىٰ النحو التالي:

١ ـ العقل في القرآن والسنة:

إذا تأملنا معنىٰ العقل في القرآن والسنة وجدناه بمعنىٰ: الصفة أو الآلة التي تقوم بالعاقل يميز بها ويدرك بواسطتها المدركات، وهو مناط التكليف والتفريق بين الشر والخير والنافع والضار، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«العقل في كتاب الله وسنة رسوله وكلام الصحابة والتابعين، وسائر أئمة المسلمين، هو أمر يقوم بالعاقل، سواء سمي عرضًا أو صنعة، ليس هو عينًا قائمة بنفسها»[٣].

---

(١) القاموس المحيط للفيرز آبادي. ص١٩ ـ الجزء الرابع ـ فصل العين باب اللام.

(٢) المرجع السابق.

(٣) ص ٧٢١ جـ٩ مجموع فتاوىٰ ابن تيمية.

وقال في موضع آخر: «والمقصود هنا أن اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة، وهو الذي يسمى عرضًا قائمًا بالعاقل، وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى: ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ . .

وقوله: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا** ﴾ [٤٦: **الحج**] .

وقوله: ﴿ **قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [١١٨: **آل عمران**] .

ونحو ذلك مما يدل على أن العقل مصدر عقل يعقل عقلاً، وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه، ولا العمل بلا علم، بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به، والعمل بالعلم. . ولهذا قال أهل النار: ﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [١٠: **الملك**]، وقال تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا** ﴾»[1] . . [٤٦: **الحج**] .

٢ ـ مفهوم العقل في اصطلاحات الناس:

والجمهور يطلق العقل على ثلاثة أمور:

الأول: يرجع إلى وقار الإنسان وهيبته، ويكون حده أنه هيئة محمودة للإنسان في كلامه واختياره وحركاته وسكناته.

والثاني: يراد به ما يكتسبه الإنسان بالتجارب من الأحكام الكلية، فيكون حده: معانٍ مجتمعة في الذهن تكون مقدمات تستنبط بها الأغراض والمصالح.

والثالث: يراد به صحة الفطرة الأولى في الإنسان، فيكون حده: أنه قوة تدرك صفات الأشياء من حسنها وقبحها، وكمالها ونقصانها»[2] . .

---

(١) المصدر السابق ص٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

(٢) ص٨٤ المعجم الفلسفي جـ٢ . د/ جميل صليبا .

أما الفلاسفة فإنهم يطلقون العقل على المعاني التالية:

١ - أول هذه المعاني قولهم: إن العقل «جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها»[(١)] . .

٢ - وثاني هذه المعاني قولهم: إن العقل «قوة النفس التي بها يحصل تصور المعاني وتأليف القضايا والأقيسة»[(٢)] . .

٣ - والمعنىٰ الثالث للعقل هو القول: إنه «قوة الإصابة في الحكم»[(٣)] . .

٤ - والمعنىٰ الرابع للعقل هو القول: إنه «قوة طبيعية للنفس متهيئة لتحصيل المعرفة العلمية»[(٤)] . .

ثم ذكر أقوالاً أخرىٰ اقتصرت علىٰ ما ذكرته منها.

* قال: «والعقلانية هي القول بأولية العقل»[(٥)] . .

*والمذهب العقلي هو القول: إن كل ما هو موجود فهو مردود إلىٰ مبادئ عقلية[(٦)] .

* **قلت: والعقلانية:** هي الاتجاهات والمذاهب التي تجعل العقل المصدر الأول أو الأساس أو المقدم في مصادر المعرفة والفكر والدين أو تقدمه وتُحَكِّمه علىٰ الوحي.

ومن مجموع هذه التعاريف نفهم **ما يلي:**

---

(١) ص ٨٤، ٨٥ جـ٢، المصدر السابق.

(٢) ص٨٥، جـ٢، المصدر السابق.

(٣) ص٨٥، ٨٦ جـ٢ المصدر السابق.

(٤) ص٨٦ المصدر السابق.

(٥) ص ٩٠ المصدر السابق.

(٦) ص ٩١ المصدر السابق.

١ ـ أن العقل صفة في الإنسان العاقل، يدرك بها الضار من النافع.

٢ ـ أن العقل يزيد بالعلم والتجربة والخبرة.

٣ ـ أن العقل هو مناط التكليف.

٤ ـ أن العقل لا يتم إلا بالعمل بالعلم.

٥ ـ أن العقل لا يستغني عن الشرع.

٦ ـ أن العقل لا يعلم الغيب وليس بمقدوره إدراكه.

٧ ـ أن العقل يمدح باتباع ما أنزل الله والتسليم له، ويذم بمخالفة ذلك.

كما نستخلص من مجموع ما سبق:

* أن العقل لغة يطلق على **كل من:** الحجر، والنهي، والعلم، والتمييز، والخبرة، والهيئة المحمودة، وقبول العلم، ونحو هذا.

* وفي الاصطلاح: يطلق العقل على:

ـ وقار الإنسان وسمته وسداد رأيه، فهو هيئة محمودة لدى الإنسان تميزه بالوقار في كلامه وهيئته وحركاته.

ـ وعلى ما يكتسبه الإنسان من علوم وخبرات والإفادة منها.

ـ وعلى القدرة الفطرية على اكتساب العلم والخبرة والاطباع بها، وإدراك الحسن والقبيح في مجال الحياة الإنسانية.

* **وأن العقلانية في الاصطلاح هي:**

ـ القول بأولية العقل في الحكم على الأشياء وتقديمه على غيره، ومنها القول بأن الوجود كله وجود عقلي.

ـ وتطلق العقلانية في المصطلح الإسلامي على أولئك الذين يجوزون تقديم العقل على النقل، وعلى نصوص الشرع، خاصة في أمور العقيدة والغيب.

والعقلانيون صنفان: المتكلمون من الفلاسفة والجهمية والمعتزلة الذين يعتمدون العقلانيات ويقدمونها على كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، ويتبعهم أهل الكلام الذين يخلطون بين النقليات والعقليات ويحكِّمون العقليات في بعض مسائل العقيدة وأصول الدين، كالأشاعرة والماتريدية ومتأخري الرافضة والخوارج ونحوهم، وهؤلاء هم أصحاب المدرسة العقلانية القديمة.

والصنف الثاني: وهم محل البحث: أصحاب الاتجاهات العقلانية الحديثة، وهم من مشارب شتى بعضها امتداد للقديمة، وبعضها مقلد للاتجاهات الغربية، وبعضها يمثل نزعات فردية، وآخر يمثل إفرازاً للشيوعية والإلحاد كالعلمانيين والحداثيين والوجوديين والعصرانيين ونحوهم من الأخلاط المتناقضة التي يجمعها النزوع إلى تقديم أحكام البشر الناقص الفاني الجاهل على أحكام الله تعالى العليم الخبير، وهذا هو محل البحث.

والتعريف الجامع للعقلانية المعاصرة هو أنها: الاتجاهات التي تقدم العقل على النقل وتجعل العقل مصدراً من مصادر الدين ومحكماً في النصوص.

* * * * *

ثانيًا: تعريف المدرسة أو الاتجاهات العقلانية الحديثة

قبل التعرّف على المدرسة (الاتجاهات) العقلية الحديثة التي نحن بصدد بحثها، يحسن أن أذكر القارئ بمسألتين يتضح بهما المقصود بهذه المدرسة (وسيأتي تفصيلهما خلال هذا البحث إن شاء الله).

أولى هاتين المسألتين: (الغزو الفكري والعقائدي الغربي للعالم الإسلامي) **والثانية** (الفرق العقلانية القديمة في تاريخ الإسلام).

* **أما الأولى:** فإنه من المعلوم أن الغرب الصليبي والإلحادي ـ حين فشل في محاولات الانتقام العسكرية منذ الحروب الصليبية إلى بداية القرن **(الرابع عشر الهجري)** من السيطرة المباشرة على العالم الإسلامي ـ اتجه إلى سياسة التأثير والتوجيه غير المباشر في العالم الإسلامي، فبدأ التركيز على الغزو الفكري والعقائدي.. لتحطيم العقيدة والتدين من الداخل، وبأيدي أبناء المسلمين أنفسهم.

وسخر لذلك كل ما لديه من قوى علمية وعملية، عبر الاستشراق والتبشير، والتوجيه الإعلامي، والنفوذ السياسي، وعبر تبني مجموعات من أبناء المسلمين الدارسين في الغرب أو في الجامعات التي تأسست على المناهج الغربية في بلاد المسلمين، وتمكين هذه المجموعات من مراكز التوجيه والتأثير والإدارة.

ونتيجة لهذه الجهود نشأ اتجاه عام في غالب بلاد العالم الإسلامي إلى الإعجاب بالغرب وحضارته وتقدمه العلمي، ومن ثم الاستمداد منه، وعدم التمييز بين ما يجب أن يؤخذ وما يجب أن يترك، في حين أن الأمة الإسلامية بقيت **(ولو عاطفيّاً على الأقل)** مشدودة إلى الإسلام لكنها محجوبة عنه بالبدع والطرق والفرق، ومن هذا الاتجاه المزدوج المتناقض برزت مجموعة من العلماء والمفكرين **تنادي بما يسمى بتجديد الأفكار والمفاهيم الإسلامية بما يساير العصر ـ**

عصر ما يسمىٰ بالتنور والمدنية والتقدم العلمي ـ وبما يتفق ومقررات العقل البشري، وبدعوىٰ أن الغرب لم يتقدم علميًّا حتىٰ جدد في مفاهيم الدين حسب التطورات العقلية والسيادة العقلية علىٰ الحياة، وأطلقوا علىٰ هذا الاتجاه شعارات براقة خادعة مثل: العقلانية، والعصرانية، والتجديد. وليتهم قصروا شعاراتهم علىٰ الجوانب المدنية والدنيوية. لكنهم استهدفوا الدين عقيدة وشريعة وأخلاقًا، فضلوا وأضلوا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

* **أما المسألة الثانية:** فإنه حين كانت هذه الطائفة مشدودة ـ بحكم ارتباط الأمة بالإسلام ـ إلىٰ أن تصبغ هذا الاتجاه بالصبغة الإسلامية، أخذت تنبش من خلال التاريخ الإسلامي، عمّا يؤيدها من تاريخ المسلمين نفسه.. فوجدت أن الفرق العقلانية المنحرفة القديمة هي أقرب إليها بل إنها التزمت نفس الخط، وهو تحكيم العقل في الدين، فأخذت تعتمد علىٰ آراء هذه الفرق كالمعتزلة وإخوان الصفا وبعض الفلاسفة.

ومن هذا الاتجاه العقلاني برز ما يمكن أن نسميه (المدرسة العقلية الحديثة).

وعليه.. فالمدرسة العقلية الحديثة ـ التي نعنيها هنا ـ تتمثل باتجاهات كثيرة منها:

* تلك الاتجاهات العقلانية التي ظهرت في القرنين الأخيرين، التي تتبنىٰ تحكيم العقل البشري وتقديمه علىٰ الدين، أو تعطي العقل اعتباراً فوق اعتبار نصوص الوحي الثابتة عن الله تعالىٰ ورسوله ﷺ.

* والتي تقوم علىٰ أنقاض المدارس والفرق العقلانية والكلامية القديمة تجدد أصولها وتحيي أمجادها.

* والتي تذهب إلىٰ تفسير الإسلام ـ في عقيدته وأصوله ـ تفسيراً عقلانيّاً وعصرانيّاً ماديّاً، دون اعتبار لدلالات اللغة، وأصول الدين، وعمومات

النصوص، وعمل المسلمين وإجماعهم.

* والتي تذهب إلى تفسير الوحي والدين، والنبوات، والغيب[1]، والمعجزات والقدر ونحوها، على مقتضى المفاهيم العقلانية البشرية، والكشوفات العلمية المحسوسة والنظريات الغربية المادية.

* والتي تدعو إلى التجديد والنظر في الإسلام ـ حسب مقتضيات العصر الحديث ـ عقائديًا، وفكريًا، وتشريعيًا، وتاريخيًا وصياغته صياغة جديدة، ليساير الفكر الغربي والحياة الغربية المتقدمة، والمتمدنة، وإخضاعه للسيادة العقلانية العالمية كما فعل الغرب بالكنيسة ودينها (المُحَرَّف).

ومنها تلك الاتجاهات العلمانية التي دعت إلى فصل الدين عن الحياة، وعن الدولة وعن العلم، وعملت ـ ولا تزال تعمل ـ على تحقيق هذا الانفصام في حياتها وحياة الأمة العملية والعلمية.. وهي مع ذلك كله ربما تدعي الإسلام، وتؤمن بالله ورسوله.

ومنها كذلك: العصرانية، وهي التي تريد من الدين أن يساير العصر ويخضع له.

ومنها كذلك: التنوير، وهو شعار للاتجاهات العقلانية التي تستوحش من الإيمان بالغيب، وقد يرفع غلاة العقلانيين شعار الحداثة، والحداثة مذهب خبيث يقوم على الزندقة، والخروج على الدين والأخلاق والفضيلة، ومحاربة كل ما هو سائد وثابت. وجملة هذه الاتجاهات العقلانية والعصرانية والتنويرية والحداثة تدور حول فلك الحياة المادية الغربية المعاصرة.

.. أما عن تسمية الاتجاهات العقلانية مدرسة، فلأنه يجمعها الوصف والإطار العام لهذا المصطلح (مدرسة) فهي مدرسة **من حيث:**

---

(١) ومنه الملائكة والجن والشياطين، والجنة، والنار، ونحوها.

١ ـ وحدة أصولها ومنطلقاتها العامة.

٢ ـ وحدة منهجها ونشأة أساليبها، وإن اختلفت الأشكال والتعابير.

٣ ـ وحدة أهدافها وغاياتها الكبرىٰ البعيدة، وإن اختلفت في أهدافها القريبة.

كل ذلك علىٰ وجه العموم، إذ لا يعني هذا أنها تمثل وحدة متكاملة ومتشابهة، بكل خصائصها وجزئياتها بالمعنىٰ الحرفي الدقيق، لكن يجمعها الوصف العقلاني والموقف العملي تجاه الإسلام.

فهي كالمدرسة بالمفهوم التعليمي الشائع، التي تحوي مجموعات من التخصصات حيث لا يلزم أن كل من فيها علىٰ مستوىٰ واحد، وهدف واحد، واتجاه واحد، إنما يجمعهم المنهج العام والهدف العام للمدرسة.. ولا يمنع هذا أن يكون من بين أفرادها المنحرف الشديد الانحراف، والمعتدل، وبينهما طرائق شتىٰ، كما أنه من الممكن أن تحوي المدرسة العقلية، مجموعات من الاتجاهات المذهبية والحزبية والفكرية، الفردية والجماعية، ولذلك صح إطلاق الاتجاهات العقلانية عليها.

أي أنها حوت مجموعات أتباع الفرق، ومن القوميين، والحزبيين، والاشتراكيين، والرأسماليين، والعلمانيين والحداثيين والانتهازيين، والنفعيين، وسائر المنحرفين أفراداً وجماعات.

كما أنها حوت بعض الدعاة والمفكرين والمثقفين الإسلاميين وأساتذة الجامعات.

ومع ذلك كل يجمعها الوصف العام ـ كما قلت ـ للمدرسة العقلية، وهو أنها تعطي للعقل وأحكامه حق النظر في العقيدة وأصول الدين ومناهجه.. كليّاً أو جزئيّاً حسب اتجاهات أفرادها. وأعني بالدين عند الإطلاق: الإسلام، كما هو

عند سائر المسلمين، اتباعًا لقوله تعالى: ﴿**إن الدين عند الإسلام**﴾، والإسلام بعد مبعث النبي محمد ﷺ إنما هو هذا الدين الذي جاء به، فقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به إلا دخل النار**»(١) وإذا كان هذا في أهل الكتاب فغيرهم من باب أولى. والحديث أخرجه مسلم.

لذا... قد يلاحظ القارئ من خلال هذا البحث، أني قد أعرض لآراء عقلانية لبعض الأفراد في جانب من جوانب الدين والعقيدة، في حين أن آراءهم معتدلة، وموافقة للشرع ـ نصوص الكتاب والسنة ـ في بقية الجوانب الأخرى، لكن هذا لا يهمني، لأني أناقش الآراء العقلانية من حيث هي بصرف النظر عن قائليها.

وأقصد بالحديثة: التي ظهرت في القرنين الأخيرين على وجه التقريب، أي بعد اتجاه المسلمين نحو الغرب، وبعد وجود التأثير الغربي على العالم الإسلامي عبر الاحتلال والتبشير والغزو الفكري والإعلامي والسياسي.

* * * * *

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأيمان، باب وجود الأيمان بريالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته حديث رقم (١٥٣).

ثالثًا: منهج العمل في بحث الموضوع

١ - من الجدير بالتنبيه والملاحظة، أن هذا الموضوع موضوع استكشاف وعرض وبيان إجمالي، أكثر من موضوع تقصٍّ وتعمق، ويقوم على العرض والرد الإجمالي، دون استطراد واستقصاء في الرد والتفنيد، وإن كان الرد والتفنيد من مضموناته.. وسبب ذلك: أنه إنما يتركز على التعرف على المدرسة العقلية الحديثة؛ آرائها، وأصولها، ومناهجها وسماتها، ومصادرها، ومدى تأثيرها وخطرها، وموقف العقيدة الإسلامية من خلال هذا كله على وجه العموم.. أما المناقشة التفصيلية والتقصي فإنه لابد أن يكون بعد ذلك بمراحل.. إذ أنه من الممكن بعد الدراسة والتعرف على المدرسة العقلانية الحديثة في ضوء العقيدة الإسلامية على هذا النحو أن يسلك الباحثون إلى تجزئة الموضوع إلى مباحث، ربما تستغرق رسائل كثيرة، فعلى سبيل المثال أجدني في هذا البحث **عرضت لرأي العقلانية الحديثة في أصول الإيمان كلها** في حين أنه من الممكن بعد ذلك أخذ مسألة الوحي، أو جانب الرسل فقط، أطروحة لرسالة ماجستير أو دكتوراه، لكن لما كان هذا البحث إنما هو للتعرف على أصول العقلانية الحديثة وآرائها في ضوء العقيدة الإسلامية اضطررت إلى أن أستعرض كل أصول العقيدة من خلال نماذج من آراء دراسات وأحكام لبعض العقلانيين المحدثين حول العقيدة، **إذًا فالبحث يعتمد على الأمثلة والشواهد والمقتطفات القصيرة** ومن أفراد محدودين أيضًا.

٢ - لذا (أي لسعة الموضوع وشموله) **اضطررت أن لا أسلك طريقة واحدة** في عرض الموضوعات ومناقشتها، **خاصة في المبحث الذي يتعلق بعرض آراء** المدرسة العقلانية الحديثة في أصول العقيدة الإسلامية، كما أن المادة العلمية بين يدي أيضًا تختلف من ناحية السعة والوفرة، والضيق والقلة...

فتجدني لذلك في بعض المباحث، أعرض الرأي في جزئية معينة، وأرد عليه مباشرة، وأحيانًا أخرىٰ أجمع جملة من الآراء، وأجمل الرد عليها كلها مرة واحدة وهكذا.

٣ - بما أن هذا البحث هو بحث في مسائل العقيدة، فإني اقتصرت فيه علىٰ الجانب العقدي، أو ما يمت إليه بصلة قوية من الموضوعات التي تناولتها المدرسة العقلانية الحديثة. . لذلك لم أتطرق للجوانب التشريعية والتاريخية والأدبية ونحوها إلا بقدر ما يمس العقيدة، أو يكون بالغ الخطورة، كقضية تحرير المرأة.

٤ - وحيث إن هذا البحث يتصل بالعقيدة وأصول الدين، فإني سلكت فيه طريقة مناقشة المقولة والفكرة والرأي المطروح من حيث هو، ومن حيث مخالفته للعقيدة الإسلامية بصرف النظر عن قائله، أي أن الاعتبار في هذه القضايا للآراء والأفكار، وموقف العقيدة منها، لا للأفراد ومكانتهم أو منزلتهم العلمية.

فمثلاً: عندما أذكر رأيًا للشيخ محمد رشيد رضا، أرىٰ أنه خالف فيه ما عليه أهل السنة والجماعة، وأفنده وأرد عليه، فهذا لا يعني أني أصدرت حكمًا عليه أو جعلته عقلانيّاً بكل ما للكلمة من معنىٰ، كما أني من جانب آخر لم أهتم بأن أذكر مقابل ذلك ما له من آراء ودراسات إيجابية ونافعة، فلا صلة لهذا البحث في تقييم الأشخاص وما لهم وما عليهم، كما لا يهمني أن أستقصي آراء الأفراد كلها لأعرف هل رجع أحد منهم عن رأيه أم لا، لأن الذي يهمني هو الآراء العقلانية المنشورة والمشهورة من حيث هي، وأنّىٰ وجدتها فسأقف عندها بصرف النظر عمن صدرت منه؛ لأن الاتجاهات العقلانية اتجاهات مهيمنة وعامة وشاملة، فلا يؤثر فيها تعديل جزئياتها من بعض الأفراد وتراجعهم، ولأن العقلانيين يتلقفون الآراء التي تناسبهم، ويستندون عليها دون اعتبار لبقاء صاحبها عليها، أو رجوعه عنها، مع العلم أني لا أكاد أجد أحدًا تنازل عن رأيه العقلاني من خلال قراءاتي حول الموضوع.

٥ - اعتمدت في مناقشة آراء العقلانيين علىٰ الكتاب والسنة، ومنهج أهل

السنة والجماعة . . لأنه هو الأسلم، وهو الأعلم والأحكم والحق الذي أدين الله، ويجب أن يدين به كل مسلم.

٦ - وقد ذكرت في تعريف المدرسة العقلية الحديثة، أن مقصودي بالعقلية هي تلك الاتجاهات التي مالت إلىٰ تقديم العقل علىٰ الوحي فيما لا مجال للعقل فيه وإلىٰ تجديد مناهج الدين، أو فصله عن الحياة والعلم وغير ذلك، وأنها فعلت ذلك في حين أنها تدَّعي الإسلام، وقد تتخذ شعارات إسلامية، وإن لم تخرج علَنًا علىٰ أصول الدين وأركانه علىٰ وجه العموم.

لذلك، فإن هناك فرقًا ومذاهب معاصرة، وقد تلتقي مع المدرسة العقلية الحديثة في كثير من آرائها، لكني لم ألتزم بحثها لأسباب تخرجها - في نظري - من حدود الموضوع، ومن التعريف الذي التزمته لهذه المدرسة، **وذلك مثل:**

أ - الفرق الكلامية القديمة القائمة إلىٰ الآن كالأشاعرة والماتريدية ونحوها.

ب - الرافضة والشيعة، فإنها وإن كانت فرقة لا تزال قائمة، ولها كيان إلا أنها لا تدخل في هذا البحث لأمور **أهمها**: أنها فرق قديمة في أصولها ومنهجها وتاريخها، فهي تدخل ضمن الفرق القديمة، كما أنها تأخذ بأصول الجهمية والمعتزلة مع بقائها علىٰ أصولها التي تخصها، ولأنها ليست عقلانية بالمفهوم المعاصر، فهي تقوم علىٰ قاعدة التبعية الدينية العمياء لشيوخها الذين تدَّعي لهم العصمة، كما أنها ملتزمة - علىٰ العموم - لمنهجها العقائدي والتشريعي، وضلالها، وانحرافها جاء من الغلو في آل البيت، والكذب عليهم واتباع الأهواء في تقرير اعتقاداتها، ولأمور أخرىٰ ليس هذا محل بحثها.

جـ - الخوارج المعاصرون فهم علىٰ مذهب المعتزلة والجهمية كذلك مع بقائهم علىٰ أصولهم.

د - المذاهب المعاصرة التي أخلت إخلالاً متعمداً بأركان الإسلام،

كالقاديانية لأنها أخلّت بركن الإسلام الثاني (شهادة أن محمداً رسول الله) واعتقدت بنُبُوَّةِ مؤسسها الميرزا غلام أحمد،[1] وعلى هذا فليست من فِرَق المسلمين. ومثلها البهائية والبابية.. لأنهما فرقتان باطنيتان، أو هما على الأصح فرقة واحدة.. تدعي نبوة الباب، والبهاء، ونزول الوحي عليهما من الله، وتنكر أسماء الله وصفاته، وتقوم على نسخ الشريعة الإسلامية، والعمل بشريعة وضعية إباحية،[2] وهما بهذا تخرجان من مسمى الإسلام كذلك كالقاديانية.

هـ - وإذا كان الأمر كذلك، فمن الأولى أن لا أتطرق بالتفصيل للأديان والملل والنحل والمذاهب، والمبادئ العالمية البعيدة عن الإسلامية، كاليهودية، والنصرانية، والبوذية.. ونحوها من الديانات، وكالشيوعية والرأسمالية، والوجودية، ونحوها من المذاهب والمبادئ، فإنها وإن كانت عقلانية بالمعنى العام، إلا أنها لا تدين بالإسلام، بل تعاديه.

و - يميل بعض الباحثين إلى إدخال الدراسات الاستشراقية في مجموعة الآراء العقلانية في الإسلام وهذا ليس بصحيح؛ لأنه صادر من أناس غير مسلمين، أهل كتاب أو مشركين، أو ملحدين، لا يمتون للإسلام بصلة بل هم من أعدائه وخصومه. والمدارس العقلانية في الغرب تشكل وحدة مستقلة لسنا بصدد

---

(١) راجع الكتب التالية:

١ - ما هي القاديانية - لأبي الأعلى المودودي ص٢١ - ٤٠.

٢ - القاديانية دراسة وتحليل - تأليف: ظهير إلهي من ص ١٦٠ - ١٩٨.

٣ - المذاهب المعاصرة للدكتور عبد الرحمن راتب عميرة ص٢٨٩ - ٢٩٣.

(٢) راجع الكتب التالية:

١ - حقيقة البابية والبهائية للدكتور محسن عبدالحميد ص٨١، ٩٣، ١١١، ١٥٣، ١٦٥، ١٨١، ٢٠١.

٢ - دراسة عن البهائية والبابية - مجموعة مقالات لمحب الدين الخطيب وغيره.

دراستها هنا. لكن المستشرقين لهم أثر كبير في المدرسة العقلية بين المسلمين، لذلك جعلت دراساتهم حول الإسلام من المؤثرات الأجنبية غير الإسلامية في توجيه العقلانيين، وإمدادهم بكثير من الأفكار والآراء الخاطئة حول الإسلام وعقيدته.

هذا وأسأل الله التوفيق والسداد..

* * * * *

رابعًا: مقام العقل ومكانته في الإسلام

قيمة العقل في الإسلام:

قد يتبادر لأذهان البعض عندما يقرأ مثل هذا البحث، في ذم الاتجاهات العقلية، أن الإسلام، يمقت العقل والفكر، أو يستنقص منهما ويهضمهما قيمتهما، وأننا إنما نذم أصحاب الاتجاهات والفرق العقلية لمجرد أنهم استعملوا عقولهم، التي وهبهم الله.

والحق: أن الأمر ليس كذلك؛ لأن الإسلام بحق قد رفع قيمة العقل وأعلى من شأنه، وجعل التعقل والتفكير من طرق المعرفة الإسلامية، يلزم كل مسلم أن يؤديها حقها، وجعل العقل هو مناط التكليف ووسيلة الفهم والتفكر، ونعى على أولئك الذين لم يستعملوا عقولهم في معرفة الحق والهداية، فهلكوا.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [١٠ - ١١: **الملك**].

وإذا كان العقل هو وسيلة النظر، ووسيلة التفكير والتدبر، فقد جعل الله ذلك كله واجبًا على كل إنسان، ومن تركه فهو آثم، قال تعالى:

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [٣٦: **النحل**].

وقد وردت في مواضع كثيرة.

وقال تعالى في ذمِّ الذين لا يعقلون: **﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾** [٨٠: **المؤمنون**].

وقد ورد هذا التوبيخ **﴿أفلا تعقلون﴾** في القرآن أكثر من أربع عشرة مرة.

وقال: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** [٢: **يوسف**].

وقد وردت في القرآن **﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** أكثر من سبع مرات.

وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ [٦٢: يس].

وقال: ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [٢٨: الروم].

وإذا كان العقل وسيلة النظر والاعتبار فقد قال تعالى: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ [٢: الحشر].

وقال: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [١٠١: يونس].

وكذلك الأمر بالتفكُّر، قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٢١٩: البقرة].

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٥٠: الأنعام].

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [١٨٤: الأعراف].

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ﴾ [٨: الروم].

وقد ذكر التفكر في القرآن أكثر من سبعة عشر موضعًا.

وقد ذم الله أولئك الذين يتابعون آباءهم دون تعقل ولا تفكير.

فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [١٧٠: البقرة].

وقال: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [٦٩ ـ ٧٠ الصافات].

والإسلام إنما كرَّم الإنسان وفضله على سائر المخلوقات بل جعله سيِّداً في هذا الكون بالعقل، وبالعقل سخَّر له ما في السموات وما في الأرض وجعله خليفةً فيها يعمرها.

فهل يبقى بعد ذلك شك عند أحد في أن الإسلام يحترم العقل ويقدره كل التقدير؟

ثم إن الإسلام عندما حظر على العقل التفكر في ذات الله تعالى وأسمائه

وصفاته، والخوض في أمور العقيدة وأمور الغيب، وألزمه بالتسليم والتوقف عند كل ما ورد عن الله تعالىٰ ورسوله ﷺ، مما يتعلق بذات الله وأسمائه وصفاته، وما يتعلق بالعقيدة وما يتعلق بالغيب كله ـ إنما فعل ذلك إشفاقًا علىٰ هذا العقل الكريم من العِمَايَةِ في متاهاتِ المجهول الذي لا طاقة للعقل بإدراكه.

ثم إنَّ الإسلامَ في الوقت نَفْسِهِ فتح للعقل البشري مجالات الانطلاق الواسع في حدود الواقع في حياته، وهو والمخلوقات من حوله، بل وفي الأرض كلها والسماء، وهذا الكون الرحب الواسع الفسيح.

فللعقل البشري أن يبدع، وأن ينظر ويَجْتَهِد ويحكم، وأن يتفكر ويعتبر ما وسعه الإبداع والنظر والاجتهاد والتفكر والاعتبار، عليه أن يفعل ذلك كله، وله مع ذلك عليه الأجر والمثوبة إذا هو امتثل أمر الله.

أما الغيب والتفكر في ذات الله، بأكثر مما ورد عن الله، فإنه ليس بمقدور العقل، وليس من وظيفته أن يفعل ذلك، وإن فعل ذلك خرج عن نطاق الواجب عليه، ولن يعود عليه فعله إلا بالحرج والعيِّ والعنت العقلي والنفسي، والخروج عن نطاق مصلحة الإنسان في معاشه ومعاده.

والعقلية الحديثة التي نحن بصدد دراستها في هذا البحث، هي التي دعت أتباعها إلىٰ الخوض في أمور الغيب ومعارضة أمر الله، ولم تسلِّم بما جاء عن الله تعالىٰ وعن رسوله ﷺ، مما هو خارج عن نطاق العقل، وأقحمته فيما لا طاقة له به. ونحن نذمها من هذا الوجه.

فإن مُقْتَضَىٰ الإيمان بالغيب: التسليم لله فيه، بما ورد في كتابه وسنة رسوله ﷺ.

والإنسان في هذا العصر ـ أكثر العصور تقدمًا في الكشوف والاختراعات ـ أعلن عجزه وقصوره عن إدراك أكثر حقائق الكون وكُنْهِ طاقاته، حتىٰ تلك

الأشياء التي يمارسها ويعيشها يوميّاً، بل إن العقل يجهل نفسه، ويجهل الروح التي تُمِدُّه بالحياة بأمر الله، قال تعالىٰ: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [٢١: الذاريات].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [٨٥: الإسراء].

فإكرامًا لهذا الإنسان، وإشفاقًا عليه، وعلىٰ عقله المحدود، من التشرد والتبدد والتيه، وإشفاقًا عليه بعد ذلك من الضلالة والهلاك، وسوء العاقبة، أراحه الله من الخوضِ في الغيب بعقله؛ فجاءه الوحي يخبره عما فيه صلاحه من أصول العقيدة السليمة، ومسائل الغيب، ورسم له سبيل الخير والسعادة في الدنيا، وأطلق لعقله فيما عدا ذلك الحرية بل أوجب عليه التفكر والنظر في خلق الله، وتسخيره فيما يرضي الله تعالىٰ.

فقد فتح الإسلام للعقل من مجالات البحث والفكر والتأمل والنظر في ملكوت السماء والأرض، ما يكفي لانشغال العقل، وإشباع رغبة التَّطلع والإنتاج المفطورة فيه.

ولم يكتف الإسلام بذلك، ولكنه جاء هاديًا ومرشدًا للعقل في أربع مسائل لا قدرة للعقل بها أو لا يستقل بإدراكها علىٰ التفصيل، وهي:

١ ـ الإيمان بالغيب عمومًا.

٢ ـ تقرير تفصيلات مسائل الأخلاق وما يكون منها خيراً وفضيلة وصلاح وما يكون شرّاً ورذيلة وفساداً، وإن كان العقل السليم قد يدرك إجماليات الأخلاق لكنه لا يحيط بها تفصيلاً.

٣ ـ مسائل التشريع والحلال والحرام، شرع الله الذي يكون علىٰ ما يرضي الله تعالىٰ وتسعد به الإنسانية.

٤ ـ القدر خيره وشره فهو سر الله في خلقه.

لأن العقل في هذه المسائل لا يمكنه البحث فيها مستقلاً بنفسه، ولأن العقول تتفاوت وتختلف حتمًا في مفهوم الأصلح والصالح وضدهما في هذه الأمور.

ثم لا ننسىٰ أنه عمليّاً أثبت التاريخ أن الإسلام هو الذي دفع العقل البشري إلىٰ النظر، والبحث والاستنتاج، وحرَّره من الخرافة والجمود والأوهام، فازدهرت الحضارة الإسلامية، وآتت ثمارها الطيبة، وأن تخلف المسلمين في العصور المتأخرة كان بسبب انحرافهم في الدين، وهيمنة البدع علىٰ عقولهم وأعمالهم.

وهل عرف الغربيون أن لهم عقولاً إلا حين تتلمذوا على المسلمين؟!

مما جعلهم يُفرِطون ويَغلُون في تقدير العقل والعلم، حتىٰ درجة العبادة والتقديس، مما كان له أسوأ الأثر علىٰ البشرية كلها، ولو اهتدوا إلىٰ منهج الإسلام المعتدل في تقدير العقل وتوجيهه لسعدت الإنسانية بهذا العلم.

* * * * *

الفصل الثاني

ويشتمل على:

* نبذة عن المدرسة العقلية القديمة في الإسلام.
* العلاقة بين المدرستين العقليتين القديمة والحديثة. مع الإشارة إلى بعض الفوارق بينهما.
* تاريخ الاتجاهات (المدرسة) العقلية الحديثة.
* أهم المؤثرات الأجنبية (غير الإسلامية) في المدرسة العقلية الحديثة.

* * * * *



المبحث الأول

نبذة عن المدرسة العقلية القديمة

يقال إنَّ أول شبهة واعتراض عقلي حدث مقابل أمر الله تعالى، ما وقع من إبليس(١) حين اعترض على أمر ربه عندما أمره بالسجود لآدم، فقال إبليس معترضًا وعاصيًا: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [٦١: الإسراء]. و ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [١٢: الأعراف].

وهكذا بأت بذور الشر؛ فقد جعل الله للشيطان على الإنسان سبيلاً، إلا عباد الله المؤمنين، وما زال الشيطان يَسْتفِزّ بني الإنسان بِخَيْلِه ورَجِلِه، ويشاركهم أموالهم وأولادهم ويعدهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا.

وقد بدأت الشبهات العقلية من الإنسان مع بداية حياته في الأرض، مقابل أمر الله ووحيه، كما حدث من قوم نوح حين بلغهم رسالة ربه فقالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [٦٠: الأعراف].

وقال الله عنهم: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [٢٧: هود].

وقوم صالح: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [٦٢: هود].

وقوم هود إذ قالوا له: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [٥٣: هود].

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني ـ حاشية على الفصل لابن حزم الجزء الأول ص١٥ طبعة محمد علي صبيح ـ القاهرة.

وهكذا وجد الانحراف في بعض أفراد البشرية، ونفورهم من دعوة التوحيد إلى الشرك والوثنية، ووقوفهم أمام التوجيهات والأوامر الإلهية التي جاءت بها الرسل؛ موقف المعارض المجادل الشاك في صحة صدورها عن الله، لذلك توالت النبوات في تلك الأمم، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [٢٤: فاطر]. وقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ [٤٤: المؤمنون]. وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً﴾ [٣٦: النحل]. وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ [٤٧: يونس].

وهكذا يتبين مما سبق أن دعوة التوحيد هي الأصل على امتداد التاريخ الإنساني كما أن الشرك والوثنية موغلة في القدم، لكن العقلية الحديثة تذهب إلى أن الشرك هو الأصل، وبداية التدين والتوحيد جاءت متأخرة، وهذا تَصَوُّر خاطئ كل الخطأ، وسنناقش هذه القضية في فصل قادم إن شاء الله.

ونجد أن أكثر الناس انحرافًا في استعمال العقل في غير مجاله، وجرأة على الله تعالى ورسله: هم بنو إسرائيل، الذين كان لهم أثر كبير في تحريف التوراة والإنجيل، وإضلال النصارى، ثم بَذْر الاتجاهات العقلية في الإسلام، كما سنرى.

أما عن نشأة الاتجاهات العقلية في الإسلام فإن هذا يتمثل في اتجاهين:

أحدهما: اعتراضات المشركين على الرسول ﷺ والرسالة والوحي والقرآن ومبادئ الإسلام. وقد تصدى لها القرآن وقضى عليها بشكل حاسم.

والثاني: شبهُ المنافقين ودسائسهم، داخل المجتمع الإسلامي الأول، والتي تعتبر بحق بذور الفرقة، والاتجاهات العقلية القديمة والحديثة في الإسلام، فقد عارضوا حكم الله ورسوله، وحَكَّموا عقولهم وأهواءهم ومصالحهم الشخصية، وجادلوا بالباطل حين نهوا عن الجدال وقد صور القرآن مماحكاتهم وأساليبهم في

ذلك، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [١٣: البقرة]. وقال: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ [١٥٤: آل عمران]. وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [٦٥: التوبة].

ومواقفهم مع رسول الله ﷺ في الحرب والسِّلم مستفيضة، تتمثل في زعيمهم عبدالله بن أبي ابن سلول، ومنهم «ذو الخويصرة» الذي قال رسول الله ﷺ عنه وعن حزبه حين اعترض على قسمة الغنائم بعد حنين: **«دعوه فإنه سيكون له شيعة يَتَعَمَّقُونَ في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية»** الحديث، وذكره ابن كثير في السيرة[١]، ورواه مسلم والبخاري وغيرهما[٢].

ولحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، والمنافقون بين ظهراني المسلمين: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [٩: البقرة].

يعملون في صفوف المسلمين من الداخل بإشاعة الشُّبه والتفريق بين المؤمنين، وما زال أمرهم غير ظاهر حتى جاء ابن السوداء - يهودي أظهر الإسلام في خلافة عثمان رضي الله عنه - عبدالله بن سبأ، فتجرأ لإظهار شبهات ومقولات فَرَّقت المسلمين، وجرأت المنافقين، فرفعوا رؤوسهم ظاهرين وأشعلوا الفتنة بين المسلمين.

فأخذ ابن السوداء هذا يؤلب على عثمان رضي الله عنه، ثم أظهر القول بوصية الرسول ﷺ بإمامة عليّ وذريته[٣].

وبذلك استخف قومًا حديثي عهد بكفر، وآخرين في قلوبهم مرض،

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن كثير جـ٣، ص٦٨٧، طبعة ١٣٩٣ تحقيق مصطفى عبدالواحد.

(٢) راجع صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث رقم: ١٤٣.

(٣) راجع تاريخ الفرق الإسلامية لعلي الغزالي ص١٧ مع الحاشية.

فبدأت بدعة التشيع والرفض[(١)].

وأسفرت جهود الكائدين والمنافقين عن الفتنة المشهورة بين الصحابة رضي الله عنهم والتي أسفرت أيضًا عن خروج أول الفرق **(الخوارج والشيعة)**، **فالأولى** تُكفِّر عليّاً والحكمين رضي الله عنهم[(٢)]، وتكُفِّر صاحب الكبيرة[(٣)]، **والثانية** على العكس من ذلك؛ فتغلو في عليّ رضي الله عنه حتى التقديس، وتحط من شأن باقي الصحابة والخلفاء الراشدين، حتى الرفض والسب المشين[(٤)]، ذلك أنهم جعلوا عقولهم وأهواءهم موازينَ للحق، بها يخفضون وبها يرفعون، ويُخضِعون لها النصوص الثابتة عن الله ورسوله، ويضربون آيات الله بعضها ببعض، فما وافق هواهم استدلوا به، وما خالفها رفضوه أو حَرَّفُوه، وانفَتَح بذلك بابُ الجرأة العقلية، وإظهار البدع والآراء الشاذة، والشُّبه في العقيدة والدين حتى ظهر القول بالقدر، وقال به معبد الجهني ثم غيلان الدمشقي، وقد أخذاها عن أبي يونس أو (سوسن) النصراني، وكانت امتداداً للأفكار النصرانية، واليهودية الموروثة عن اليونان، واشتهرت آراء غيلان الدمشقي العقلية حول نفي الصفات، وأن العبد قادر على خلق أفعاله، وأن الإيمان معرفة وقول فقط، وأن القرآن مخلوق[(٥)].

ثم تلقى هذه الأفكار أوائل الجهمية: الجَعْدُ بنُ دِرْهَم، والجَهْمُ بنُ صَفْوان،

---

(١) راجع فتاوى ابن تيمية ـ مجلد (٤) ص١٠٢.

(٢) الحكمان هما أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص رضي الله عنهما.

راجع مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري جزء (٢) ص١٤١ الطبعة الثانية.

(٣) راجع شرح الطحاوية ص٣١٧، والفتاوى لشيخ الإسلام ١٩/ ٨٩ ـ ٩٢، والطبري، ص/ ٧٩ ـ ١١٣.

(٤) راجع شرح الطحاوية ٤١٤، ٤١٨، ٤٣٨، ٤١٩ والفتاوى ٤/ ١٨.

(٥) راجع تاريخ الفرق الإسلامية ـ لعلي مصطفى الغرابي ـ ص٣٣، ٣٤.

عن الزنادقة والفلاسفة واليهود والنصارىٰ، وعن مَعْبَد وغَيْلان، وغيرهما[١].

فقد قال الجعد بن درهم بخلق القرآن، وأظهر التعطيل وأن الله لم يُكلِّم موسىٰ تَكْلِيما، ولم يتخذ إبراهيم خليلا[٢]. أما الجهم بن صفوان فقد أوَّل آيات الصفات وأنكرها، ونفىٰ أن تكون لله صفات غير ذاته، كما نفىٰ الرؤية لله تعالىٰ يوم القيامة وقال بخلق القرآن أيضًا[٣] ثم تابعه عمرو بن عبيد المعتزلي فيما بعد[٤].

واستمر الأمرُ علىٰ هذا الحال طيلة القرن الأول، وأول القرن الثاني، ولم يستفحل فيه أمر الفرق بل كان أصحاب هذه الآراء يُطَارَدُون ويُشَرَّدُون ويُقَتَّلُون، ولم تكن لهم أصول شاملة مُقَعَّدَة، حتىٰ جاءت المعتزلة مع بداية القرن الثاني الهجري.

وحيث إني ـ في مثل هذا البحث ـ لا أستطيع أن أستوفي الكلام عن الفرق العقلية التي ظهرت في المجتمع الإسلامي الأول، رأيت أن أقصر الكلام علىٰ المعتزلة لأنها تمثل ـ بحق ـ المدرسة العقلية القديمة أوضح تمثيل، فلها أصولها وقواعدها، وآراؤها الشاملة لجميع مسائل العقيدة وأصول الدين وفروعه، وقد استوعبت أهم آراء الفرق التي سبقتها مثل القدرية والجهمية والمعطلة، كما أن الفرق الكلامية التي لحقتها إنما كانت عالَة عليها، ثم إنها أجرأ الفرق في إعلان آرائها العقلية، وهي أول فرقة رفعت شعار الحرية للعقل وتقديسه، وتقديمه علىٰ النص دون مواربة أو التواء، وعلىٰ هذا سأقصر القول عليها في هذا البحث، رغبة في الإيجاز والوضوح **فأقول:**

بدأت حركة الاعتزال، في أوائل المائة الثانية للهجرة، عندما أثيرت في

---

(١) راجع ذم الكلام للهروي ٤٣٧، وبيان تلبيس الجهمية لشيخ الإسلام ١/ ٢٥٤، ٢٥٥، والفتاوىٰ ٢/ ٢٦٣.

(٢) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية جـ١٢ ص٣٠١، ٣٢٠، ٣٢١، ٥٠٤.

(٣) راجع الرد علىٰ الجهمية والزنادقة لأحمد بن حنبل، تعليق وتحقيق الدكتور عبدالرحمن عميرة ص١٠٣، ١٠٤.

(٤) المصدر السابق ص١٠٤.

مجلس الحسن البصري المسألة المشهورة، مسألة مرتكب الكبيرة، إذ قال الحسن: بأنَّه فاسق، فانبرىٰ واصل بن عطاء وقال: بأنه في المنزلة بين المنزلتين، ثم قام إلىٰ سارية في المسجد، وانضم إليه تلاميذ وأخذ ينشر عقيدته في هذه المسألة وغيرها، فقال الحسن: اعتزلنا واصل، فسُمُّوا المُعْتَزِلَة[١]، ورجَّح الباحثون أن هذه الحادثة وقعت ما بين سنة ١٠٠ ـ ١١٠ هجري[٢]، وكثر تلاميذ واصل، وانضم إليه عمرو ابن عبيد[٣]، حتىٰ شكلوا مذهبًا (فرقة) لجأ إليه الشعوبيون والزنادقة، وأصحاب الملل والنحل المغلوبة، والمنافقون، والذين في قلوبهم مرض أو حقد علىٰ الإسلام، تحسبًا للكيد له، ولنفث سمومهم وانحرافاتهم حتىٰ شكَّلوا بذلك جبهة موحدة، لمواجهة العقيدة الإسلامية الصافية، التي يمثلها أهل السنة والجماعة.

وقد أثبت كثير من المحققين: بأن المعتزلة استمدوا بعض أصول أفكارهم من مصادر غير إسلامية، باتصالهم بكتب الفلاسفة وأهل الكلام، من اليونان والصابئة والمجوس والهنود وأهل الكتاب ونحوهم، وأنها امتداد لما كان ينادي به غيلان الدمشقي، ومعبد الجهني، والجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، كما أنهم اتصلوا بالصابئة والفلاسفة من أهل حران، عن طريق الجعد وغيره[٤].

واستمد هؤلاء فكرة التعطيل ونفي الصفات عن لبيد بن الأعصم اليهودي، الذي سحر النبي ﷺ[٥].

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني ص٧٢، حاشية الفصل جزء ١ وانظر أيضًا شرح الطحاوية تحقيق أحمد شاكر ص٤٦٨.

(٢) راجع (المعتزلة) لزهدي حسن جار الله ص١٢.

(٣) راجع شرح الطحاوية تحقيق أحمد شاكر ص٤٦٨.

(٤) راجع شرح الطحاوية تحقيق أحمد شاكر ص٤٦٩، ٤٧٠ ـ والمعتزلة لزهدي حسن جار الله ص٢٢، ٢٣ ومجموع الفتاوىٰ لابن تيمية جـ١٢، ص٣٠١، ٤٢٠. و جـ١٣ ص١٨٢ ـ ١٨٤.

(٥) المصادر السابقة، وراجع شرح الطحاوية ص٤٧٠.

وقد أخذ الجعد ـ أحد أساتذتهم ـ فكرة خلق القرآن عن طالوت الزنديق تلميذ لبيد الأعصم، وقد صَنَّفَ طالوت هذا كتابًا في خلق القرآن[١].

كما تتلمذوا ـ أي المعتزلة ـ على بشر المريسي، وكان أبوه يهودياً، وقد قال بشرٌ بخلق القرآن، [٢] وقال بهذه البدعة أيضًا المغيرة بن سعيد العجلي من أتباع
عبدالله بن سبأ اليهودي[٣].

وبهذا نعرف بأن بدعة القول بخلق القرآن، التي تبناها المعتزلة عقيدة يهودية، جاءت عن اليهود من أكثر من طريق، ثم تبناها كل من الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، وهما من أساتذة المعتزلة كما مرّ.

وقد استمد المعتزلة ـ كذلك ـ من النصارى بعض البدع، فأخذوا عن غيلان الدمشقي عن يحيى (يوحنا) الدمشقي ـ النصراني ـ بدعة القول بالقدر، وخلق الإنسان لأفعاله، وأن الله تعالى لا يقدر على فعل الشَّر (القبيح) كما تلقوا هذه البِدَع نفسها عن طريق معبد الجهني، والذي تلقاها أيضًا من أبي يونس النصراني، [٤] ومثلها بدعة القول بالمنزلة بين المنزلتين، إنما ظهرت أول ما ظهرت عن يحيى (يوحنا) الدمشقي وأبي قرة النصرانيين[٥]، ثم بقيت مغمورة حتى قال بها واصل بن عطاء المعتزلي وأشهرها وتبعه عليها عمرو بن عبيد.

كذلك بدعة الصلاح والأصلح، ونفي الصفات، إنما جاءت عن النصارى وقال بها المعتزلة عنهم[٦].

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) راجع مجموع فتاوى ابن تيمية جـ٥ ص٢٢ ـ ٢٣، ٣٤٩ ـ ٣٥٢.

(٣) راجع المعتزلة، لزهدي حسن جار الله ص٢٢، ٢٣.

(٤) المصدر السابق ص٢٦.

(٥) المصدر السابق ص٢٧ ـ ٢٩.

(٦) المصدر السابق ص٢٧ ـ ٢٩.

وهكذا . . فالمقام لا يتسع لسرد واستعراض جميع الأفكار التي جاء بها المعتزلة، واستمدوها من الأديان والملل والفلسفات الأجنبية، فقد أثبت الباحثون المحققون أن أهم أسباب ظهور الفرق المنحرفة في الإسلام ـ وعلىٰ رأسها المعتزلة ـ إنما جاء عن طريق أتباع الأديان والفلسفات والحضارات الأخرىٰ التي دخلت ضمن الإطار الجغرافي للدولة الإسلامية بعد الفتوح[(١)].

ويخطئ القائلون بأن أصول الفِرق المُنحرفة، كالقدرية، أو الشيعة، أو المعتزلة ونحوها، إنما كانت أصولاً إسلامية، ثم انحرفت، والصحيح أن بذور هذه الفرقة كانت بذوراً غير إسلامية، يهودية أو نصرانية، أو وثنية أو غيرها من الملل والنحل، ثم اصطبغت بالصبغة الإسلامية لمعايشة التيار الإسلامي المهيمن علىٰ الحياة، ثم لم تلبث أن ظهرت جلية بأغلفة وقوالب ظاهرها الإسلام، وباطنها الكفر والضلال فانخدع بها بعض المسلمين، وأكبر دليل علىٰ ذلك أنك لا تجد أصلاً من أصول هذه الفرق إلا وهو موجود في بعض الملل والأديان؛ لقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم..**» الحديث[(٢)] وقوله: «**لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ الفروق..**» الحديث[(٣)].

المهم: أن المعتزلة نتيجة اتجاهها العقلاني، وقعت في أخطاء وانحرافات جذرية، جعلتها تنحو بعيداً عن العقيدة الإسلامية الصافية، كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ونحاول أن نلخص أهم المبادئ والأصول العقلانية التي انحرفت بها المعتزلة علىٰ الخصوص، والفرق الكلامية الأخرىٰ علىٰ وجه العموم فمنها:

١ ـ تقديم العَقْل على النَّصّ (السَّمْع) وتحكيم عقولهم في كلام الله وسنة

---

(١) راجع المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ص٢١٧، ٢١٨.

(٢) أخرجه البخاري، رقم (٧٣٢٠)، ومسلم، رقم (٢٦٦٩).

(٣) أخرجه البخاري، رقم (٧٣١٩).

رسوله ﷺ الصحيحة، فما وافق عقولهم قبلوه، وما خالفها حرفوه، أو ردّوه، وإن كان قطعيّاً، فقد رتبوا مصادر التلقي وأصول الاستدلال كالتالي، كما ورد في شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (المعتزلي):

«أن الدلالة أربعة، حجة العقل، والكتاب، والسنة، والإجماع»[1]، فقدم حجة العقل على الكتاب والسنة والإجماع، وجاء في الكتاب نفسه في الرد على أهل السنة المثبتين للصفات كالعلم والقدرة قوله: «وربما يستدلون (يعني المثبتين للصفات) بالسمع على إثبات القدرة لله تعالى فيقولون: إنه تعالى قال: ﴿**والسماء بنيناها بأيد**﴾ أي بقوة. وقال: ﴿**هو أشد منهم قوة**﴾. والأصل في الجواب عن ذلك أن الاستدلال بالسمع على هذه المسألة غير ممكن؛ لأنّ صحة السمع تنبني على كونه عدلاً حكماً»[2] وهذا مُنْحَرَفٌ خطير.. إذ كيف تجرأ على القول بأن الاستدلال على علم الله وقدرته بالسمع غير ممكن؟! سبحان الله! فالسمع هو خبر الله عن نفسه؟ وثبوته قطعي بإجماعهم مع المسلمين، لكنهم جعلوا لمذهبهم قواعد عقلية وعرضوا القرآن عليها فما لم يوافقها منه حرفوه أو تجاهلوه.

ثم إذا لم يكن السمع ـ وهو كلام الله وما صح عن رسول الله ـ هو العدل الحكم ممن يكون عدلاً حكماً!؟ تعالى الله ﴿**إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾.

ولقد شخص ابن تيمية رحمه الله هذا الانحراف عندهم وعند غيرهم من أصحاب الاتجاهات العقلية فقال: «وإنما عمدة الكلام عندهم ومعظمه هو تلك القضايا التي يسمونها العقليات وهي أصول دينهم، وقد بنوها على مقاييس تستلزم رد كثير مما جاءت به السنة الصحيحة فلحقهم الذم من جهة ضعف

---

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص٨٨، تحقيق د. عبدالكريم عثمان.

(٢) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص٢١١ ـ ٢١٢.

المقاييس التي بنوا عليها، ومن جهة ردهم لما جاءت به السُّنة[١].

وفي استدلالهم علىٰ خلق الإنسان لأفعاله بزعمهم قالوا: «والاستدلال علىٰ هذه المسألة بالسمع متعذر»[٢].

قلت: ولماذا هو متعذر والله تعالىٰ يقول: ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾ ويقول سبحانه: ﴿**الله خالق كل شيء**﴾؟

٢ ـ القول بأنه لا حاجة في معرفة الله تعالى وأسمائه إلى السمع، فالعقل يستقل في زعمهم بالعلم بالله تعالىٰ، ومعرفة أسمائه فقالوا: «معرفة الله تعالىٰ لا تنال إلا بحجة العقل»[٣] وقد تحجروا واسعًا حين قالوا: «العلم بالله تعالىٰ ليس ضروريّاً وإنما هو اكتسابي»[٤] وهم بهذا ينكرون معرفة الله بالسمع، والضرورة والفطرة، ويقصرون المعرفة بالله تعالىٰ علىٰ النظر العقلي[٥]. مع العلم أنَّ عامة المسلمين وعامة المؤمنين بالرسل إنما يعرفون الله وكماله إجمالاً بالعقل والفطرة، أما تفاصيل الأخبار عن الله تعالىٰ بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وسائر الغيبيات فلا تدرك إلا عن طريق السمع، وليس عند عوام المسلمين أهلية وقدرة علىٰ النظر العقلي كالعلماء والمفكرين، فهل يخرجونهم من الإيمان بالله؟ لا يمكن ذلك. **والمعتزلة** يرون أنه لا يمكن معرفة أسماء الله تعالىٰ، وكونه موجوداً وقادراً وحيّاً وسميعًا وبصيرًا.. إلخ، إلا بالنظر في الحوادث والمخلوقات وأنه يجب علىٰ المكلف النظر العقلي حتىٰ يتوصل بذلك إلىٰ معرفة أسماء الله تعالىٰ[٦]، ولا يكفيهم وروده بالسمع عن الله تعالىٰ

---

(١) الفتاوىٰ لابن تيمية، جمع وتحقيق ابن قاسم المجلد٢ ص٧.

(٢) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص٣٥٥.

(٣) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص٥٢.

(٤) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص٥٢.

(٥) المصدر السابق ص٤٥ وقد فصل شرح هذه المسألة من ص ٤٠ إلىٰ ٦٣.

(٦) المصدر السابق ص٦٥ ـ ٦٦.

ورسوله بالوحي الصادق! ولا شك أن هذا انتكاس بالمفاهيم.

٣ ـ الحكم على الله تعالى بما لا يليق بجلاله، بمحض العقل البشري القاصر وإنكار الصفات الثابتة لله تعالى بالسمع، فقد وردت عن المعتزلة عبارات وأحكام عقلية فيها جرأة وتطاول على الله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته، وقد وصل بهم الحال ـ بسبب اتجاههم العقلي ـ إلى القول بأنه يجب على الله: أن يفعل كذا، ولا يجوز أن يفعل كذا ولا يقدر على كذا، ولا يستطيع كذا[١]، ويقبح منه كذا، . . إلخ من العبارات كما سيأتي.

فإنه نتيجة لتقديمهم العقل على كلام الله وكلام رسول الله توصلوا إلى نفي صفات الله تعالى التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ، واصطنعوا لذلك حججًا عقلية، فنفوا أن يكون لله علم، أو قدرة، أو حياة، أو سمع، أو بصر، أو كلام[٢]. . إلخ الصفات، وحين قيدوا أسماء الله وصفاته بالعقلية: جعلوا الإنسان

خالقًا مع الله؛ فزعموا أن الله تعالى: «قادر على كل ما هو مقدور له، وأما نفس أفعال العباد فلا يقدر (أي الله تعالى) عليها عندهم[٣].

وقالوا: «إنه تعالى إذا علم أن صلاحنا في بعثة الرسل وأن نتعبد بالشريعة وجب أن يبعث ونتعبد، ومن العدل ألا يُخِلّ بما هو واجب عليه»[٤].

---

(١) راجع شرح الأصول الخمسة ص١٢٣، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٧، ٣٤٥، ٣٤٥، ٦٤٥، ٦٤٧ وراجع المعتزلة ص٩٨ ـ ٩٩ ـ ١٠٠ والفرق بين الفرق ص٩٣ ـ ١١٦ ـ ١٦٩ وشرح الطحاوية ص٤٦٨.

(٢) راجع الفرق بين الفرق للبغدادي ص٩٣ ـ ٩٤ وشرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٣) شرح الطحاوية ص٧٥ تحقيق أحمد شاكر طبعة الرياض، وشرح الأصول والفرق بين الفرق ص٩٤.

(٤) شرح الأصول الخمسة ص١٢٣.

وقولهم: «وكذلك الوعد والوعيد داخل في العدل؛ لأنه كلام في أنه تعالىٰ إذا وعد المطيعين بالثواب، وتوعد العصاة بالعقاب فلا بد من أن يفعل ولا يخل في وعده ولا وعيده»[١].

وهكذا يشعر القارئ وهو يستعرض نصوصهم وكأنهم يضعون لله تعالىٰ صلاحيات وواجبات، وكأنهم المسيطرون علىٰ ملك الله وحكمه، ولو أن أحدهم وضع هذه الأحكام لملك من ملوك الدنيا، لما قال هذه العبارات في حقه تأدبًا، فكيف وهي في حق الله؟ تعالىٰ الله عما يقولون علوّاً كبيراً.

وهكذا إنما أركستهم عقولهم التي اعتمدوا عليها، وتَنَكَّبُوا كلام الله، ولم تقف بهم جرأتهم إلىٰ هذا الحد، بل تجرأوا بعقولهم القاصرة إلىٰ ما هو أشنع وهذه نبذة عن مقولاتهم:

قال صاحب شرح الأصول الخمسة في معرض كلامه عن النبوة ووجه اتصالها بالعدل: «ووجه اتصال (أي الكلام بالنبوات) بباب العدل هو أنه كلام في أنه تعالىٰ إذا علم أنَّ صلاحنا يتعلق بهذه الشرعيات فلا بد أن يعرفنا لكيلا يكون مخلاًّ بما هو واجب عليه»[٢].

وقال في بعث الله للرسول وتأييده بالمعجزات: «ولا يجوز له (أي الله تعالىٰ) الإخلال به»[٣].

والبغدادية من المعتزلة: «أوجبت علىٰ الله تعالىٰ أن يفعل بالعصاة ما

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص١٢٣.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص٥٦٣.

(٣) شرح الأصول الخمسة ص٥٦٤.

يستحقون لا محالة»[1].

وقال النَّظَّام (من المعتزلة): بأن «الله لا يستطيع أن يفعل الشر ولا يقدر أن يظلم أحدًا أصلاً»[2]، وأكثر المعتزلة خالفوه في هذا.

وقال بعضهم بأن الله تعالىٰ لا يقدر «علىٰ أن يترك الأصلح لما ليس بأصلح»[3].

وقالو: «يجب علىٰ الله ألا يختار القبيح بوجه من الوجوه»[4].

وقالوا: «إن العقاب إذا كان لطفًا للمكلف فلا بد من أن يعرفه الله تعالىٰ أنه يفعله به وإلا كان مخلاً بما وجب عليه»[5].

وقالوا: «واجب علىٰ الله تعالىٰ أن يخلق الخلق؛ لأن خلقهم فيه نفع لهم وصلاح»[6]. وهكذا بكل جرأة وسوء أدب يتحدثون عن الله تعالىٰ وأفعاله وصفاته كما يتحدث أحدهم عمن لايستحق الاحترام.

ويبدو أن من أكثر المعتزلة تطاولاً وجرأة علىٰ الله (النَّظَّام) فمن عباراته: أن الله عز وجل: «لا يقدر أن يفعل بعباده خلاف ما فيه صلاحهم، ولا يقدر علىٰ أن ينقص من نعيم أهل الجنة ذرة؛ لأن نعيمهم صلاح لهم والنقصان فيما فيه صلاح ظلم لهم عنده ولا يقدر أن يزيد في عذاب أهل النار ذرة، ولا علىٰ أن ينقص من عذابهم شيئًا»[7].

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص٦٤٥.

(٢) الفرق بين الفرق ص١١٥ ـ ١١٦، والمعتزلة لزهدي حسين ص٩٨ ـ٩٩.

(٣) حاشية شرح الأصول الخمسة لعبد الكريم عثمان ص٣١٣.

(٤) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص٣١٧.

(٥) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص٦٤٧.

(٦) كتاب (المعتزلة) زهدي حسن جار الله ص١٠٣.

(٧) عن الفرق بين الفرق ص١١٦.

وزعم أيضًا «أن الله تعالىٰ لا يقدر أن يخرج أحدًا من أهل الجنة عنها ولا يقدر علىٰ أن يلقي في النار من ليس من أهل النار، وقال: لو وقف طفل علىٰ شفير جهنم لم يكن الله قادرًا علىٰ إلقائه فيها وقدر الطِّفل علىٰ إلقاء نفسه فيها وقدرت الزبانية أيضًا علىٰ إلقائه فيها»(١) إلخ. تعالىٰ الله وتقدس عما يقوله الظالمون!

وهكذا أطلقوا لعقولهم العنان، في حين أن الإنسان بعقله لم يدرك نفسه، وروحه وعقله وضميره، فكيف يجرؤ بقصوره وقدرته الضئيلة المحدودة في الزمان والمكان، والطاقة والإمكانيات، علىٰ الخوض بالغيب، دون علم من الله، بل يرد ويعارض ما جاء عن الله تعالىٰ ورسوله المعصوم؟ سبحان الله!

٤ ـ **إثبات خالق مع الله بقولهم:** «إن الله تعالىٰ لا يجوز أن يكون خالقًا لأفعال العباد»(٢) وأن «أفعال العباد غير مخلوقة فيهم وأنهم المحدثون لها(٣)» وأغلقوا باب

الهداية علىٰ أنفسهم في هذه المسألة بقولهم: «والاستدلال بالسمع علىٰ هذه المسألة (خلق أفعال العباد) متعذر(٤)» وجنوا ثمرة هذه العقلية، بإثبات خالق مع الله، وهو الإنسان الذي يخلق أفعاله، فوقعوا في شر مما فروا منه، حيث فروا من كلام الله في إثباته قَدَرِهِ في الخير والشر إلىٰ أحكام عقولهم، فوكلهم الله إليها وبئس البديل.

فقالوا: «أفعال العباد لا يجوز أن توصف بأنها من الله تعالىٰ ومن عنده ومن قبله»(٥) كذا بهذا التأكيد! وهذه مقولة المجوس الثانوية الذي يزعمون أن مع الله خالقًا آخر تعالىٰ الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

---

(١) عن الفرق بين الفرق ص١١٦.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص٣٤٥.

(٣) شرح الأصول الخمسة ص٣٢٣، وانظر الفرق بين الفرق للبغدادي ص٩٤.

(٤) شرح الأصول الخمسة ص٣٥٥.

(٥) شرح الأصول الخمسة ص٧٧٨.

٥ ـ تكذيب ما ورد في السنة الصحيحة؛ إذا خالف رأيهم، والطعن في بعض الصحابة، رواة الحديث، وتحريف القرآن إذا جاء النص فيما يخالف عقلياتهم، وهذا يتضح في نفيهم صفات الله، مثل الكلام، والقدرة والإرادة، والمشيئة.. إلخ.

وحيث إن استعراض هذا الموضوع يطول؛ لأنه يشمل غالب أصولهم، فسأكتفي بمثلين يدلان على تأويلهم للقرآن وإنكارهم للسنة:

أحدهما: نفي رؤية المؤمنين لله تعالى يوم القيامة فقد وردت في القرآن[١] بآيات صحيحة صريحة مثل قوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [٢٢ ـ ٢٣: **القيامة**] وكقوله تعالى: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ**﴾ [٢٦: **يونس**]. وقد صح عن النبي ﷺ تفسير الزيادة بأنها الرؤية كما ورد في السنة الصحيحة في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد في مسنده وهو قوله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم عيانا، كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته**»[٢].

ومع هذا ردوه؛ لأنه يخالف أصولهم العقلية، فقال القاضي عبدالجبار في هذا الحديث: «فيجب أن نقطع أنه كذب على النبي ﷺ وأنه لم يقله، وإن قاله فإنه قاله حكاية عن قوم»[٣] مع العلم أن الأحاديث الواردة في الرؤية معلومة
الصحة بطرق روايات كثيرة في الصحيحين والسنن والمسانيد وبأسانيد صحيحة[٤] متواترة رويت عن أكثر من ثلاثين صحابيّاً ورواها عنهم ما لا يحصون.

الثاني: الشفاعة من الرسول ﷺ، لأهل الكبائر من أمته، فقد ثبت في السنة

---

(١) انظر الرد على الجهمية والزنادقة لأحمد بن حنبل، تحقيق عبدالرحمن عميرة ص١٢٧.

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة**﴾ ومسلم في كتاب المساجد، باب فضل صلاة الصبح والعصر رقم: ٢١١.

(٣) شرح الأصول الخمسة ص٢٦٨.

(٤) انظر شرح الطحاوية ص١٣٤ تحقيق أحمد شاكر.

الصحيحة المتواترة، أنه ﷺ يشفع لأهل الكبائر من أمته ممن دخل النار فيخرجون منها، في أحاديث رواها البخاري ومسلم، وغيرهما من أصحاب السنن والمسانيد[1].

وقد أنكرت المعتزلة والخوارج هذه الشفاعة رغم تواترها،[2] لأنها لا توافق أصولهم العقلية.

٦ ـ **ابتداع أصول ومبادئ في العقيدة** لم ترد عن الله تعالى، ولم تثبت عن رسوله ﷺ.

منها: قولهم إن أصول الإيمان والعقيدة خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3]، مع العلم أن ما ورد عن رسول الله ﷺ في السنّة الصحيحة، وأجمعت عليه الأمة، أن أركان الإيمان هي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

وأركان الإسلام هي: شهادة ـ ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، كما ورد في حديث جبريل المشهور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لايرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه**

(١) انظر شرح الطحاوية ص١٧٨ ـ ١٨٠ تحقيق أحمد شاكر.

(٢) انظر شرح الطحاوية ص١٧٨ ـ ١٨٠ تحقيق أحمد شاكر.

(٣) شرح الأصول الخمسة ص١٢٣.

سبيلا» قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»** قال: صدقت.. إلخ الحديث.

وهذا نص رواية مسلم وقد رواه الترمذي وأبو داود والنسائي، والبخاري ومسلم بطرق أخرى أيضًا عن أبي هريرة وأبي ذر - راجع صحيح مسلم، كتاب الإيمان، الحديث الأول، وصحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ.

ومن أصولهم المبتدعة:

زعمهم بأن القرآن مخلوق[١] متابعة للجهم[٢].

وابتداع أسماء لله لم يرد بها الشرع مثل أنه «مدرك للمدركات»[٣].

وتسميته تعالى (القديم)[٤]، والله تعالى سمى نفسه (الأول)[٥]. وضربهم لله الأمثال وقياسهم له على مخلوقاته ومشاهداتهم في حياتهم، لذلك سماهم أهل السنة: مشبّهة الأفعال.

وقولهم: حي لا بحياة عالم لا بعلم قادر لا بقدرة[٦]. كل هذه أحكام عقلية لا طاقة لهم بها، ولا يعلم بها إلا الله.

ولم يترك المعتزلة أصلاً من أصول العقيدة إلا خاضوا فيه بعقولهم وأحدثوا

---

(١) انظر ص ٩٤ الفرق بين الفرق للبغدادي.

(٢) راجع الرد على الجهمية والزنادقة لأحمد بن حنبل، تحقيق د. عبدالرحمن عميرة ص١١٥ وما بعدها.

(٣) شرح الأصول الخمسة ص١٦٨ - ١٧٠.

(٤) المصدر السابق ص١٨١.

(٥) قال تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③﴾ [٣: الحديد].

(٦) راجع الرسالة التدمرية - لابن تيمية - ص١٢.

فيه مقولات فلسفية وكلامية تخرجه عن الطريق الشرعي، الذي جاءت به الأنبياء، وقد شملت تحريفاتهم كل مسائل العقيدة، وقضايا الغيب والشهادة، من العلم بالله والوحي والقرآن والرسالة والنبوة والأنبياء والملائكة والجن والشياطين والآخرة والبعث والجنة والنار والجزاء والحساب والبرزخ، والحلال والحرام، والحدود، والمعجزات والكرامات، والعبادات، والأحكام، . . إلخ. كل هذه الأمور، وغيرها: بحثوها من خلال عقلياتهم، وجُلُّ أحكامهم ـ خاصة في أمور الغيب ـ تخالف وتخرج عما جاء عن الله ورسوله.

وأخيرًا: تمخضت المعتزلة عن عشرين فرقة[1] كل واحدة تكفر الأخرىٰ، وقد أجهزت هي علىٰ نفسها بأيديها، وأيدي المؤمنين ـ من أهل السنّة ـ حين أرادت أن تفرض أصولها بقوة السيف، وسلطة الدولة، في عهد المأمون والمعتصم والواثق، مع أنها كانت ترفع شعار حرية الفكر! فكانت أول فرقة حجرت علىٰ حرية الفكر بالقمع والتهديد، والسجن والتعذيب، والقتل والنفي، فيا لها من عقلية تلك التي تهين العلماء، والمفكرين والصالحين، من عباد الله المشهود لهم بالفضل! إنها عقلية المعتزلة «**المفكرين الأحرار!**» كما يزعم أصحاب العقلية الحديثة فيما سنذكره بعد إن شاء الله.

ولا يهمنا ـ في هذا البحث ـ تصفية الحساب مع المعتزلة، فقد صفاها التاريخ[*]، لكن لنا كلمة، وللعقليين المحدثين اعتراض يناسب موضوع البحث فقد يتساءلون بقولهم: ألم يكن للمعتزلة دور إيجابي في الدفاع عن الإسلام؟

وأقول: في الحقيقة لقد كان للمعتزلة بعض الجهود في الدفاع عن الإسلام

(١) راجع الفرق بين الفرق ص٩٣.

(*) أقصد بذلك سقوط اعتبارها وهيمنتها وكيانها والحكم بافتراقها، أما عقائدها ومقولاتها فلا تزال في كثير من الفرق كالرافضة والخوارج، كما أنها بدأت يظهر لها كيانات جديدة في الاتجاهات العقلانية والعصرانية، وشعارات التجديد المعاصرة.

وإلزام بعض خصومه الكافرين ـ من مجوس ويهود ونصارىٰ وصابئة وزنادقة وسمنية وغيرهم ـ الحجة . وكانت لهم بهذا الصدد مواقف مشهورة ، في الرد علىٰ شبهاتهم وإيقافهم عند حدودهم ، واشتهر منهم مجادلون مشاهير ، في المناظرات عرفوا بقوة الحجة والبيان . . لكن كان ذلك كله علىٰ منهج الفلاسفة والمتكلمين ، وعلىٰ غير سبيل السنة .

وهذا الدور الإيجابي من هذه الزاوية كانت له سلبيات خطيرة من نواحٍ أخرىٰ ، ذلك أنهم فعلاً أدخلوا بعض الأفراد في الإسلام ، وأسكتوا بعض الخصوم وكفّوا شرهم ، وقطعوا شبهاتهم ، لكن ذلك مقابل أضرار أخرىٰ لحقت بالمسلمين والإسلام ، من جراء هذا النصر الذي حالفهم ، منها :

أ ـ الغرور الذي أصابهم ، نتيجة هذه الانتصارات العقلية والفكرية الوهمية أمام الخصوم ، مما جعلهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ، ومما جعلهم يحاولون فرض آرائهم بقوة السيف وسلطة الخلافة !

ب ـ صار لهم داخل الأمة الإسلامية دور خطير ، عندما شكَّلوا جبهة مضادة لأهل السنة ، حماة الإسلام وحملته ودعاته الحقيقيين ، والذين هم خيار المسلمين من الخاصة والعامة ، ولمَّا تمكن المعتزلة من شؤون الخلافة اضطهدوا من يخالفهم ، وبهذه الموازنة طغىٰ ضررهم علىٰ نفعهم .

جـ ـ عملت المعتزلة بمنهجها الكلامي علىٰ إشغال الأمة عن الجهاد وحقيقة المعركة بين المسلمين والكفار ، في الداخل والخارج ، والاستعاضة عن ذلك بمعارك كلامية فلسفية ، ونقلوا الصراع من الهجوم إلىٰ الدفاع ، ومن ساحات الجهاد ، والقوة والعزة ، إلىٰ المراء والجدل السوفسطائي الذي يضيع الوقت ، ويشتت الجهد ، ويحبط الأجر ، ويعطل حدود الله التي فرضها لمصلحة العباد .

د ـ كما ساعد منهج المعتزلة القائم علىٰ الافتراق علىٰ إثارة الفتن والثورات الداخلية ومحاولة الخروج علىٰ أئمة المسلمين ، وإثارة الأهواء والأضغان

المذهبية .

هـ ـ عملت المعتزلة بنزوعها إلىٰ المعارك الكلامية علىٰ تحويل مسار الحياة الإسلامية ، من الواقع العملي البناء إلىٰ الجنوح إلىٰ المثاليَّات والنظريات والخيالات البعيدة عن الجد والإيجابية .

والخلاصة: أن فرقة المعتزلة ـ بحق ـ هي المرآة الصادقة للاتجاهات العقلية القديمة والحديثة ، فلم تخرج قبلها ولا بعدها فرقة تضارعها في قوة المنطق وشمول المنهج فإخوان الصفا ـ مثلاً ـ ومن جاء بعدهم ، من فلاسفة وأهل الكلام بسائر طوائفهم ، كلهم عالة علىٰ المعتزلة في كثير من أفكارهم وآرائهم .

كما أن العقلية الحديثة اتكأت علىٰ آراء المعتزلة في كثير من قضايا العقيدة وأصول الدين ، كما سيأتي في الفصل التالي :

* * *

المبحث الثاني

العلاقة بين الاتجاهات العقلية الحديثة والقديمة

لست مبالغًا حينما أقول: بأن المدرسة العقلية الحديثة إنما هي امتداد للقديمة حيث تلتقي وتتفق في كثير من أصولها وآرائها؛ مع الاتجاهات العقلية القديمة، مع بعض الفروق الشكلية القليلة، والمتأمل لهذه الاتجاهات، قديمها وحديثها؛ يجزم بأنها تشكل مجموعة واحدة، متشابهة ومتشابكة، وأن الحديثة امتداد طبيعي للقديمة.

وهذا التشابه نلمسه في جوانب عديدة في المدرستين، في أصولهما ومناهجهما، وفي وسائلهما وغاياتهما، وأوضح جوانب التشابه يتحلى في إشادة رواد العقلية الحديثة بأساتذتهم رواد العقلية القديمة.

كما أن اهتمامات أكثر رواد العقلية الحديثة منصبة على إحياء الفرق القديمة وتمجيدها، واقتفاء آثارها، والبكاء على أطلالها.

أما وحدة الأصول والأهداف فتتمثل جلية فيما يلي:

١ ـ **اتفاق المدرستين** على إكبار العقل، وتقديمه على النص، وإخضاع الثاني للأول، وجعل العقل مصدراً للتلقي مقدماً في الاستدلال على الكتاب والسنة، وما يتبع ذلك من تأويل النصوص وتحريفها أو ردها، وعدم التسليم لها، والمبالغة في رفع شعار الحرية الفكرية، وإن كان على حساب العقيدة.

٢ ـ **اتفاقهم** على عداء السنة وأهلها، واحتقار السلفية ولمزها، والتهكم بها وبأهلها.

٣ ـ **اتفاقهما** في التبعية للمذاهب والفلسفات الأجنبية عن الإسلام، فكما أن

أصحاب الفرق القديمة تتلمذوا على اليهود والنصارى واليونان، والمجوس والوثنيين، فكذلك العقلانيون المحدثون، تتلمذوا على المستشرقين، والغربيين ورثة الفكر اليهودي والنصراني والوثني واليوناني وعلى أسلافهم العقلانيين المعتزلة والجهمية.

٤ ـ **استباحة** الخوض في سائر أمور الغيب، التي لا يعلمها إلا الله، وليس للعقل قدرة على تصورها فضلاً عن الحكم عليها، وعدم احترام ما ورد بطريق الوحي في القرآن والسنة الصحيحة، عن بعض المخلوقات الغيبية والأخبار، إنكارًا أو تكذيبًا، أو تهكمًا أو تشكيكًا، ومعارضة لما جاء في ذلك، ومن أخطر الأمور الغيبية التي استباحتها الاتجاهات العقلية القديمة والجديدة: ما يتعلق بالله وأسمائه وصفاته والوحي والنبوة والملائكة والجن والقدر والبعث وأحوال الآخرة، ونحو هذه الأمور التي يستحيل على العقل إدراك كُنهها وحقائقها ولا تخضع للتصور والاستقراء العقلي، ولا للتجارب الحسيَّة.

٥ ـ **الاستهانة**. بأحكام الله وشرعه، والجرأة على الفتوى والقول على الله بغير علم، في الحلال والحرام، والأخلاق والتشريعات والعبادات، وعدم التسليم لله فيها، أو في شيء منها، وذلك بالمعارضة والتبديل والتحريف، والزيادة والنقص، والاستهزاء بأحكام الله، والتشكيك في دينه.

٦ ـ **الجرأة** على إثارة الشبهات والآراء الشاذة في الدين عمومًا والعقيدة بخاصة، وما يخالف إجماع المسلمين.

٧ ـ تميزت المدرستان بالترويج للملل وإحياء النحل الضالة والمذاهب والأهواء والفرق بين المسلمين وتمجيدها، والدعاية لها باسم التسامح الديني، وحرية الفكر والاعتقاد، ولذلك روّجت المعتزلة للرفض، وأحيت مذاهب القدرية والجهمية والمرجئة ومقالات الخوارج، والمشبهة، ثم جاءت العقلية الحديثة أيضًا تحيي تلك المذاهب والاتجاهات من هذا المنطلق، منطلق حرية الفكر والاعتقاد! وهذه هي شبهة الشيطان. . بل زادت العقلية الحديثة في تهورها،

حيث أخذ بعض روادها بالدعوة إلىٰ التسامح مع جميع الفرق والديانات، لغرض التوازن في بناء الفكر الجديد كما يدعي محجوب بن ميلاد[(١)] وأمثاله، وكما يعمل الجارودي تجاه الديانات الكتابية.

٨ ـ **كذلك** يتفق الجميع ـ أصحاب الفرق العقلانية القديمة والاتجاهات العقلية الحديثة ـ علىٰ احتقار أهل السنة والتهوين من شأنهم، ورميهم بالتعصب وضيق التفكير والجهل، بالرغم من اعترافهم ـ جميعًا ـ بأن أهل السنة هم أهل القرآن والحديث، بل إن العقلانيين يعيبونهم بهذا، ونعم الوصف لهم وصفهم بالنَّصِّيِّين وأهل النقل،[(٢)] فهذه الأوصاف أطلقت علىٰ أهل السنة من قبل العقلانيين قديمًا وحديثًا، بل وصل ببعضهم الغلو إلىٰ إطلاق السلفيين علىٰ أهل السنة باعتباره مسبة كما[(٣)] فعل الدملوجي، وماذا سيقول هو وأمثاله لو علم أن هذا مما يعتز به أهل الحق، أعني وصفهم بالسلفية؟

٩ ـ **الدعوة** إلىٰ تفسير القرآن والسنة بالأهواء، وتأويلها تأويلاً عقلانيّاً جديداً، حسب كل عصر دون اعتبار للمنهج الشرعي للاستدلال ولا لتفسير السلف والصحابة، ودون التقيد بالمصطلحات الشرعية وقواعد التفسير والقواعد الأصولية، ودلالات اللغة وكانت المدرستان تميلان إلىٰ النزوع في تفسير النصوص إلىٰ الرموز والمجازات والتفسيرات الفلسفية، والصوفية[(٤)]. والباطنية والمادية، وهذا ما درجت عليه فعلاً فرق تأثرت بهذا المنهج، كالصوفية والباطنية

---

(١) راجع في سبل السنة الإسلامية للكاتب التونسي (محجوب بن ميلاد) ص٢٤، ٢٥. حيث أظهر هذه الدعوىٰ.

(٢) راجع كتاب (هذا هو الإسلام) لفاروق الدملوجي ص٣٦، ٦٠ فقد غمز أهل السنة بذلك، وكتاب (الإسلام وتحديات العصر) للدكتور حسن صعب ص٩٣.

(٣) المصدر السابق (هذا هو الإسلام) ص٢٢ إلىٰ ٥٦ وراجع أزمة الوعي الديني لفهمي هويدي.

(٤) انظر شبهات التقريب ـ لأنور الجندي ص٣٦، وراجع كتاب [الله] و [السر الأعظم] لمصطفىٰ محمود.

والرافضة والشيعة والمعتزلة وأهل الكلام، ثم أصحاب العقلية الحديثة في هذا العصر.

١٠ـ كما أن كلا المدرستين تنزعان إلىٰ التجديد[١] والتغيير في أصول العقيدة، وأصول التشريع الثابتة ومناهج التلقي ومناهج الاستدلال، دون اعتبار للنصوص الواردة عن الله ورسوله، ودون اعتبار لمناهج السلف في ذلك كله، والدعوة إلىٰ اتباع غير سبيل المؤمنين الذي توعد الله من خالفه، فقال سبحانه: **﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾**.

١١ـ اعتبار هزيمة الفرق المنحرفة في القديم والجديد، وانتصار أهل السنة، نكسة تاريخية وضرراً بالإسلام والمسلمين، وعاملاً من عوامل التخلف والجمود..[٢]

وأكثر ما تتبين العلاقة بين المدرستين في تمجيد كُتّاب العقلية الحديثة للفرق المنحرفة القديمة وأسفهم عليها والبكاء علىٰ أطلالها، والعمل علىٰ إحيائها، وارتباطهم الوثيق بتراثها والعناية بخدمته وإخراجه، والإشادة بأصول المعتزلة ومقالاتهم والترويج لها، وهذا ما سأثبته بهذه النصوص للتأكيد علىٰ أن العلاقة بين المدرستين: الحديثة والقديمة، ليست علاقة تعاطف وتقارب فقط، بل إنها علاقة تلمذة وانتماء لا لفرقة المعتزلة فحسب، بل لأكثر الفرق الغابرة، حتىٰ تلك الفرق الباطنية الشاذة، كالقرامطة والحلولية، وإخوان الصفا. أما الفرقة التي خصت بالتأييد الفائق من أكثر رواد العقلية الحديثة، فهي المعتزلة، ولا غرو، فهي

(١) التجديد بمفهومه الشرعي عند أئمة الهدىٰ هو: إحياء ما اندثر من الدين، وإماتة ما جد من البدع والمحدثات.

(٢) شبهات التغريب أيضًا ص٣٤، ٣٦. وراجع ثورة الإسلام لأبي شادي ص٤٨، ٤٩، وهذا هو الإسلام ـ للدملوجي ص٣٩، ٥٣، ٦١.

الفرقة التي رفعت لواء العقلانية، واستوعبت كثيراً من آراء الفلاسفة وأهل الكلام من أعداء الرسل والوحي قبل الإسلام وبعده! ثم إنها خلفت تراثًا عقليّاً ضخمًا متكاملاً تغلغل في صميم التراث الإسلامي، وشمل التفسير والأصول، والعقائد، وغيرها، ولم يسلم فيه إلا علوم السلف؛ لأنها تمثل الإسلام النقي الصافي الذي تكفل الله بحفظه، وأخبر الرسول ﷺ ببقاء أهله على الحق ظاهرين. أما تراث المعتزلة فهو يشكل بمجموعه رصيداً عظيمًا للعقلانية الحديثة، ثم إن المعتزلة هي التي مهدت لقيام الفرق الكلامية كالأشاعرة والكلاَّبية والماتريدية ونحوها، مما جعل كثيراً من رواد العقلية الحديثة يميل إليهم ميلاً عاطفيّاً أيضًا بحكم ارتباطهم بهذه الفرق.

كما أن من أهم العوامل التي ربطت بعض من يسمون بالمفكرين المسلمين المحدثين بالمعتزلة وغيرهم من الفرق: الجهل بالعقيدة الإسلامية، وأصول الدين ومناهج السلف.

وهذه بعض النصوص التي تبين قوة العلاقة بين المدرستين العقليتين القديمة والحديثة:

قال فاروق الدملوجي في كتابه: هذا هو الإسلام: «والحقيقة أن رجال المعتزلة باستثناء المغالين منهم والمفرطين والمغرضين والضالين، كانوا أحراراً في آرائهم وفي تأويلاتهم، فلم يقفوا عند حد، ولم يردعهم قيد، وحكّموا العقل في جميع القضايا، وأولوا المنقولات كافة حسبما يقتضيه الزمن والحال فقالوا كلمتهم المشهورة: إذا تعارض العقل والنقل وجب التأويل لما يقتضيه العقل، وكان جل مقصدهم تخليص الدين الإسلامي من التبلبل والفلسفة والمذاهب المتضاربة والمنتشرة في العالم الإسلامي كله، وجعل الديانة الإسلامية أكثر صفاء ومرونة، وأشد مراسًا وحجة لتتوافق مع المعقولات في كل عصر وزمان، ويهضمها

الوجدان البشري، ويستسيغها الذوق في كل وقت وآن»[1].

لعل المؤلف قد نسي أن التبلبل والفلسفة والمذاهب لم تنتشر بهذا المفهوم الذي عناه إلا بعد ظهور المعتزلة، وأن لهم اليد الطولىٰ في البلبلة والفلسفة والمذهبية! وليراجع التاريخ ـ إن شاء ـ هو وأساتذته.

ويبدو ـ بزعمه ـ أن الديانة الإسلامية قبل المعتزلة لا يهضمها الوجدان ولا يستسيغها الذوق؟!

ويقول: «وكان الأشاعرة ومن تمذهب بمذهبهم في أهل السنة والجماعة يلعنون الفلاسفة والمعتزلة، وأهل الفكر ومن يذهب مذهبهم، ويحرقون كتبهم تقربًا للجمهور الجاهل وزلفىٰ إلىٰ الله.. وبهذه الطريقة النكرة انطفأت الآراء الحرة من رؤوس المفكرين، فكانت السبب في سقوط العالم الإسلامي من شاهق عزه ولم يزل منحدراً لا يرتقي»[2]..

«وشرع المعتزلة لأول مرة بالعالم الإسلامي في تحكيم العقل في جميع المسائل المفروضة عليهم فأولوا نصوص القرآن تبعًا لما يقتضيه العقل والمنطق لا كما يريده الإلهيون والسلفيون، أصحاب المدرسة القديمة وهم أهل السنة والجماعة والحنابلة والمتصوفة، من الجمود والوقوف علىٰ حد اللفظ والنص وظاهر الشرع دون زيادة، أو نقصان، أو تأويل أو تفسير»[3]..

«ولو كان قد انتشر الاعتزال في البلاد الإسلامية من أقصاها إلىٰ أقصاها لما حصلت هذه النكبات، ولو لم يحصل الارتجاع والانتكاس والجمود علىٰ المنقولات لكان العالم الإسلامي غير ما هو عليه اليوم»[4]..

ويقول محجوب بن ميلاد في كتابه **«في سبيل السنة الإسلامية»**:

---

(١) هذا هو الإسلام ـ فاروق الدملوجي ص٤٩.

(٢) ص٦١ المصدر السابق.

(٣) ص٣٩ المصدر السابق.

(٤) ص ٥٣ المصدر السابق.

«ويكفي الاعتزال فخرًا أن ضمَّ في صفوفه شخصيات بارزة وعقولاً جبارة كواصل بن عطاء، وأبي الهذيل العلاف، والنَّظّام، وأبي علي الأسواري، وأبي يعقوب الشحام، وبشر بن المعتمر، والجاحظ، وأبي علي الجبائي شيخ أبي الحسن الأشعري، وأبي موسىٰ المردار، وثمامة بن الأشرس، والجعفرين، وأبي الحسين الخياط، وابن القاسم البلخي، وابن فارس، والزمخشري، وأمثالهم العديدين، فقد كان المعتزلة المحرك القوي، الذي أطعم التفكير الإسلامي وغذاه وبعث فيه حيوية رائعة، وأكسبه جرأة سطرت صفحات هي من أنفس صفحات التفكير الإسلامي، وأجرت ينابيع فكرية ماؤها من أصفىٰ المياه وأعذبها»[١] . .

وهكذا يشيدون بأئمة الضلالة والفرق أو يشيدون بما وصفوه من تشويه العقيدة والدين!

كما أن المؤلف (محجوب) يرىٰ إحياء جميع الفرق معتزلة ورافضة وشيعة وخوارج ومرجئة، وأن لكل منها أن يزعم أنه سني![٢] وهذا هو الجهل والضلال، نسأل الله السلامة.

ويرىٰ الدكتور زكي نجيب محمود (أن أهم جماعة يمكن لعصرنا أن يرثها في وجهة نظرها. . . هي جماعة المعتزلة التي جعلت العقل مبدأها الأساسي كلما أشكل أمر . .)[٣] .

ويقول الدكتور أحمد زكي أبو شادي منوهًا ومعتزًا بإخوان الصفا وهم من غلاة الفلاسفة الباطنية الجهمية:

«فإن أولئك الفضلاء الحكماء الذين ازدانت بهم المائة الرابعة من الهجرة كما ازدان بهم الإسلام، والذين اجتمعوا علىٰ القدس والطهارة، علىٰ حد تعبير أبي

(١) ص٩٣ ـ ٩٤ في سُبُل السنة الإسلامية ـ محجوب بن ميلاد.
(٢) راجع ص٢٤ ـ ٢٥ المصدر السابق ٢٣ ـ ٢٤.
(٣) تجديد الفكر العربي، ص١١٧، ١١٨.

حيان التوحيدي تفتقت أذهانهم على روحانية الإسلام ورجاحته الحقيقيين فصاحوا: أن الشريعة الإسلامية قد دنست بالجهالة، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة»[١]. . واستمر يكيل المدح لهم ثم قال: «من العيب الفاضح بعد مرور هذه القرون الطويلة أن ننسى قدوتهم المثالية والصورة النقية الرائعة التي رسموها للإسلام الصحيح من ناحيتي السلوك والفكر. إن المسلم الحقيقي هو من آمن بالوصايا الأخلاقية السابقة الذكر، وقد سنها وطبقها دون تذبذب».[٢] **فتأمل أخي القارئ هذا التلبيس العجيب، والتصور المنكوس، والتمويه الظاهر الذي: هو أن مذهب إخوان الصفا الباطني الإلحادي المجوسي صورة للإسلام الصحيح!**

ويقول زهدي حسن جار الله في كتابه (المعتزلة): «واجب على كتاب العرب ورجال الفكر فيهم أن يوجهوا إلى المعتزلة جزءاً كبيراً من عنايتهم وجهودهم، ذلك بأن كتَّاب السنة الأقدمين بسبب كراهيتهم للاعتزال تحاملوا على المعتزلة ولم يذكروهم إلا مع التقبيح والتشنيع فأعطونا عنهم فكرة سيئة وصورة مشوهة. . كما أن الكتاب المعاصرين لم يلتفتوا إليهم ولم يأبهوا لهم، فبقي المعتزلة محرومين من التقدير مفتقرين إلى من يظهر حقيقتهم، ويعطيهم المكانة اللائقة بهم في التاريخ.

يضاف إلى هذا أن النهضة العربية الحديثة شبيهة في ظروفها وأحوالها بالنهضة العربية القديمة التي تلت الفتوح الإسلامية والتي لعب فيها المعتزلة دوراً خطيراً. . . وإلا فلا بد في نهضتنا هذه من ظهور روح الاعتزال أو لابد من إحياء تلك الروح. . ولهذا كان درس المعتزلة ضرورياً لنا وحيوياً»[٣]. **ونجد هذا التوجه واضحًا عند المعاصرين من العقلانيين أمثال: عبدالستار الراوي، وعبدالكريم عثمان،**

(١) ص٤٨ ـ ٤٩ ثورة الإسلام، أحمد زكي أبو شادي.

(٢) المصدر السابق ص٤٩.

(٣) ص ك من المقدمة، كتاب المعتزلة ـ زهدي حسن جار الله.

وزكي نجيب محمود، ومحمد فتحي عثمان، وعبد اللطيف غزالي، وأحمد كمال أبو المجد، وجودت سعيد، ومحمد عمارة، وحسن الترابي، وحسن حنفي، وعرفان عبد الحميد، ومحمد سعيد العشماي، ومحمد شحرور، وعاطف العراقي. يقول عبدالستار الراوي في تبرير الاعتزال: «إن انبثاق الحركة الاعتزالية كان شرطًا تاريخيّاً وتعبيراً عن مرحلة اجتماعية وسياسية، فرضتها الصراعات المذهبية. . »[1]. وهكذا نجد هؤلاء العقلانيين يقلبون الحقائق ويعكسون القضية، مما يؤدي إلىٰ تجريم السلف الصالح الذين أنكروا بدع المعتزلة وحذروا منها بحق.

ويقول محمد عمارة ـ وهو من أكثر الناس انتصاراً للفرق وللمعتزلة بخاصة ـ:

«إننا إذا شئنا أن نقدم لأجيالنا الحاضرة والمستقبلة تراثًا يمجد العقل، ويؤصل فكرنا العقلي للتقدم، ويشيع في صفوفنا مناخًا يساعد علىٰ ازدهار التفكير العلمي، فلابد لنا من البحث عن البقايا التي تركها الزمن وخلفتها أحداثه، من تراث المدارس الفكرية العربية الإسلامية، التي أعلت من قدر العقل ورفعت من قيمته، والتي قدمته وقدمت ثمرات تفكيره علىٰ مدلولات ظواهر النصوص. . . وفي مقدمة هذه المدارس الفكرية المعتزلة والفلاسفة»[2]. **وهكذا يريد أن يربط المسلمين اليوم بأهل الأهواء والافتراق والبدع، بل والفلاسفة المفاليس، أصحاب التيه والضياع والشك والاضطراب.**

وها هو يقول مرة أخرىٰ: «كما أننا إذا شئنا أن نزيل من حياتنا الآثار الضارة للتواكل والسلبية، بل الأنانية، وأن نشيع روح المسؤولية، لدىٰ إنساننا المسلم المعاصر، فلابد وأن ندعم قيم الحرية والمسؤولية، التي نقدمها له اليوم، وبذلك التراث الغني الذي قدمه المعتزلة، ومن وافقهم في ميدان حرية الإنسان

---

(١) العقل والحرية ص١٣.

(٢) نظرة جديدة إلىٰ التراث: محمد عمارة، ص١٦.

ومسؤوليته عن أعماله ونتائجها، وكيف أنه حر مختار صانع لأعماله، بل خالق لها على سبيل الحقيقة لا المجاز.. أي أنه صانع للحياة والحضارة والتاريخ»[١].

ويقول محمد عمارة كذلك في تقديمه لتحقيق رسائل العدل والتوحيد: «فالمعتزلة أهل العدل والتوحيد مثلاً، وهم أكثر المدارس الفكرية تعبيراً عن أصالة الشخصية العربية الإسلامية، والذين استخدموا المنهج العقلي في البحث، دون أن يكونوا أسرى للفكر اليوناني، ودون أن ينفصلوا عن قضايا العقيدة، التي كانت تزخر بها المجتمعات العربية الإسلامية في عصورهم، والذين كانوا رجال فكر وسياسة وثورات وعلم وهندسة وزهد، هذه المدرسة لا تزال آثارها الكبرى حبيسة المخطوطات، موزعة في مختلف المكتبات، والكثير مما طبع من هذه الآثار لم يلق العناية الكافية في التحقيق والدرس والتقديم، ولم تثر حول نصوصه المناقشات الضرورية واللازمة للاستفادة من هذه النصوص، وذلك على الرغم من قلة هذه النصوص التي بقيت لأهل الاعتزال، حيث إن الجانب الأكبر من آثارهم قد أُبيد بفعل أعدائهم منذ قرون.

والخوارج بفرقهم المختلفة، والذين يمثلون قسمة من أهم قسمات الفكر العربي الإسلامي، لازلنا نقرأ في كل بحث أو مقال يعرض لهم أو يشير لأحدهم، أن ندرة المراجع عنهم إنما تحول دون إنصافهم، وأننا نأخذ آراءهم وأخبارهم من مؤلفات أعدائهم ومناهضيهم، يحدث هذا ونقرأه بينما عشرات المكتبات في مختلف بلاد العالم، تحفل بالعديد من الآثار الفكرية التي كتبها علماؤهم، والتي فيها، رغم قلتها النسبية الكثير من مقالاتهم وفقههم وقسماتهم الفكرية المميزة لهم عن باقي المدارس والتيارات»[٢]. وهكذا يريد الجمع بين المتناقضات، ثم هو يخلط بين جميع الفرق الكبرى، وبين أهل الأهواء وأهل

(١) نظرة جديدة إلى التراث: محمد عمارة، ص١٧.

(٢) رسائل العدل والتوحيد، تحقيق ودراسة محمد عمارة، ص٢٢، ٢٣، وانظر الاتجاه العقلاني لدى المفكرين الإسلاميين، رسالة دكتوراه، للشيخ سعيد بن عيضة الزهراني.

الحق حين يقول: «فلابد إذًا من أن نوجد التخطيط والتنفيذ، اللذين بهما نستطيع الوصول إلى تحقيق هذا الهدف، هدف وجود الآثار الفكرية المعبرة بصدق وأمانة ووفاء وموضوعية عن المدارس الفكرية المتعددة في تراثنا، من الشيعة، والأشاعرة، والنصوصيين أهل الأثر والحديث، والمعتزلة، والخوارج، مع الاهتمام بالقسمات التفصيلية والفرعية، التي توجد داخل كل مدرسة من هذه المدارس، والتي يقدم وجودها وازدهارها وتميزها دليل خصوبة لفكرنا العربي الإسلامي، وبرهان حيوية لهذا الفكر، وشاهداً ماديا على أثر الحرية الفكرية التي طبقها هؤلاء الاسلاف الأعلام التي هي جديرة بالاحتذاء والاقتداء»[1].

ولم يقتصر كُتّاب العقلية الحديثة على الفرق المشهورة، فقد نبشوا عن حياة أصحاب الفسق والمجون واللهو والعبث، كما فعل الدكتور طه حسين في كتابه «حديث الأربعاء»[2]، وأحمد أمين في «فجر الإسلام»[3] وغيرهما، حيث لمَّعوا أهل المجون والفسق والضياع، وأوهموا القراء أنهم يمثلون المجتمعات المسلمة آنذاك.

أما الصوفية المنحرفة فهي عمليّاً لم تنقطع في صفوف الجهل والدراويش والقبوريين وبعض المشايخ الطرقيين، أما العقلانيون فصلتهم بها حديثة وتتجلى في مؤلفات مصطفى محمود الأخيرة[4].. وفلسفة محمد إقبال[5]، وخالد محمد

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) راجع حديث الأربعاء (طبعة ١٩٦٥) المجلد الأول ص٢٦٠، ٢٨٣، ٣٠٥ والمجلد الثاني ص٤١ـ٥١، ٨٣، ١٤٩، ١٦٠، ١٨٨ على سبيل المثال لا الحصر.

(٣) انظر فجر الإسلام ص١٧٦ـ١٨٠.

(٤) راجع كتابه: السر الأعظم حيث أشاد بأقطاب الصوفية الغالين في التصوف، مثل ابن عربي، وابن الفارض، وأبي العزايم.

(٥) راجع كتابه: تجديد الفكر الديني خاصة، الفصلين الأول والثاني من ص٥ إلى ٧٥ ترجمة العقاد ـ الطبعة الثانية ١٩٦٨م.

خالد، وعبدالحليم محمود.

والمتتبع لسير الاتجاهات العقلانية الحديثة، يدرك بوضوح أنها تتبنى إحياء أفكار وآراء الفرق العقلانية القديمة، وتفعل ذلك في هذا الوقت الحرج من حياة الأمة الإسلامية.. فأخذت أفكار تلك الفرق المنحرفة القديمة، تنبعث من جديد في كثير من بلاد المسلمين، من خلال مناهج التعليم والتربية، والدراسات المختلفة، والإعلام، ونتيجة لهذه التأثيرات العقلانية، نشأت أجيال ـ من أبناء المسلمين ـ لا تعرف من الإسلام إلا اسمه، ولا من تاريخها إلا رسمه، فضلاً عن العقيدة الإسلامية النقية، حتى صارت هذه الأجيال مهيأة لتقبل الشعوبية، والانتماءات العقلانية من جديد، والشعارات الحزبية والسياسية والفكرية ونحوها، لشعورها بالفراغ العقائدي، الذي تعانيه من جراء هذه التأثيرات العقلانية، والطرق الصوفية التي صرفت الناس عن الحق.

ومع ذلك، فإنه من البدهي أن الباحث في تفصيلات الخصائص والمميزات لكلا المدرستين؛ سيجد هناك بعض الفروق والسمات، التي تكون لأحدهما دون الأخرى ويتضح ذلك عند المقارنة، ومن أهم هذه الفروق والسمات **ما يلي:**

أولاً: رواد الفرق العقلية القديمة أقرب إلى الاستقامة والصلاح وفيهم شيء من الصلاح الظاهر. أما المحدثون فأكثرهم لا يظهر عليهم الصلاح والاستقامة على السنة. والفرق العقلية القديمة ألصق بالإسلام وأقرب إلى حقيقته، والإخلاص له (إن صح التعبير) بسبب معايشتها للمجتمع الإسلامي، في القرون الفاضلة التي هيمن فيها الإسلام، نظامًا للحياة، ودينًا للدولة، ورائدًا للحضارة، والدولة الإسلامية كانت سيدة العالم، فكان أولئك العقلانيون أكثر مجاملة وانصهاراً في المسلمين، وكانت تلك الفرق بمثابة الشذوذ مقابل التيار الإسلامي العام.

بينما نجد الأمر انعكس تمامًا في العصور الحديثة، فأصبحت قيادة البشرية

قيادة وثنيَّة وملحدة تملك زمام الحضارة والتقدم، والمسلمون هم المستضعفون، وقد وُضع الإسلام في قفص الاتهام دون محامين، فهو يحاكم محاكمة غير عادلة، مما جعل العقلية الحديثة تكون أبعد عن الإسلام وأجهل بأصوله وأحكامه، وتستند في وجودها وهيمنتها إلىٰ القوة المادية للحضارة الغربية الوثنية القائمة، فأصبحت وكأنها الأصل، والفكر الإسلامي الأصيل هو الشاذ، الذي يُحَارَبُ ويُضْطَهَدُ ويُطَارَدُ أصحابه في بلاد الإسلام ومعاقله!

ثانيًا: العقلية القديمة انكشفت واتضح عوارها، حتىٰ ترسبت واضمحلت، وغربلها التاريخ وتوزعت أشلاؤها في أصول الفرق الأخرىٰ كالرافضة والخوارج والصوفية وأهل الكلام المتأخرين وغيرهم، فأصبحت تدرس ضمن سلبيات وأخطاء الأمة الإسلامية، وعرفت بأصولها ومواقفها السلبية في المسلمين، أما العقلية الحديثة فهي المهيمنة، وهي التي تحكم علىٰ أهل السنة، بل علىٰ الإسلام نفسه الآن، بل وتحاكمه، ولم تدع لحملة الإسلام الصادقين، فرصة المقاومة والدفاع والبلاغ، اللهم إلا ما حدث أخيراً، من الانتفاضات الإسلامية الأخيرة، والتي لم تتمكن من الوقوف المكافئ بعد للضربات العنيفة التي يكيلها لها أدعياء الحرية الفكرية والثقافية والسياسية في العالم الإسلامي.

والعقلية الحديثة وإن انكشفت بعض الشيء لكنها لم تُواجه بعد، وموعدهم الصبح ـ إن شاء الله ـ أليس الصبح بقريب؟

ثالثًا: العقلية الحديثة استمدت تنظيمها ونشاطاتها من روافد جاهلية حديثة، لم تتيسر للفرق والاتجاهات العقلية القديمة، بسبب التفوق العلمي الحديث للغرب الجاهلي، هذه الروافد تتمثل في قوىٰ منظمة لا يستهان بها هي التبشير والاستعمار، والاستشراق والاستخبارات، ومراكز القوىٰ اليهودية العالمية، كالمحافل الماسونية، ومؤسسات الإعلام.

زد علىٰ هذا: الأوثان الحديثة التي برزت وتمخضت عنها حضارة السَّوء

ـ الحضارة الغربية المادية ـ مثل شعارات الحرية المزعومة والتجرُّد، والبحث العلمي، والشك قبل اليقين، وإخضاع كل شيء للتجربة والمشاهدة، حتى قضايا الغيب! وما تبع ذلك، من نظريات واتجاهات، قلبت المفاهيم والأفكار والأخلاق هناك.

كل هذه الأمور كان لها الأثر الأكبر في هذا الغرور والتعالي والتحكم الذي تمارسه العقليات الحديثة، والتي تركزت في مراكز التوجيه الفكري والتربوي والسياسي والإعلامي، أو قُلْ: في توجيه الحياة في العالم الإسلامي، فأخذت تهدم أصول الإسلام في قلوب المسلمين وعقولهم وتطارد المخلصين بوحشية دونها وحشية أساتذتهم الغربيين المستعمرين، وتهون عندها قسوة أسلافهم المعتزلة على أهل السنة في عهد ابن أبي دؤاد، وفوضى القرامطة والفاطميين.

رابعًا: العقلية الحديثة تفوق القديمة، في شعاراتها وإمكانياتها ووسائلها، فهي تحمل شعارات براقة وخادعة غير الأسماء القديمة للفرق التي تشوهت وأضحت مسبة. أما الحديثة فأصبحت تملك رايات وإمكانات وصحف ومجالات ومؤسسات لا يملكها أهل السنة.

فالشعارات الجديدة جذابة: كالحرية الفكرية والثقافية، والتجديد والحداثة، والتطوير والتقدمية والتنور، والمعاصرة والمسايرة، والبعث والثورة والتحرير والوطنية والقومية، والاشتراكية والعدالة، والإخاء، والمساواة العالمية، والعلمية، والتسامح الديني... إلخ.

بينما القديمة استقرت على أسماء الاعتزال، والخروج، والرفض، والقرمطة، فلم تحظ بتلك الشعارات والأسماء الخادعة.

خامسًا: أما رواد العقلية الحديثة فهم يمثلون بين المسلمين في الغالب الأساتذة الموجهين في كثيرٍ من العلوم والمعارف، في التربية، والأدب، والتاريخ، والاقتصاد، والعلوم التطبيقية والإنسانية.. وإن برز مفكرون مسلمون أخيراً في

بعض هذه الجوانب أثبتوا جدارتهم في إبراز وتأصيل هذه العلوم إسلاميّاً، لكن لا تزال الحياة في العالم الإسلامي، تدور في فلك أولئك، ربما لأن العقلانيين أكثر صياحًا بفلسفتهم وأفكارهم العقلية، وجهراً بها عبر المنابر والقنوات المفتوحة لهم، بخلاف المفكرين من أهل السنة، الذين قد لا تُتاح لهم نفس الإمكانات، والمتاح لم يستغل بعد بالقدر الكافي لدحض شبهات العقلانيين وشطحاتهم.

وهذا بخلاف واقع الأمة الإسلامية في عصورها الماضية، حيث كانت الرّيادة والقيادة في الغالب لأهل السنة، فهم قادة التوجيه والعلم والجهاد، أما رواد العقلية القديمة فقد عُرِفُوا بالشَّغَبِ والفتن والمراء والجدل الفراغ، دون أن تكون لهم الهيمنة الكاملة إلا فترات وفرص قليلة، كما حدث أن المعتزلة تمكنت في الدولة العباسية لفترة قصيرة، ثم الفاطمية حكمت في مصر حتى جاء صلاح الدين ـ رحمه الله ـ وأحيا السنة والجهاد، ثم القرامطة تسلطت في الجزيرة العربية وشمالها بعض الوقت، والبويهية والصفوية في المشرق الإسلامي.

وليس غريبًا، ولا عجيبًا، أن تكون الفترات التي تَمَكَّنت فيها هذه الاتجاهات القديمة والحديثة، من أنكد وأقسى الفترات على الإسلام والمسلمين في تاريخهم الطويل، ومن شاء فليستعرض في ذهنه الواقع التاريخي، فسيجد دون عناء أنه هكذا (معكوسًا): في العصر الحديث: البهائيون، والقاديانيون والإسماعيليون، والنصيريون، البعثيون، العلمانيون، والاشتراكيون، الثوريون، الأحرار (الضباط الأحرار والناصريون) الماركسيون، القوميون. في العصور القديمة: القرامطة، الفاطميون، المعتزلة، الخوارج، السبئيون (بعض الثوار على عثمان) ـ وكلهم مجموعة عصابات لم يرقبوا في المسلمين إلا ولا ذمة.

سادسًا وأخيرًا: من أهم ما يميز العقلية الحديثة عن القديمة.. كون الحديثة أكثر تماسكًا وتكافلاً من القديمة.. فالفرق القديمة، غالبًا ما يلعن بعضها بعضًا،

ويُكَفِّر بعضها بعضًا، حتى داخل الفرقة الواحدة، كما فعلت الفرق العشرين المعتزلة[1].

أما الحديثة فقد استفادت من التجربة، وجمعتها المصالح والغايات المشتركة، كما أن التأثير الأجنبي؛ هو الذي يسيرها جميعًا نحو الهدف الواحد وإن تباينت الوسائل والمنطلقات، وإن كانت تحمل من داخلها جميع عناصر الفرق والتباين، لكنها أدركت من خلال التجارب الماضية أن المسلمين الملتزمين سيقفون لها بالمرصاد، فالتقت هذه الاتجاهات جميعها في ظل الملتجأ الواحد (الغرب) ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [٣٠: الأنفال].

* * * * *

(١) راجع الفرق بين الفرق للبغدادي - ص٩٣.

المبحث الثالث

تاريخ المدرسة العقلية الحديثة

سبق أن قلت: بأن المدرسة العقلانية الحديثة امتداد للعقلانية القديمة، وهذا من حيث الأصول والمناهج، لكنه من المعروف أن بينهما انقطاعًا زمنيّاً، إذ أن أكثر الفرق العقلانية القديمة كالمعتزلة، قد ضعفت منذ قرون، فقامت على أنقاضها الاتجاهات العقلية الحديثة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرىٰ فإن أصول المعتزلة ومناهجهم ومقالاتهم بعد هزيمتهم (زمن الإمام أحمد والمتوكل الخليفة العباسي وما بعده) دخلت ضمن أصول الرافضة والخوارج والزيدية، وأهل الكلام وغيرهم.

فلهذا ولما تميزت به العقلانية الحديثة عن القديمة من أمور استجدت في اختلاف الحياة والزمن والمؤثرات والدوافع والوسائل والإمكانات، لهذا وذاك وجدتني ملزمًا بالتأريخ للمدرسة العقلية الحديثة **فأقول:**

إن فترة هيمنة البدع والتصوف والقبورية التي خيمت علىٰ العالم الإسلامي والتي تزيد علىٰ خمسة قرون مضت، تعتبر فاصلاً زمنيّاً بين انحسار العقيدة والحضارة الإسلامية عن قيادة البشرية، وظهور الحضارة الجاهلية الغربية وتَسَلُّمِها لهذه القيادة فإن المسلمين خلال هذه القرون، وإن كانوا قد تفوقوا عسكريا في ظل الدولة العثمانية، حتىٰ نهاية القرن الثاني عشر الهجري، إلا أنهم كانوا يتقهقرون عقديّاً وفكريّاً لأسباب ربما يكون **أهمها:**

١ ـ انحراف الدولة العثمانية إلىٰ البدع والمزارات والمشاهد.

٢ ـ شيوع الأهواء والطرق والافتراق والإعراض عن دين الله في الأمة.

٣ ـ دعوىٰ إغلاق باب الاجتهاد، وفي الوقت الذي كانت فيه الدولة

العثمانية تحت تأثير هذا الاتجاه . . وفي هذه الأثناء كان الغرب بدأ من حيث انتهت الحضارة الإسلامية في الأندلس، إذ أن النهضة العلمية والفكرية في الغرب، كانت تسير سيرا حثيثًا علىٰ أيدي خريجي الجامعات الإسلامية من أبناء الغرب ـ البعثات الغربية إلىٰ المدارس الإسلامية ـ وهم كثيرون[1]، وقد كانوا طلائع الوعي الغربي علىٰ الحياة والحضارة بتأثرهم ونقلهم عن المسلمين والحضارة والإسلامية، سواء في الأندلس وأفريقيا والشرق.

وحين هَمَّ المسلمون في القرنين الأخيرين بأن يفيقوا، وجدوا الغرب قد سبقهم في مضمار العلم والتقدم المدني والصناعي سبقًا بعيدًا، فأصيبوا بصدمة الانبهار، وعقدة الشعور بالنقص، فضعفت عندهم المناعة والمقاومة أمام

(١) **أذكر منهم على سبيل المثال:**

١ـ جربردي أورالياك (٩٣٨ ـ ١٠٠٣م) ابتعث إلىٰ الأندلس ودرس في جامعاتها الإسلامية ثم رجع، فكان أوسع علماء عصره في بلده (فرف) حتىٰ وصل إلىٰ البابوية وأنشأ مدارس عربية بين قومه.

٢ ـ قسطنطين الإغريقي ـ توفي عام (١٠٨٧م) رحل إلىٰ بغداد وخراسان والشام ومصر والقيروان والهند ثم رجع إلىٰ بلاده.

٣ ـ ميخائيل سكوت (١١٧٥ ـ ١٢٣٦م) رحل إلىٰ الأندلس وتعلم فيها وترجم كثير من الكتب الإسلامية إلىٰ لغات غربية، وألف كثير من الكتب نقلاً عن المسلمين.

٤ ـ راينمد ولوليو (١٢٣٥ ـ ١٣١٤) تعلم العربية وحفظ القرآن، ثم رجع إلىٰ باريس، وانضم إلىٰ الرهبانية وأشرف علىٰ مدرسة لتعليم العربية في ميراما، وتخرج منها رهبان كثيرون ودعا إلىٰ تعليم اللغات الشرقية في أوربا . . للإفادة من الحضارة الإسلامية، وألف كثيرًا من الكتب التي أفادها من العلوم الإسلامية وكانت سببًا في بدور الوعي في بني قومه.

٥ ـ بوستل (١٥٠٥ ـ ١٥٨١م) تعلم العربية وكثير من اللغات الشرقية اشترىٰ كثيرًا من المخطوطات الإسلامية وصار أستاذًا للعربية والعبرية في عهد فرنسوا الأول، حيث تخرج علىٰ يديه نفر من طلائع المستشرقين، ثم أستاذًا للعربية في جامعة فينا، وألف كثيرًا من الكتب عن الإسلام والمسلمين. راجع (المستشرقون) لنجيب العقيقي ص١٣٣ ـ ١٣٥، ١٢٠، ١٢١، ١٢٧، ١٢٨، ١٧١، ١٧٢ المجلد الأول.

الاحتلال والغزو الفكري والعقدي والثقافي والعسكري، إلا ما حدث في نجد وما حولها حيث كانت الدعوة السلفية المباركة التي قام بها الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب، ونصرها الإمام المجاهد محمد بن سعود، فنصرت السنة وقمعت البدعة، وتحقق بها وعد الله على لسان نبيه ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين**» ومع الغزو الذي جاء من الغرب، عبر الاحتلال وفي أحضانه نشأت الاتجاهات العقلانية الحديثة.

وتاريخها الحديث، إنما هو امتداد للاتجاه العقلاني في الغرب الذي يتمثل في حركات التنصير والاستشراق والاحتلال **أولاً**. ثم في البعثات واستيراد الأنظمة الغربية، من قبل المسلمين أنفسهم **ثانيًا**. لذلك سأعرض ـ بإيجاز ـ لتاريخ هذه الحركات كلها إن شاء الله.

أ ـ تاريخ الاتجاه العقلاني في الغرب[1]:

لقد ظل الدين النصراني (الكنسي المحرف) هو السائد في الغرب، وتعاليمه هي المتحكمة في شؤون حياة الناس ومصالحهم، وظل الأمر كذلك طيلة القرون السبعة عشر الميلادية، بالرغم من الآراء التحررية، التي أعلنها بعض المفكرين وطلاب البعثات الغربية، الذين درسوا في المدارس والجامعات الإسلامية، في الأندلس والمغرب، أو الذين اتصلوا (عبر الحروب الصليبية) بالشرق الإسلامي، وبالرغم من ظهور تلك الموجة التحررية من أمثال لوثر (١٤٣٨م ـ ١٥٤٦)، وكالفن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م). . حيث كان لآراء هذين وأمثالهما أكبر الأثر في تحرر الغرب من سلطاته الكنيسة المُتَحَكِّمَة، وما يسمى (برجال الدين) هناك، ومع ذلك بقي سلطان الكنيسة هي الأقوى، وفي القرن الثاني عشر بدأ سلطانها يتقهقر بتقدم العلم وتَنَوِّر العقول في شؤون الدنيا، وظهر الاتجاه إلى سيادة العقل

(١) راجع الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي ص٢٨١ إلى ٢٨٨.

أو ما يسمى (بالتنوير) والتحرر من تعاليم الكنيسة المتحجرة[١] . . وتحكيم العقل مطلقًا، وإطلاقه بلا ضوابط، لينظر ويبدع، ويستنبط ويمارس الحياة ويفكر في ملكوت السماوات والأرض ما استطاع، وكان هذا الاتجاه الذي تأثرت به أوربا أثناء اتصالها بالمسلمين، يعتبر بحق أساس التقدم العلمي الذي وصل إليه الغرب الآن، لكنه بالمقابل كان بمعزل عن الحق والهدى في جانب الدين والعقيدة ومنهاج الحياة.

بل ومع هذه الحركة العقلانية حدثت ردة الفعل ضد الدين ـ كل دين ـ عنيفة بسبب موقف تعاليم الكنيسة الباطلة، فحدث هذا الانفصام المزعوم بين الدين والعلم، فقامت هذه الحضارة الغربية عرجاء عوراء تقوم على المادية البحتة والعلمانية والإلحاد، فكان من جراء ذلك أن أصيبت البشرية بالخواء الروحي الذي لا يقل خطرًا عن الوضع السابق الناتج عن الديانات المحرفة وعن تعنت الكنيسة من قبل؛ لأن أوروبا فقدت الدين ولم تسعد بالدنيا في وضعها الجديد، فاتجه العلم والتقدم إلى تهديد البشرية بالدمار وكلما زاد التقدم العلمي؛ زادت الفجوة بين الدين والحياة الواقعية، وبين المادة والروح، فأنشأ هذا الفصام أجيالاً حائرة قلقة، لا تعرف للفضيلة قيمة ولا للسعادة معنى، تحمل حتفها بعلمها وتقدمها وقوتها، فاعتنقت مذاهب نكدة فاسدة تعذبت بها أيما عذاب . . كالشيوعية، والفوضوية[٢]، والوجودية، والحداثة، وحركات الهيبز والإباحية، وجاءت هذه التيارات المتناقضة كلها إلى العالم الإسلامي وساهمت في نشأة الاتجاهات العقلية والمذاهب المعاصرة بين المسلمين.

---

(١) وكثر المفكرون الذين قادوا الحركة العقلية، أمثال ولف ولسنج ونيتشه في ألمانيا، وفولتير وبيلي ولاندي في فرنسا، ولوك في انجلترا، فكانت ثورة عقلية عارمة شملت جميع أوجه الحياة ونشاطاتها العلمية والعملية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

(٢) مثل الحركات الثورية الدموية، وعصابات التخريب والاختطاف والاغتيالات والسرقات.

ب ـ الدراسات الاستشراقية:

عندما نبحث تاريخ الاستشراق، نجد أنه مر بمرحلتين **أولاهما** ـ ولا تهمنا كثيراً في مثل هذا البحث ـ مرحلة سلبية بالنسبة للغربيين، وهي مرحلة النقل والتلمذة على المسلمين، حين كانت أوربا ترسل بعثاتها العلمية للاستفادة من الحضارة الإسلامية، المزدهرة في الأندلس والمغرب ومصر والشام، وسائر بلاد المسلمين، وهذه المرحلة مبكرة جداً، ولم يكن فيها المستشرقون إلا مجرد نقلة وعالة على المسلمين، وما كانت دوافعهم إلا إفادة قومهم وبلادهم في الغالب، وهذه الحركة الاستشراقية الأولى هي التي بدأت منها بذور التنور الفكري والعلمي في أوربا فيما بعد، كما ذكرت آنفًا. وهذه المرحلة كانت قبل الحروب الصليبية وقبل سقوط الأندلس الإسلامية.

أما المرحلة الثانية من مراحل الاستشراق: فهي مرحلة موجهة وهادفة للغرب وهي مرحلة دراسة الإسلام أولاً ـ وهو المهم ـ عقيدة وشريعة وتاريخًا، ودراسة سائر أحوال الشرق وأديانه وعلومه وتاريخه.. والذي يهمنا هو الجانب الإسلامي في هذه الدراسات.

وهذه المرحلة تبدأ مع نهاية الحروب الصليبية وأفول الدولة الإسلامية في الأندلس مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي[1]، حيث بدأت دراسة الإسلام وتاريخه، بأسلوب لا يخلو من العصبية، من أمثال: بوستل (١٥٠٥ ـ ١٥٨١م) وفاتيه[2] (١٦١٣ ـ ١٦٦٧م) والباجو (ت: ١٥٢٠م) والأب ماراتشي (١٦٠٢ ـ ١٧٠٠م)[3]..

ومع بداية القرن التاسع عشر بدأت الدراسات الاستشراقية بأسلوب أشمل

(١) راجع (المستشرقون) نجيب العقيقي ص٥٤ المجلد الأول.

(٢) راجع (المستشرقون) نجيب العقيقي ص١٧١ ـ ١٧٢ المجلد الأول

(٣) راجع (المستشرقون) نجيب العقيقي ص٣٦٠ ـ ٣٦١ المجلد الأول.

وأكثر تنظيماً، بروح دينية يهودية وصليبية، واستعمارية غربية حاقدة ماكرة، أكثر من ذي قبل؛ لأنها واكبت الاحتلال لأكبر بلاد العالم الإسلامي، وكانت أهم دوافعها خدمة هذا الاستعمار لزعزعة كيان المسلمين مادّياً ومعنويّاً، وكما أنها انبثقت عن روح الانتقام من الأمة الإسلامية التي غزت أوربا في عقر دارها، وطردتها من الشرق كله، وقضت على الدولة النصرانية، ولا ننسى أن الغرور العلمي المتغطرس الذي يحمله الغربيون بعد تقدمهم الحضاري، جعلهم يَدْرُسُون الإسلام بروح الناقد المحتقر، والخَصْم والحَكَم، والعدو المنتصر المنتقم.

ومع الاحتلال الغربي لأكثر بلاد العالم الإسلامية، في القرن التاسع عشر، بدأت البحوث والدراسات والأفكار الاستشراقية، تغزو المسلمين من الداخل، وتشكل عاملاً أساسيّاً من عوامل نشر وإبراز الاتجاهات العقلية الحديثة.

وكانت كلها تدور حول[1] الآتي:

أ ـ إثارة الشبه والاعتراضات في العقيدة الإسلامية.

ب ـ الطعن في صحة الوحي القرآن الكريم والسنة النبوية والرسول ﷺ ورسالته.

جـ ـ الاستهتار والتهكم بالغيبيات بدعوى أنها تخالف العلم الحديث ولا تثبت علميّاً!

د ـ الاعتراض على الشريعة الإسلامية في أصولها ومناهجها، ودعوى أنها من بقايا العصور المظلمة، ولا تصلح للعصر الحديث.

هـ ـ إعادة تقييم الإسلام، **عقيدة، وشريعة، وتاريخًا** من جديد على ضوء

(١) راجع في ذلك:

١ ـ الاستشراق والمستشرقون لمصطفى السباعي ص٢١ ـ ٢٥.

٢ ـ أجنحة المكر الثلاثة ـ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص٩٤ ـ ٩٨.

٣ ـ الفكر الإسلامي الحديث ـ د. محمد البهي ٤٨ ـ ٦٣.

العلم المادي الحديث، ومن ثم إدانة الإسلام بزعمهم.

و ـ فصل الأجيال المسلمة بكل وسيلة عن ماضيهم الإسلامي السليم، وربطهم بالغرب بدعوىٰ الاحتياج والمسايرة والانفتاح والتعايش، والنظام الدولي.

وهذه البحوث والدراسات صارت هي المرتكز الأول في الاتجاهات العقلية الحديثة، والخلاصة أن الاتجاهات العقلانية الحديثة ارتكزت في أصولها ومنطلقاتها علىٰ أصلين: **الأول:** أصول المعتزلة والفرق القديمة الأخرىٰ ومناهجها في الدين. **والثاني:** المسايرة للغرب في الفكر والثقافة والأخلاق والسياسة والاقتصاد وأنماط الحياة الأخرىٰ، بدعوىٰ مرونة الدين وسعة القواعد الشرعية وضرورة العصر ونحو ذلك.

جـ ـ الاحتلال الغربي لديار الإسلام:

قد لا يهمنا كثيراً تاريخ الاحتلال قبل القرن الثامن عشر؛ لأنه لم يكن ذا خطر بالنسبة لموضوعنا هذا، فالاستعمار الهولندي والبرتغالي لبلاد الإسلام كان قبل هذا التاريخ.

فأول احتلال غربي ـ كان له خطره وأثره الحضاري ـ علىٰ العالم الإسلامي، تلك الحملة التي قام بها نابليون بونابرت، امبراطور فرنسا، علىٰ مصر عام ١٧٩٧م حتىٰ عام ١٨٠١م[١]، فلهذه الحملة أثر كبير في تكوين عقليات بعض المسلمين، الذين أصيبوا بالانبهار والإعجاب بمظاهر ما يسمىٰ بالمدنية والتقدم العلمي، الذي كانت تحمله الفرقة الفرنسية، فقد جهز نابليون حملته بأشياء كثيرة من مظاهر الإنتاج الغربي، وبفريق من العلماء والباحثين في سائر التخصصات العلمية، منها مجموعة من المستشرقين المتخصصين بالدراسات الشرقية والإسلامية، مما كان له أكبر الأثر عند ضعاف العقول، من أنصاف المتعلمين من

---

(١) راجع الإسلام والثقافة العربية لأنور الجندي ص١٨.

المسلمين، الذين ألفوا حياة الركود والسلبية والتواكل، والذين لم ينشأوا على العقيدة الصافية، إنما نشأوا على البدع وأفكار التصوف وطرقها، وعلى الجهل وقلة الفقه في دين الله والبعد عن السنة.

وقد بدأت حرب الانجليز في الهند المسلمة بعد عام ١٧٥٦ فأسست بريطانيا شركة الهند الشرقية ثم تحولت هذه الشركة إلى حكومة عام ١٨٥٨م[١] فعملوا على القضاء على قوة الإسلام، وانتشاره هناك، بشتى الوسائل، واهتموا بإيجاد فرق واتجاهات عقلية، لإضعاف العقيدة الإسلامية التي تجعل المسلم يشعر بالاستعلاء والعزة، وعدم الاستسلام للأجنبي، فأيدوا حركة السيد أحمد خان، التي قامت[٢] على تقريب المسلمين للإنجليز والدعوة إلى قبول الاحتلال والرضا به، والتقليل من أهمية الجهاد، وتفسير العقيدة والفكر الإسلامي تفسيراً عقلانيّاً على ضوء الفكر الغربي ليساير الحياة الغربية.

وبعد الحرب العالمية الأولى اقتسم الغربيون بلاد الإسلام على شكل غنائم فاحتل الفرنسيون الشام عام ١٩٢٠م والانجليز العراق أيضًا عام ١٩٢٠م وقبل ذلك كانت مصر تحت الاحتلال الانجليزي منذ عام ١٨٨٢م ثم السودان منذ عام ١٨٨٩م[٣]، كما كانت الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي منذ عام ١٨٣٠م[٤] ثم تونس، وليبيا التي احتلها الإيطاليون.

وكان للانجليز نصيب الأسد من البلاد الإسلامية فبقي تحت سيطرتهم الهند وجنوب الجزيرة العربية والخليج العربي والعراق ومصر والسودان وغيرها، وقد حفظ الله هذه البلاد المباركة ـ بلاد الحرمين ونجد وما حولها (المتمثلة بالمملكة

(١) راجع المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها، د. عبدالرحمن عميرة ص٢٧٥.
(٢) راجع الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار للدكتور محمد البهي ص٤١، ٤٢، ٤٣.
(٣) راجع تاريخ الأمة العربية (عصر الانبعاث) محمد سعد أطلس من ص٧٤ إلى ص٨٧.
(٤) المصدر السابق.

العربية السعودية حاليًا) من أن تطلها يد الطاغين المحتلين الكفار، بل العكس من ذلك هيأ الله تعالىٰ ـ تحقيقًا لوعده ـ أن قامت دعوة التوحيد المباركة التي حمىٰ الله بها حوزة الدين.

وقد ركز المحتلون الغربيون، أثناء إقامتهم في العالم الإسلامي، علىٰ الأمور التالية[1]:

ـ **تشجيع** التنصير وتمكينه في البلاد الإسلامية.

ـ **فصل الدين** (الإسلام) عن الدولة والحياة، وإلغاء العمل بالشريعة الإسلامية، وترسيخ الاتجاهات العلمانية، والحيلولة دون توجه المسلمين إلىٰ التمسك بالإسلام والسنة، وتحكيمهم لشرع الله.

ـ **تربية** جيل من أبناء المسلمين علىٰ الفكر والسلوك الغربي وعزله عن عقيدته وتاريخه وأمته، ثم اصطفاء نخبة من هؤلاء ليصنعهم الغرب علىٰ عينه، وقد ولاهم مقاليد البلاد بعد خروجه منها، فعاثوا فيها فسادًا.

ـ **توجيه** مناهج التعليم والتربية والإعلام والثقافة والفكر والأدب، وغيرها وصبغها بالصبغة الغربية الخالصة، وإبعاد المفاهيم الإسلامية الأصيلة.

ـ **العمل** بكل وسيلة علىٰ عرقلة الصحوة والنهضة الإسلامية فكريّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً وعسكريّاً لتبقىٰ بحاجة إلىٰ الغرب، فيأمن قيام حركة الجهاد الإسلامية، لذلك اهتم كل الاهتمام بضرب الحركات الإسلامية.

ـ **إثارة** الشبه والشكوك وتشجيع المثيرين لها بين أنصاف المثقفين والشباب

---

(١) راجع الكتب التالية:

ـ التبشير والاستعمار لمصطفىٰ الخالدي وعمر فروخ، الطبعة الخامسة ١٩٧٣م.

ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ.

ـ أجنحة المكر الثلاثة ـ عبدالرحمن حسن حبنكة ـ فصل خطط العدو لغزو الإسلام ٢٠١.

ـ الفكر الإسلامي الحديث ص٢٦٧ وما بعدها.

الناشئين، وترويج البدع القديمة والجديدة وتمكين أصحابها.

- **عرض** الأفكار والنظريات والفلسفات الغربية الهدامة وإيجاد خلايا لها بين المسلمين، كالشيوعية، والاشتراكية، والوجودية، والقومية، والوطنية، والإباحية، والحداثة إلخ، وتمكين أصحاب تلك الاتجاهات في الداخل من مراكز القيادة والتوجيه.

- **تشتيت** بلاد الإسلام، جغرافيا بتقسيمها إلى دويلات، وفكريّاً وعقديّاً بتشجيع الفرق والأقليات غير الإسلامية، وبإيجاد الاتجاهات السياسية والأحزاب المتناحرة لكل دولة.

د - التنصير:

أما التنصير فإنه بدأ في جاوه وسيلان (من العالم الإسلامي) منذ مطلع القرن الثامن عشر الميلادي[1]، وفي القرن التاسع عشر ظهر التنصير بشكل منظم في العالم الإسلامي كله، فانتشرت الإرساليات والمدارس التبشيرية في كل مكان، وكان التنصير هو الأداة الأولى التي يسخرها الاحتلال لأغراضه المتعددة، فقد عزف المنصرون على الواقع المؤلم الذي يعيشه المسلمون الذين أخذوا يبحثون عن خلافتهم، حين ضيعوها بجهلهم وخمولهم، وتواكلهم، فغزاهم المبشرون في عقر دارهم، ووصل الأمر بهم - أي بالمنصرين - إلى أنهم كانوا يعقدون مؤتمراتهم لهدم كيان المسلمين، والكيد للإسلام، في عقر دارنا وفي سائر بلاد الإسلام، وخاصة المدن الزاخرة بالعلماء والمثقفين والمفكرين.

فعقدوا في القاهرة أكثر من مؤتمر تبشيري.

وكذلك في القدس أكثر من مرة أيضًا.

وفي تونس، وقسطنطينة الجزائر، وفي لكنؤ بالهند، وفي بيروت، وفي

---

(١) راجع الغارة على العالم الإسلامي - تأليف شاتليه، تعريب محب الدين الخطيب ومساعد اليافي ص٣٠، ٣١.

أدنبرة[١]، وفي البحرين والعراق والشام.

فيا ترىٰ أين المسلمون. .؟! كانوا حينها تحت وطأة البدع وأوضار الطرق وأشتات الفرق، وأغلال الجهالات، إلا من عصم الله وهم قليل غرباء، وكانت السنة وأهلها توجد من نزَّع من الناس هنا وهناك، وفي الدعوة الفتية في نجد وما جاورها، ويظهر لي ـ والله أعلم ـ أن الله تعالىٰ صرف عنها أنظار المحتلين حيث لا يوجد في بلادها مغريات، وحيث كان الكفار يحاذرون التشابك معها؛ لعلمهم بحقيقتها التي ترعبهم! وإن كانوا يحوطون المكائد من بعيد كما ذكر الله عنهم.

هـ ـ انفتاح العالم الإسلامي على الغرب:

لقد تفطن بعض سلاطين الدولة العثمانية مبكراً لأهمية التقدم العلمي، للدولة الإسلامية، خاصة من الناحية العسكرية، حين رأىٰ الغربيين قد سبقوا في هذا المضمار، لكنهم غفلوا عن الأهم وهو إصلاح العقائد والعبادات في المسلمين، فقد استعان السلطان **سليم الثالث** بالنظم الغربية العسكرية، واستجلب المهندسين الأجانب لتعليم المسلمين الصناعات والنظم العسكرية المبتكرة عام ١٧٩٦م[٢] ضد هذا الاتجاه.

ثم جاء السلطان **محمود الثاني** وقضىٰ علىٰ الإنكشارية عام ١٨٢٨م فتمكن من إدخال النظم والصناعات العسكرية الحديثة[٣].

وكذلك فعل **محمد علي** في مصر عام ١٨٠٥م فقد أرسل بعثات من أبناء المسلمين، للدراسة في الغرب، وفي الوقت نفسه افتتح والي تونس كلية للعلوم الحربية، كل أساتذتها غربيون[٤].

(١) المصدر السابق من ص٤٩ إلىٰ ١٤١، والإسلام والثقافة الغربية لأنور الجندي ص٩٠.

(٢) انظر الإسلام والحضارة الغربية ـ محمد محمد حسين ص١٢، ١٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدرالسابق.

وفي إيران أيضًا، افتتحت كلية للعلوم والفنون عام ١٨٥٢م قامت على أساس غربي بحت[١].

لقد كانت هذه الخطوات تبدو طبيعية، وكانت في ظاهرها تقتضيها المصلحة أول الأمر، إنما كانت تنقصها الحكمة والحيطة والوعي، من قبل المسلمين أنفسهم عمومًا، والحكام الذين قبلوا وأقبلوا على الاستفادة من الغرب دون قيد ولا شرط.

المهم أن الصراع انتهى آخر الأمر بانتصار المستغربين، وخسرت الأمة الموقف المعتدل، الذي يفيد من الغرب بقدر ما يقوي الأمة، ويلحقها بمن سبقها، في مضمار الصناعات والعلوم النافعة، التي لا تصطدم مع العقيدة الإسلامية، وتقيم الحياة والدولة الإسلامية على الإسلام.

فجاء بعد ذلك السلطان **عبد المجيد** عام ١٨٣٩م في تركيا فأعلن ما يسمى (بالإصلاح) ورفع شعارات الحرية الشخصية، والحرية الفكرية، **بالمفهوم الغربي**، وتسوية المسلمين بغير المسلمين، وأدخل التنظيمات المستوردة من الغرب.

وكذلك فعل **إسماعيل** في مصر (١٨٦٣م - ١٨٧٦م) فدعا إلى أن مصر قطعة من أوربا، وأكثر من الغربيين فيها، وأنشأ المحاكم المختلطة وعدل الأنظمة والقوانين، طبق القانون الفرنسي[٢].

وفي هذا الأثناء عاد كثير من المبتعثين - من أبناء المسلمين - من الغرب، إلى بلادهم، وكثرت البعثات الجديدة، وجاءت تحمل أفكار الغربيين، لا علومهم وتقدمهم، جاءت بأفكار جاهلية لا تمت إلى الإسلام، ولا إلى العلم والتقدم بصلة، فبدأت حركة التغريب في العالم الإسلامي على أيدي هؤلاء، دون

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر الفكر الغربي المعاصر - أنور الجندي ص٧٤.

وعي، ولا بصيرة، ولا تعقل، تدفعها أهواء المستغربين، وأطماع أساتذتهم الغربيين، حيث بدأ على أيدي هؤلاء ما يسمى بحركة اليقظة أو النهضة، وتشكلت بذور الاتجاهات العقلية الحديثة التي نحن بصدد بحثها.

وكان من أوائل المبتعثين إلى الغرب **رفاعة الطهطاوي** من مصر (١٨٠١م - ١٨٧٣م) وخير الدين التونسي (١٨٣٠م ١٨٧٩م)[١] وكلاهما ذهب إلى الغرب وهو عَريٌّ من العقيدة السليمة، وكل منهما درس في فرنسا في وقت متقارب، وكانت الدول الغربية في أوج تقدمها وكبريائها، فأعجبا بالغرب إعجابًا ملك عليهما عقولهما، وذهلاً للفارق بين أوضاع المسلمين وحال الغرب هناك، فجاء كل منهما بهذه النفسية المنهزمة والعقلية الغربية، فأخذ ينادي بشعارات غربية دون بصيرة - ربما عن حسن نيّة وصدق عاطفة (والله أعلم) وأخذ يشيد بالغرب والغربيين، وينادي بالحرية، والتغني بالأمجاد الجاهلية القديمة، كالفرعونية في مصر والآشورية في الشام، والوطنية والتسامح الديني، تقليدًا للغرب، وحاول كل منهما أن يخضع تعاليم الإسلام وأصوله للمفاهيم الغربية التي تأثر بها، فلقد دعا كل منهما إلى تقليد الغربيين، حتى في أساليب المعيشة والأخلاق، وهذا ولا شك خطأ فادح، وبه بدأت بذور الاتجاهات العقلانية في البلاد العربية.

وفي الهند انبرى السيد **أحمد خان** (١٨١٧م - ١٨٩٨م)[٢] الذي زار أوروبا وأعجب بالغرب أيما إعجاب، فدعى المسلمين إلى مصالحة الانجليز، وبذل جهودًا جبارة في إخماد حركة الجهاد ضد الانجليز، التي قامت عام ١٨٥٧م، ثم أعلن عن حركته العقلانية المستغربة، والتي قامت على الأصول العقلانية التالية[٣]:

---

(١) راجع الإسلام والحضارة الغربية - د. محمد محمد حسين ص١٨ وما بعدها.

(٢) راجع العروة الوثقى لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ص٤١٢ مقالة لجمال الدين (الدهريون في الهند) والفكر الإسلامي الحديث - د. محمد البهي ص٣٨ - ٤٢ والصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية لأبي الحسن الندوي ص٧١.

(٣) المصادر السابقة.

تجديد الفكر الإسلامي والمفاهيم الإسلامية حسب المفهوم الغربي، وتفسير القرآن على ضوء العلوم الغربية الحديثة، وتجاهل أصول العقيدة وقواعد التفسير المعتبرة عند المسلمين.

ـ **الاتصال** المباشر بالغرب ـ وخاصة الانجليز ـ والنهل من علومهم دون تحفظ ولا تمحيص.

ـ **الدعوة إلى إعادة** النظر في كل مبادئ الدين وأصوله ومناهجه في الاعتقاد والتلقي والاستدلال، والتشكيك في المغيبات والأصول الإسلامية التي لا تصدقها ولا تؤمن بها العقلية الحديثة في الغرب.

ـ **دعوى شرعية** الاحتلال الانجليزي لبلاد المسلمين، وتغيير مفهوم الجهاد لدى المسلمين ليتفق مع الأفكار الغربية ولا يكون موجه ضد الاحتلال والمحتلين، والدعوة إلى التسامح الديني بين المسلمين والكفار، ويرهن على ذلك بتفسيره التوراة والإنجيل.

ـ **الاهتمام** بنهضة المسلمين، علميّاً وماديّاً وإهمال الجوانب العقدية والفقهية وفصل العلم عن الدين، والإيمان بمبدأ الطبيعة العلماني(١).

وعلى هذا يبدو أن حركة السيد أحمد خان هي أول اتجاه عقلاني حديث قام بشكل منظم في العالم الإسلامي.

ثم جاء ضياء كوك ألب (١٨٧٥م) في تركيا ودعى بصراحة إلى سلخ تركيا من ماضيها القريب (الإسلامي)، وتكوينها تكوينًا قوميّاً وطنيّاً يرجع بها إلى حضاراتها الجاهلية القديمة، قبل الإسلام(٢)، وبذلك وجد الاتجاه الثاني، من الاتجاهات العقلانية الحديثة في العالم الإسلامي، بعد اتجاه السيد أحمد خان.

بعد ذلك اندلعت الاتجاهات العقلانية في كل مكان، مع الاتجاهات السياسية

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) راجع الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية لأبي الحسن الندوي ص٣٩، وما بعدها.

والقومية والطائفية وغيرها، وبدأ تيارها الجارف يجتاح غالب العالم الإسلامي، ممثلاً في جهود الاحتلال، والتنصير، والباحثين والموظفين الغربيين، والطوائف والأقليات غير المسلمة، والمستغربين من أبناء المسلمين، واتخاذ شتىٰ الوسائل، من جمعيات سرية وعلنية، وصحف ومجلات ونشرات، ومدارس، ودور نشر، وأحزاب، وقد خلت الساحة ـ اللهم إلا القليل ـ من الدعاة المسلمين الأكفاء، لصد هذا التيار، عن وعي وإيجابية وجدارة.

وهكذا جنىٰ المسلمون ـ حين ألقوا فلذات أكبادهم في أحضان الغرب ـ علقمًا يتجرعونه ولا يكادون يسيغونه، فقد جاء أبناؤهم ناقمين علىٰ دينهم وعقيدتهم وحضارتهم وأمتهم، جاؤوا بالأفكار الهدامة والأخلاق الهابطة، والرذيلة، ولم يفيدوا من العلم والتقدم شيئًا يذكر.

كما ينبغي أن لا ننسىٰ الدور الذي لعبته الأقليات غير المسلمة في العالم الإسلامي، خاصة النصارىٰ ـ وبالأخص نصارىٰ لبنان ومصر ـ فقد نشطت هذه الأقليات في نشر الأفكار والمفاهيم الغربية، ومناهضة الدعوات الإصلاحية والجامعة الإسلامية، والاعتراض علىٰ العمل بالشريعة الإسلامية، وإثارة الشبه حول تطبيق الإسلام نظامًا ودستور دولة، بدعوىٰ عدم ملائمته للعصر، ولأن الجماهير ليست كلها مسلمة، وكان ذلك باسم الحرية الدينية، والتطور، وحرية الفكر، وقد نشطت هذه الأقليات في مقاومة الدعوات الإسلامية، وترويج الأفكار الهدامة عبر الجمعيات والصحف والترجمة والتأليف والمدارس[1]؛ لأنها تملك أفضل الوسائل في ذلك، كما لا ننسىٰ أن كثيراً من طلائع المذاهب الهدامة المعاصرة من أصحاب الديانات كاليهود والنصارىٰ، والفرق الضالة كالباطنية

---

(١) نذكر من هؤلاء أمثال: شبلي شميل، وفرح أطون، وفرنسيس مراش، ورزق الله حسون ويعقوب صنوع، وأديب إسحاق، وفيليب حتىٰ، وجرجي زيدان. (راجع الفكر الغربي المعاصر للجندي. ص٤٢).

والرافضة والمعتزلة الجدد، والطرقية ومن سلك سبيلهم، لقيت حظاً وافراً من التأييد والتشجيع والحماية.

واجتاحت الأمة الإسلامية تيارات عاصفة، عقائدياً وفكرياً وسياسياً واقتصاديا، وكان أخطرها تلك الاتجاهات العقلية التي باتت تستهدف أسس الإسلام، وعقائده الأصيلة من الداخل، وفي نفوس الأجيال الناشئة، لتهدم البناء الإسلامي من قواعده ـ ولن تفلح بإذن الله ـ ونشطت هذه الاتجاهات مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي نشاطًا هائلاً، وقد خلا لها الجو، وكان أكثر رواد هذه الاتجاهات من تلامذة المستشرقين[١]، الذين صنعهم الغرب على عينه.

ولم يطلع ليل القرن العشرين، إلا وقد آتت هذه الجهود ثمارها النكدة في المسلمين، وهيمنت طلائع العلمانية في تركيا ومصر، وسائر بلاد المسلمين، وبدأت على يد هؤلاء معركة ما يسمى بالصراع بين القديم والجديد[٢]، والحق أنها معركة التحرر من الإسلام من الداخل، فقامت حركة منظمة قوية عارمة تكونت منها جبهة متماسكة، يحكمها الهدف الواحد، والمصير الواحد، وأثرت ـ حسب تخصصات أفرادها وقدراتهم ـ في السياسة والأدب والفكر والتعليم والثقافة، وغيرها، ومنهم من أسهم في أكثرها كالدكتور طه حسين!

وأكثر ما تتضح الاتجاهات العقلية التي تهمنا، في تلك المؤلفات التي انهالت على الناس في كل جوانب الإسلام وأصوله إنكاراً، أو تشكيكًا وتشويهًا وتحريفًا، أو تهكمًا وسخرية بقيم الإسلام وأحكامه، والاستعاضة عنه بالإنتاج الغربي الراقي ـ على حد زعمهم ـ بصراحة حينًا، وبالمراوغة والمكر أحيانًا، فكان النصف الأول ـ من هذا القرن ـ كله بحق عهد بواكير الإنتاج الفكري

---

(١) من أشهر هؤلاء. **الدكتور طه حسين، والدكتور أحمد زكي أبو شادي، وسلامة موسى، والدكتور أحمد زكي (محرر مجلة العربي) ومن على شاكلتهم.**

(٢) راجع الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر الجزء الثاني ص١٩٠ إلى ٢٨٧ طبعة عام ١٣٨٩هـ.

للاتجاهات العقلانية الحديثة، حيث ساهم أكثر روادها في هدم جانب أو أكثر من أصول الإسلام في العقيدة والسلوك وغيرها.

* **وكانت البداية في السعي إلى إفساد المرأة:** ففي عام ١٩٠٠م أخرج قاسم أمين كتابيه: تحرير المرأة، والمرأة الجديدة[١]. داعيًا إلى التبرج والسفور وتخلي المرأة المسلمة عن الحشمة والحجاب والستر لتقلد المرأة الغربية المتخلفة أخلاقيّاً.

* **ثم اللغة:** فنشر سلامة موسى كتابه: (اليوم والغد) وهو مجموعة مقالات نشرت بين عامي ١٩٢٥م ـ ١٩٢٦م دعى فيه إلى ترك الإسلام واللغة العربية صراحة[٢].

* **ثم الوحي:** حيث كتب الدكتور طه حسين كتابه في الشعر الجاهلي عام ١٩٢٦م طعن فيه بصحة بعض القصص التي وردت في القرآن وزعم أن القرآن نتاج بشري، وأشياء أخرى تمس العقيدة في الصميم[٣]، ثم مقالاته وبحوثه وكتبه تباعًا، فيها التشكيك والطعن في الإسلام بكل وسيلة سواء في غير الإسلاميات مثل مستقبل الثقافة في مصر وفي الأدب الجاهلي وحديث الأربعاء، ونحوها، وإسلامياته، ولا تقل خطراً عما قبلها مثل على هامش السيرة، والفتنة الكبرى، التي لم تسلم منها العقيدة الإسلامية وقد تجرد فيها من كل شيء، إلا من الدس والطعن والتشكيك في القيم والأخلاق الإسلامية!

* **ثم السياسة والحكم:** حيث كتب الشيخ علي عبدالرازق كتابه الإسلام وأصول الحكم (عام ١٩٢٥م) زعم فيه أن الإسلام لا صلة له بالدولة، وأنه بريء من التدخل في السياسة والحكم والقضاء.

(١) راجع الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص١٠٨ الطبعة الثالثة.

(٢) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص٢٢١ ـ ٢٢٨.

(٣) المصدر السابق.

* **ثم السيرة:** حيث كتب الدكتور محمد حسين هيكل كتابه (حياة محمد) (١٩٣٥م) اهتم فيه بالجانب الإنساني، في حياة الرسول ﷺ وترك جوانب الوحي والنبوة والغيب وأنكر المعجزات، بدعوىٰ أن العلم الحديث لا يصدقها وعرض السيرة النبوية علىٰ نمط الدراسات الغربية المادية.

* **والحضارة:** حيث كتب الدكتور أحمد أمين موسوعته الإسلامية، في تاريخ الحياة العقلية للأمة الإسلامية في (فجر الإسلام وضحاه وظهره) أكد فيه الجانب العقلي في العقيدة الإسلامية، وقد تأثر بالعقلية المادية الغربية في بعض دراساته كما سيأتي بعد.

* **والسنة:** حيث كتب الشيخ محمود أبو ريّة كتابه (أضواء علىٰ السنّة المحمدية) طعن فيه في السنّة النبوية وحجيتها طعنًا مكشوفًا، كما طعن في عدالة بعض الصحابة رضي الله عنهم.

* **والقرآن:** حيث كتب محمد أحمد خلف الله (رسالة ماجستير) زعم فيها أن القرآن اشتمل علىٰ الخرافات والأساطير، وطبعها في كتاب بعنوان (الفن القصصي في القرآن).

هؤلاء من المشاهير والرُّواد في مصر وحدها، وكل هؤلاء من تلاميذ محمد عبده وخريجي مدرسته العقلانية، ولم تكن تركيا وبقية بلاد المسلمين بأقل حظًا منها:

فالاتجاهات العقلانية في تركيا قد واكبت ـ أو سبقت ـ أختها في مصر والشام، وقد تمخضت عن الثورة الكمالية بجهود رواد جمعية الاتحاد والترقي، الذين هم من أقوىٰ دعاة العلمانية والتجديد وإلغاء الخلافة، وإلغاء الحكم بالشريعة الإسلامية من الأرض وتحرير الشرق من الدين بزعمهم، حتىٰ قال أحد زعمائهم وهو (ناظم بك): «إننا نحن العثمانيين لا يمكن أن نترقىٰ إلا إذا نبذنا الدين وراء ظهورنا، وعَصَرْنا العلماء عَصْرًا نمحقهم به محقًا» ص١٣٢ عدد ٢٩

صفر عام ١٣٣١هـ من مجلة المنار المجلد ١٦ جـ٢، وقال أحد الباشوات: «لو كان في بدني شعرة تؤمن بفلان ـ وذكر خاتم الرسل وسيد العرب والعجم ﷺ ـ لقلعتها مع اللحم الذي حولها وألقيتها». فكان طلائع العلمانية في تركيا ملاحدة.

وقد أتخمت المكتبة الإسلامية، والصحف والمجلات ومناهج التعليم، بهذه الأفكار في العالم الإسلامي كله، وكما أتت هذه الاتجاهات ثمارها النكرة عقديّاً وفكريّاً، كذلك آتت ثمارها عمليّاً وسياسيّاً، فتمخضت عن العلمانية في تركيا أولاً، ثم في بقية بلاد المسلمين تباعًا إلا القليل كالمملكة العربية السعودية التي بقيت ـ بحمد الله ـ ترفع راية التوحيد والسنة، وتعلن العمل بشرع الله.

ثم عن القوميات والوطنيات والشعارات والاتجاهات التي مزقت أرض الإسلام وشتّتت المسلمين، ثم عن الاشتراكية، والنصرانية، والشيوعية والرأسمالية والبعثية والحداثة، وتسلطت العصابات على رقاب المسلمين، فجاست خلال الديار، وعاثت في الأرض فساداً.

في هذا الجو المتوتر المشحون بالفتن نمت وترعرعت وأثمرت المدرسة العقلانية الحديثة التي كانت من نتاجها ونشأت في أحضانها.

* * * * *

المبحث الرابع

أهم المؤثرات الأجنبية (غير الإسلامية) في المدرسة العقلانية

ذكرت في تاريخ المدرسة العقلانية الحديثة أن تاريخ الاتجاه العقلاني الغربي، والدراسات الاستشراقية، والتبشير والاحتلال الغربي للعالم الإسلامي، يعتبر جزءاً من تاريخ المدرسة العقلانية الحديثة في العالم الإسلامي، ذلك لأن كل هذه القوىٰ كان لها أكبر الأثر في استنبات الاتجاهات العقلية بين المسلمين ورعايتها، وتهيئة الظروف لها من ناحية، ومن ناحية أخرىٰ هي التي صنعت رجالها، وأمدتهم بالأفكار والدراسات والمفاهيم العقلانية.

وتلك المؤثرات أجنبية: لا من حيث كونها جاءت من وطن بعيد، أو من قوم أجانب، حسب المفاهيم الجاهلية الحديثة، وطنية كانت أو قومية عنصرية، أو سياسية، إنما المقصود أجنبيتها عن العقيدة الإسلامية، والمنهج الإلهي والشريعة الربانية.

وذلك لأن الإسلام هو وحي الله، بعقيدته وشريعته، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكل فكر أو مفهوم أو تصور عقدي أو تشريعي، لا يستمد من أصوله فهو أجنبي، في مفهوم العقيدة الإسلامية ولو صدر من بلاد المسلمين، ومن أشخاص ينتسبون للأمة الإسلامية.

فمقصودنا من المؤثرات الأجنبية: هي تلك المصادر ـ غير الإسلامية ـ التي استمدت منها العقلانية الحديثة أفكارها ومفاهيمها، وأهمها ـ كما قلت ـ المؤثرات الغربية، وهي مؤثرات جاهلية؛ لأنها قامت أسسها ومناهجها ومفاهيمها علىٰ الجهل بالله، ووحيه ودينه، وهي وثنية؛ لأن أصولها الفكرية قامت علىٰ تأليه الهوىٰ،

والنفس، والأشياء، والعلم، والحرية والشهوات، والمادة، ثم هي امتداد للوثنيات اليونانية والرومانية وغيرها، ودينها قائم على التثليث والشرك عند النصارىٰ، والتجسيم والشرك عند اليهود، وهي مادية؛ لأنها لا تؤمن إلا بالمحسوس، والمشاهد، والمنفعة والأنانية، وتعتمد مذاهب الفلاسفة التي تقوم علىٰ الإلحاد والتنكر للديانات وإنكار النبوات والمعاد.

ونحاول الآن أن نتعرف علىٰ مدىٰ صلة العقلانية الحديثة، وتأثرها بتلك **المؤثرات الأجنبية أو على الأصح أهمها، وهي:**

المستشرقون، المنصرون، والاتجاهات الغربية الأخرىٰ: كالوجودية، والحداثة، وحركة **سيادة** العقل أو **نظريات كل** من: فرويد وداروِن، ودركايم. فلنأخذ نبذة عن كل منها:

أ ـ المستشرقون:

في هذا البحث لا يهمنا الاستشراق بمعناه الواسع، إنما يهمنا أولئك المستشرقون، الذين اهتموا بالدراسات الإسلامية، وأثرهم وأثر دراساتهم في الاتجاهات العقلية الحديثة في العالم الإسلامي.

إن المستشرقين يعتبرون أساتذة مباشرين لرواد العقلية الحديثة علىٰ وجه العموم.

فإن منهم (أعني العقلانيين) من تتلمذ علىٰ المستشرقين، وتلقىٰ منهم مشافهة، إضافة إلىٰ التلمذة علىٰ كتبهم، كما أن منهم من سافر إلىٰ الغرب وتلقىٰ عنهم هناك، ومنهم من تلقىٰ من المستشرقين الذين وفدوا للعالم الإسلامي للتدريس في الجامعات أو المشاركة في المجامع اللغوية أو العلمية، أو سائر الأعمال الثقافية والتعليمية وغيرها التي فتحت لهم أبوابها في العالم الإسلامي.

ومنهم من تتلمذ علىٰ كتبهم ودراساتهم وبحوثهم ومقالاتهم وهم غالبية العقلانيين.

وعلى أي حال: فإن المدرسة العقلية الحديثة، أخذت كثيراً من أفكارها، ومفاهيمها، وقيمها، وموازينها، حول الإسلام، عقيدة وشريعة، وتاريخها من المستشرقين.

وبعبارة أخرى: إن المصدر الأول الذي تعتمد عليه العقلية الحديثة في دراساتها الإسلامية هو إنتاج المستشرقين.

وهذه دراسة مقارنة لبعض الدراسات العقلانية الحديثة مع الدراسات الاستشراقية؛ لتؤكد بها الصلة الوثيقة والأثر الكبير بين الفئتين وتبعية الأولى للثانية.

(١) إننا نجد (هنري ماسيه) أحد المستشرقين، يذهب في كتابه (الإسلام) إلى أن محمداً - ﷺ - لم يرضَ لنفسه إلا بمعجزة واحدة، وأن التقاليد الإسلامية هي التي اصطنعت له معجزات أخرى غيرها[(١)]، كما قال بها مستشرقون آخرون.

وقد تلقفتها العقلانية الحديثة والقديمة، ونادت بها كما فعل محمد حسين هيكل[(٢)] ومحمد فريد وجدي[(٣)].

(٢) كما يزعم (هنري ماسيه) أيضاً إلى أن فكرة المهدي والدّجال ونزول المسيح عيسى عليه السلام، بأنها مستمدة من المسيحية[(٤)].

ثم تلقفها عنه وعن غيره الشيخ محمود أبو ريّة فقال: بأن الدّجال ونزول عيسى من وضع تميم الدّاري - رضي الله عنه - جاء بها من مسيحيّاته.[(٥)]

(٣) ويقول (هنري ماسيه) بأن قصة إبراهيم وإسماعيل وبنائهما الكعبة من

---

(١) راجع الإسلام لهنري ماسيه ص١٤٣.

(٢) راجع كتابه حياة محمد ص١٤، ١٧، ١٠٢، ١١٢، ٢١٤.

(٣) راجع مجلة الأزهر المجلد الحادي عشر الجزء السابع ص١٥.

(٤) راجع الإسلام. هنري ماسيه. ص١٤٥.

(٥) راجع أضواء على السنّة لأبي ريّة ص١٨٢، ١٨٣.

الأساطير التي استمدها القرآن من أساطير اليهود والنصارىٰ .[١] وقال بها (مرجليوث)[٢] .

ثم أخذها عنهم طه حسين فزعم أن قصة إسماعيل وإبراهيم غير ثابتة تاريخيّاً مهما حدثنا عنها القرآن والتوراة والإنجيل[٣] .

(٤) ودعوىٰ أن السنّة غير ثابتة عن الرسول ﷺ؛ لأن فيها تناقضًا واضطرابًا، قال به المستشرقون أيضًا، ومنهم قولد زيهر في كتابه (مذاهب التفسير الإسلامي)[٤]، وقال به أيضًا: (ث. ج. دي بور) في كتابه (تاريخ الفلسفة في الإسلام)[٥] .

وقد قال بها من العقلانيين محمود أبو ريّة أيضًا وغيره[٦] .

(٥) ونجد أن المستشرقين أيضًا يقدحون في الصحابة، ويشككون في عدالتهم، ويرون أن المسلمين أحاطوهم بهالة من التقدير أكثر مما هم عليه في الواقع، فهذا (جب) يقسم الصحابة إلىٰ ثلاثة فرق:

الفريق الديني أصحاب الضمائر الأتقياء، وهم القلّة.

والفريق المكّي أصحاب المصالح التجارية.

والأعراب الذين ينشدون الخصب والرخاء[٧] .

ويوافقه (ديلاس أوليري) علىٰ هذا التقسيم إلا أنه جعل بدل الأعراب:

---

(١) راجع الإسلام. هنري ماسيه. ص٣٩.

(٢) راجع مفتريات علىٰ الإسلام لأحمد محمد جمال. ص١٣٩. ط٣.

(٣) راجع تحت راية القرآن لمصطفىٰ صادق الرافعي. ص١٤٤، ١٤٥.

(٤) راجع مذاهب التفسير الإسلامي لقولد زيهر. ص٤٤.

(٥) راجع الكتاب المذكور ترجمة محمد عبدالهادي. ص٤٣.

(٦) راجع أضواء علىٰ السنّة المحمدية لأبي ريّة. ص٨٥.

(٧) راجع دراسات في حضارة الإسلام. هاملتون جب. ص٧ـ١٠.

الموالي[١].

وقد استمد منهم طه حسين هذه الفكرة وبنىٰ عليها حكمه علىٰ الصحابة في كتابه (الفتنة الكبرىٰ ـ عثمان) فقسمهم إلىٰ ثلاثة أقسام:

فجعل المهاجرين والأنصار فئة، والقرشيين الذين تأخر إسلامهم (وهم المكّيون) فئة أخرىٰ، وعامة الناس[٢] فئة ثالثة.

(٦) ويدعي كثير من المستشرقين أيضًا: أن الإسلام مستمد من مجموع الأديان والحضارات من حوله، فيقول (روم لاندو) بأن الإسلام تبنىٰ العادات الجاهلية واستمد من القانون الروماني، وبعض الطقوس اليهودية وشيئًا من الفارسية واليونانية[٣]، وقال به (ث. ج. دي بور)[٤] أيضًا.

وقد أشار إلىٰ هذا طه حسين في مقدمة كتاب فجر الإسلام[٥] لأحمد أمين.

ومن جانب آخر نجد: أن العقلانيين يثنون علىٰ أساتذتهم المستشرقين كثيراً، ويفتخرون بهم وبدراساتهم، ويجعلون منها فتحًا علميّاً عظيمًا.

في الوقت الذي نجد فيه أن المستشرقين كلهم أساؤوا إلىٰ الإسلام إنما كانت تتفاوت نسبة هذه الإساءة فمن مقل ومكثر، واللهم إلا أولئك الذين هداهم الله للإسلام وهم قلة.

فهذه عبارات صدرت عن محمد حسين هيكل في الثناء علىٰ المستشرقين

---

(١) راجع الفكر العربي ومكانه في التاريخ، تأليف يلاس أوليري، ترجمة د. تمام حسين، مراجعة محمد مصطفىٰ حلمي ص٨٢، ٨٣.

(٢) راجع إسلاميات طه حسين، الفتنة الكبرىٰ ـ عثمان ص٧١١ ـ ٧٢٣.

(٣) راجع الإسلام والعرب، لرم لاندو. ص١٩٠، ١٩١.

(٤) راجع تاريخ الفلسفة في الإسلام تأليف ث. ج. دي بور. ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة. ص. ٣٦.

(٥) راجع فجر الإسلام لأحمد أمين، مقدمة الطبعة الأولىٰ د. طه حسين.

فيقول في الثناء على الغرب:

(وليس من ريب في أن الشرق اليوم في حاجة أشد الحاجة إلى النهل من ورد الغرب في التفكير وفي الأدب والفن)[١].

ثم يقول في الثناء على بحوث المستشرقين في الغرب:

(ومن الحق علينا للغرب أن نقول: إن ما يقوم به علماؤه اليوم من بحوث نفيسة في تاريخ الدراسات الإسلامية والدراسات الشرقية قد مهّد لأبناء الإسلام وأبناء الشرق أن يتزيدوا من هذه البحوث وتلك الدراسات)[٢].

ويقول عن منهجه في كتابه (حياة محمد): (ثم حرصت على أن أقرأ ما كتب بعض المستشرقين)[٣] يعني في حياة محمد ﷺ، ويقول: (فإنك واجد هذا الإجلال للعظمة والإيمان بقوتها في كتب العلماء المستشرقين واضحين جليين، عقد كارليل في كتابه «الأبطال» فصلاً عن محمد صور فيه الجذوة الإلهية المقدسة التي أوحت إلى محمد ما أوحت، فصور العظمة في جلال قوتها.. وموير وارفنج وسبرنجر وفيل وغيرهم من المستشرقين العلماء)[٤].

مع الإشارة إلى أن هيكل نبّه إلى أخطاء بعض المستشرقين وردّ عليها لكن على طائفة معينة منهم، خاصة أولئك الذين أساؤوا إساءات فاحشة إلى الإسلام ومع ذلك هو يقدّر جماعة من المستشرقين لا تقل خطراً عن الذين فنّد آراءهم في كتابه (حياة محمد).

وجمهور العقلانيين يجعلون بحوث المستشرقين وكتبهم في طليعة مصادرهم ومراجعهم الأساسية.

يقول الدكتور محمد غلاب: «لهذا يجب على كل مثقف من المسلمين أن

---

(١) راجع حياة محمد ـ محمد حسين هيكل. ص١٦.

(٢) المصدر السابق. ص١٦.

(٣) راجع حياة محمد ـ محمد حسين هيكل. ص١٨.

(٤) المصدر السابق ص٢١.

يضع دراسات المستشرقين في طليعة بحوثه، بل في الصف الأول من شواغله العقلية»[١].

وأظن هذا القدر من المقارنة، يكفي لإثبات تلقي العقلانيين عن المستشرقين وإكبارهم لأفكارهم، أكثر أفكارهم ومفاهيمهم، حول الإسلام وعقيدته وتاريخه، ومن خلال قراءتي المحدودة علمت واقتنعت بأن الأكثرية الساحقة من أقوال العقلانيين وشبهاتهم جاءت ابتداء من المستشرقين.

وكثيراً ما نجد الفكرة والمسألة التي يقولها واحد من المستشرقين أو أكثر، يتلقفها وينقلها أحد العقلانيين دون تحوير ولا تهذيب.

بل إن بعض الكتاب المحدثين يتقمص شخصيات استشراقية، كما لو كان نسخة طبق الأصل، وأصدق مثال على ذلك الدكتور طه حسين، نجد كثيراً من الأفكار والآراء العقلانية، التي قال بها في كتبه ودراساته، هي بعينها عند طائفة من المستشرقين، وقد ذكرت شيئًا من هذا.

ب ـ المنصرون:[٢]

إن حركة التنصير التي بدأت في وقت مبكر في العالم الإسلامي، قد تهيأت لها ظروف التأثير الفكري، على المثقفين المسلمين، في داخل العالم الإسلامي، أكثر مما يهيأ للمستشرقين أنفسهم، خاصة أيام الاحتلال المباشر على العالم الإسلامي.

---

(١) نظرات استشراقية في الإسلام، د. محمد غلاب. ص٤.

(٢) راجع الكتب التالية:

١ ـ الغارة على العالم الإسلامي تأليف ا. ل شاتليه، تلخيص وترجمة مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب.

٢ ـ أجنحة المكر الثلاثة. عبد الرحمن حبنكة.

٣ ـ شبهات التغريب. أنور الجندي.

٤ ـ الفكر الإسلامي الحديث. محمد البهي.

٥ ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية. د. مصطفى الخالدي، وعمر فروخ.

وسبب ذلك: أنها مارست وعملت ونفذت خططها التخريبية بين ظهراني المسلمين، عبر خدمات ومؤسسات ومدارس كان المسلمون بأشد الحاجة إليها آنذاك.

كما أنه من الجدير بالذكر أن هناك نشاطًا مشتركًا بين التبشير والاستشراق؛ لأن كثيراً من المستشرقين مارس التبشير في العالم الإسلامي.

وأثر المنصرين في المدرسة العقلية الحديثة يتجلى فيما يلي:

(١) **احتضان كثير** من أبناء المسلمين ـ وبالأخص بالذين تبدو عليهم علامات النجابة والذكاء والاستعداد لتقبل الأفكار الغربية، في محاضن تتجلى **في مدارس التنصير** ـ وهي مدارس نظامية حديثة ـ وكانت على كل المستويات والمراحل، من الروضة حتى الجامعة، فعلمتهم على منهج معيَّن، يقوم على تلقين الدارسين العلوم الأساسية، في الدين والتاريخ والفكر والثقافة، حسب المفاهيم والأفكار والمبادئ الغربية، وبأسلوب ماكر ذكي خادع.

كذلك في الملاجئ للأيتام التي اتجهت إليها الإرساليات التنصيرية في كثير من بلاد الإسلام للدعاية وكسب ثقة المسلمين بها.

وأهم شيء كانت تهتم به المدارس التنصيرية بعد عرض المفاهيم الفكرية الغربية، هو: **تعليم أبناء المسلمين اللغات الأجنبية الأخرى**، لتضمن انفتاح الدارسين على الثقافة الغربية حتى بعد مغادرتهم المدارس التنصيرية.

المهم في هذا أن هذه المدارس والكليات التنصيرية خرَّجت جيلاً من أبناء المسلمين، معزولاً عن عقيدته الإسلامية، وفي الوقت نفسه غني بالأفكار الغربية، ومستعد لإثارة الشبهات حول الإسلام، لزعزعة ثقة المسلمين بدينهم.

ونجد أن هذه الطبقة التي خَرَّجتها مدارس التنصير هي التي تولت تسيير التعليم والتوجيه والإعلام في بلادها، وتشكل القاعدة الأساسية للمدرسة

العقلانية الحديثة وأثر الجامعات التنصيرية الأمريكية في العالم الإسلامي لا يزال قويّاً، وملموسًا كالجامعة الأمريكية في بيروت، والجامعة الأمريكية في مصر وإيران والهند وتركيا وغيرها من بلاد المسلمين، وقد هيأت قوىٰ الاحتلال وعملاؤه في الداخل الفرصة لتمكين خريجي هذه الكليات من مراكز الصدارة والتوجيه الفكري والثقافي والسياسي في العالم الإسلامي كله، كما أنها ركزت علىٰ أن تجعل هؤلاء لا يؤمنون بقيم ولا أخلاق ولا دين، وغرست فيهم النزعة العقلية المنحرفة التي لا تؤمن إلا بالمحسوس أو الخاضع للتجربة العلمية، أو ما فيه منفعة عاجلة.

(٢) **إقامة العلاقات** الودية الخاصة بين المنصرين وبعض من أفراد المسلمين وأبنائهم، جعلت الثقة فيما بينهم كبيرة، قد تصل إلىٰ حد الإكبار، والإعجاب الأعمىٰ بالغربيين، ومن ثم الثقة بكل ما يقولونه وما يصدرونه من رأي.

وأكثر ما يحصل ذلك مع الطبقة الثرية والراقية المترفة، والتي تنزع إلىٰ الحياة الغربية وأسلوبها في التفكير والمعيشة، وقد نشط التنصير في هذه الطبقة وهيأها ثقافيّاً وفكريّاً بقبول عقيدة عزل الدين عن الحياة.

(٣) **اهتمام المنصرين** بالشبان والفتيات أكثر من غيرهم؛ لأن هؤلاء يتميزون بالفراغ العقدي والفكري، وضحالة المعلومات عن دينهم، ومن ثم ضعف الفقه في الدين، والتطلع إلىٰ مستقبل مثالي يرونه ماثلاً في الحياة الغربية الخادعة ببهرجها.

كما أنَّ الشباب هم الذين سيقودون الحياة ويوجهونها فيما بعد، ويتضح هذا جليا من المكانة التي تَسَنَّمَها خريجو الجامعات والكليات الغربية التنصيرية في بيروت وتركيا والقاهرة وإيران والهند وغيرها، فهم يعتبرون في التمركز في الدرجة الثانية بعد خريجي البعثات إلىٰ الغرب، وبعد الأساتذة الغربيين أنفسهم.

وإن نجح أسلوب سلكه المنصّرون في غزوهم العقدي الفكري والثقافي؛ وتركيزهم آخر الأمر على تَبَنّي إعداد مجموعة من أبناء المسلمين، تقوم بنفسها برسالة المنصرين، وتعمل بين أبناء جنسها كل ما يريده الغربيون دون عناء ولا مواجهة مباشرة مع المسلمين، الذين بدأوا يتذمرون من الأعمال التنصيرية ويكرهون المستعمر.

وفعلاً استطاع الغربيون - وعلى رأسهم المنصرون - أن يوجدوا من أبناء المسلمين أنفسهم، من يقوم بمهمة حرب الإسلام، وإبعاده عن الحياة من الداخل، وترسيخ العلمانية، وفي طليعة هؤلاء، مجموعة من المفكرين العقلانيين الذين ذكرنا شيئًا من أساليبهم في القضاء على الإسلام.

(٤) حرص المنصرون على التأثير على مناهج التعليم، من طريقين: **أحدهما** التأثير المباشر، بالإشراف، أو التنظيم، وإعداد الخطط والمناهج، كما فعل دنلوب، الذي لا يزال أثره العلماني الغربي على التعليم في البلاد العربية واضحًا، أو بالمشاركة في توجيه التعليم، كمستشارين تعليميين وثقافيين ونحو ذلك.

أو التأثير غير المباشر الذي يبدو من تفوق كثير من المدارس التنصيرية، في التنظيم والإعداد والتوجيه، مما جعل المدارس الأهلية والحكومية فيما بعد تتأسى بها، وتجعلها قدوة تحتذى.

(٥) إلقاء المحاضرات والأنشطة المتعددة الفكرية والثقافية والأدبية والاجتماعية، **والتي بمجموعها روَّجت** للكثير من المفاهيم العقلانية الغربية، **كما هيأت الأذهان إلى** قبول الشبهات حول الإسلام.

وعلى أية حال كل هذه الجهود أسفرت عن تخريج أجيال من أبناء المسلمين، تتنكر للعقيدة الإسلامية، وتشكك في ثبوتها وصحتها، وتتنكر لشرع

الله وحكمه، بإبقائها جاهلة بدينها أولاً، ثم ربط مصالحها السياسية والاقتصادية بعد ذلك بالغرب أخيراً.

وخرجت الاتجاهات العقلانية الحديثة في أحضان هذه الأجواء والظروف والأحوال التي سادت غالب بلاد المسلمين التي دخلها المحتلون والمنصرون وغيرها.

جـ ـ حركة ما يسمى (سيادة العقل):

إن حركة ما يسمىٰ (سيادة العقل) في أوروبا، هي التي وجهت الغرب إلىٰ التقدم العلمي التجريبي، والمدني، وذلك بتأثير الحضارة والمدنية الإسلامية، في الأندلس وفي الشرق الإسلامي.

لكن هذه الحركة العقلية في أوروبا سارت في اتجاه منحرف نحو الماديات وملذات الحياة وسيادة الرجل الأبيض، وذلك في نظري لسببين:

أحدهما: أن الغرب ما كان يملك دينًا وقيمًا وعقيدة سليمة تحفظ له التوازن المادي والروحي، بل العكس كان يتشبث بأصول فكرية وثقافية مادية ووثنية، من التراث الروماني واليوناني المادي، والكنسي المحرف، واليهودي الحاقد.

والثاني: ذلك التَحَكُّم الكَنَسِيّ الخاطئ، من قبل من يسمون برجال الدين في الغرب، الذين حاربوا باسم الدين وباسم الرب، مما جعلهم يقفون حجر عثرة ـ أول الأمر ـ أمام بوادر الوعي العلمي والفكري، إبَّان اتصال الغربيين بالمسلمين، في الأندلس وأثناء الحروب الصليبية، وتدخل رجال الكنيسة في مفاهيم العلم، وقام الصراع بينهم وبين المفكرين، فانتهىٰ برفض الغربيين لدين الكنيسة المحرّف، وتسبَّب في ردة الفعل ضد الدين كأنه الخصم الحقيقي للعلم، وفي النهاية قامت النهضة العلمية في معزل عن الدين ـ كل دين ـ بسبب ذلك الموقف الكنسي الآثم.

فسار العلم التجريبي والمدني على هذا الاتجاه العقلاني المادي المنحرف.

وقام هذا الاتجاه العقلي في أوروبا على الشعور بسيادة العقل البشري سيادة كاملة على نفسه وعلى الحياة، وأن العقل قادر على إزالة آثار التبعية للأديان حين انتصر على الكنيسة.

كما قام على دعوى أن الدين مُعَوِّق للتقدم، وأن الإنسان لديه العقل القادر على الاستقلال عن شرع الله، ومن ثم التخطيط للمستقبل، والتشريع دون تدخل خارجي، من وحي ورسالات وكتب سماوية وأديان.

بل إن الأمر تعدى ذلك كله عند الغرب، حين جعل للعقل حق التحكم في الدين والحكم عليه وتحليله، وإخضاعه للمفاهيم العقلية، والمادية القائمة.

والجدير بالملاحظة هنا: أنه يجب التنبيه على الفرق بين الإسلام الذي هو دين الله الكامل المحفوظ إلى يوم الدين، وبين النصرانية المحرفة، التي حاربت العلم في الغرب، فسيادة العقل في أوروبا حين حاربت الدين فإنما حاربت الدين حسب مفهومها، والذي هو على غرار تعاليم الكنيسة المحرفة.

أما الإسلام، من حيث هو دين الله الحق، فلا ينسحب عليه الحكم عند التحقيق، ولكن الغربيين ـ لكفرهم ـ لا يعرفون الإسلام حقاً، بل يكرهونه، ومن ثم لم يفطنوا لحقيقته وحقيقة ما جاء به من عقيدة وتشريع.

وعلى أي حال؛ سارت أوروبا إلى الحكم على الأديان كلها من هذا المنطلق الخاطئ، وانتقل المد الغربي، عبر الاستعمار والتنصير والاستشراق والغزو الفكري، قائمًا على نشر المفهوم العلماني، وهو: سيادة العقل والعلم على الدين، ومن ثم عزل الدين عن الحياة والدولة والتشريع وجعل الحكم الأول والأخير للعقل، والعقل وحده، ورفع هذا الشعار بدعوى أنه هو شعار التطور، والتنور، والعلمية.

وبهذا الشعار البراق الخادع : **العلمانية**، تلقفت العقلانية الحديثة في العالم الإسلامي هذا المفهوم، وتبنته، ودعت إليه وطبقته في مجالات الحياة، والثقافة، والتشريع والتربية، وكل أوجه الحياة التي تم لهم التمركز فيها وتوجيهها .

فقد دعا إليها (ضياء كوك ألب) في تركيا ثم جمعية الاتحاد والترقي وأخيراً عمل بها (مصطفىٰ كمال أتاتورك) علىٰ مستوىٰ الدولة، ودعىٰ إليها **(السيد أحمد خان) في الهند**، وأسس جامعة عليكرة علىٰ أسلوب العلمانية وسيادة العقل، وكما دعىٰ إليها النصارىٰ في الشام ومصر، وانتصر لها كثير من العقلانيين كالدكتور طه حسين، والشيخ علي عبدالرازق، ثم سرت إلىٰ كثير من بلاد العالم الإسلامي علىٰ هذا النمط في جانبها السياسي .

كما نادىٰ العقلانيون في بلاد الإسلام بسائر الشعارات العلمانية والسياسية والفكرية، التي انبثقت عن مبدأ سيادة العقل .

وذلك: مثل حرية الاعتقاد، والحرية الأخلاقية، ودعوىٰ التجرد العلمي عند البحث، مما كان له أسوأ الأثر في العالم الإسلامي .

ولما راجت هذه الشعارات الخادعة، تجرأت المدرسة العقلانية الحديثة علىٰ دين الله ورسالاته، فَحَكَّمت العقل في الوحي والغيب، وخاضت فيما ليس لها به من علم، وجعلت العقل في موقف الخصم مع الوحي .

وفي الوقت نفسه؛ أبعدت حكم الإسلام في بحوثها ودراساتها العلمية والأدبية والثقافية الأخرىٰ، بدعوىٰ التجرد العلمي وحرية الرأي، وتحكيم العقل، فَتَنصَّلَت بذلك من الدين، في الوقت الذي نراها فيه لم تتجرد ولم تتخلص من التبعية الغربية، ولا من الهوىٰ .

وتحت شعار الحرية الفكرية والعقائدية : انفتح باب الردة والإلحاد والزندقة، وتجرأ أصحاب الشكوك والشبهات والذين في قلوبهم مرض ـ كالشيوعيين

والحداثيين وأصحاب المذاهب الهدامة ومُدَّعي الحرية الشخصية وحرية الرأي ـ على إعلان عقائدهم وشبهاتهم الفاسدة.

وتحت شعار حرية الأخلاق، سعت العقلانية الحديثة لإفساد المرأة والشباب بتعميم الاختلاط المحرم، وخلع الحجاب، فكان العقلانيون من طليعة الإباحيين، الذين استخدمتهم الماسونية وغيرها بطريق مباشر أو غير مباشر لتحقيق أغراضها نحو المرأة، ذلك أنه من أهم أهداف الماسونية إفساد المرأة؛ لأن المرأة هي الركيزة الأولى في المجتمع، فإذا فسدت أفسدت الأسرة ثم المجتمع وكل ما حولها، فهي التي تخرِّج أجيال الأمة من بنين وبنات وتربيهم وتصنعهم على عينها.

وهكذا عملت العقلانية الحديثة على تشويه العقيدة باسم حرية الاعتقاد، وحرفت الأفكار باسم الحرية الفكرية، ودمرت الأخلاق باسم الحرية الخلقية، وأفسدت العقول باسم تحكيم العقل وحريته.

د ـ الوجودية الحديثة:

إنه بالرغم من أن الوجودية الحديثة التي ظهرت في الغرب، جاءت نتيجة لحركة (سيادة العقل) التي أشرت إليها من قبل، إلا أن الوجودية فلسفة ومذهب اتخذت طابعًا مميزاً من حيث الأصول الفكرية والمنطلقات العملية.

وقد قامت فكرة الوجودية في الأصل على الإلحاد، والإيمان المطلق بالحقائق التي يتوصل إليها العقل، وعلى إبراز قيمة وجود الفرد وأن الإنسان يجب أن يستقل عن أي شيء آخر وهو مذهب (كيركجرد)[1].

وتبلورت الوجودية على يد كل من (كانت وتشلنج، ثم ديبران وبرغسون وفردريك نيتشه).

(١) راجع الوجودية فلسفة الواقع الإنساني لغازي الأحمدي ص١٨، ١٩، ٢٠ وراجع المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها، د. عبدالرحمن عميرة ص٢٠٩.

وكان (نيتشه) يرىٰ أن الأديان والقيم إنما هي حجر عثرة أمام إرادة الإنسان، وضعها أناس ضعفاء الإرادة، وأنه لا بد من تمجيد الحرية المطلقة، وتقديس الذات الإنسانية، وهدم كل ما عدا ذلك[1].

وأنه يجب إنهاء دور دين الله في حياة الإنسان ليتمتع الإنسان بالحرية المطلقة، التي تعني في حقيقة الأمر الفوضىٰ، إذن هي راية الشيطان ﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا** ﴾[آل عمران: ٨٣]، ﴿ **قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾ [٤: المنافقون].

ثم جاء سارتر وعَمَّق هذا الاتجاه ودفعه إلىٰ الأمام، وزاده اندفاعًا إلىٰ الحرية والانفلات من القيود والضوابط الأخلاقية، وخاصة في مجال العلاقات الأسرية والزوجية، فقد ألح علىٰ التخلص من القيود الزوجية علىٰ حد زعمه، ودعوة كل من الرجل والمرأة إلىٰ إقامة علاقات جنسية دون حدود! يريدون الهمجية الحيوانية!؟

وبهذا نعرف أن الوجودية تتلخص في :

الإلحاد، والشك، **وحرية** الإنسان المطلقة.

وأن القيم والأديان قيود علىٰ فكر الإنسان وسلوكه.

والإنسان يجب أن يعتمد علىٰ نفسه، في تنظيم حياته وسلوكه، ليتمتع بالحرية المطلقة، **وأن كل من الأخلاق والفضيلة** والزواج والأسرة قيود علىٰ الإنسان يجب أن يتحرر منها.

وإذا نظرنا إلىٰ مجموع هذه المبادئ الوجودية، نجد أثرها في المدرسة العقلانية الحديثة واضحًا وملموسًا، خاصة جانب الشك، والانفلات، والميل إلىٰ

---

(١) راجع الوجودية فلسفة الواقع الإنساني لغازي الأحمدي ص٢٠ إلىٰ ٢٣.

الفوضى والتحرير من الدين والشرع، واعتبار العقيدة والحدود والسنن الإسلامية قيود وتحجر.

فقد شككت العقلية الحديثة في الوحي والدين وأصول العقيدة، واعتبرت الشريعة بمثابة الوصاية على الإنسان والحجر على حريته، وأن الإنسان يجب أن يشرع لنفسه، وأن العقل قادر على إدراك كل شيء في الحياة، ورفعت لواء الديموقراطية، أي: حكم الشعب، والحكم بغير ما أنزل الله.

ودعت أيضًا إلى الانفلات من الأخلاق بالدعوة إلى الاختلاط ورفع الحجاب وهتك الستر والحشمة عن المرأة، وإقامة علاقات غيرشرعية بين الرجل والمرأة، واعتبار الأحكام الشرعية في ذلك من التزمت والعنت.

كل هذه الأمور اندفعت إليها العقلية الحديثة بحماس وقوة (على تفاوت بين اتجاهاتها)، وكل ذلك تقليد للغربيين وتأثر بنظرياتهم وأفكارهم الوجودية وغيرها.

هـ ـ مجموع النظريات المادية المنحرفة:

لقد تميزت الجاهلية الغربية الحديثة بكثرة النظريات المنحرفة التي أوقعت العالم ـ والغرب بالأخص ـ في حالة من الفوضى الخلقية والاضطراب العقدي، والضيق والقلق النفسي، رغم ما تملكه من وسائل مدنية واكتشافات علمية هائلة، ورغم تقدم وسائل الترفيه والرغد في الحياة، وذلك أن النفس الإنسانية لا تسعد وتأمن إلا بدين الله وشرعه، قال تعالى: ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ أما النظريات والفلسفات الغربية فهي أخطر على الإنسانية **ومن أخطر تلك النظريات:**

(١) نظرية التطور لدارون، وهي إن كانت في بعض جوانبها قد تشتمل على معلومات جيدة ومفيدة، إلا أنها في الجوانب الأخرى كانت هدّامة، وكان

خطرها في زعزعة العقيدة أكثر(١).

كما أن النظرية استغلت من قبل اليهود والإباحيين لتحطيم القيم والأخلاق أكثر مما هي في حقيقتها(٢).

إن هذه النظريات تقول: كل شيء في هذه الحياة يتطور، من الحيوان والجماد، والدين والفكر والعقل والتاريخ(٣)، فخلطت الدنيا بالدين، والشهادة بالغيب وجعلتها في ميزان واحد، ومن ثم زعمت أن الدين يتطور كما أن الدنيا تتطور.

فأخذت هذه النظرية تسري في عقول الناس، وتحرك البحوث الإنسانية: العملية منها والنظرية، فأخضع الباحثون لها كل شيء حتى الأديان والعقائد أقصد بذلك أن الباحثين في الغرب اتجهوا إلى إخضاع الدين للبحث بدعوى أنه من ثمرات التطور الفكري والعقلي للبشرية، وإلا فالدين الحق إنما هو وحي من الله، ولن يخضع للأحكام والنظريات البشرية، لكنهم قوم لا يعلمون.

فقالوا بأن الدين تطور من التعددية والبدائية والطوطم عبر المراحل حتى وصل إلى الاعتقاد بالإله الواحد، والتشريعات المدنية الراقية بزعمهم.

إذًا فالعقيدة إنما هي بزعمهم نتاج بشري تطور في حياة البشر من سذاجته إلى رقيّه، بل إن (الله) فكرة تطورت في تفكير البشرية (على حد زعمهم) تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ [٥ : الكهف].

---

(١) راجع التطور والثبات في حياة البشر لمحمد قطب ص١١ إلى ٣٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

فلا شيء عندهم ثابت أو قابل للثبوت. فعقائد اليوم وأديانه ـ بما فيها الإسلام ـ شيء قابل للتطور والتطوير والإعادة، فالثبات على توهمهم هذا: فكرة رجعية غير علمية، والإنسان نفسه من الممكن أن يكون قد انحدر من سلالة حيوانية[١]! كل هذه الأفكار انبثقت عن نظرية التطور[٢].

وكان لهذه النظرية أثرها في اتجاه المدرسة العقلانية الحديثة التي دعت إلى إعادة النظر في العقيدة الإسلامية الثابتة، وإلى تطويرها بما يساير العلم والتطور الغربي على حد زعمهم، ولقد تبنتها مجموعة من العقلانيين وأدخلتها في مناهج التعليم في العالم الإسلامي.

(٢) نظرية دركايم، في علم الاجتماع والتي تذهب إلى: **أن الجماعة** هي الإله فهي التي تقرر الظواهر والعقائد والأفكار وأنماط السلوك والأخلاق والتقاليد وذلك عن طريق العقل الجمعي[٣].

وأن الدين لم يكن فطرة، ولا يوجد لدى الفرد من الأصل، إنما هو شيء تعارفت عليه الجماعات، كما أن القداسة التي أضيفت على الدين إنما هي من وحي العقل الجمعي على الفرد، ولا علاقة له بالله ولا بالوحي[٤].

كما أن النظرية أوحت إلى الغربيين أن الجماعة هي التي تقرر مصلحتها بنفسها وتشرع كما يريد الاتجاه الجماعي والمصلحة الجماعية، دون تدخل خارجي

(١) راجع التطور والثبات في حياة البشر لمحمد قطب ص١١ إلى ٣٤.

(٢) لست في هذا البحث أناقش النظرية علمياً إلا من جانب حكمها على العقيدة والدين؛ لأنها اشتملت في بعض جوانبها الأخرى على حقائق ونظريات علمية صائبة، مما جعل كثير من العلماء والباحثين يفتتن بها ويعتقد بصحة أحكامها حتى في الدين والعقيدة، وهذا خطأ؛ لأن العقيدة غير قابلة للتطور (وأقصد العقيدة الإسلامية) لأنها ربانية كاملة.

(٣) راجع التطور والثبات لمحمد قطب ص٥١ ـ ٥٧.

(٤) المصدر السابق.

من الدين والآلهة، وهم يقصدون آلهتهم الوثنية، والكنيسة المحرفة؛ لأنهم جهلوا أو تجاهلوا دين الله الحق، فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وقد استمدت العقلانية الحديثة أيضًا كثيرًا من أفكارها عن هذه النظرية خاصة قولهم: **بأن المصلحة** الجماعية هي التي تقرر الحلال والحرام، وهي التي تشرع لنفسها وأن المصلحة فوق الجميع.

وأن **للجماعة حق** رد أي شيء، أو قبوله ولو كان مما حرمه الله أو أحله فالدين والشرع وقول الله وقول رسوله لا اعتبار له أمام القرار الجماعي، وربما قالوا: بأن **الأحكام الشرعية** إنما جاءت لتحكم أناسًا بدائيين، وذلك زمن انقضى، وهذه نزغات من الشيطان تلقفها كثير من العقلانيين بين المسلمين اليوم.

ومن هنا انطلقت دعاوى كثيرة - في بلاد المسلمين - بأن المجتمع تطور فهو لا يرغب الحجاب ويريد السفور، أو يريد الاختلاط، أو يريد الحكم بغير ما أُنزل، أو لا يتناسب معه تطبيق الحدود. وهكذا! بدعوى أن هذا مقتضى الديمقراطية الزائفة.

(٣) نظرية فرويد: ولا تقل خطرًا عن سابقاتها.

وتتلخص نظرية فرويد: بأن حقيقة الإنسان الباطنية هي الطاقة الجنسية، وكل دوافعه وأنماط سلوكه ونشاطاته إنما هي مستمدة من طاقته الجنسية، ويفسر الدين والأخلاق بأنها انبثاق جنسي[١]. وأنه على الناس أن يلقوا عن أنفسهم عقدة الكبت الجنسي، ويسعى كل منهم لاستفراغ هذه الطاقة بكل حرية وعلى أي شكل شاء، فما هذه الأخلاق والأصول التي تستبشع الفاحشة والعملية الجنسية وتقيدها بحدود الزوجية والستر والعفة - بزعمه - إلا قيود وهمية اصطنعها الإنسان والدين، ينبغي التحلل منها ما دام الإنسان عرف أنها شيء طبيعي هو

---

(١) راجع التطور والثبات لمحمد قطب. ص٥١ - ٥٧.

أساس في تركيبه الباطني، فلتنطلق ولتندفع هذه الغريزة، ولتستفرغ هذه الطاقة ليعيش الإنسان سوياً معافى من عقدة الكبت، التي شَلَّت كثيراً من طاقات الإنسان ومواهبه. وهذه راية من رايات الشيطان الذي قال الله عنه: ﴿**إنما يأمركم بالسوء والفحشاء**﴾.

وانتشرت هذه النظرية إعلامياً وروّج لها اليهود وغيرهم أيما ترويج، وآتت ثمارها في غمس الناس في أوحال الجنس الحرام، غير مبالين بأخلاق ولا أديان ولا تقاليد، وتأثرت به العقلية الحديثة أيضًا في العالم الإسلامي، وساعدت في ترويجها فكريا وإعلاميا، فكانت المرتكز الأساس لدعوة ما يسمى بتحرير المرأة، والاختلاط، والحرية الأخلاقية التي هي الطابع العام للإعلام في سائر الصحف والمجلات ودور السينما وأجهزة الإعلام في غالب البلاد الإسلامية.

كما أن إيحاءات هذه الأفكار العفنة يتلقنها أبناء المسلمين في كثير من المدارس والجامعات وتقررها أكثر المناهج، ويروجها كثير من المعلمين والأساتذة في أغلب البلاد الإسلامية!

وخلاصة القول: إن هذه النظريات وغيرها بمجموعها شكلت اتجاهًا عقلانيّاً ماديّاً جاهليّاً منحرفًا، كان له أثره الحتمي في انهيار الحضارة والمدنية الغربية.

والعقلانية الحديثة بما أنها هي التي عملت ولا تزال تعمل لتحويل الحياة الإسلامية وجرفها لتساير الحياة الغربية، أو تتلقفها بحلوها ومرها ـ عقيدة وثقافة وفكراً وسلوكًا ـ نجدها تتبنى مجموع تلك النظريات والاتجاهات الغربية وتُرَوِّجُ لها بكل وسيلة، لكنها على تفاوت بينها كبير.

فلا نجد شيئًا من أنماط السلوك أو أنواع العقائد والأفكار والاتجاهات في الغرب إلا ويظهر له أنموذجًا في العالم الإسلامي، ودعاة يروجونه، وبعضهم قد يفعلون ذلك تحت شعارات إسلامية.

و ـ اتجاهات الحداثة في الغرب:

من آخر وأخطر المؤثرات الغربية في العالم الإسلامي والعربي منه بالخصوص الاتجاهات الحداثية، التي تقوم على ركائز الإلحاد والردة والتنكر للأصالة والدين والفضائل.. إلخ، وقد ركبت بعض الاتجاهات العقلانية العربية موجة الحداثة أخيرًا، بألبسة أدبية وفكرية وثقافية واجتماعية وسياسية وفنية وغيرها من القوالب والأشكال والرموز، وهي تقوم على نفس الركائز التي قامت عليها في الغرب: الإلحاد، التورية، التحلل، التنكر للقديم وتبني الشذوذات الفكرية والعقدية القديمة، خاصة الباطنية منها، وتحاول تشكيك الجيل بقيمه وأخلاقه وعقيدته.

ز ـ مذاهب الفلاسفة: والفلاسفة أكثر الناس افلاسًا، إذ يعيشون على الأوهام والتخرصات، وهم أعظم الناس إلحادًا وشكًا واضطرابًا، فلا يستقرون على قول، وليس عندهم يقين، وكل واحد منهم دينه هواه، وعقيدته رأيه. ومع ذلك نجد العقلانيين المعاصرين من أكثر الناس اعجابًا واطراء لهؤلاء المفاليس، ويقتبسون من آرائهم ما يحكمون به على الإسلام، لا سيما من يسمون بالفلاسفة الإسلاميين كالكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد.

فهؤلاء وأمثالهم من المفاليس يجعلهم كثير من العقلانيين المعاصرين قدوة وأنموذجًا يحتذى، كما فعل العقاد مع ابن رشد وابن سينا، ومصطفى الشكعة مع الكندي والفارابي وابن رشد، وكما فعل محمد عمارة مع ابن رشد وغيره. كما نجد أثر مذاهب الفلاسفة في كثير من ضلالات العقلانيين في صفات الله، والدين، والوحي، والنبوات، والملائكة، والغيبيات الأخرى، واليوم الآخر، وغير ذلك مما سيأتي بيانه.

وفي الأجزاء التالية من هذه السلسلة سنذكر نماذج من آراء الاتجاهات العقلانية الحديثة في أصول الدين وأحكامه، ومواقفها من الإسلام جملة وتفصيلاً إن شاء الله.

* * * * *

الفصل الثالث

ويشتمل على: آراء المدرسة العقلية الحديثة في كل من:

* الدين والتوحيد عبر التاريخ البشري.
* الإيمان بالغيب على وجه العموم.
* توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.
* الوحي والقرآن الكريم.
* النبوة والأنبياء والمعجزات.
* نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.
* السنّة النبوية وحجيتها، ومنه:
* عدالة الصحابة، والتابعين، والسلف الصالح، رضي الله عنهم.
* الملائكة والمخلوقات الغيبية الأخرى، التي ورد ذكرها في القرآن والسنّة كالجن والشياطين.
* اليوم الآخر والبعث والجنة والنار.
* القدر.
* التشريع والأحكام الإسلامية ومصادرها وتطبيقاتها.
* الإسلام على وجه العموم.

* * * * *

المبحث الأول

آراء المدرسة العقلانية الحديثة في الدين ونشأته والتوحيد عبر التاريخ البشري

تذهب أكثر الاتجاهات العقلانية والفكرية الحديثة في العالم الإسلامي في نشأة الدين وعقيدة التوحيد، وتاريخهما في الحياة الإنسانية الغابرة، مذاهب شتىٰ ـ أكثرها ينافي ما جاء صريحًا في القرآن الكريم ـ متابعة للنظريات الغربية التي ظهرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي، حول مفهوم الدين والتدين وتاريخ الأديان، وخلاصة ما تذهب إليه هذه **الاتجاهات**(١):

* أن الإنسان في الأرض بدأ حياته همجيّاً ساذجًا بدائيّاً، في تدينه وفكره وعقله وعيشه، ومن ثم فهو لم يعرف التدين إلا بعد أحقاب طويلة من حياته.

* ثم تطور عقله وفكره، مع تطور معيشته، حتىٰ تولدت عنده فكرة التدين دون تمييز واضح أو تعليم خارجي إنما شعر بحاجة ذاتية للتدين.

* ثم بدأ الإنسان في التدين وثنيّاً يعبد ما حوله، من قوىٰ طبيعية وأرواح، ورموز، بدافع الخوف والرجاء، والرهبة والرغبة، أو الشعور بالعظمة، أو النفع والضرر، لشيء من الأشياء التي من حوله كالجبال والأشجار والأحجار والنجوم والشمس والقمر وأرواح الموتىٰ والأسلاف والطوطم وغير ذلك.

---

(١) تراجع الكتب **التالية:**

(١) كتاب (الله) للعقاد من ص١٣ إلىٰ ٢٨.

(٢) كتاب (الله) لمصطفىٰ محمود من ص ٦١ إلىٰ ٦٤.

(٣) نشأة الدين والنظريات التطورية والمؤلهة ـ علي سامي النشار ص٤٠ إلىٰ ٤٣، ومن ٦١ إلىٰ ٧٣.

(٤) العقيدة الإسلامية والأيدلوجيات المعاصرة ـ د. عبدالغني عبود ص٤٩.

(٥) الدين لعبدالله دراز.

(٦) الإنسان في ظل الأديان، لعمارة نجيب.

بعد ذلك تطور وتدرج في التدين من الوثنية الخالصة إلىٰ التمييز والترجيح بين المعبودات، فالثنائية أو المعبود الواحد لكل أمة أو قبيلة، إلىٰ أن توصل إلىٰ الاستعداد للإيمان باله واحد، أي: أن الإنسان جاء إلىٰ هذه الأرض لا يعرف الله ثم اكتشفه بمحاولات عقله، عقب تجارب ومراحل زمنية طويلة.

وتعتبر هذه الاتجاهات الدينَ ظاهرة إنسانية، كسائر الظواهر الاجتماعية وتقاليد البشرية للأمم. وهذا دليل تخبطهم وتخرصاتهم، وجهلهم أوتجاهلهم كما أنزله الله تعالىٰ من الحق والهدىٰ، الوحي الذين بَيَّنَ الله فيه الحق في ذلك، وأن الله تعالىٰ خلق الناس علىٰ الدين وفطرهم علىٰ التوحيد، ولما انحرفوا عن التوحيد والدين الحق، أرسل الله إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب منذ نشأة البشرية وفي كل زمان ومكان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

ويبدو لي: أن من أكثر العقلانيين المحدثين تطرفًا في هذا الجانب، الأستاذ عباس محمود العقاد.. فهو يرىٰ: أن الأمم القديمة لم تكن تعرف الإيمان بإله واحد لا إله غيره إلا ما كان من المصريين، بعد زمن طويل من تاريخ الإنسانية، في عهد أخناتون، وإن كانت البشرية عرفت الإله الواحد فلم تعرف التوحيد، إنما عرفت أنه خلق الأحياء وخلق معهم أربابًا آخرين..[1] بل لقد قال بالحرف الواحد بأن من يريد أن «يبحث في الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن السخف والغباء، إنما يبحث عن محال»..[2] ويقول: «أما ديانات الأنبياء فلا وجود لها في غير السلالة العربية»[3]!

هكذا يرىٰ الأستاذ عباس العقاد، إذ أنه يعتقد ـ كما صرح في كتابه إبراهيم

---

(١) انظر كتاب العقاد ـ إبراهيم أبو الأنبياء ـ ص٥٠٢ المجلد الخامس من موسوعة العقاد الإسلامية ـ الطبعة الأولىٰ.

(٢) الله ـ للعقاد ص١٤.

(٣) إبراهيم أبو الأنبياء ـ للعقاد ٤٨٢.

أبو الأنبياء ـ أن الدعوات النبوية بدأتها دعوة إبراهيم[١]! . . أما قبل ذلك فلا وجود لها. لكن ماذا يقول هذا المخذول وأمثاله في نبوة آدم ونوح وإدريس التي صحت في القرآن والسنة؟!

ويذهب مصطفى محمود إلى أنه «بدأ الحال بالناس أمة واحدة على الجهل والمادية والكفر. . .»[٢].

ويبدو ـ كما أسلفت ـ أن هذه الاتجاهات الحديثة ـ تبعًا للغربيين ـ تتجاهل أو تجهل ما جاء عن الوحي والرسالات والنبوات، التي جاء تفصيلها في الكتب المنزلة من الله، وفصَّلها القرآن الكريم، كما سيأتي إن شاء الله.

وحين مناقشة هذه الآراء نجد لأول وهلة: أنها تخمينية لا تستند إلى أدلة علمية ولا عقلية، ولا تثبت أمام البحث العلمي.

ذلك أن الاستدلال على تاريخ العقيدة والأديان، لا يخضع للاستقراء والاستنتاج العقلي المجرد، ولا للتجارب المادية العلمية، إنما طريقه ما ينقل لنا من أحوال تلك الأمم، وذلك قد جاءنا من طريقين كل منهما يصدق الآخر، ودلالاتهما قطعية.

فأحد هذين الطريقين: الوحي المنزل من الله تعالى في الكتب السماوية التي قَصَّت علينا أخبار تلك الأمم وأحوالها، لا سيما من جانب العقيدة والدين، وأقرب هذه الكتب وأسلمها: القرآن الكريم، فهو أصدق وثيقة يستدل بها، بإجماع المسلمين، ومنهم رواد العقلية الحديثة أنفسهم، ثم ما صح عن رسول الله ﷺ.

أما الطريق الثاني فهو: الآثار التي يتم اكتشافها تحت الأرض من بقايا تلك الأمم، وسيأتي الكلام عنها.

وأظن أن رواد العقلية الحديثة لا يمارون في صحة ما جاء في القرآن، فهم

---

(١) إبراهيم أبو الأنبياء ـ للعقاد ٥٠٨.

(٢) محمد عليه السلام ـ لمصطفى محمود ص٧.

يدَّعُون ذلك. . . وعلىٰ هذا يجب التسليم له وتصديق ما جاء فيه، فالقرآن الكريم أثبت بأسلوب قطعي بيِّن لا غموض فيه، بأن البشرية من أول عهدها، وعلىٰ امتداد التاريخ كله، عرفت عقيدة التوحيد، والإيمان بالله لا إله غيره، نقية صافية منزهة من السخف والغباء، وأنها بدأت حياتها في هذه الأرض مفطورة علىٰ الفطرة السليمة، تعبد الله وحده لا إله غيره، ثم تدرجت بالشبهات والشهوات والجهل إلىٰ الشرك والوثنية، فأرسل الله إليها الرسل بأن تعبد الله وحده لا شريك له، وأن تترك الأوثان والمعبودات من دون الله، فمنهم من استجاب ومنهم من حقت عليه الضلالة. . وأن تاريخ الإنسانية كله مليء بالصراع بين الحق والباطل، أي بين عقيدة التوحيد وعبادة الله وحده لا إله غيره، وبين الشرك وعبادة الأوثان. والآيات التي وردت في ذلك كثيرة، أذكر منها:

قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾(١). .

وقال: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾(٢). .

وقال: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾(٣). .

وقال تعالىٰ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيداً ﴾(٤).

وقال تعالىٰ: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا

(١) الآية ٣٦ ـ النحل.

(٢) الآية ٢٤ ـ فاطر.

(٣) الآية ٧٥ ـ القصص.

(٤) الآية ٤١ ـ النساء.

جاءتهم البينات بغيا بينهم ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾[٢]، وقال: ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾[٣]. . وقال: ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾[٤]. . وصح عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه قال: «... **وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم...**»[٥].

إذن: فلِمَ يذهب العقلانيون المحدثون للبحث عن هذه الحقيقة في متاهات النظريات الغربية؟ وهذا القرآن بين أيديهم يهديهم إليها بيسر لا عناء فيه، ووضوح لا خفاء فيه، ويقين لا شك فيه، يصدقه الواقع ويؤيده العلم، فالله يقص علينا في كتابه الكريم أنه كَرَّمَ بني آدم واستخلفهم في الأرض وأرسل إليهم الرسل ـ لكل أمة منهم، وأحيانًا لكل قرية ـ يهدونهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وأن الله يبعث من في القبور، ويجازي علىٰ العمل يوم القيامة، ويرشدونهم إلىٰ طريق الفلاح والهدىٰ في الدارين، أطاعهم البعض وعصاهم آخرون، وقام الصراع بين أنصار الله وأنصار الباطل، حتىٰ يقضي الله بينهم بالحق، وأن البشرية تعي هذا جيداً كلها وستحاسب عنه يوم القيامة، وتقوم عليها الحجج، وأن الله سيُشهد أمة محمد ﷺ علىٰ الأمم كلها بأن الله بعث إليها من يعلمها؛ أن الله لا إله غيره هو وحده المستحق للعبادة، ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾[٦]، وأن ذلك بدأ مع بداية حياة البشرية.

---

(١) الآية ٢١٣ ـ البقرة.

(٢) الآية ٤٧ ـ يونس.

(٣) الآية ٨٠ ـ آل عمران.

(٤) الآية ٧ ـ الرعد.

(٥) من حديث أخرجه مسلم برقم (٢٨٦٥).

(٦) الآية ١٤٣ ـ البقرة.

وقد قص الله في القرآن لنا قصص بعض هذه الأمم، بما لا يدع مجالاً للشك في أن الإنسان من أول عهده بالأرض عرف الدين الحق: التوحيد، والإيمان بالله، وعبادته وحده لا شريك له، فقال عن نوح وقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1] . . وأنهم عصوه فأهلكوا بالطوفان، ولم ينته الأمر عند هذا الحد؛ فقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[2] . . ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾[3] . .

وهكذا يتضح من خلال هذه الآيات: أن رسالات الله مسلسلة متواصلة دون انقطاع.

فتعويل هؤلاء الكتاب العقلانيين المحدثين على الدراسات الغربية، مع أن للإسلام قوله الفصل في هذه المسألة، وتجاهل ما ثبت عن الله تعالىٰ، ضلال وانحراف.

وأخذ رأي الغربيين في هذا الصدد أيضًا دون مناقشة ولا تمحيص تَسَاهُل وتقليد أعمىٰ؛ لأن الدراسات الغربية تستبعد من حسابها الوحي الإلهي والتوحيد والأديان، وإن اعترفت بالأديان فإنما تعني بذلك الأديان الوثنية، كالبوذية أو شبه الوثنية كاليهودية والنصرانية الحالية المُحَرَّفَة. فأقرب النظريات الغربية للصواب؛ إنما تجعل تاريخ الوثنية هو نفسه تاريخ التدين والتوحيد، إذْ هي لا تعرف التوحيد إلا مشوبًا بالشرك، فكيف بالنظريات الأخرىٰ، التي تستبعد الأديان السماوية

(١) الآية ٥٩ الأعراف.

(٢) الآيتان ٣١، ٣٢ المؤمنون.

(٣) الآيات ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤ المؤمنون

أصلاً، وهي غالب النظريات الغربية التي تُعَوِّل عليها المدرسة العقلية الحديثة في دراساتها؟!

ومن الجدير بالذكر أن أحدث الدراسات الغربية، وأقواها علميّاً، والتي اشتهرت وسادت خلال هذا القرن ـ العشرين الميلادي ـ اضطرت الباحثين ـ أمام الآثار والكشوفات العلمية الحديثة ـ إلى القول بأن الإنسان عرف الله الواحد، وعبده أولاً، وقبل كل شيء، فأقدم الآثار دلت على ذلك.. لذلك رجح كثير من علماء الغرب نظرية التَّأَلِيْه، وهي أن الإنسان عرف الله وعبده أولاً ثم انحرف إلى الشرك وتعدد المعبودات و «أن التوحيد هو منشأ الأديان، وليس هو نهاية التطور الديني»[1].. يقول الدكتور عبدالله دراز في كتابه (الدين) بعد أن ذكر نظرية التَطَوُّر في الدين وخطأ القائلين بها: «وفريق آخر يقرر بالطرق العلمية بطلان هذا المذهب، ويثبت بالعكس أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر، مستدلاً بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم في القديم والحديث، فتكون الوثنيات إن هي إلا أعراض طارئة أو أمراض متطفلة بجانب هذه العقيدة العالية الخالدة»[2]..

ثم ذكر أن هذه النظرية هي التي انتصر لها علماء الأجناس وعلماء النفس وعلماء الإنسان مثل (لانج) الذي أثبت وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل في استراليا وأفريقيا وأمريكا، كذلك أثبت غيره من العلماء والباحثين مثل (شريدر، وبروكلمان، ولرواه، وكاترفاج، وشميدث)[3]..

وهكذا قامت عندهم الأدلة العلمية على أصالة التوحيد، بينما بقيت النظريات الوثنية وهمية دون سند علمي إلا الأهواء والتخرصات والقول على الله بغير علم.

---

(١) نشأة الدين ـ علي سامي النشار ص٢٠٦.

(٢) الدين ـ للدكتور عبدالله دراز ص١٠٧.

(٣) انظر: الدين، للدكتور عبدالله دراز ص١٠٧.

وإذا كان الكتاب العقلانيون المحدثون يتشبثون بالعلمية ومواكبة أحدث الاكتشافات والنظريات العلمية، فلماذا نراهم في هذه المسألة لا يزالون يتعلقون بنظريات القرن الثامن عشر والتاسع عشر، التي تزعم أن الإنسان بدأ حياته وثنيًا مع أنها في القرن العشرين أصبحت في الغرب نفسه مرفوضة علميا عند محققيهم، كما ذكر آنفًا؟

وأخيرًا: تبين لنا من خلال آيات القرآن الصريحة، ومن خلال الكشوف العلمية والآثار والتحقيق العلمي الرصين، أن الله حين خلق بني الإنسان لم يتركهم هملاً، بل فطرهم على التوحيد والسلامة من الانحراف والشرك حنفاء لله ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[1] . . ثم اجتالتهم الشياطين عبر الشبهات والشهوات والجهل حتى

أشركوا مع الله غيره من سائر المعبودات، فبعث النبيين مبشرين ومنذرين وداعين إلى عبادة الله وحده، فلا داعي بعد هذا للتخبط والأوهام والتيه في متاهات التاريخ المجهول بغير برهان ولا دليل.

أما ما ذهب إليه العقاد من إنكار النبوات قبل نبوة إبراهيم عليه السلام، وأن النبوات كانت في العرب فحسب . . فسيأتي في فصل النبوات إن شاء الله.

* * * * *

(١) الآية ٣٠ الروم.

المبحث الثاني
مزاعم المدرسة العقلية الحديثة
في عقيدة الإيمان بالغيب

وفي هذا الفصل سأناقش مسألة الإيمان بالغيب في عمومها، وهو الإيمان بكل ما ورد عن الله في كتابه (القرآن الكريم)، وما ورد وثبت عن رسول الله ﷺ، من الإخبار عن أمور غيبية لا يدركها الإنسان بحواسه، ولا يستنبطها بفكره وعقله المجرد، أما تفصيلات الأشياء الغيبية كالملائكة والجن، والجنة والنار، وغيرها من المخلوقات والموجودات التي أخبر عنها الله ورسوله، فسيأتي الكلام عنها مفصلة في مباحث مستقلة.

ومسألة الإيمان بالغيب، والاعتقاد بوجود مخلوقات وأشياء غائبة عن مداركنا، كلها أمور لا تخضع للتجربة والمشاهدة، والإدراك البشري، فهي من أعقد المشكلات التي واجهت العقلية المادية الغربية ومن يدور في فلكها اليوم، ومن ثم شاعت تلك الدعوىٰ المزعومة بأن الغيبيات التي تتحدث عنها الديانات السماوية إنما هي وهم لا دليل عليه ولا سند له، وزعم الملحدون أن العلم ينفي أو يكذب هذه الأشياء أو لا يثبتها. وهذه فرية كبرىٰ وبهتان عظيم علىٰ العلم، فالعلم لا يملك نفي مالم يدركه الإنسان، وكذلك العقل.

وقد تأثرت طوائف من المفكرين والمثقفين وجمهرة من الشباب في العالم الإسلامي بهذه الدعوىٰ، وأخذوا يرددونها بين المسلمين، كالببغاوات.. فقالوا بأن العصر لم يعد عصر الذين يؤمنون بالغيب، إنما هو عصر التقدم والعلم الذي لا يؤمن إلا بالتجربة والمشاهدة ومن ثم زعموا بأن العلم والغيب ضدان، وأن العلم أثبت أن الغيب خرافة. وهم بهذا بهتوا العلم، وظلموا العقل، حين نسبوا

جهلهم وتخبطاتهم وإلحادهم إليهما.

وقد أصابت العالم الإسلامي في مطلع القرن العشرين ـ الميلادي ـ موجة عاصفة من التشكيك، والتكذيب بأمور الغيب، التي يرتكز عليها الإسلام، انهزم أمامها علماءُ مسلمون، أو محسوبون على الإسلام وعلى الدراسات الإسلامية، وصاروا فيما بعد من رواد المدرسة العقلية الحديثة التي ساهمت في زعزعة عقيدة بعض المسلمين من الداخل، وستأتي أسماء بعض هؤلاء عند الكلام على كل مسألة من مسائل الإيمان بالغيب.

المهم: أن قضية إنكار الغيب، أو التشكيك فيه، أو تأويله، أصبحت الآن من القضايا الملحة عند بعض المسلمين، حيث اصطبغت بها أفكارهم وثقافاتهم، وغرست في أفكار وعقول بعض الجيل الحاضر، نتيجة الجهود التي بذلها كتاب ومثقفون ومفكرون وأدباء من أبناء جلدتنا حين تأثروا بهذه النزعة الإلحادية وبثوها من خلال كتاباتهم، ومقالاتهم، وبحوثهم، وأشعارهم، وسائر مناشطهم وحواراتهم، حتى صارت هذه النزعة الإلحادية سمة وظاهرة قد يعتز بها كثير من مثقفينا. **فحسبنا الله ونعم الوكيل.**

ومع أن هذه الموجة ـ موجة التشكيك والتكذيب بالغيب يحسها الكثير (في عالمنا الإسلامي) في وسائل الحياة اليومية، إلا أنه من المفيد أن أورد بعضًا مما جاء في ذلك، وهو غيض من فيض:

ذكر الشيخ مصطفى صبري في كتابه **(موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين)** أن أحد الأساتذة أعضاء بعثة الجامعة المصرية (سابقًا) في باريس كتب مقالة بعنوان (عدة النجاح لرجل القرن العشرين) جاء فيها:

«وصفوة القول: إن الرجل العصري، يجب أن ينبذ العقلية الغيبية ويطاردها في كل مكان، حتى تستوي له عقلية علمية، من هذا الطراز الذي

نشاهده، في معامل العلماء»[١] . . فتأمل كيف وقع هذا المخذول أسيرًا للتقليد الأعمىٰ وظن أن المعاصر ينافي الإيمان بالغيب، وزعم أن العلمية والعقلية ينافيان الغيب.

وقد نالت هذه المقالة الجائزة الأولىٰ في مباراة صحفية أجريت في مصر[٢] . . لذا قد لا يكون غريبًا أن يتفوه ممسوخ بمثل هذا الكلام، إنما نقف طويلاً عند فوز مثل هذه المقالة الملحدة في مباراة صحفية تجرىٰ في بلد مسلم، علىٰ يد موجهين من الذين أجازوا وأقروا ـ بل وأعلوا ـ شأن مثل هذا الكلام.

ويقول زكي مبارك: «سيأتي يوم قريب أو بعيد ـ يثور فيه الناس علىٰ الأمور الغيبية، ولكنهم لا يستطيعون أن يثوروا علىٰ عبقرية محمد»[٣] . . وأقول: إنه إذا لم يبق لنا من ديننا إلا عبقرية محمد ﷺ، فإن العباقرة في العالم كثير، فإذا خسرنا نبوته ورسالته ﷺ، فلا حاجة لنا بعبقرية مجردة من النبوة والرسالة والهداية التي ميّز الله بها نبي هذه الأمة حتىٰ صار بها أفضل العالمين ﷺ، وخصال النبي ﷺ محمودة كلها ترتقي بالنبوة والرسالة، قال تعالىٰ: ﴿**ووجدك ضالا فهدى**﴾.

وقال الدكتور/ كامل عياد: «إن طريقة البحث العلمي جعلتنا لا نتقيد إلا بالواقع الذي تدركه الحواس، وأن نتحرر من العقائد الغيبية»[٤] . . وهو بهذا يزعم أن طريقة البحث العلمي تحرر من العقائد الغيبية، لكنه لا يستطيع أن يثبت لنا كيف حرره العلم من الغيب. وهكذا نجد أن هذه الفئة الضالة توهم القراء والسذج والجهلة أن العلم يحارب العقائد الغيبية وينافيها، نعوذ بالله من هذا

(١) راجع موقف العقل والعلم والدين من رب العالمين وعباده المرسلين، لمصطفىٰ صبري جـ١ ص١٨٧.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) مجلة الرسالة، العدد الخاص بأول العام الهجري ١٣٥٣.

(٤) العالم العربي للدكتور/ كامل عياد ١٦٤ـ نقلاً عن مشكلات الجيل في ضوء الإسلام، لمحمد المجذوب ص٢٥.

الوسواس الخناس.

ويطلق الدكتور حسن صعب على العصور الإسلامية: «عصر الغيبية والتجريد» والعصر الحديث «عصر الإيجابية والعلمية»[١] فهل بذلك يعني أن عصور الإسلام عصور سلبية وجهل؟ (معاذ الله) وهل نسي هذا الجاهل أن ما أسماه عصر الغيبية كان هو عصر العزة والازدهار العلمي والحضاري في تاريخ الإسلام والبشرية جمعاء.

ويقول الدكتور أحمد زكي أبو شادي: «والدين الإسلامي يتميز بأنه يدعو إلى المعرفة بالبحث والتحقيق التجريبي، ولا يطلب الإيمان بدون اقتناع ولا يفترض الاقتناع بغير برهان، فهو يختلف عن الأديان الأخرى، وإن تفرع عن بعضها، أو على الأصح استوعبه، يختلف من حيث إنه لا يتعرف الحقيقة بالغيبيات أو من وجهة مختلفة لوجهة العلم أو على مدركات مخالفة لتلك التي تؤلف مادة العلم الطبيعي»[٢].. وهكذا يحلو للكاتب أن يجرد الإسلام من الغيبيات من أجل أن يتفق مع العلم، كما يزعم، وكأن العلم عدو الغيب، وهذا الإيحاء الإلحادي يؤثر على القارئ الذي لا يفقه في دينه، ولم يتعلم العقيدة الصافية.

ويرى كثيرون أن أهم أسباب التخلف في العالم الإسلامي هو الإيمان بالغيبيات، وأنه من أراد التحرر والتقدم فلا بد له من «تحويل المجتمع من الإيمان المطلق بالغيبيات»[٣]. ولو قالوا عكس ذلك لأصابوا، فإن أعظم أسباب الوهن والتخلف بين المسلمين إنما هو من إخلالهم بعقيدة الإيمان بالغيب وأولها أركان الإيمان الستة ومستلزماتها.

---

(١) راجع الإسلام وتحديات العصر، للدكتور/ حسن صعب ص٦٦.

(٢) عن ثورة الإسلام للدكتور/ أحمد زكي أبو شادي ص٧٢، ٧٣.

(٣) هذه العبارة وردت عن بعض المفكرين في ندوة الشهر التي نقلتها مجلة (الكاتب) المصرية ص٤ إلى ٢٩ من عدد ٤٦ يناير ١٩٦٥م. وكانت هذه الندوة مليئة بهذه العبارات ونحوها.

وأمام ضغط موجات الإنكار والتشكيك والتهكم بالإيمان والمؤمنين بالغيب انهزم كثير من المفكرين وأنصاف العلماء، فوقعوا في إنكار بعض الأخبار والنصوص الصحيحة، أو عمدوا إلىٰ تأويلها تأويلاً يبعدها عن ظاهر النص فوصفوا بعض القضايا الغيبية برموز وأوصاف هي إلىٰ الإنكار أقرب منها إلىٰ الإثبات، **أمثال الشيخ محمد عبده، والدكتور محمد حسين هيكل، والدكتور أحمد أمين، والشيخ/محمد فريد وجدي، والشيخ شلتوت، والدكتور محمد البهي وغيرهم، وسيأتي ذكر آرائهم في مواضعها من هذا البحث، إن شاء الله.**

ناهيك بالدكتور طه حسين وزملائه وتلاميذه؛ لأنهم من صنائع المستشرقين، والمستعمرين، والذين يدورون في فلك الغرب، ولا يملكون لأنفسهم عقيدة ولا مذهبًا إلا الهدم، والتشكيك والتبعية، وسيأتي استعراض أقوالهم من الرواد الأصليين للاتجاهات العقلية الحديثة (أو الفرق والمذاهب الضالة) بالمفهوم السلفي الأصيل.

المهم: أنه باسم العلم، والعلمية، والمنهج العلمي، تطاول العابثون والمنهزمون بقصد وبغير قصد، علىٰ العقيدة الإسلامية، خاصة الإيمان بالغيب، فَحرَّفوا ورَدُّوا صريح القرآن أو صحيح السنة، حتىٰ زعم بعض العلماء المنسوبين للأزهر والدراسات الشرعية، أن السنة لا يحتج بها في العقيدة وإن صحت. وسيأتي ذكر القائلين بهذا الرأي من العلماء وغيرهم في (رأي المدرسة العقلية الحديثة في السنة وحجيتها من هذا البحث).

وباسم العلمية والمنهجية، نُزِعَتْ أو أضعفت مسائل الدين والإيمان بالغيب من مناهج التربية والتعليم والتوجيه، في بعض البلاد الإسلامية، بل استهدفت للنقد والهجوم والسخرية من رواد العقلية الحديثة، الذين تولوا بعض مقاليد الأمور في كثير من بلاد المسلمين، فنشأت أجيال لا تعرف عن العقيدة، إلا التشكيك أو أنها خرافات وأساطير من بقايا ومخلفات العصور المظلمة.

والآن: فلنناقش هؤلاء الذين يزعمون أنهم مسلمون وتهمهم قضايا المسلمين والإسلام ثم هم يشككون ويؤولون وينكرون أحيانًا بعض المسائل الغيبية، التي وردت في النصوص الصريحة الصحيحة عن الله ورسوله، نناقشهم على ضوء النصوص أولاً، ثم على ضوء العلم والعقل الذي يتحاكمون إليه ثانيا، ويزعمون أنه يثبت أو ينفي أو يقرر بهذا الصدد، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وذلك على النحو التالي:

أولاً: الإسلام لا يقوم إلا على الإيمان بالغيب، ولا يتحقق إسلام المسلم إلا به فأركان الإيمان وأصوله، إنما هي غيب، فالإيمان بالله غيب، والإيمان بالملائكة غيب، والإيمان بالكتب والرسل غيب، ولا تحقق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، إلا بالتسليم والإيمان بالله ورسوله وكتابه وبالإيمان بجبريل واسطة الوحي، وكذا اليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى، كل هذه الركائز العظمى - التي هي أصول الإيمان والإسلام - غيب.

ولا يتم الاهتداء بالقرآن إلا بالإيمان بالغيب ﴿**الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ [١،٢، ٣ - **البقرة**].

ولا يكون للغيب، والتعبد بالإيمان به معنى، إذا حاولنا أن نتطاول لمعرفته بحواسنا أو عقولنا، وإذا شخَّصنا أو حكمنا به كما نتصور؛ لم يكن غيبًا؛ إن أصبنا الحقيقة، وكنا كاذبين، إن خالفنا الحقيقة التي هو عليها كما أراده الله وأوجده. إذًا فالخوض بالغيب عبث وجهالة، وخروج عن مقتضى الإيمان؛ لأن الله تعالى أخبرنا أنه لن يطلعنا على الغيب: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ**﴾ [١٧٩: **آل عمران**].

فالتطلع إلى الغيب أو الخوض فيه، كما يفعل رواد العقلية الحديثة، تشكيكًا

وتأويلاً وتحريفًا، إنما هو تطاول على مقام الألوهية ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [٢٠: يونس]، ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [٥٩: الأنعام] ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [٦٥: النمل]، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [٢٦، ٢٧: الجن].

ثم إن الله تعالى جعل الإيمان بالغيب امتحانًا وابتلاءً لعباده لحكمة، فإذا أمكنهم معرفته أو الاطلاع عليه دون إذنه تعالى، صار ذلك عبثًا في حقه تعالى، وهو مستحيل ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [٩٤: المائدة]، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [٢٥: الحديد]. لذلك امتدح المؤمنين بالغيب في آيات كثيرة.

ولو كان لأحدٍ من خلق الله الاطلاع أو التطلع لالتماس الغيب، أو القدرة عليه، لكان رسول الله ﷺ أحقهم وأقدره، ومع هذا قال الله يحكي مقالته للكافرين: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [٥٠: الأنعام]، وقال: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [١٨٨: الأعراف] فالنبي ﷺ ـ وهو أفضل الخلق ـ لا يعرف من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه.

ثم إنه تعالى أنكر على الذين يخوضون فيما لا يعلمون من أمور الغيب فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [٤١: الطور] وقال: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ [٣٥: النجم].

ثانيًا: الإيمان بالغيب الذي ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، اهتداء لا يوفق إليه إلا المسلم المذعن لله، والمؤمن بكل ما جاء عن الله ورسوله، كما أن الإيمان بالغيب لا يقوم إلا على التسليم لله تعالى، أما الكافر أياً كان اتجاهه، فإنه مغلق القلب والبصيرة، عن الإيمان بالغيب، مهما أوتي من العلم ووسائله وأجهزته، فقد قال الله عن الكفار بأنهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [١٧٩: الأعراف]، ومن هؤلاء الذين وصفهم الله: علماء الغرب ـ غير المسلمين ـ الذين علموا ظاهراً من الحياة الدنيا بالوسائل العلمية الحديثة.

فسماهم الله ووصفهم بهذه الصفات وهو سبحانه العليم بهم وخالقهم، مع أنهم يعلمون ظاهر الحياة الدنيا ويعقلون حياتهم المعيشية البهيمية، ويسمعون ويبصرون في حياتهم المادية كما نعلم، فهذا يعني أنهم لا يدركون ولا يهتدون إلى الحق، ولا يؤمنون بالغيب، بمجرد مداركهم البهيمية، من قلوب وأعين وآذان مجردة، إذا صرفهم الله تعالى بضلالهم عن الاهتداء بالوحي المنزل من الله.

فإذا كانت حالهم ـ ولا تزال ـ كما أخبر الله عنهم، مع ما يملكونه اليوم من وسائل العلم، وأجهزة الاختراع والإبداع، ودقة الملاحظة والاستنتاج المادي، فما بال بعض المسلمين من المعجبين بهم، يحتجون بهم وبعلمهم وآرائهم في الدين، ويجعلون ذلك ميزانًا يزينون به عقيدتنا وإيماننا، ثم هم تبعًا لهم يزعزعون ثقة الأجيال المسلمة بدينها وعقيدتها، تهكمًا وتشكيكًا وتأويلاً، وإنكارًا في بعض الأحيان؟

ما بالهم يَرُدُّون ما جاء عن الله في كتابه وسنة رسوله؛ لأنه لا يتلاءم مع عقلية الغرب، وعلم الغربيين، أو لأن الغربيين يهزأون بهم حين يؤمنون بالغيب، وحين يؤمنون بالوحي والنبوة والملائكة والبعث والجنة والنار والمعجزات والكرامات؟ فإذا كان الغرب الملحد علم ظاهرًا من الحياة الدنيا، وجهل الدين والإيمان بالغيب، وخسر دينه وآخرته (وإن كسب شيئًا من حطام الدنيا) فما بال هؤلاء المنافقين يلهثون وراءهم؟ إنها ولا شك الانهزامية وضعف الإيمان.

وصدق الله تعالى إذ يقول في وصفهم: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

(٣٩) وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [٣٦ إلى ٤١ : يونس] .

ثالثًا: بما أنَّ رواد الاتجاهات العقلية الحديثة في العالم الإسلامي، خاضوا في الغيب أو بعضه، إنكارًا وتشكيكًا وتأويلاً، بحجة أن العلم أو المنهج العلمي، ينفي أو يخالف اعتقاد المسلمين في ذلك، أو أنه لم يثبته، أو أنه أثبت أن الإيمان بالغيب خرافة، على حد زعمهم. **فلنتساءل:**

هل العلم، أو المنهج العلمي الحديث، كما يسمونه، ينفي الإيمان بالغيب؟ وهل أثبت أو برهن على أن الإيمان بالغيب إيمان بالخرافة؟ وهل يملك العلم الوسيلة للإثبات أو النفي في ذلك؟ **لنرى:**

* **إن العلم الحديث**[1]، لم يبحث عن الغيب ولا يملك أي وسيلة لذلك، ولم يقحم نفسه في هذه الأمور، بل إنه لم يحاول الاستدلال على صحة الغيب أو وجوده، فالعلم الذي يعنونه، وهو العلم المادي الحسي، إنما أعطى الناس مناهج للبحث والابتكار المادي ولا شأن له بالدين والغيب إلا التأييد، **فلماذا** يبهتون العلم ويفترون عليه، ويعلنون باسمه إلحادهم وتشكيكهم وخوضهم الباطل.

* **وإن العلم الحديث**، الذي يقدسونه إنما هو علم تجريب، ومشاهدة واستنتاج، واستقراء مادي حسي، لا يملك أي طريقة أو وسيلة صحيحة وسليمة يحكم بها

(١) راجع الكتب التالية:

(١) تهافت العلمانية، للدكتور/ عماد الدين خليل ص٢٠ إلى ٣٠.

(٢) الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، تعريب ظفر الإسلام خان ص٤٥ إلى ٥٢.

(٣) الله، للعقاد ص٣٠٠ ـ ٣٠٨

(٤) عقائد المفكرين للعقاد أيضًا ص٥٤ ـ ٦٦.

(٥) الإنسان ذلك المجهول، الكسس كاريل ص١٥ ـ ٢٤.

(٦) نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي ص١٢١ ـ ١٧٦.

(٧) في ظلال القرآن، لسيد قطب ـ المجلد الأول ص٣٩ ـ ٤٠.

في أمر الغيب، أو الاستدلال على حقيقته وإدراكه. ومن لا يملك الدليل على الإثبات فهو أعجز من أن يملك الدليل على النفي.

فلا يستدل على الغيب بالمعمل، أو بالمجهر، أو بالآثار والكشوفات والاكتشافات العلمية، المادية، أو الاستقراء العقلي المجرَّد، فالعقل لا يستطيع قولاً (نفيًا ولا إثباتًا) في الإيمان بالغيب دون هدى من الوحي، وإن عرف الخالق وسائر المسميات الكبرى بالضرورة، فإنه لن يعرف تفاصيل ما أخبر عنه الخالق من أمور غيبية أخرى، وإن العلم الحديث لا يملك أي وسيلة علمية منهجية للإيمان بالغيب، فلماذا يحتجون على المؤمنين بأن العلم الحديث ينفي الإيمان بالغيب أو يناقضه؟! مع أن الأمر ليس كذلك.

* **وإن كان العلم الحديث** يجهل أمور الغيب، فجهله لها لا يكون دليلاً على عدم وجودها، إن هناك قاعدة مسلمة بين العلماء تقول: «الجهل بالشيء لا يلزم منه عدم وجوده». وهذه قاعدة بديهية عقلية، فإذا كانت العقلية الغربية تجهل الغيب، ولا تؤمن به، فلا يعني جهلها هذا أن الغيب خرافة، لا وجود له في حقيقة الأمر.

* **فإذا كان العلم الحديث**، أو ما يسمونه بالمنهج العلمي لم ينفِ علم الغيب، ولا يستطيع نفيه، ولا يملك الوسيلة العلمية لهذا النفي، بل هو إلى إثبات الغيب أقرب، فلماذا يرفع هؤلاء الببغاوات بين المسلمين عقائرهم، زاعمين بأن العلم الحديث هو سندهم في النفي والإنكار، أو التشكيك والتأويل، في أمور الغيب التي وردت عن الله ورسوله؟ وإذا كان الله أخبرنا أنه لن يطلعنا على الغيب، إلا من ارتضى من رسول، فلماذا يلتمس هؤلاء - وهم يزعمون أنهم مسلمون - علم الغيب عند الكافرين نفيًا وإثباتًا؟ إن هذا لهو الجهل بعينه.

* **وإذا كان العلم الحديث** - الذي يعبدونه من دون الله - يعترف على ألسنة جهابذة علمائه، ورواده في العالم كله، أنه رغم ما وصل إليه من كشوفات واختراعات ووسائل علمية هائلة، فإنه لا يزال يجهل حقائق كثير من الموجودات

التي تخضع للتجارب والمشاهدة في المعامل، وأمام المجاهر، وبين الأجهزة المتقدمة، فقد اكتشف الإنسان الطاقة الكهربائية، ولم يعرف كنهها بعد، وآمن بالجاذبية كحقيقة علمية، ولم يعرف كنهها، إنما عرف آثارها فحسب، وفجر الذرة واستخدمها كطاقة ولم يشاهدها بعد، إنما شاهد آثارها فقط. وأشياء أخرىٰ كثيرة من هذا العالم المادي المحسوس، لا تزال يجهلها الإنسان، رغم تقدم الوسائل، أفيسعه ويسع الببغاوات باسمه إنكار الغيب أو تأويله؟ إن العلم نفسه يجيب: لا. كما بينت.

* **وإذا كان هذا الإنسان** الذي تقدم في العلم، واستخدم أرقىٰ الوسائل العلمية، لا يزال يجهل أشياء كثيرة في نفسه، وفي عالمه، وفي جسمه الصغير المحدود، الخاضع للتجربة والمشاهدة، والسبر والاستقراء والاستنتاج، فلا تزال في الإنسان قوىٰ وطاقات وأحوال نفسية وعقلية وعاطفية ووجدانية وعضوية، يجهلها كل الجهل رغم المحاولة الجادة لفهمها، فالعقل وعملياته العقلية والفكرية، والنفس والتواءاتها، وخلجاتها، والروح وطاقاتها، كل هذه الأشياء وغيرها في ذات الإنسان وكيانه، لا تزال في عالم المجهول بالنسبة له. يقول الكسس كاريل في كتابه: «الإنسان ذلك المجهول»:

«وفي الحق لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه، ولكنه بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأماكن، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا.. إننا لا نفهم الإنسان ككل.. إننا نعرفه علىٰ أنه مكون من أجزاء مختلفة وحتىٰ هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا، فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة»[١].. ثم يقول:

«وواقع الأمر أن جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التي يلقيها علىٰ أنفسهم

(١) الإنسان ذلك المجهول ـ تأليف الكسس كاريل ـ تعريب شفيق أسعد فريد ص١٧ ط١٩٧٤م.

أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب؛ لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة»[١] . .

هذا إقرار من عالم من أشهر علماء الغرب في القرن العشرين، ويوافقه الكثير من علماء الغرب ـ كما هو معلوم ـ على الاعتراف بأن العلم ـ رغم تقدمه الهائل ـ فلا يزال يجهل أشياء كثيرة جداً في حياة الإنسان والأرض والأحياء والجماد من حوله وأنه كلما تقدم في العلم زادت نسبة المجهول إليه، أي كلما اكتشف شيئاً عرف أنه يجهل أسرار أشياء أخرى لم تكن في حسبانه من قبل ولم تخطر له على بال .

إذا كانت هذه حال الإنسان، وجهله بنفسه وبالأشياء القريبة حوله، فكيف بعلم الغيب؟ بل لماذا يتمسك رواد العقلية الحديثة من المعجبين بالغرب، بعلم لا يتعدى المحسوسات، ولم يعرف أسرار الإنسان نفسه، فيحكّمونه في علم الغيب الذي ورد عن الله تعالى، خالق الإنسان والقائل: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [٨٥: الإسراء] .

فيزعزعون عقيدة المسلمين، فهذا ينكر قصص القرآن، والآخر ينكر معجزات الرسول ﷺ، وثالث يدعي أن علوم الغيب تمثيلية لا حقيقة لها، وآخر يسخر من أشراط الساعة، وآخر يسخر من آيات القدر وأحاديث القدر، وهكذا . .

كل ذلك باسم العلم والمنهج العلمي، والمسايرة والمعاصرة، معاصرة الإنسان التائه في الغرب، ذلك الإنسان الذي لم يعرف حقيقةَ نفسه وسرَّ خَلْقِه، وَحَقَّ ربِّه، فعاش الشقاء والقلق والحيرة، ثم الضياع والانتحار، ثم جهنم، وبئس القرار .

إنني هنا أناقش المسلم أو الذي يدعي الإسلام والذي لديه بقية من إيمان بالله

---

(١) المصدر السابق ص١٧ .

ورسوله، وكتابه، لكنه ضعف إيمانه، فاختلط عليه الحق بالباطل، وبهره بهرجة التقدم المادي الخادع، فصار لا يفكر ولا يسمع ولا يبصر إلا من خلاله، فأفسد على المسلمين دينهم باسم الإصلاح، **فَضَلَّ وأَضَلَّ**، وهو يحسب أنه من المهتدين.

* **والعلم الحديث نفسه** يقود الإنسان الجاحد إلى الإيمان بالغيب، فلقد اضطر كثير من الملحدين في العالم إلى الإذعان للعلم وحقائقه التي قادتهم راغمين إلى الاعتقاد بوجود خالق مدبر عظيم لهذا الكون، فكيف بالمؤمن؟ أقول ذلك لأن العقلانيين يؤمنون بالله، ويدَّعون ذلك.

إن نسبة الملحدين بين العلماء في الغرب أقل منها بكثير بين أنصاف المثقفين بين المسلمين[1]، بل إن جميع العلماء والباحثين، يعترفون بأن القرن العشرين يمتاز عن القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبله بأنه ـ رغم التقدم المادي الهائل ـ يعتبر عصر الإيمان، والشك في الإلحاد، في حين أن القرن التاسع عشر كان بالنسبة للغرب عصر الشك في الغيب وفي الإيمان[2].

ويقول العلماء الغربيون بأن البحوث العلمية اليوم، تزيد الإنسان تقربًا إلى الإيمان بالله، وبالغيب المجهول والدين[3]، فلماذا يبقى رواد العقلية الحديثة ـ عندنا ـ رجعيون يفكرون بعقلية القرن التاسع عشر؟ ألا يخجلون من أساتذتهم الغربيين ومن العلم الذي يقدسونه؟

فإنهم كذبوا وشككوا، وأولوا في مسائل الإيمان بالغيب، الذي هو شرط دينهم، خجلاً من المنهج العلمي، وأصحابه في الغرب، فلم يلحقوا بركب

---

(١) راجع عقائد المفكرين للعقاد ص٩٩ إلى ١٢٢.

(٢) راجع (الله) للعقاد ص٢٣ من المجلد الأول من موسوعة العقاد الإسلامية، وراجع أيضًا عقائد المفكرين للمؤلف نفسه ص٩٦.

(٣) نفس المرجع السابق.

العلم وأصحابه، الذين أصبحوا يشكون في الإلحاد نفسه، وهذا أمر معيب علمياً.

وأخيراً نقول لرواد المدرسة العقلية الحديثة بعد هذا النقاش، لنخاطب وجدانهم، وفطرتهم، بعد أن خاطبنا عقولهم:

إذا كانوا يؤمنون بالله تعالىٰ ورسوله ﷺ، وبالقرآن الكريم، ولا يرضىٰ أحد منهم أن يتهم بإسلامه، فلماذا لا يثقون بالله، ويؤمنون به، ويُسَلِّمون له ولرسوله ﷺ، ويؤمنون بما جاء عن الله تعالىٰ وصح عن رسول الله ﷺ من أمور الغيب؟ وقد أخبرهم الله أنه لا أحد في البشر يستطيع الاطلاع علىٰ الغيب، وهم يعلمون أن الله هو عالم الغيب والشهادة، ثم هم يعلمون ـ أو يجب أن يعلموا ـ أن الشك والتأويل دون دليل في أمور الغيب التي أخبر بها الله ورسوله، خلل ونقص في العقيدة، قد يخرج المسلم من الإسلام.

يقول سيد قطب رحمه الله: «والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه الحواس إلىٰ مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس، وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوىٰ المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير، كما أنها بعيدة الأثر في حياته علىٰ الأرض، فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته، ويتلقىٰ أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود، وأن وراء الكون ظاهره وخافيه حقيقة أكبر من الكون هي التي يصدر عنها واستمد منه وجوده، حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول.

وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له وما لم توهب القدرة للإحاطة به، وما لا يجدي شيئًا أن نتفق فيه.. إن الطاقة الفكرية التي وهبها الإنسان، وهبها ليقوم بالخلافة في الأرض فهي موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة تنظر فيها وتتعمقها وتتقصاها وتعمل وتنتج، وتنمّي هذه الحياة وتجعلها، على أن يكون لها سند من تلك الطاقة الروحية التي تتصل مباشرة بالوجود كله، وخالق الوجود، على أن تدع للمجهول حصته في الغيب الذي لا يحيط به العقل، فأما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة بحدود هذه الأرض والحياة عليها، دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة، وترك حصة للغيب لا ترتادها العقول.. فأما هذه فهي محاولة فاشلة أولاً، ومحاولة عابثة أخيرًا، فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال، وعابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال، ومتى سَلَّم العقل بالبديهة الأولى وهي أن المحدود لا يدرك المطلق لزمه - احترامًا لمنطقه ذاته - أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل، وأن عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون، وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل، وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن، والغيب والشهادة، وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين»[1]..

وعلى هذا، فلو كان الغيب في متناول الإنسان، وأنه بإمكانه الاطلاع عليه، لما امتدح الله المؤمنين بالإيمان به، ولو كان للعلم ووسائله قدرة على البت في الغيب نفيًا وإثباتًا، لما سمي غيبًا، ولما كان للإيمان به فضل وميزة للمؤمنين. والله سبحانه أعلم.

* * * *

(١) في ظلال القرآن - المجلد الأول ص٣٩ - ٤٠ الطبعة الخامسة الشرعية.

المبحث الثالث
مزاعمهم في توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات

١ ـ توحيد الربوبية:

إن الإقرار والاعتقاد بأن الله تعالىٰ هو الرب الخالق الرازق المدبر المشرع الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، من الأمور الضرورية المركوزة في فطرة كل إنسان، والتي تدركها كل بديهة وهذا هو توحيد الربوبية، فهو شيء غريزي يشترك فيه الإنسان والحيوان وسائر المخلوقات.

فالعقلية الحديثة، تقر بهذا المبدأ.. مبدأ الإيمان بأن الله هو الخالق، وهو رب العالمين.. لكنها تخل بهذا الإقرار حين تقف عند هذا الحد، فلا تلتزم بلوازمه الاعتقادية ولا العملية، لا سيما في موقفها من حكم الإسلام وشرائعه وأحكامه، فإن أكثر الاتجاهات العقلانية تقرر كليًا أو جزئيًا بأخذ التشريع والنظم والأحكام عن غير ما شرعه الله، وهذا خلل في توحيد الربوبية، أدىٰ إلىٰ الخلل بتوحيد الالهية، كما سيأتي بيانه في توحيد الإلهية.

وذلك: أن الإقرار بالربوبية يستلزم الطاعة والامتثال والتسليم لله، ما دام هو الخالق الرازق المدبر المشرع رب العالمين... فالطاعة والامتثال والتسليم لا تلتزمها العقلية الحديثة كما يحب ربنا ويرضىٰ.

هذا يعد نقصًا في التوحيد؛ لأن الله تعالىٰ عدَّ إبليس عاصيًا، وغضب عليه ولعنه وطرده من رحمته، مع أنه يقر بالربوبية وأن الله هو الخالق الرازق.. لكنه حين أمره الله بالسجود، وقف إزاء أمر الله عاصيًا، فاستحق غضب الله، ولعنته، وصار من الكافرين.

كما أن المشركين الذين ورد ذكرهم في القرآن، كانوا يؤمنون بأن الله هو الرب الخالق الرازق، لكنهم لا يلتزمون بمقتضى توحيد الربوبية وهو التشريع والطاعة والامتثال واتباع أمر الله وشرعه.

قال تعالى عن أولئك المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [٦١: العنكبوت]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [٨٧: الزخرف].

فاعترافهم بأن الله هو الخالق المسخّر، لم يدخلهم في حظيرة الإيمان، بل إنهم مع هذا يعبدون مع الله آلهة أخرى ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [٣: الزمر]. فهم مشركون رغم إقرارهم بتوحيد الربوبية.

وهذا هو حال المدرسة العقلية الحديثة على وجه العموم، فهي تقر بتوحيد الربوبية نظريّاً، لكنها تخل بمستلزماته، وما يستتبعه من عمل وامتثال لأمر الله وشرعه فتفصله عن توحيد الألوهية، التوحيد الأعظم، كما تخل أيضًا بتوحيد الأسماء والصفات.

٢ ـ توحيد الألوهية:

توحيد الألوهية هو التوحيد المطلوب الذي جاءت به الرسل، قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، وقال سبحانه عن الأنبياء أنها قالوا لأممهم: ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، وتوحيد الإلهية يتضمن توحيد الربوبية، فلا يتم توحيد الربوبية، إلا بتحقيقه.

فتوحيد الألوهية، هو توحيد الطاعة والامتثال لله، واتباع شرعه لأمره ونهيه وقضائه، واتباع رسله.

وأن الله تعالى هو وحده المستحق للعبادة، والخوف والرجاء.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [٢٣: الإسراء].

وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ

وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [٥ : البينة] .

والمدرسة العقلية الحديثة من أهم خصالها وسماتها، أنها تخل بتوحيد الألوهية، وتفرق بينه وبين توحيد الربوبية .

ففي الوقت الذي تقر فيه بوجود الخالق، وأنه هو الرب المحيي والمميت نجدها تتوقف في امتثال شرعه وأمره ونهيه، ولا تفي بحق الإيمان برسله وكتبه ووحيه وقَدَرِه .

ومظاهر النقص في توحيد الألوهية في المدرسة العقلية الحديثة كثيرة، أجملها فيما يلي :

١ ـ **أنهم ـ كأسلافهم** أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية ـ يحصرون التوحيد بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، أما توحيد العبادة الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه فلا يعرفونه، يقول شيخهم محمد عبده : «التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفاته، وما يجب أن ينفى عنه، وعن الرسل . . . »[(١)] .

٢ ـ **التشكيك** في نسبة الوحي من الله لعباده المرسلين، ومحاولة نسبة الوحي والشرائع إلى الأنبياء أنفسهم، وهذا خلل في توحيد الألوهية . وكذلك الإخلال بمفهوم الوحي وكلام الله تعالى وتفسيره بما يُفهم أنه من نتاج البشر أو المخلوق .

٣ ـ **ادِّعاء** العقلانيين بأن القرآن والسنة (شريعة الله أو بعضها كالحدود والحجاب) لا تصلح للتطبيق في هذا العصر، وأن الدين لا صلة له بالدولة، والحياة، وما اتبعوه كذلك عمليّاً، من تعطيل الحدود، والتحاكم إلى الطاغوت (الأنظمة البشرية الوضعية) والحكم بغير ما أنزل الله في سائر شئون الحياة،

---

(١) رسالة التوحيد لمحمد عبده، ص١٧ .

وتفضيل ذلك كله على شريعة الله، فكل ذلك ونحوه خلل أساسي في توحيد الألوهية الذي هو أصل التوحيد من حيث إن الناس في هذا الأمر يعبدون غير الله في التشريع والطاعة(١).

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٤٤: المائدة] وفي الآية الثانية ﴿الظَّالِمُونَ﴾، والثالثة: ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ [٤٥، ٤٧: المائدة].

وقال تعالى عن النصارى إنهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [٣١: التوبة]. . وذلك أنهم أطاعوهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام كما ورد عن رسول الله ﷺ في حديث عدي عندما جاء إلى الرسول ﷺ. . إلى أن قال عدي **«فقلت: يا رسول الله، إنهم لم يعبدوهم، فقال: بَلَى، إنَّهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»** الحديث(٢).

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [١٢٣، ١٢٤: طه].

وذكر تعالى أن الإيمان لا يتم إلا بتحكيم الرسول ﷺ، وما شرعه الله، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [٦٥: النساء].

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [٧: الحشر].

---

(١) مسألة الحكم والحاكمية والتشريع علاقتها بالتوحيد لها جانبان:

أحدهما: كونها تشريع، فإن المشرع هو الله تعالى، وهذا ألصق بالربوبية.

والآخر: كونها شرع من الله يجب على العباد اتباعه وطاعته والتعبد لله به، فهذا ألصق بالإلهية، والله أعلم.

(٢) رواه أحمد والترمذي، وذكره ابن كثير في تفسيره، راجع تفسير سورة التوبة، الآية ٣١ ص١٣٧ المجلد الثاني من مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ.

وقـــال تعـــالىٰ : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ [٦٠ : النساء] .

٤ ـ ومن مظاهر الخلل في التوحيد لدىٰ العقلية الحديثة أيضًا : تقديم العقل علىٰ الشـــرع في أمـــور الدين ، والغـــيب ، وتحكيم الأهواء وآراء الرجـــال ، والنظريات الظنية في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، لذلك نجدهم ـ أي العقلانيين ـ لا يتورعـون عن التلقي عن المستشرقين والمفكرين الغـربيين ، حتىٰ في قـضـايا العقـيدة والأصول الإسلامية ، التي لا يجوز للمسلم استمدادها إلا عن الله ورسوله ، كمسائل الألوهية والإيمان بالغيب والرسل والوحي والآخرة والقدر والتشريع .

٥ ـ إعطاء الولاء والثقة ، والحب والاحترام ، والخشية والرجاء ، لغير الله ، والموالاة لغير عباده المتقين .

فالعقلية الحديثة توالي وتحب الكافرين ، وتقدمهم ، وقد تفضلهم أو بعضهم علىٰ أولياء الله وعلىٰ المسلمين ، ومن ثم تستمد منهم أفكارها وتعطيهم ثقتها . . وأكبر دليل علىٰ ذلك : إكبارها للمستشرقين ، وروّاد النظريات والمذاهب والاتجاهات الوثنية والمادية في الغرب والشرق ، فتُمَجِّد هؤلاء وتعطيهم الحُبَّ والولاء والتقدير ، رغم أنهم من أعداء الله ، وأعداء دينه . .

* **أمثال:**

هيجل ، وديكارت ، وكانت ، وداروِن ، وفرويد ، وسارتر . . وغيرهم من أعلام الكفر ، ثم هم يوالون أهل الأهواء والافتراق والبدع ، والفسق والفجور ، والإلحاد والعلمنة والحداثة والأفكار الهدامة ، أكثر من ولائهم للعلماء والأئمة والصالحين من المسلمين ، فيجلون الأولين ويعظمونهم ويمدحونهم ويشيدون بآرائهم ويدافعون عنهم ، وبالمقابل يسخرون من الصالحين وأولياء الله المتقين غالبًا .

* وهذا خلل في توحيد الألوهية، وصرف للولاء والتعظيم لغير الله، فالحب في الله، والبغض في الله، هما لبّ الولاء لله وخلاصته، والإخلال بهذا المبدأ خلل في التوحيد.

قال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [٢٢: المجادلة].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ [١: الممتحنة].

٣ ـ توحيد الأسماء والصفات:

الأصل في توحيد الأسماء والصفات: أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ، نفيًا أو إثباتًا.

فكان السلف ـ رضوان الله عليهم ـ ملتزمين بهذا المبدأ، فهم متفقون على إثبات ما أثبته الله لنفسه، ونفي ما نفاه الله عن نفسه، من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل[1]..

والمدرسة العقلية الحديثة، لا تلتزم هذه العقيدة، فقد خاضت في ذات الله تعالى وأسمائه وصفاته بغير علم، ولم تلتزم القاعدة الشرعية في إثباتهم ما لم يثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، ونفي ما أثبته الله لنفسه، كما وقعت في التكييف والتعطيل والتحريف لأسماء الله تعالى وصفاته بغير دليل. ثم نجد العقلانيين يلمزون أهل الاثبات أهل السنة والجماعة (السلف) بنفس الألقاب التي اطلقها عليهم أسلاف العقلانيين من المعتزلة والجهمية والأشاعرة والماتريدية حيث زعموا أن مذهب السلف يقتضي التشبيه والتجسيم وأن السلف مشبهة

(١) انظر الرسالة التدمرية لابن تيمية ص٧ طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٩٦هـ.

ومجسمة. كما فعل محمد عمارة[١]، ومحمد الغزالي السقا في كثير من كتبه[٢].

ويبدو لي أن من أكثر الكتاب العقلانيين المحدثين جرأة على الله تعالى، وخوضًا في حق الله وأسمائه وصفاته، **الدكتور مصطفى محمود**، وذلك لنزعته الصوفية المتطرفة، والكلامية الموروثة، وجهله بالكتاب والسنة، وأدلتهما، وهذه طائفة من أقواله وعباراته في ذات الله وصفاته:

يقول عن الله تعالى: «ولأنه منزَّه عن الزمان والمكان فهو لا يتحرك، ولا ينتقل، وإنما هو ساكن سكونًا مطلقًا»[٣] والله تعالى لا يجوز وصفه بمثل هذه الأوصاف المجملة المحتملة، لا سيما ونحن نعرف أن هذا هو منهج الجهمية والمعتزلة وأهل الكلام، الذين يقصدون بهذه المعاني - التي نفاها مصطفى محمود - نفي صفات الله وأفعاله، مثل العلو والفوقية والاستواء والنزول والمجيء ونحوها من الصفات التي ثبتت في الكتاب والسنة.

ويقول: «اللطيف هو الذي ليس له جسم أو ثقل أو كثافة تعوقه، ومن ثم فهو يتخلل كل شيء في حضور كامل مع كل شيء»[٤] وهذا كلام مبتدع يشعر بالحلول.

ويقول بأن الله «هو ذات الفاعل الواحد»[٥] وهذا تعبير فلسفي كلامي مبتدع.

ويقول: «والصمد هو الساكن سكونًا مطلقًا لا اضطراب فيه رغم احتوائه على الأضداد، لا حرب في داخله رغم احتوائه على النقائض، فهو السلام»[٦].

---

(١) ذكر هذا في مواضع كثيرة من كتابه: المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية.

(٢) انظر كتابه: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ص١٥٣.

(٣) (الله) لمصطفى محمود ص٩.

(٤) (الله) لمصطفى محمود ص٩.

(٥) المصدر السابق ص١٠.

(٦) المصدر السابق ص١١.

وهذا كسابقه وفيه خلط وتخليط .

ويقول بأن الله تعالىٰ : «هو السميع بذاته ، وهو البصير بدون بصر ، وبدون عين وبدون أعصاب بصرية ، هو البصير بذاته»[١] ، وهذا نص مذهب المعتزلة .

«هو المتكلم بذاته يلقي إلينا بالمعاني فنسمعها علىٰ أي لغة يشاء»[٢] ، وهذا مذهب فلسفي صوفي حلولي جهمي .

وأن الله تعالىٰ «هو اللانهاية ، والإطلاق في كل شيء»[٣] . .

إن هذه الأسماء والصفات التي أطلقها مصطفىٰ محمود علىٰ الله تعالىٰ إنما هي خوض وإلحاد في أسماء الله تعالىٰ ، وقول علىٰ الله بغير علم وإساءة أدب مع الله .

لأنه حين يصف الله تعالىٰ بأنه ساكن سكونًا مطلقًا ، وأنه تعالىٰ لا يتحرك ولا ينتقل ، وليس له جسم ، أو ثقل ، أو كثافة ، وأنه يتخلل كل شيء .

وأنه ذات الفاعل .

وأنه محتو علىٰ الأضداد والنقائض .

وأنه السميع بذاته ، والبصير بذاته ، وبدون أعصاب بصرية ، ومتكلم بذاته ، وأنه ـ تعالىٰ ـ ، اللانهاية والإطلاق .

إنه (حين فعل ذلك) يُعْتَبَرُ أساء الأدب مع الله تعالىٰ : لأنه قال بما ليس له به علم ، وأقحم عقله في أمر عظيم يستحيل عليه إدراكه . . قال تعالىٰ عن نفسه : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [١١٠ : طه] فقد تطاول علىٰ ذات الله وأسمائه وصفاته بغير علم .

---

(١) (الله) لمصطفىٰ محمود ص١٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) (الله) لمصطفىٰ محمود ص١٤ .

لأن هذه الأسماء والصفات التي ذكرها لم ترد عن الله في كتابه ولا في سنة رسوله ﷺ، كما أنها بألفاظها ومعانيها لا تليق بالله تعالىٰ.. لأنها أسماء وصفات مبنية علىٰ تصورات وثنية، أما ذات الله وأسماؤه وصفاته، فلا يمكن تصورها، فضلاً عن وصفها.

إن الإنسان لا يدرك كنه عقله وروحه، ولا يستطيع أن يصف هذه الروح - التي تشكل الجانب الحيوي من حياته - بصفات محددة، فكيف يطلق تلك الصفات علىٰ الله بغير علم؟ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [٨: الحج].

وإن مصطفىٰ محمود في هذا التعبير قد قال علىٰ الله بغير علم، وتلك خصلة من خصال أهل الشرك والجاهلية[١].. ومن خطوات الشيطان، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [١٦٨ - ١٦٩: البقرة].

ومن جانب آخر ينزع مصطفىٰ محمود إلىٰ الحلولية الملحدة حين يقول:

«حب الوطن وحب الفن وحب الجمال، وحب الحقيقة، كل هذه أقنعة وأسماء لحب الله، فالطفل يحب في أُمِّهِ أوصاف المعطي والوهاب والرزاق والحافظ والمغيث، والفنان يجسد ما تجسد صنعته من أسماء الخالق البارئ المصور والمفكر الفيلسوف يحب الأسماء الحق والعليم واللطيف والخبير والمحيط، وما نحب في النهاية كَامِنٌ فينا وبين أضلعنا، وأقرب إلينا من حبل الوريد دون أن ندري»[٢]..

وتلك هي الحلوليّة الوثنية بعينها، ألا ترىٰ أنه يجعل حب الأم والوطن

(١) راجع مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبدالوهاب - بتعليق محمود شكري الألوسي ص١٥٠ ط٢.

(٢) السر الأعظم - لمصطفىٰ محمود ص٨٥.

أسماء لحب الله . . بل إنه يجعل أوصاف الأم والفنان والفيلسوف من أوصاف الله تعالىٰ فيقول : إن ما نحب كامن فينا وبين أضلعنا ! تعالىٰ الله عما يقوله العقلانيون علوّاً كبيراً .

ويؤكد هذا الحلول حين يقول:

«وكلما عرفت الكون أكثر علمت أنه لا شيء إلا الله ، وما ترىٰ حولك إلا عموم التجلي ، وهنا يصبح الحق دليلاً علىٰ نفسه ودليلاً علىٰ غيره وما ثم غيره»[١] . .

وهكذا نجد العقلية الحديثة ـ ممثلة في مصطفىٰ محمود ـ حين لا تلتزم بكتاب الله وسنة رسوله تقع في تخريفات الصوفية ، وحلوليتها الوثنية ، مثل ألفاظه التي أطلقها «لا شيء إلا الله» ، و «ما ثم غيره» شنشنة الصوفية المتطرفة[٢] . .

وبمحض عقله القاصر يصف مصطفىٰ محمود (الله) بأنه ـ بزعمه ـ : «والحق تعالىٰ مريد غير مختار لأن أمره ليس فيه جواز وإنما أمره واحد»[٣] . .

كذا بهذه العقلية يحكم علىٰ الله تعالىٰ بأنه غير مختار ، دون أن يراجع كتاب الله ليعرف ماذا قال تعالىٰ عن نفسه ، حين قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ [١٣ : طه] ، وقال : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [٣٢ : الدخان] .

وقال : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ [٦٨ : القصص] . .

فالله تعالىٰ يختار كما يليق بجلاله وعظمته ، ولا نقيس اختياره علىٰ اختيار المخلوق الناقص .

---

(١) السر الأعظم ـ لمصطفىٰ محمود ص١٩ .

(٢) راجع الرسالة التدمرية لابن تيمية ص١٣٧ ـ ١٣٨ طبعة جامعة الإمام ١٣٩٦هـ .

(٣) السر الأعظم ـ مصطفىٰ محمود ص٣٢ .

ويبرهن مصطفىٰ محمود علىٰ قصور العقلية البشرية حين يخوض في ذات الله بغير علم ولا هدىٰ حين يقول:

«المرأة شفعت الرجل بمثل ما شفعنا الله بمعيته»[١] . . «فالمرأة ترىٰ في الرجل ربَّها كما نرىٰ نحن في الله ربنا وأصلنا. ألم يخلق الله حواء من آدم؟»[٢] . .

ونقول: **أولاً**: سبحان ربنا، هذا بهتان عظيم! فما ينبغي لجلال الله وعظمته وقدسيته أن يشفعنا بمثل ما شفعت المرأة الرجل. . تعالىٰ ربنا وتقدس عما يصفون. . لأن الشفع في الغالب يكون بين مخلوقين متماثلين أو متقابلين، وهذا أمر لا يليق بالله مع خلقه.

وثانيًا: أن معية الله لنا (ولله المثل الأعلىٰ) معية لائقة بجلاله وقدسيته سبحانه، فلايليق بجلال الله وعظمته أن تكون تلك المعية كمعية الرجل للمرأة، كما يزعم مصطفىٰ محمود وأمثاله، فالله تعالىٰ ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [١١: الشورى]. والله تعالىٰ يقول: ﴿**فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ**﴾ [٧٤: **النحل**].

وثالثًا: معية الرجل للمرأة أو المرأة للرجل وشفعهما فيما بينهما أمر بشري مصلحي ومادي وعاطفي، محدود في حدود المصلحة البشرية المادية والشهوانية، والمعنوية العاطفية، والحاجة، ومحدودة في حدود الزمان والمكان والأحوال البشرية الضيقة، كالرحمة والمودة، والمصلحة المتبادلة بين الطرفين.

أما معية الله لعباده فلا يمكن ولا يجوز تكييفها وتشخيصها، وتشبيهها بأي حالة من حالات المعية المعروفة أو حتىٰ المتصورة؛ لأنه تعالىٰ يقول: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾ [١٠٣: **الأنعام**].

. . فالمعية التي وردت في القرآن والسنة في مثل قوله تعالىٰ: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ**

---

(١) السر الأعظم لمصطفىٰ محمود ص٢٧.

(٢) نفس المرجع السابق.

أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [٤: الحديد]. . معية خاصة فريدة تليق بالله تعالىٰ، ولا تشبه المعية[1] . . والتشافع بين المخلوقات، ولا يعلم كيفيتها إلا الله سبحانه. والخوض في أسماء الله وصفاته بغير علم خصلة من أقبح خصال العقلية الحديثة، كما أنها صفة عامة في سائر روادها. . وإليك نبذة من عباراتهم التي أطلقوها علىٰ الله تعالىٰ وهي لا تليق به، فالمجال لا يتسع للتفصيل:

من العبارات التي أطلقوها على الله: قولهم:

إن الله هو «العقل العام هو الله»، وأنه «مجموع عقول الكون صغيرها وكبيرها»[2] . .

أو «أن الله يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها»[3] . . وأنه «العقل الفعال»[4] . .

وكقولهم: «الإسلام يؤله العمل لأن الله ذاته عمل في خلق السموات والأرض»[5] . .

وكقولهم: «الله وراء المادة»[6] . . أو «الله مادة له»[7] . .

أو أنه «حقيقة مطلقة»[8] . . وصف الله تعالىٰ بـ«الوجود الكلي»[9] . . «والعلة

(١) راجع معنىٰ المعية في كتب السلف، مثل مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية ـ المجلد الثاني ص٢٧٦، والمجلد الثالث ص١٣٦ـ ١٤٢ ـ ١٤٣، والمجلد الخامس ص١٠٣، ١٠٤، ٤٩٥ ـ ٤٩٨.

(٢) أطلق هذه العبارات علىٰ الله تعالىٰ: عبدالجبار الوائلي في كتابه «وحدة الوجود العقلية» في صفحات عديدة منها ص١٢٢، ١٥٦، ١٧٠، ١٧٧، وغيرها.

(٣) المصدر السابق ص١٥٦.

(٤) أطلقها حسن صعب في (الإسلام وتحديات العصر) ص٦٢.

(٥) قال هذه العبارة أيضًا حسن صعب ـ المصدر السابق، ص٤٥.

(٦) قالها أحمد أمين في (فجر الإسلام) ص٧٤، ٧٥.

(٧) نفس المرجع السابق.

(٨) قالها مالك بن نبي في (الظاهرة القرآنية) ص٩٢.

(٩) أطلقها سيد أمير علي في (روح الإسلام) ص١٩١.

الأولىٰ»[١].

«والسبب الأول»[٢].. «والإرادة الكلية»[٣].. «أنه هو أصل المكونات»[٤]..

«والمحيط الأعظم الذي تخرج منه الحياة جميعها ثم تصب فيه»[٥]..

«وأنه تعالىٰ هو الأثير»[٦].. وأن وحدانية الله تشمل «الوحدة في الوجود»[٧].. «والوحدة في التركيب»[٨].

ومثله قول خالد محمد خالد عن الله تعالىٰ: (... إن ذراعية مفتوحتان...)[٩] إلخ.

ونحو ذلك من العبارات والأسماء والصفات المبتدعة التي تطلقها العقلية الحديثة علىٰ الله تعالىٰ، وبعضها مستمد من العقلانيين القدامىٰ كالفلاسفة وغلاة الصوفية، وأتباع الديانات والنحل الضالة، وبعضها في نسج خيالاتهم الفاسدة.

كما أنها في ذلك متأثرة بالثقافة والتصورات الغربية للإله والرب التي

---

(١) أطلقها سيد أمير علي في (روح الإسلام) ص١٩١.

(٢) قالها حسن صعب (في الإسلام وتحديات العصر) ص٦٢.

(٣) سيد أمير علي (روح الإسلام) ص٢٩.

(٤) قالها محمد عبدالله دراز في كتابه (الدين) ص٩٠ الهامش.

(٥) قالها أبو شادي في كتابه (ثورة الإسلام) ص١٨.

(٦) نسبها الشيخ مصطفىٰ صبري إلىٰ الشاعر العراقي أمجد الزهاوي ص١٢١، جـ١ موقف العقل (الهامش).

(٧) قالهما أحمد شلبي في كتابه: مقارنة الأديان (الإسلام) ص٩٨.

(٨) المرجع السابق.

(٩) إنسانيات محمد، لخالد محمد خالد ص٣٣، وما أدري ماذا سيقوله العقلانيون عن مثل هذا الكلام من صاحبهم ـ إذا كانوا وصفوا السلف بالمجسمة حينما أثبتوا لله تعالىٰ اليدين كما وصف نفسه سبحانه ـ فكيف بهذا الآثم الذي أطلق (الذراعين) كذبًا وافتراءً؟ تعالىٰ الله عما يقوله الظالمون علوا كبيراً.

انحرفت تصوراتها عن الله تعالىٰ. وهي تصورات إما إلحادية خالصة، أو وثنية قاصرة لا تليق بجلال الله وعظمته.

وإليك أخي القارئ بيان شيء من ذلك:

١ ـ أن عقيدة المسلمين التي عليها سلف الأمة وأئمتها، والتي وردت في القرآن والسنة، أن الأصل في باب الأسماء والصفات.. أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله الكرام، نفيًا وإثباتًا: فيثبتون ما أثبته الله لنفسه، وينفون ما نفاه الله عن نفسه، من غير زيادة ولا نقص، ولا تكييف ولا تمثيل، ولا تعطيل، ولا تأويل[1]..

* وأنه لا طريق لمعرفة هذا إلا بكتاب الله وصحيح السنة[2].. وأن إثبات الصفات مفصّل فيهما، وأنه تعالىٰ ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله[3]، وهو تعالىٰ المتصف بالكمال المطلق، المنزه عن جميع النقائص.

٢ ـ وأن الله تعالىٰ نهىٰ عن القول عليه بغير علم، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [٣٣: الأعراف].

* وأخيرًا أنه تعالىٰ لا يحاط به ولا تدركه الأبصار، فقال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [١١٠: طه].

وقال أيضًا: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [١٠٣: الأنعام].

ونهىٰ عن أن يتدخل الإنسان في شيء لا يعلمه، فقال تعالىٰ: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [٣٦: الإسراء].

---

(١) راجع في ذلك:

أ ـ الرسالة التدمرية لابن تيمية ص٧، ٨.

ب ـ وشرح العقيدة الطحاوية ص١٦١، ١٦٢.

(٢) راجع الرسالة التدمرية لابن تيمية ص٧ ـ ١٠.

(٣) راجع شرح الطحاوية ص٣٨.

ومن الضروري أن الإنسان ما دام لا يعرف حقيقة أكثر المخلوقات والعوالم من حوله. إذًا؛ فهو بحقائق صفات الخالق أجهل، وهناك مقولة جيدة معناها: «أنه محال على من يفنى أن يدرك ما لا يفنى» . . وهذا ما تدل عليه نصوص الشرع.

٣ - وعلى هذا: فإن تلك العبارات التي أوردتها عن بعض العقلانيين والتي أطلقوها على الله تعالى، كلها لم ترد في كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ، إنما جاءت من توهماتهم وخيالاتهم، وتحريفاتهم وتخرصاتهم.

وكلها إثم وبهتان على الله تعالى، وانتهاك لقدسيته وجلاله، وجهل بحقه، وأمره ونهيه.

* فهي تَنمّ عن جهل مطبق بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعقيدة المسلمين والسلف الصالح، وجهل بأصول الدين وضروراته، والجهل بأصول الدين لا يعذر به الباحث والمفكر الذي يدعى أنه مسلم.

* وهكذا نجد أن العقلية الحديثة كالقديمة لا تلتزم المصطلحات الشرعية في غالب تعبيراتها وآرائها ودراساتها، فإذا كانت لا تلتزم النصوص الشرعية في أسماء الله وصفاته، فهي فيما عداها من أصول العقيدة أبعد وأضل.

* كما أن تلك العبارات أو الأسماء والصفات التي ورد ذكرها، والتي عبر بها بعض الكتاب المحدثين عن الله تعالى، إما صفات سلبية عدمية لا وجود لها. . مثل:

قولهم: «حقيقة مطلقة».

* أو صفات نقص كقولهم: «لا يعقل ما دون ذاته» و «إله وراء المادة».

وهكذا سائر تلك الصفات.

* ويكفي أنها لم ترد عن الله تعالى، علام الغيوب، وأن الإنسان يستحيل عليه أن يعرف من أسماء الله وصفاته غير ما ورد عن الله ورسوله.

* فالكلام في غير ما ورد في الوحي عبث ووهم، وقول على الله بغير علم.

المبحث الرابع
رأي المدرسة العقلية
في الوحي والقرآن الكريم

الوحي في اللغة، الإعلام السريع الخفي، وقال في القاموس المحيط: الوحي: «الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلىٰ غيرك، والصوت يكون في الناس وغيرهم»[١] . .

* وفي الشرع: تكلم الله أو إعلامه لأحد من عباده بطريقة من طرق الوحي[٢] .

* والوحي من الله لعباده يأتي **على أنواع:**[٣]

منها ما ورد في السنة: عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن الحارث بن هشام ـ رضي الله عنه ـ سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: أحيانًا يأتيني مثلَ صَلصَلَة الجَرَس وهو أشد عليَّ فيُفْصَمُ عني وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحيانًا يَتَمَثَّلُ لي المَلَكُ رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»[٤] . .

وتارة يكون تكليمًا بين النبي وربه، كما كلم الله موسىٰ ﴿ **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴾ [١٦٤: **النساء**]، ومنه ما يكون إلهامًا مع العلم الضروري أنه من الله تعالىٰ

---

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي، فصل الواو باب الباء، جزء (٤) ص٤٠١ المجلد الثاني ط (دار الجيل).

(٢) راجع لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، لمحمد الصباغ ص٢٣ .

(٣) راجع مجموع فتاوىٰ ابن تيمية ـ المجلد ١٢ ص٣٩٧ ـ ٤٠٣ .

(٤) هذا نص رواية البخاري . . راجع صحيح البخاري ـ باب كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ .

وذلك في (حالة النبوة)، ومنه مايكون منامًا صادقًا، والغالب ما يكون بوساطة جبريل عليه السلام، فالقرآن كله من هذا القبيل[١]. .

أما القرآن فهو علم على: كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته[٢]، والمعجز بألفاظه، منه تعالى بدأ بلا كيفية، وإليه يعود[٣]. .

ونزول الملك على رسول الله ﷺ بالوحي له حالات. . فتارة يظهر الملك للرسول ﷺ بصورته الملكية، وتارة يظهر بصورة إنسان، وفي هذه الحالة قد يراه الحاضرون[٤]، كما حدث في قصة حديث جبريل المشهور والذي روي عن عمر بن الخطاب وغيره. قال: «**بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر**»، إلى قوله: «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[٥]. .

وبعد:

فإن وقوع الوحي من الله تعالى لرسله، وحقيقة ذلك والإيمان به، من أصول الدين وضروراته، وركائز الدين ومسلّماته، ومع هذا هو من أكثر أصول العقيدة الإسلامية، تعرضًا للتشكيك، وإثارة للشبهات والنقد الخاطئ من قبل المدرسة العقلانية الحديثة وأساتذتها المستشرقين؛ لأن نقضها وهدمها، يستهدف الدين من أساسه.

---

(١) راجع مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني جـ١ ص٥٧.

(٢) راجع النبأ العظيم للدكتور عبدالله دراز ص١٤.

(٣) راجع شرح العقيدة الطحاوية ـ تحقيق أحمد شاكر، ص١٠٦، وراجع مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ١٢، ص٣٧.

(٤) راجع مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني جـ١ ص٥٧.

(٥) الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم، وهذا من نص رواية مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان ـ الحديث الأول.

وكانت هذه الشبهات تدور في غالبها على إنكار إلهية الوحي عمومًا، والقرآن الكريم على وجه الخصوص، بدعوى أن العلم الحديث لا يقر بذلك.

وذلك لأن القرآن الكريم بسموه وإعجازه وعظمته، ومكانته في قلوب المسلمين، إنما كانت قداسته ومنزلته بنسبته إلى الله تعالى وأنه كلامه، وكلام الله صفته، ومن هنا ثبتت قداسة القرآن وكماله.

ولأن العقيدة الإسلامية، والشريعة، والسنة النبوية، وأحكام الإسلام وأصوله، والإيمان بالغيب، والحلال والحرام، والعبادات، وعموم تعاليم الدين بصفته المنهج المتكامل للحياة.. كل ذلك إنما تكون عظمته وقوته وهيمنته ومنزلته واهتمام المؤمنين به لأنه كلام الله، منزل من الله تعالى، وذلك يعتمد على ثبوت الوحي من الله لأحد من خلقه، وأن ما جاء به الرسول ﷺ إنما هو وحي من الله، وأنه لا أثر للإنسان فيه إلا التبليغ والتطبيق وطاعة الله وامتثال أمره فيه.

كذلك الرسالات والنبوات والأديان والكتب السماوية، إنما تستمد قداستها من كونها وحي من الله تعالى لرُسله.. لذا أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله دون تفريق.

ولهذا كله.. حاول المشركون وأهل الكتاب والمنافقون والمرتابون في القديم والحديث التكذيب وإثارة الشبهات حول الوحي والقرآن والسنة بكل وسيلة؛ لزعمهم أنهم بمقدورهم إذا فعلوا ذلك أن يفرقوا بين الله ورسوله، وعباده المؤمنين، وأن يقطعوا صلة المسلمين بالله تعالى، وبكتابه الكريم وسنّة رسوله المطهرة.

وسنرى: أن العقلانية الحديثة، تضيق كلَّ الضِّيق بما تراه من خضوع وتقديس المؤمنين للقرآن والسنة، واحترامهم للسلف الصالح، وتضيق كذلك بما يحاوله المخلصون من العمل على التزام السنة في الحياة، وهداية البشرية بمنهجها الرباني القويم.

وها هم أعداء الإسلام في الغرب والشرق (سواء) يحذرون من الدعوة لتطبيق تعاليم القرآن ـ بصفتها تعاليم الوحي ـ فيحاربون الإسلام ويخشونه على الإنسانية ـ بزعمهم ـ أكثر من خشيتهم من الأسلحة المدمرة، وإنما يخشونه على أنفسهم الضالة المنحرفة . . ومن أجل المحافظة على أنفسهم ومكاسبهم نراهم يسعون فعلاً لتحطيم كل محاولة جادة للعمل على استئناف الحياة الإسلامية، في أيّ بقعة من أرض الله الواسعة، ويدرؤون ذلك أكثر مما يدرؤون قيام حرب عالمية.

وكما يخاف أعداء الإسلام من الإسلام، كذلك نجد كثيرين من العقلانيين يخافون من العمل بالسنة ومن السلفية.

فللعقلية الحديثة تجاه الوحي عمومًا، تأويلات عدة، تدور كلها على تفسيره تفسيراً ماديّاً وبشريّاً، لا يعدو كونه نشاطًا من الأنشطة الإنسانية الفردية، وأنه جاء نتيجة تأثيرات روحانية أو قوى عقلية، أو انفعالات نفسية، أو تأملات باطنية، لبعض الأفراد الذين تميزوا بعبقرية فَذَّة في جانب أو أكثر من جوانب الشخصية الإنسانية، جعلتهم يصلون إلى ما لا يقدر عليه غيرهم من الإنتاج الفكري والإصلاح الروحي والعملي، كما كانت تقول المذاهب الصوفية والفلسفية والباطنية القديمة والحديثة.

هذا مجمل الشبهات التي وردت في القديم والحديث عن الوحي، فمعظمها يدور حول هذا المعنى . . سواء كانت حول القرآن بصفة خاصة أو حول الوحي على وجه العموم.

كما أن العقلية الحديثة أكثر جرأة من القديمة، فالقديمة إنما حاولت التأويل والتحريف والتعطيل لنصوص الوحي دون أن تتجرأ على إنكار نسبته إلى الله . . أما العقلية الحديثة فقد حاولت إنكار نسبة الوحي إلى الله تعالى أو التشكيك فيه وإثارة الشبهات حوله.

والعقلية الحديثة، كذلك تزيد عن العقلية القديمة. . في شبهاتها حول الوحي، بسبب تعلقها بالعلمية المزعومة، حيث تزعم أن العلم الحديث لا يعرف ظاهرة الوحي، ولا يعترف بها، إلا أنها إنسانية من سائر الظواهر الاجتماعية الأخرىٰ، أو أنها سمة من سمات المجتمعات البدائية القديمة التي تؤمن بالخرافة والكهانة والأساطير علىٰ حد زعمهم.

أي: أن التعلق بالعلم والافتراء عليه، ورفع دعوىٰ العلمية، وإنكار نسبة الوحي والقرآن إلىٰ الله تعالىٰ، من الشعارات العلمانية التي استمدتها العقلية الحديثة من الجاهلية الغربية التي قامت علىٰ الإلحاد والمادية، فهي دعوىٰ جديدة في شكلها، وإن كانت قديمة في مضمونها.

وقد تركزت تلك الشبهات العقلية في الوحي والقرآن علىٰ **الجوانب التالية:**

١ ـ زعمهم أنّ الوحي ـ ومنه القرآن ـ جاء نتيجة تأملات باطنية، وانفعالات نفسية من قبل الشخص (النبي) الذي تميز بعبقرية فذة، وشخصية ممتازة؛ لتأثره بأوضاع البيئة، ولما يمتاز به هذا العبقري، من طاقة فكرية وعملية، قام بالإصلاح والتعمير والثورة علىٰ الأوضاع حتىٰ غيَّر مجرىٰ التاريخ علىٰ ضوء تلك التأملات الباطنية التي استمد منها إلهامه.

٢ ـ زعمهم أن صفة الوحي، واتصال الملَكَ بالرسول، ونقله لكلام الله، قضية غير معقولة وأن العلم لم يصدقها، أو لا يعترف بها، أو نحو ذلك من الشبهات التي يثيرونها أو يحومون حولها.

*** وبناء علىٰ ذلك فالقرآن بزعمهم بشري، وتلك الهالة والقداسة التي أحاطه بها المسلمون إنما هي مصطنعة أو وهمية أو مبالغ فيها ونحو ذلك.**

٣ ـ وأنه ما دام القرآن بشريّاً عندهم، فمن الممكن أن يشتمل علىٰ أساطير وتوهمات، وأن تكون أحكامه وتعاليمه وأوامره ونواهيه وتشريعاته قابلة للنقاش، والتغيير، والتبديل، والنقد الموضوعي!

٤ ـ وأنه مادام الأمر كذلك حسب دعواهم، فمن الممكن إلغاء بعض الأحكام والتوجيهات والتصورات التي لا تناسب الحياة المعاصرة، ولا تعايش التطوُّر والمدنية، والتقدم، ويمثلون لذلك بزعمهم بالحدود، كالقصاص، وقطع يد السارق، وجلد الزاني والشارب للمسكرات، وتدخل الدين في الدولة والسياسة وشئون الحياة العامة الأخرىٰ، وغير ذلك.

٥ ـ ويزعم بعضهم بأن القرآن جاء لإصلاح زمن وأوضاع معينة، هي تلك الأوضاع المعاصرة لنزوله، أما بعد تقدم العلم وتطور العقل، فلم يعد القرآن صالحًا للتطبيق، ويزعم بعضهم أن القرآن خاص بالعرب، أو أن أحكامه مثالية غير قابلة للتطبيق في الواقع... إلخ من شبهات.

٦ ـ الجرأة علىٰ تأويله وتحريف آياته حسب مقتضيات الحياة الجاهلية المعاصرة، والمصالح الشخصية، وحسب الآراء الفردية، والميل إلىٰ التفسيرات التي تحتملها معاني الألفاظ، والتي تعطل الآيات من معانيها لتتلاءم ـ بزعمهم ـ مع النظريات والمدنية والحضارة الغربية الحديثة، مهما تكون ظنية أو باطلة، وتميل كذلك بعض هذه المدارس العقلانية إلىٰ الرَّمزية، والمعاني السلبية، في تفسير كثير من آيات العقيدة وغيرها.

وإليك نماذج من هذه المقولات وغيرها، ونبدأ برأي العقلية الحديثة في الوحي:

فقد عرَّف الشيخ محمد عبده الوحي بتعريف غير منضبط، وغير ملتزم.. لأنه لا يتفق مع الألفاظ والمعاني الشرعية التي وردت في الكتاب والسنة.

ذلك أنه لم يرضَ بتعريف السَّلَف وأهل السنة للوحي، بل رفضه دون مبرر علمي، وعرّف الوحي علىٰ شرطه حين قال:

«وقد عرفوه شرعًا أنه كلام الله المنزل علىٰ نبي من أنبيائه، أما نحن فنعرفه علىٰ شرطنا، بأنه: عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله

بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسامعه أو بغير صوت»[١]. .

فهو استبدل بقولهم: (كلام الله) قوله: عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله».

فالعرفان الذي وصفه الشيخ يدخل فيه مكاشفات الصوفي، وفراسة المؤمن، وتأملات الفيلسوف، وينطبق على كل شعور باطني ضروري لدى أي عاقل. . لذا فهو إلى تعريف الإلهام هنا أقرب منه إلى تعريف الوحي. . لأن هذا التعريف ينطبق على بعض أنواع الوحي، لكنه لا يشملها، فالقرآن، وتكليم الله لموسى، وكلام الله الذي ينقل بواسطة الملك، لا يكون عرفانًا يجده الشخص في نفسه؛ لأن العرفان شيء لا ينضبط وليس له مفهوم محدود كمفهوم (كلام الله). فقوله ﷺ: «**يأتيني مثل صلصلة الجرس**» وإتيان جبريل إليه بصور مختلفة ومحادثته له كما حصل في حديث جبريل المشهور كل ذلك لا ينطبق على العرفان.

أما قوله: (مع اليقين بأنه من الله) أيضًا. . فيرد عليه: بأن اليقين بدون دليل خارجي، لا يوثق من الفرد نفسه، فإن اليقين دعوى قد تحدث من الصالحين وأولياء الله، وتحدث من أولياء الشياطين، لكن العبرة بالدليل والبرهان أو المعجزة التي تصحب صاحب الوحي، فالصوفي المخرِّف يزعم اليقين في مكاشفاته، والكاهن الدجال يزعم اليقين في تخرصاته.

وقد ثبت أن الشياطين لعبت بعقول بعض الجهلة من الصوفية والمبتدعين على أنها أرواح خيِّرة قد تكون من الملائكة - بزعمهم - أو من الأولياء الصالحين، فيصدقها الشخص ويصدقها رواده ومريدوه من بعده، ويجد في نفسه اليقين الجازم بأنها من الله، وتكون في حقيقتها من الشياطين أو الجن[٢].

---

(١) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده (تقديم حسين يوسف الغزالي) ص١٠٣ الطبعة الأولى.

(٢) راجع مجموع الفتاوى لابن تيمية - المجلد الثالث عشر ص٧١، ٧٤ وما بعدها.

وقد تابع محمد رشيد رضا شيخه في هذا التعريف حين قال: «وحي الله لأنبيائه علم يخصهم به من غير كسب منهم ولاتعلم من غيرهم، بل هو شيء يجدونه في أنفسهم من غيرتفكر ولا استنباط، مقترنًا بعلم وجداني ضروري بأن الذي ألقاه في قلوبهم هو الرب القادر على كل شيء، وقد يتمثل لهم ملك فيلقنهم ذلك العلم، وقد يكون بغيروساطة ملك»[1]. .

وهذا التعريف قريب من تعريف شيخه وإمامه. . إلا أنه أكثر تناقضًا، فهو قال: من غير تعلم من غيرهم، مع أنهم قد يتعلمونه من الملك، قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[٥: النجم]، يعني جبريل، فكلمة (غيرهم) تعم الملك وغيره، ثم قوله: (وقد يتمثل لهم ملك) تَنَاقُضٌ مع قوله: ولا تعلم من غيرهم.

وقوله: (يجدونه في أنفسهم)، لايثبت؛ لأنهم لا يجدونه في أنفسهم، بل يجدونه من خارج أنفسهم؛ لأنهم يتلقونه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[١٨: القيامة]. . إلخ. فهذا التعريف ـ كما قلت في تعريف الشيخ السابق ـ إنما ينطبق على بعض أنواع الوحي، لكن هناك أنواعًا من الوحي ـ ومنها القرآن نفسه ـ لا ينطبق عليها هذا التعريف.

كذلك الشيخ إبراهيم الجبالي ـ في تعريف الوحي ـ وقع في تناقض حين عرَّفه بقوله: «والوحي هو إلقاء المعنى في قلب نبي من الأنبياء، مصحوبًا بلفظ يلتزم أو متروكًا أو اللفظ فيه لاختيار النبي الموحى إليه»[2]. .

فهذا التعريف أيضًا فيه نقص وتناقض، فقوله: (إلقاء المعنى في قلب نبي) هذا يخص بعض أنواع الوحي، فمن أنواعه ما يكون بغير إلقاء المعنى مثل: تلقين الملك للرسول.

---

(١) تفسير المنار جـ١، ص٢٢٠.

(٢) مجلة نور الإسلام ـ المجلد الرابع ص٤٧١ في مقالة للشيخ إبراهيم الجبالي بعنوان «الكتاب والسنة» والجدير بالذكر أن للشيخ مواقف مشكورة (ومقالات) في الرد على العقلية الحديثة.

وحديث النبي ﷺ الذي ورد فيه وصف أنواع الوحي يخالف هذه التعريفات، وقد ذكر رسول الله ﷺ أنواع الوحي بقوله: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجَرَس وهو أشده عليَّ فيفصم عني وقد وعيت عنه»[١] . . فأين معنى العرفان وإلقاء المعنى من قوله: «مثل صلصلة الجرس»؟ ويقول ﷺ: «وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً ويكلمني فأعي ما يقول»[٢] . . فأين معنى العرفان، وإلقاء المعنى من قوله: «يتمثل لي رجلاً، فيكلمني»؟ حيث صرح بالتكليم هنا.

فهذه التعاريف من هؤلاء، نراها تدور حول تقريب حقيقة الوحي إلى المفاهيم الصوفية والفلسفية العقلية الغربية الحديثة، إذ تحوم حول (العرفان)، و(إلقاء المعنى)، و (الوجدان الضروري)، وهذه الألفاظ معروفة في اصطلاحات الصوفية والفلاسفة ومقبولة لدى العقلانيين المحدثين، لكنها تبعد عن المعنى الشرعي الدقيق للوحي كما ورد في الحديث وعند أئمة أهل العلم.

أما الأستاذ سيد أمير علي فإنه من أكثر العقلانيين المحدثين انحرافًا في مفهوم الوحي، فهو يصوِّر لنا الوحي، والحالات التي حدثت للرسول ﷺ قبل ـ وفي أثناء ـ تلقيه الوحي، تصويرًا علمانيّاً نفساً وماديّاً، بعيدًا عن الحقيقة الشرعية للوحي كما وردت في القرآن والسنة، ويسوق ـ تمشيًا مع خياله الصوفي ـ أحداث الوحي بصورة لم ترد عن الله ورسوله ولا عن السَّلف الصالح حين يقول:

«كانت الرؤى العقلية وأطياف الملائكة تتبدّى لمحمد في الغار، هي التباشير التي نمت عن الحقائق العظيمة المقبلة التي كان على محمد أن يبلغها لهذا الوجود»[٣] . .

(١) هذه رواية البخاري ـ باب بدء الوحي، الحديث رقم (٢).

(٢) المرجع السابق.

(٣) روح الإسلام ـ سيد أمير علي ص٢٩.

فهذا الحديث يتعلق بشخص النبي ﷺ، ولا يعلمه إلا هو من الخلق، فكيف جاز للكاتب أن ينسبه عنه دون سند، خاصة قوله: (وأطياف الملائكة تتبدّىٰ لمحمد في الغار)؟ وهذا غير صحيح؛ لأنه ورد أن إتيان الملك إلىٰ النبي ﷺ وضمّه إليه كان مفاجأة له ﷺ[1] . .

فلو كانت أطياف الملائكة تبدّت له من قبل، لما انزعج حين اتصل به جبريل، وذهب إلىٰ بيته يرجف فؤاده.

ويصف سيد أمير علي النبي ﷺ بأنه تلقىٰ الوحي في حالة إرهاق عقلي، وهذه هي شبهة المستشرقين، الذين يزعمون أن الوحي والقرآن كانا نتيجة إرهاق عقلي وعصبي، من محمد (ﷺ) حيث كان يرهق جسمه بالصوم والانقطاع والتحنث، ويرهق عقله بالتأمل الباطني العميق.

فيقول سيد أمير علي:

«وقد رأىٰ العقل المرهق لدىٰ محمد في هذا صورة أطياف نورانية، أطياف هي الوسيط بين الله في السماء والإنسان في الأرض»[2] هكذا يصور النبي ﷺ وكأنه يتعرض لأنماط من الوهم والخيال والأشباح والأطياف (وهي تخيلات).

وهذا انحراف في التصور، فعقل النبي ﷺ لم يكن مرهقًا، بل كان سويّاً؛ لأن حالة الإرهاق حالة غير سويّة، ولا تكون علىٰ مستوىٰ الاستعداد لتقبل الوحي من الله تعالىٰ.

أما زعمه أن الرسول رأىٰ أطيافًا نورانية، فإن قصة بدء الوحي تكذب هذا،

---

(١) فقد ورد في مسلم في حديث بدء الوحي، قوله: (حتىٰ فجئه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك . .) باب بدء الوحي . . كتاب الإيمان، حديث رقم ٢٥٢.

(٢) روح الإسلام ـ سيد أمير علي ص٢٩.

فقد رأىٰ جبريل يسد عليه أفق السماء. .[١] أما الأطياف فلا تعدو أن تكون أشباح لا تقبل تحقيق الرؤية، كذلك القصة الصحيحة لبدء الوحي، تذكر أن الملك ضم إليه الرسول ضمّاً شديداً.

ويزعم أن محمداً ﷺ تلقىٰ الوحي وهو في حالة استغراق، وتلك أيضًا من شبه المستشرقين حيث يزعمون أن حال الوحي، إنما هي حالة من الاستغراق الروحي والنفسي والفكري، لدىٰ العبقري، وحالة من الغيبوبة واللاشعورية. وقد تبعهم سيد أمير علي في كلا الشبهتين.

فهو يقول: «ألقي في مسمع محمد صوت جديد وقال: إنك رسول الله، وحين كان محمد يستغرق في أفكاره كان ذلك الصوت يبدو له واضحًا جليّاً»[٢]. .

وعلىٰ هذا يكون النبي (ﷺ) تلقىٰ الوحي وهو في حالة استغراق! وهذا التعبير له مؤدىٰ معين عند العقلانيين، فهم يرون أن حالة الاستغراق عند المفكرين والعباقرة مصدر إلهام وكشف! والنبي تلقىٰ الوحي بهذه الحالة، وعليه فلا داعي للقول بأن الوحي والقرآن كلام الله، إنما هو صادر عن الإلهام والاستغراق، والكشف الباطني، هكذا يزعمون.

ويؤكد هذا حين يقول أيضًا:

«وفي إحدىٰ الليالي (ليلة القدر) وعندما تخيم السكينة علىٰ الوجود، وترتفع نفوس الخليقة إلىٰ باريها، في منتصف تلك الليلة، انفتح لروح محمد المتعطشة، سفرُ الوجود، وبينما هو مستغرق في ذاته، هتف به صوت كهدير

(١) ورد ذلك في حديث رواه البخاري، ومسلم وغيرهما قوله ﷺ: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسًا علىٰ كرسي بين السماء والأرض»، البخاري، كتاب كيف كان بدء الوحي باب (١) الحديث (٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، حديث رقم: ٢٥٥.

(٢) روح الإسلام ـ سيد أمير علي ص٢٩.

أمواج المحيط، هتف به مرتين ومرتين، (!) كان محمد ينحيه عنه»[١] . .

ثم يقول: ولَمَّا أفاق محمد من **غيبوبته** شعر أن ما سمعه قد رقم على فؤاده»[٢] . . إذا فهو يؤكد مرة أخرى بأسلوب مكشوف أن الرسول ﷺ تلقى الوحي في حالة غيبوبة واستغراق في ذاته! فهو يدعي أن النبي ﷺ تلقى الوحي في حالة غيبوية وهذا ما يجعل الوحي في نظرهم في منزلة الهذيان.

وهذا ما تركز المدرسة العقلية الحديثة على تأكيده كثيراً، لتستريح من هذه القداسة التي يحيط بها المسلمون قرآنهم وكتاب ربهم والوحي.

ويفسر الأستاذ محمد فريد وجدي كذلك الوحي تفسيراً ماديّاً في قوله: «فأصبح للوحي سبيل خاص للإنسان مناسب لكرامته، وهو أن يفضي الروح العام بما يحب أن يعلمه الكافة ويعمل به إلى واحد منهم، فيقول بنشره بين معاشريه من قومه»[٣] . وقد عبر عن هذا الروح العام أيضًا بالعقل الباطن في المقالة نفسها[٤] . .

فمن هو يا ترى الروح العام، والعقل الباطن الذي يفضي إلى واحد من الناس؟! وهذه تعابير فلسفية صوفية وباطنية لا تليق بمنزلة الوحي من الله.

فعبارة (يفضي الروح العام) عبارة غير علمية، ولا واقعية، ولا شرعية؛ لأن الوحي أمر شرعي ديني لا يقبل التفسيرات الخاصة حسب العقلية، أو المادية، إنما هي أمر توقيفيّ يفسر كما ورد من المعصوم ﷺ.

ويُفسر حسن حنفي الوحي بقوله: **«إنما هو حديث نفسي حدث به النبي ﷺ انعكاسًا من واقع المجتمع والأقدار»**[٥] . وهذا قول الفلاسفة والغربية الملاحدة.

---

(١) روح الإسلام ـ سيد أمير ص٣٠.

(٢) روح الإسلام ـ سيد أمير ص٣١.

(٣) الإسلام دين الهداية والإصلاح (بحث في الوحي) ص١١ ـ ١٥.

(٤) المرجع السابق.

(٥) شبهات وشطحات منكري السنة لأبي إسلام ص٣٩.

ولا تكتفي المدرسة العقلية الحديثة بتحريف المعاني الشرعية للوحي.. بل إنها أيضًا تحرف السَّنَد والنص بغير دليل، وتستند إلىٰ روايات المستشرقين وعباراتهم وكأنهم مسلمون عدول سمعوها من النبي ﷺ. اقرأ إن شئت سياق الدكتور/ محمد حسين هيكل في كتابه «حياة محمد» **لقصة بدء الوحي تجده يقول:**

«وفيما هو نائم بالغار يوما جاءه ملك وفي يده صحيفة، فقال له: اقرأ، فأجاب مأخوذًا: ما أقرأ! فأحس كأن الملك يخنقه ثم يرسله ويقول له: اقرأ..»[1] إلىٰ آخر القصة، وهذه العبارة (كأن الملك يخنقه) من تعبير المؤلف ولم ترد في السنة فيما أعلم، كما سترىٰ في رواية البخاري، إلىٰ أن يقول بعد أن ساق القصة وعرض الرسول ﷺ الأمر علىٰ خديجة:

«ثم أحس جسمه متعبًا في حاجة إلىٰ النوم فنام»[2].. هذه رواية مختلقة وزائدة عما ورد في كتب السنة، فبأي حق يقولها وهي تتعلق بحياة رسول الله ﷺ.. بل بنصوص الدين، فروايتها كذلك علىٰ رسول الله، وإن كانت ـ فرضًا ـ وقعت في علم الله، فإن ذلك غيب لا سبيل لمعرفته.

إنما اختلقها المستشرقون والعقلانيون ليبنوا عليها شبهاتهم الوهمية في الوقت الذي يشككون فيه بالأحاديث الصحيحة الواردة عن رسول الله ﷺ.

أما الرواية التي وردت عن رسول الله ﷺ بسند صحيح قطعي الثبوت عن قصة بدء الوحي، فأسوقها لنرىٰ كيف تحرف العقلية الحديثة النصوص، وتتجاهل السنة وألفاظها النبوية ثم هي تزعم العلمية والموضوعية!

هذه قصة بدء الوحي كما وردت في البخاري ومسلم:

«عن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: أول ما بدئ به

---

(١) حياة محمد ـ د. محمد حسين هيكل ص١٣٣.

(٢) المصدر السابق ص١٣٤.

رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلىٰ أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلىٰ خديجة فيتزود لمثلها، حتىٰ جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتىٰ بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتىٰ بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. . .»[١] الحديث.

ولمسلم نحوه، وقد جاء في رواية مسلم «حتىٰ فجئه الحق»[٢]. . مما يفيد أن الوحي لم يأت للرسول ﷺ نتيجة تفكيره، أو استغراقه، أو تأمله، أو عرفانه؛ لأن المفاجأة تبعد هذه المعاني التي أشارت إليها العقلية الحديثة.

بناء على ما سبق من إعطاء الوحي صفة بشرية، عادية تجرأت العقلية الحديثة علىٰ القرآن الكريم، سواء في التأويل والتحريف، أو القول بالرأي بغير علم، أو في إثارة الشبهات حوله، والتنقيص من قيمته وقداسته.

فيرىٰ أحمد زكي أبو شادي أنه لابد في إعادة النظر في القرآن وتعاليمه، حين يزعم أنه «من الحقائق التي يجب التسليم بها أن القرآن الشريف يجب أن يعاد النظر في فهم تعاليمه وتطبيقها من عصر إلىٰ عصر، بل من جيل إلىٰ جيل، وعلىٰ هذا لابد من ظهور تفاسير جديدة متمشية مع روح العصر وتقدم العلم، يؤلفها المطلعون الواعون من المفكرين»[٣]. .

---

(١) هذه رواية البخاري في باب بدء الوحي، ولمسلم بنحوها في كتاب الإيمان ـ باب بدء الوحي حديث ٢٥٢. والآيتان في الحديث (١ ـ ٢ سورة العلق).

(٢) من رواية مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب بدء الوحي ـ حديث رقم: ٢٥٢.

(٣) ثورة الإسلام لأحمد زكي أبو شادي ص٣٥.

وكأن القرآن اجتهاد بشري قابل لإعادة النظر فيه، وفي تعاليمه، كما يريد من القرآن أن يتمشىٰ مع روح العصر، وروح العصر روح جاهلية مادية، لا مكان فيها للخير والفضيلة. وهكذا يزعم ويصور أن فهم السلف وتفسيرهم للقرآن غير متمشٍّ مع روح العصر.

ثم من هم المفكرون الواعون الذين يريد منهم تفسير القرآن؟ إذا لم يعجبه تفسير علماء المسلمين الذين فسروا في القديم والحديث.

إن الطبري وابن كثير والقرطبي والشوكاني والألوسي ونحوهم من أفذاذ المفسرين لا يزالون غير أحرار في نظر العقلية الحديثة، ربما لأنهم دانوا لله تعالىٰ بالعبودية، وأعلنوا الالتزام والاحترام لحدود الله وأوامره في نظر العقلانيين، لكنهم هم الأحرار في الحقيقة وهم المؤمنون الذين قال الله فيمن خالفهم: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [١١٥: النساء].

ثم يفتري علىٰ القرآن بقوله: «والقرآن وحي أدبي خلقي معاشي تشريعي، وليس سجلاً لأحكام صارمة متزمتة، والحكم بالقرآن وفاقًا لعقلية القرون المظلمة، إنما هو افتراءات علىٰ القرآن»[(١)].

وليت شعري! ما هي القرون المنيرة إذا كانت القرون التي طبقت القرآن الكريم واتخذته دستوراً لحياتها، قرونًا مظلمة؟! فالعقلية الحديثة تطلق علىٰ عصور السَّلف الصالح حين كان القرآن مهيمنًا علىٰ الحياة: العصور المظلمة، وتسمىٰ هذا العصر الجاهلي المادي: عصر النور!

وأختم تحريفات (أبو شادي) حول القرآن بقوله:

«إننا نعيش في زمن يكاد يكون من المستحيل علىٰ أي علامة أن يفسر وحده

---

(١) ثورة الإسلام لأحمد زكي أبو شادي ص٧١.

القرآن الشريف . . »[١]، وعلى هذا يريد منا أن نلغي كل تفاسير المسلمين في الماضي والحاضر، ثم إنه يدعي ويزعم ويوهم القارئ بأن المشكلة مشكلة تفسير القرآن، وما علم أن المشكلة ليست كذلك فإن القرآن فسره النبي ﷺ وصحابته والسلف الصالح بالعلم والعمل وعليه فإن المشكلة حاليًا هي مشكلة العمل بالقرآن كما فسّروه وعملوا به .

ومع العلم أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، وهو كلام الله المتعبد بتلاوته بهذه اللغة، فإن العقلية الحديثة لا تحترم هذه القداسة، حين تدعو إلى تلاوته، باللغات القومية غير العربية .

فقد دعا ضياء كوك ألب إلى تتريك القرآن، أي : تلاوته بالتركية[٢]، وتَبنّت جمعية الاتحاد والترقي هذه الفكرة الشيطانية، وأمر بها عمليّاً أتاتورك حين أمر رسميّاً بأن يقرأ القرآن في الصلاة وغيرها بالتركية .

أما **التأويل والتحريف في القرآن وآياته** وأحكامه وقصصه، فإنه كثير بين العقلانيين المحدثين، فهم قليلاً ما يحترمون قداسة القرآن وأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يقفون عند منهج السلف الصالح، ولا عند أصول اللغة وإجماع المفسرين . .

بل إن بعضهم لا يتورع حين يصف القرآن بأنه من الممكن أن يشتمل على الأساطير والخرافات، فإن الدكتور محمد أحمد خلف الله زعم ذلك، وانتصر له في كتابه «الفن القصصي في القرآن الكريم» .

فهو يقول في أمثال القرآن وقصصه : «والأمثال لا يلزم أن تكون من الحقائق فقد تكون من المتخيلات ومن الأساطير والأوهام»[٣] . . سبحان الله! ما أوسع

---

(١) ثورة الإسلام لأحمد زكي أبو شادي ص٧٩ .

(٢) راجع صحيفة (الفتح) ص٤ العدد الثامن والخمسون ٢١ صفر ١٣٤٦هـ ـ المجلد الثاني (السنة الثانية) .

(٣) الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، المقدمة ص(و) .

حلم الله! وما أقل غيرة المسلمين على دينهم وكتاب ربهم!

ثم يقول:

«وإذا كان القرآن لا ينفي ورود الأساطير فيه، إنما ينفي أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام وليس من عند الله»(١) . .

ويقول: «إذا كان هذا ثابتًا فإننا لا نتحرج من القول: بأن في القرآن أساطير؛ لأنا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصّاً من نصوص القرآن».

ثم بعد أن وضع هذه الفرية، أخذ يدعو إلى التبشير بها وتعميمها بين أجيال المسلمين؛ ليرتاب من في إيمانه ضعف أو في علمه نقص.

حين قال: «يجب أن نحرص على فتح الباب ولا نوصده في وجه الذين يقولون بوجود الأساطير في القرآن الكريم»(٢) . . ثم يقول: «ومن هنا يجب أن لا يزعجنا أن يثبت عالم من العلماء أو أديب من الأدباء أن بالقرآن أساطير؛ ذلك لأن هذا الإثبات لن يعارض نصّاً من نصوص القرآن»(٣) . .

وهذه دعوى جاهلية مكشوفة قد قال بها أسلافه؛ حين زعموا بأن القرآن الكريم أساطير، وأنه شعر، وأضغاث أحلام. .

فقال تعالى عنهم: **﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾**[٢٥، ٢٦: **الأنعام**].

وقال تعالى: **﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا**

---

(١) المصدر السابق ص٢٠٦.

(٢) المصدر السابق ص٢٠٨.

(٣) المصدر السابق ص٢٠٩.

أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [٢٤، ٢٥ : النحل] . ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ④ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [٤، ٥ : الفرقان] .

ومن مكرهم وكيدهم قالوا بأن القرآن اشتمل على قصص وأمثال لا حقيقة لها، إنما هي أساطير، ليقال من بعدهم: إذا اشتمل القرآن على أساطير فما المانع أن يكون كله أساطير! **ما دام محمد أحمد خلف الله قال** يجب أن نحرص على فتح باب القول بأن القرآن فيه أساطير تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وقد سبقه أستاذه الدكتور طه حسين حين زعم في كتابه (الشعر الجاهلي) أنه مهما يحدثنا القرآن عن قصة إبراهيم وإسماعيل فإن هذا لا يكفي لوجودهما تاريخياً، فقد قال:

«للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة»(١) . .

ثم يقول: «ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعًا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والتوراة والقرآن، من جهة أخرى»(٢) . . **يظهر أن طه حسين لا يثبت عنده ما جاء في كلام الله العليم الخبير حتى يصدقه سادته الغربيون والفلاسفة الخراصون، أو بعض شياطينه الدجالين!**

(١) في الشعر الجاهلي للدكتور/ طه حسين ص٢٦ نقلاً عن (تحت راية القرآن) لمصطفى صادق الرافعي (١٤٥ ـ ١٤٦).

(٢) المرجع السابق.

والدكتور/ **طه** يرىٰ أنه مضطر إلىٰ أن يقول: بأن قصة إبراهيم حيلة! ونقول له: حيلةُ من؟ فإن قال بأنه حيلة محمد ﷺ فهو بهذا يرىٰ أن القرآن مِنْ وَضْعِه، أي النبي ﷺ، وهذا خلاف الحق فإن القرآن منزل من الله، وإن قال كما يقول المسلمون بأن القرآن كلام الله.. فهذه أكبر من أختها، أيكون الله (محتالاً) تعالىٰ الله عما يقولون علوّاً كبيراً؟ ففي هذه الجملة القصيرة يظن الدكتور/ طه حسين أنه يهدم كثيراً من أصول العقيدة، إذ أن قوله هذا يستلزم: أن القرآن ليس كله صحيحًا.. بل فيه أساطير.

وأن الله ـ بزعمه ـ بحاجة إلىٰ التحايل ليقرب ويصل العرب باليهود، والإسلام باليهودية، بأن قصة إبراهيم عليه السلام.. بل إن إبراهيم نفسه وإسماعيل من نسج الخيال لا حقيقة لوجودهما.

* وأن القرآن مصدر غير موثوق علميّاً.

*وأنه من وضع محمد صلىٰ الله عليه وسلم.

أما الشيخ محمد عبده، فإنه قد ضرب بسهم وافر في تأويل الآيات القرآنية، وتحريفها عن معانيها؛ لتوافق العقلية الغربية والنظريات الحديثة ـ مثل نظرية التطور ـ كما في تفسير المنار فقد:

* أَوَّلَ قصة آدم، وسجود الملائكة له، وما حدث له مع الشيطان[١]..
* وأَوَّلَ قصة خلق عيسىٰ[٢]..
* وأَوَّلَ الملائكة، والجن[٣] والشياطين..

وزعم بأنه من الممكن أن يكون في القرآن بعض القصص التي لم تقع، وإنما سيقت لمجرد التمثيل والقصة[٤].. أي أنه يمكن أن يشتمل علىٰ الأساطير، وقد

---

(١) راجع تفسير المنار ـ المجلد الأول ص٢٨٢، ٢٨٣.

(٢) تفسير المنار جـ٣ ص٣٠٩.

(٣) راجع تفسير المنار ـ المجلد الأول ص٢٦٧ ـ ٣٧٣، والمجلد الثالث ص٩٦.

(٤) راجع تفسير المنار ـ المجلد الأول ص٢٣٦ ـ ٣٩٩.

استند على هذه الزلة الدكتور محمد أحمد خلف الله في زعمه ـ المبين آنفًا ـ أن القرآن فعلاً اشتمل على أساطير[١] . .

* كما أَوَّلَ الشيخ محمد عبده حادثة الفيل تأويلاً على مقتضى المادية التي لا تؤمن إلا بالمحسوس، حين ذهب إلى القول بأن الطير الأبابيل هي وباء الجدري[٢]؛ ومن هنا سقطت قيمة القصة المعنوية ومبناها اللغوي وقوتها الإعجازية التي امتن الله بها على أهل البيت الحرام! واتخذت العقلية الحديثة من هذا المنهج البدعي مدخلاً لإثارة الشبهات، في حين لم تكسب منه العقيدة الإسلامية تأييداً من أحد.

يقول محمد عبده:

«فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه.. وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر.. وأن هذا الحيوان الصغير ـ الذي يسمونه الآن بالمكروب ـ لا يخرج عنها، وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها..»[٣] . .

وكذلك قصة آدم وزوجه في الجنَّة، وسجود الملائكة له، ووسوسة الشيطان، قصة وردت في القرآن الكريم متكررة بأسلوب بين واضح، بتفاصيلها، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ**

---

(١) راجع الفن القصصي في القرآن الكريم لمحمد أحمد خلف الله ص١٩٩ .

(٢) تفسير سورة الفيل في تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ص١٥٥ ـ ١٥٦ .

(٣) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ص١٥٥، ١٥٦ .

الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [٣٤ ـ ٣٦: البقرة].

ومع ذلك فقد أَوَّلَها الشيخ محمد عبده تأويلاً عقلانيّاً لا يستند إلى أيّ دليل من الشرع كما أنه يشوّه القصة المحكمة، ويبعدها عن معانيها اللغوية كما وردت. **فيقول:**

* «يصح أن يراد بالجنة الراحة والنعيم»[١]..

* «وأن يراد بآدم نوع الإنسان»[٢]..

* «ويصح أن يراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة»[٣]..

* ووسوسة الشيطان «عبارة عن وظيفة تلك الروح الخبيثة التي تلابس النفوس البشرية، فتقوِّي فيها داعية الشر»[٤]..

* «والخروج من الجنة «مثال لما يلاقيه الإنسان من البلاء والعناء بالخروج عن الاعتدال الفطري»[٥]..

* أما تلقي آدم للكلمات فهو «بيان لما عرف في الفطرة السليمة من الاعتبار بالعقوبات التي تعقب الأفعال السيئة»[٦]..

وقبل المناقشة أشير إلى أمر مهم بهذا الصدد، هو: أنه يجب أن نفرق بين القصة من حيث كونها حقيقية حدثت فعلاً، وبين العظات والدروس التي تستفاد منها،

(١) تفسير المنار ـ المجلد الأول ص٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق.

(٦) المرجع السابق.

فإن وقوعها شيء، وما تشير إليه من عبر وعظات ودروس للبشرية جمعاء عبر التاريخ شيء آخر، **وعلى ضوء هذا أقول:**

إذا أولنا الجنة إلى (الراحة والنعيم)، وآدم إلى (بني الإنسان في عمومهم)، والشيطان: (الروح الخبيثة)، والوسوسة (تقوية داعي الشر).. والخروج من الجنة: (الخروج من الاعتدال الفطري)... إلخ.

وهذه معانٍ لغوية فعلاً لتلك الكلمات.. لكن القصة بسياقها وأحداثها لها معالم وحدود وأشخاص وأسماء صريحة لا ينفصل بعضها عن بعض.. فإذا أولناها على ذلك النسق لم يبق لنا من معالم القصة إلا أشباح ورموز وخيالات وهمية، ولأصبحت أشلاء ممزقة، مع أن الله أشار فيها إلى مجموع القصة بالتجسيد:

فإنه تعالى أشار إلى آدم بمفرده، وزوجه معه، وإبليس بشخصه، والجنة والشجرة، ونهى آدم وزوجه عن الأكل منها، وأنهما أكلا منها، فلما فعلا ذلك بدت لهما سوءاتها فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وأن الشيطان تكلم وقال: ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**﴾ [٢٠: **الأعراف**]، بأشخاص، وأعلام، وصور وأحداث ومشاهد واضحة محكمة بلسان عربي مبين.

فالقصة حية واقعية حقيقية واضحة الملامح بيِّنة السمات، ولا نجد أي دليل يشير إلى أنها تمثيلية، فإذا عرفنا أن القصة وقعت حقيقة لا مجرد تمثيل، فيمكن أن نأخذ منها تلك العبر بدل أن نحولها إلى رموز، وخيالات قصصية أسطورية وهذا هو ما يجب علينا نحو كلام الله، فنأخذ منه الدروس، دون أن نقحم عقولنا القاصرة في شيء ذكره الله ولم نشهده، ولم يحدث لنا نحن، إنما حدث لآدم وزوجه، وإبليس، وليس لدينا دليل لتأويلها كما فعل الشيخ، فهي قصة حق

وكفىٰ ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقريبًا من هذا التأويل: ما ذهب إليه الدكتور محمد البهي في تفسير سورة الأعراف، فقال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فبدت لهما سوءاتهما﴾:

إن السوأة هنا: «بمعنىٰ النقص، بجرح سلوك الإنسان عندما يكشفه غيره»[1]..

وفي قوله تعالىٰ: ﴿فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾.

قال البهي: «وشرعا في تغطية هذا النقص بمبرر أو بآخر، وورق الجنة هنا هي المبررات التي تلجأ إليها النفس عند الخطأ»[2] سبحان الله! ما الذي ألجأ هذا العقلاني إلىٰ تحريف الكلم عن مواضعه، ربما مجاملة وانهزامية أمام الملاحدة الغربيين الذين لا يؤمنون بالغيب.

ويظهر أن هذا التأويل أكثر تطرفًا من تأويل الشيخ محمد عبده.. فحين تأمل قوله إن السوأة بمعنىٰ (النقص بجرح سلوك الإنسان).

وأن ورق الجنة (هو المبررات) نجد أنه بعيد كل البعد عن حقيقة القصة، فهي في نظر وحسب ألفاظه **كالتالي:**

فبدا لهما نقصها بجرح سلوكهما حين انكشف، فشرعا في تغطية هذا النقص بمبرر أو بآخر من المبررات التي تلجأ إليها النفس عند الخطأ!!

فأين الحوار بينهما وبين ربهما، وأين شخصية إبليس لعنه الله، وأين الجنة وشجرتها وورقها، وما فائدة الألفاظ: (اسكن)، (اهبطوا)، (طفقا)، (يخصفان) (بدت)، (ورق الجنة) إذا أولناها كما يريد الدكتور؟ وما الذي يبقىٰ من معالم القصة وما فائدتها إذا لم تكن حقيقة؟!

---

(١) تفسير سورة الأعراف للدكتور محمد البهي ص٢١، ٢٢.

(٢) المرجع السابق.

إنه ـ كما قلت في مناقشة محمد عبده ـ من الممكن أن يجعل هذه المعاني من العبر والفوائد من القصة الحقيقية، أما أن يحول القصة إلىٰ هذه التحريفات فأمر لا يستند إلىٰ دليل في مسألة غيبية.

وأنا لست أدري لماذا يضيقون بإثبات القصة حقيقة واقعة بألفاظها وأشخاصها ومعالمها وحدودها؟ ثم لهم أن يبحثوا بعد ذلك عن الحكمة دون تأويلها بغير برهان، فهي كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

أيريدون بذلك إرضاء العقلية المادية الحديثة، أم حبّاً للتجديد، والتأويل ولو علىٰ حساب كلام الله تعالىٰ؟ أيريدون أن يُكَذِّبَ اللهُ ورسولُه، أم يخافون أن يوصموا بالإيمان بالغيبيات!؟ أو أن يقال لهم أنتم تؤمنون بأساطير؟.. فإن ذلك قد قيل للرسول ﷺ، وهو أكرم الخلق، فلم ينقص من قدره شيئًا.

لقد مرت هذه المعاني والألفاظ والقصص علىٰ الصحابة والتابعين، والسلف الصالح، وعلماء اللغة، فأمرّوها كما جاءت عن الله دون تحريف ولا تأويل.. ولا التماس العظة والعبرة، مع احترام اللفظ، وتركه كما جاء، والتسليم بأنه حق علىٰ حقيقته كما أخبر الله ورسوله، فَلِمَ يحرف العقلانيون الكلم عن مواضعه؟ ألا يسعهم ما وسع السلف الصالح، أيتبعون غير سبيلهم بغير دليل؟

وأقل ما يقال عن هذا التأويل إنه: **قول بالرأي في القرآن دون دليل**. وقد جاء الوعيد عن ذلك في السنة:

ورد في مسند الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«من**

قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»[١].

هذا طرف من تأويلات مَنْ قد يصفهم البعض بالعلماء، فكيف بمن هم دونهم من أنصاف المتعلمين والأتباع ـ أتباع المدرسة العقلية الحديثة ـ؟ وإليك شيئًا من تفاسيرهم:

جاء في كتاب (البعث أو معنى الروح) لمن يُدعى: (عبدالعظيم مصطفى سعد) في قوله تعالى: ﴿ **وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [١٧٠: **آل عمران**]، قال: «أي: المخالفون لهم في الدين»[٢]..

وقوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [٣٥: **النور**]، أي: «ينيرها بموجات كهربية يشعها إنس وجان عندما تستعد النفس لتحمل جزءًا كبيرًا من المشاق»[٣]..

وفي قوله تعالى: ﴿ **ونفخ في الصور** ﴾ قال: «أي: الشكل والصورة الكهربية للإنسان والمنعكسة في ورقة السماء، والتي يلتقطها اللاسلكي بأحد أجهزته»[٤]..

وقوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ** ﴾ [٤٢: **القلم**]، قال: «هذا في الواقع كناية عن السفور بالكمال في كل شيء، والوصول به مع المرأة إلى أبعد غاياته

---

(١) مسند الإمام أحمد ـ المجلد الأول ص٢٣٣، ٢٦٩.

(٢) البعث أو معنى الروح للسيد عبد العظيم مصطفى سعد ص٩ الهامش.

(٣) البعث أو معنى الروح للسيد عبد العظيم سعد ص١١ الهامش أيضًا.

(٤) المرجع السابق.

عن طريق المدنية والتحضر»[١]. . كذا!!

وإنني حقاً عندما أردت نقد هذا الهراء، وقفت محتاراً، من أي جانب أبدأ وأرد، فكل ما فيه خطأ وتحريف، وكذب على الله، وجهل مطبق بالعلم وبالدين وباللغة، وتناقض، وضرب للآيات بعضها ببعض، وجهل ببدهيات التفسير والعلم، بل يُشبه أن يكون ضربًا من الجنون أو الهذيان!.

أيستبشر المؤمنون الشهداء بالمخالفين لهم في الدين وهم الكفار؟ . . لأن الآية وردت في الشهداء، والمخالفون في الدين (الذين يعنيهم) كفار، فكيف يستبشرون بهم؟! لأنه بعد الإسلام لا يخالف في الدين (وهو عند الله الإسلام) إلا كافر أو مرتد.

وحين أَوَّلَ قوله تعالى: ﴿**الله نور السموات**﴾ بالموجات الكهربية، من أين له هذا العلم؟ وأي دليل يسنده في قوله؟ بل هل العلم الحديث لم ير من النور إلا نور الموجات الكهربية؟

كذلك نفخ الصور، وقوله بأنه (الصورة الكهربية للإنسان يلتقطها باللاسلكي) ونسي أن النفخ في الصور يكون يوم القيامة حين لا يبقى إلا وجه ربك ذي الجلال والإكرام، واللاسلكي وأجهزته صنعة بشرية ضئيلة أمام قدرة الله.

ثم نراه يدغدغ عواطفه الشهوانية المادية ليستمتع هو ورفاقه بالسفور، فيريد أن يكون سفور القرن العشرين هو جنة الآخرة؛ حينما يهذي فيؤول قوله تعالى: ﴿**يوم يكشف عن ساق**﴾ بأن هذه كناية عن السفور وتعميمه يوم القيامة! فلم

(١) المرجع السابق.

يكفهم ـ هو ومن هم على شاكلته ـ أن تشقى البشرية بسفور المرأة المعاصرة، فيريدون أن ينقلوا معهم العري والخنا والسفور إلى الدار الآخرة، أو كذا يحلمون!

فهذا الكاتب ـ فيما يبدو ـ ممن يضيق بالحجاب والحشمة، ويريد أن ينفس عن نفسه المريضة بمثل هذا الهراء.

ومن أساليب المدرسة العقلية الحديثة.. أنها تحاول أن تجعل القرآن سنداً لكل أفكارها، ونظرياتها، واتجاهاتها، وأهدافها، فتلوي أعناق الأدلة، وتحرف الآيات؛ لتوافق أو لتساير انحرافاتها وآراءها الشاذة.

فتارة تدعي أن القرآن كتاب أدب ولغة، وتارة تذهب إلى أنه كتاب دين ولا صلة له بشؤون الحياة.

وتارة تدعي أن القرآن من مقومات القومية العربية، وأخرى تزعم أن القرآن كتاب الاشتراكية الأول.. وقد يذهب فريق إلى أن القرآن كتاب ثوري بالمعنى الذي يحلو لهم... وهكذا.

بل إن الأفكار ووجهات النظر الشاذة في جزئيات الأمور يذهب أصحابها إلى التماس الأدلة لها من القرآن ليكون سنداً لها، وهذا ابتذال للقرآن العظيم، واستهانة بكلام الله تعالى.

فمثلاً: نجد محمد أحمد خلف الله يقول: «القرآن الكريم ينهي وصاية السماء على الأرض بإنهاء النبوة والرسالة، والقرآن يدعو العقل البشري إلى تقوية نفسه عن طريق البحث والتحري والكشوف العلمية»[1]..

---

(١) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة ـ د. محمد أحمد خلف الله ص٨١.

فقوله : (القرآن ينهي وصاية السماء على الأرض)، إساءة أدب مع الله تعالى، فهل يوصف الله بالسماء، بل فهل كان للسماء على الأرض وصاية إلا بما أنزله من وحي وكتب ورسل؟

والله عز وجل حين ختم النبوة والرسالة، فإنما أنهى بعث الرسل بختم الرسالة وبحفظ القرآن والسنة، لا بإنهاء تعاليم الإسلام والدين؛ لأن مقصودهم بوصاية السماء : الوحي الذي أنزله الله على عباده المرسلين، وما فيه من عقيدة وشريعة .

أما البحث والتحري والكشوف العلمية، التي أشار إليها (خلف الله) إنما هي من وظائف العقل التي أشار إليها، وأما تقوية العقل فلا تكون إلا بتقوى الله والتزام شرعه .

ثم هو يستدل بالقرآن على القومية والاشتراكية (جاهليات القرن العشرين) يقول :

«إن القرآن قد خرج بالعرب عن أن يكونوا قبائل عديدة مختلفة الأهواء والنزعات، مختلفة الآراء والمعتقدات، إلى أن يكونوا أمة هي الأمة العربية، ذات **كيان واحد هو الكيان القومي**، وذات عقيدة دينية واحدة هي العقيدة الإسلامية» .

إن القرآن كلام الله تعالى، فمن أين عرف الدكتور خلف الله أن القرآن جعل الأمة هي الأمة العربية؟ إنه لا يستطيع أن يذكر آية تدل على ما ذهب إليه، في حين أن آيات عموم الأمة الإسلامية والرسالة كثيرة . . قال تعالى : ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ**﴾ [٢٨ : سبأ]، وقال تعالى : ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [١٣ : **الحجرات**] . وكل الآيات تخاطب المسلمين كلهم، ولم ترد آية واحدة ـ فيما أعلم تنادي العرب المسلمين وحدهم إلى الوحدة والقومية من دون المسلمين غير العرب[١] .

(١) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة ـ د. محمد أحمد خلف الله ص٤٣ .

بل يرىٰ أن القرآن جاء ليحقق الاشتراكية، أو علىٰ الأقل بأن الأفكار الجديدة التي **تسمى اليوم بالاشتراكية ليست بعيدة عن المضامين القرآنية فيقول: «القرآن الكريم باعتباره دينًا سماويًا يرشد الإنسان إلى الوسائل التي تحقق له السعادة يلتقي مع الاشتراكية من** حيث هي وسائل تقود الإنسان إلىٰ تحقيق السعادة. . . إن القرآن الكريم باعتباره ديانة عالمية تصلح لكل إنسان في كل زمان ومكان ليحيا حياة سعيدة فاضلة، فكذلك الاشتراكية تعتبر نفسها مبادئ إنسانية صالحة لتحقيق الخير للإنسانية»[1].

ونقول له: إن الاشتراكية نظام وضعي وليد الفلسفة المادية الماركسية، والإسلام الذي دستوره القرآن تشريع إلهي، يملك نظامًا اقتصاديًا متكاملاً، فلم يكن بحاجة إلىٰ الاستعانة بالفلسفة الاشتراكية، ولا إلىٰ الدعاية له من خلالها.

ويقول المدعو (أبو زيد) صاحب تفسير «الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن». . عند تفسيره لقوله تعالىٰ حكاية عن عيسىٰ عليه السلام: ﴿ **أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ** ﴾ [٤٩: **آل عمران**]، قال: بأن المقصود: إخراج الناس من ثقل الجهل إلىٰ خفة العلم[2]. .

وعند قوله تعالىٰ عن عيسىٰ: ﴿ **وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ** ﴾ [٤٩: **آل عمران**]، قال: **يعلمهم التدبير المنزلي**[3]. . **ويرد عليه: بأن الله ذكر ذلك في عيسىٰ عليه السلام بأنه معجزة له وتفضيل له علىٰ سائر قومه، وإذا كان الأمر**

---

(١) المصدر السابق ص٤٨.

(٢) مجلة نور الإسلام - المجلد الثاني - الجزء الثالث - ربيع الأول عام ١٣٥٠ عن تقرير اللجنة الأزهرية ص١٧٧، ١٧٨، ١٧٩.

(٣) المصدر السابق ص١٧٨، ١٧٩.

كما قال أبو زيد فأي فضل لعيسى (عليه السلام) في تعليم التدبير المنزلي الذي تعرفه كل ربات البيوت؟[١]

وقال أبو زيد هذا في قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [٦٠: البقرة]، إنما يقصد أن الله هداه إلى محل الماء ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [٦٣: الشعراء]، عبارة عن السير في الأرض[٢].

ومعلوم أن السير في الأرض لا يعبر عنه بالضرب بالعصا، وبضرب البحر أيضًا، إنما هم يريدون التأويل والتحريف بكل وسيلة.

وقوله: (وإبراهيم نجاه الله من النار بالهجرة فنجي من الوقوع فيها)[٣]..

لكن ماذا سيقول في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [٦٩: الأنبياء]، ثم قال في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [١٨: النمل].. قال بأن المقصود بالنمل «قبائل الوادي» والنملة «القبيلة»[٤].

ويقال له: أي علاقة لغوية أو حتى رمزية بين القبيلة والنملة، وكيف يحطم سليمان نبي الله القبائل وهو لا يشعر؟..

وفي قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

قال: الإسراء الهجرة. والمسجد الأقصى مسجد المدينة[٥]..

وهذا خلاف إجماع المسلمين حين أجمعوا كلهم بمختلف طوائفهم أن

(١) المصدر السابق ص١٧٩.
(٢) المصدر السابق ص١٨٠.
(٣) المصدر السابق ص١٨٢.
(٤) المصدر السابق ص١٨٦.
(٥) المصدر السابق ص١٨٩.

الإسراء كان من مكة إلى بيت المقدس، وأن الهجرة كانت من مكة إلى المدينة بعد الإسراء والمعراج بمدة، وتواتر ذلك في كتب السنة وكتب السيرة[1] . .

هذه نماذج - أخي القارئ الكريم - لتفسيرات العقلانيين الذين أطلقوا لعقولهم القاصرة الأعنة في تفسير النصوص الشرعية، دون اعتبار لأصول التفسير، وبجهل مطبق، بل وغباوة ظاهرة أحيانًا.

وخلاصة القول:

إن المدرسة العقلية الحديثة، استباحت انتهاك حرمة الوحي والقرآن الكريم، وأثارت حولهما الشبهات والشكوك، وأكثر ذلك إنما هو انهزامية تجاه المادية الجاهلية الحديثة التي لا تؤمن إلا بما تقع عليه الحواس المحدودة، أو ما يخضع للتجارب العلمية المادية، أو ما يكون فيه لها منفعة اقتصادية عاجلة.

وعلى هذا. . فليست خطورة العقلية الحديثة على العقيدة الإسلامية آتية من كونها تنكر أو تشكك في الوحي والقرآن فحسب، إنما الخطورة جاءت أيضًا من كونها فعلت ذلك باسم العلمية والموضوعية.

والعلمية الموضوعية لو سلكها هؤلاء. . فلا بد أن يصلوا إلى نتيجة حتمية هي:

أن الوحي والقرآن والنبوات، حقائق إلهية لا دخل للبشر - من الأنبياء وغيرهم - في شأنها، ولا يملكون جلبها لأنفسهم ولا دفعها إلا بأمر من الله، وأنها نابعة من خارج ذواتهم، لأن كلاً منهم إنسان كغيره من بني آدم في الخصائص والصفات والطاقات الإنسانية، لكن الله اصطفاهم، وما جاؤوا به من وحي

---

(١) راجع سيرة النبي ﷺ لابن هشام، تعليق محمد خليل هراس، جزء ٢ ص ٤ حتى ص١٢، وصحيح مسلم، باب الإسراء برسول الله، كتاب الإيمان، والسيرة النبوية لابن كثير، تحقيق مصطفى عبدالواحد - مجلد ٢ ص٣ ومابعدها، وراجع صحيح البخاري - كتاب الصلاة - باب كيف فرضت الصلاة.

ومعجزات، إنما هو من الله، وذلك بأن الأنبياء جميعهم حصل منهم ـ بإذن الله ـ من الأعمال والأخبار ما يستحيل على البشر الوصول إليه، وكل ذلك من عند الله وحده.

فالمعجزات كالطوفان في عهد نوح، وعدم إحراق النار لإبراهيم، وعصا موسى، وناقة صالح، وهذا القرآن الذي يتحدى كل الثقلين ـ ولا يزال ـ أن يأتوا بمثله، وما حصل لرسول الله ﷺ من المعجزات الأخرى غير القرآن كالإسراء والمعراج، وانشقاق القمر، وحنين الجذع وغيرها . . كل تلك المعجزات للأنبياء ـ إنما هي من الله ـ يستحيل على البشر فعلها، وإن كان يعقل وقوعها، فالممكن المعقول في سنن الله غير الممكن في تقدير البشر عادة . . فهذه المعجزات للأنبياء لا يمكن أن تقع في مقدور الإنسان، فلا بد أن تكون من الله في مصاحبة الرسول.

كذلك الأخبار، فقد أخبر الأنبياء كلهم بأخبار عن الله، وعن الآخرة، وعن بعض أحداث المستقبل، وعن الجنة والنار، وبعض أخبار الغيب التي يستحيل على البشر معرفتها، فلا بد أن يكونوا تلقوها عن علام الغيوب.

أما كنه الوحي وكيفيته، فلا يلزم من عدم إدراك العلم الحديث لها عدم وقوعها ولا عدم صحتها، فالجهل بكنه الشيء لا يقوم دليلاً على عدمه، فكيف وآثاره ومعجزاته لا تزال قائمة كالقرآن والإسلام[1].

---

(١) راجع الكتب التالية:

(١) الرد على الجهمية والزنادقة ـ لأحمد بن حنبل ـ تحقيق د. عبدالرحمن عميرة.

(٢) النبوات لابن تيمية، ومقدمة التفسير ـ المجلد ١٣ من مجموع الفتاوى لابن تيمية.

(٣) الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي.

(٤) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني.

(٥) النبأ العظيم ـ محمد عبدالله دراز.

(٦) كبرى اليقينات الكونية لمحمد سعيد رمضان البوطي.

(٧) الإسلام يتحدى ـ وحيد الدين خان.

المبحث الخامس

رأي المدرسة الحديثة في النبوة والأنبياء والمعجزات

أولاً: النبوة والأنبياء:

ولما كانت هناك أمور هي من مصالح الإنسان الضرورية، ويستحيل عليه إدراكها تفصيلاً بعقله وحواسه وسائر قواه، مثل تفصيلات الإيمان بالله تعالىٰ وأسمائه وصفاته وأمور الغيب الأخرىٰ وما بعد الحياة الدنيا (الآخرة)، وتفصيلات الأحكام الشرعية (الشريعة والمنهاج) التي تضمن للإنسانية الحياة الكريمة الآمنة الموصلة إلىٰ ما يحبه ويرضاه ويريده الله تعالىٰ، فقد اصطفىٰ الله رسلاً من خيار البشر ليكونوا هم الواسطة بين الله تعالىٰ وخلقه، ليبلغوا للعباد دين الله وشرعه.

وهؤلاء هم الأنبياء والرسل، اختارهم الله رحمة منه لعباده، معرفين به تعالىٰ وبأسمائه وصفاته، وداعين إلىٰ توحيده، وإفراده تعالىٰ بالعبادة والطاعة والانقياد (الربوبية والألوهية) بيان الطريق والشِّرْعَةِ الموصلة إليه تعالىٰ المتضمنة أمره ونهيه، ومبينين لوعده تعالىٰ لمن أطاع الله واتبع رسله وعمل بما جاء عنه بالجنّة، والفوز والرضا منه تعالىٰ، ولوعيده لمن عصىٰ وتنكب الطريق بالنار والغضب والهوان، وسائرأخبار البعث والآخرة[1]، وصفهم الله تعالىٰ بأنهم ﴿ مبشرين ومنذرين ﴾.

وقد أوجب الله تعالىٰ علىٰ عباده الإيمان بالرسل، وفطرهم علىٰ ذلك ويسر لهم السبل إليه، وامتحنهم بأمور صارفة عن الهدىٰ والحق، من وساوس

---

(١) راجع شرح العقيدة الطحاوية ـ تحقيق أحمد شاكر ص٩، ١٠.

الشياطين، واتباع الأهواء وغير ذلك، ابتلاء يتميز به المطيع من العاصي.

وختم الله الرسل بنبينا محمد ﷺ، فجعله أفضل الأنبياء وآخرهم، وأمته أفضل الأمم وأوسطها، فهم الشهداء على الناس وأرسله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وأوجب على الأمم الإيمان بجميع الرسل دون تفريق بين أحد منهم.

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [١٣٦: البقرة].

هذا هو التصور الإجمالي للإيمان بالرسل وما جاؤوا به عن الله تعالى.

أما المدرسة العقلية الحديثة، فهي تفسر النبوّة وتناقشها على أنها ظاهرة إنسانية تتعلق بالنشاط الإنساني، وأنها تقبع في زاوية من زوايا الحياة والتاريخ البشري الطويل.

ومن ثم تتناولها وتدرسها وتفسرها، دراسة وتفسيراً ماديين، على ضوء نظريات العلم المادي الحديثة بزعمهم، ومن مزاعمهم في ذلك:

* أن النبوة ظاهرة إنسانية فردية شخصية، تخرج من ذات النبي وعبقريته الفذة، ومما يتميز به من طاقات وقوى فريدة، وبما يتأثر به من مؤثرات البيئة من حوله، الفكرية والفلسفية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وغيرها.

* وأن النبي شخصية فذة تملك قدرة عظيمة على التأثير، بما أوتيه من قوة روحانية تمنحه صفاء النفس، وقوة الشعور، والقدرة على التأمل الباطني والتفكير العميق، والإحساس المرهف، فتصدر عنه، تعاليم وإرشادات دينية قيمة.

* أما أن يكون له صلة بأمر خارج ذاته - كالملك -، وخارج نطاق الإنسانية،

فهذا شيء تستبعده وتشك فيه المدرسة العقلية الحديثة وقد تنكره وتزعم أن العلم ينفيه، ومسكين هذا العلم الذي بهتوه ونسبوا إليه إلحادهم وهو منهم بريء.

*وقد تفسر ـ العقلية الحديثة ـ النبوة على أنها نمط من الكهانة والسّحر والدّجل والشعوذة، وأن الأنبياء إنما هم مجموعة من محترفي هذه المهن.

* ومن ثم تكون الأديان السماوية ـ ومنها الإسلام ـ إنما هي ـ **على زعمهم الباطل** ـ نتيجة نشاط إنساني، جاءت بسبب ظروف مكانية وزمانية مؤقتة، وأنها حركات إصلاحية محلية، أو عالمية، قابلة للرفض أو القبول والمناقشة والتبديل وتستنفد طاقاتها حين تزول أسبابها ويمضي عليها الزمن، أما الأنبياء فأحسن تقدير لهم من قبل العقلية الحديثة أن تجعلهم في صف الشخصيات المحترمة من العظماء والعباقرة، والمفكرين، والفلاسفة، والقواد والمشاهير والمصلحين الكبار.

*وقد تراهم أو بعضهم فئة من الدجالين والمشعوذين والكهان. كما يزعم العقاد عن الأنبياء قبل إبراهيم[١].

* وهناك طائفة من العقلانيين أكثر اعتدالاً في تفسيرهم للنبوة، ونظرتها للأنبياء فهي تعترف بأن النبوة والرسالة اختيار وأمر إلهي لا شأن لشخص النبي فيه، وأن الأنبياء يُصطفون من الله تعالى، لكنها متأثرة بالاتجاه العقلي المادي، وتسايره، فتُعرِّف النبوة والأنبياء بتعريف عقلي لايلتزم الشرعية بألفاظها التي وردت في الكتاب والسنّة، ومن ثم تعطي النبوة مفهومًا متناقضًا، قابلاً للرد وإثارة الشبه، بل قابل للتأويل المادي الذي يفسر النبوة بأنها نشاط إنساني كما ذكرت.

ومن ذلك تعريف الشيخ محمد عبده ـ وهو من أول من تأثر بالاتجاه العقلاني الغربي بهذا الصدد، فيما أعرف ـ فقد عرّف النبوة بتعريف لايلتزم المعنى الشرعي وتعريف السّلف الصالح له.

---

(١) انظر: إبراهيم أبو الأنبياء ص٤٨٢.

قال في تعريف النبي بأنه:

«إنسان **فطر على الحق علمًا وعملاً** بحيث لا يعلم إلا حقّاً ولا يعمل إلا حقّاً على مقتضى الحكمة»[١].

وهذا التعريف فيه تساهل وتوسع في معنى النبوة، فإنه ينطبق على النبي وغيره، فإن كل بني آدم يولدون على الفطرة، ويفطرون على الحق وقد يوفق الله بعض عباده الصالحين أن لا يفعل إلا حقّاً على مقتضى الحكمة. وقد عرّف الجمهور النبي بأنه: من يوحى إليه بشيء، فإن أمر بتبليغه فهو رسول[٢].

وشيء آخر: أن النبي ﷺ، وسائر الأنبياء ـ كسائر الناس، لا يعرف الوحي ولا تفاصيل الشرع، قبل النبوة، وقد يقع في بعض الأخطاء عدا الشرك والفواحش، فقد أخبر الله رسوله ﷺ أنه لم يكن يعرف الحق، قال تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ**﴾ [٧: **الضحى**].

ومعناه: أنه لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان[٣]، وقد فوجئ بالنبوة، فلم يكن في نفسه أي تفكير مسبق لها، قال تعالى: ﴿**مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ**﴾ [٥٢: **الشورى**].

ثم إن هذا التعريف لا يشير إلى اصطفاء الله لأنبيائه، كما يدخل في تعريف الشيخ بعض أولياء الصوفية والمخرفين، وأئمة الشيعة المزعومين، **ولا يشير إلى الوحي الذي هو من لوازم النبوة**، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم**﴾ [١٠٩: **يوسف**] فذكر الوحي شرط في تعريف النبوة والرسالة.

فهذا (تعريف محمد عبده للنبوة) تعريف فلسفي لا يثبت عند التحقيق

---

(١) نقلاً عن موقف العقل لمصطفى صبري ص٢٩ جـ١، ومحمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين، تحقيق سليمان دنيا ص٣.

(٢) راجع النبوات لابن تيمية ص١٧٢، ١٧٣ والنبوة والأنبياء للصابوني ص١٣.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٥٢٥.

والنظر في نصوص القرآن والسنّة.

وقريبًا من هذا قول الشيخ في تفسير المنار:

«إن روح النبي منطوية **على الدين جملة من قبل أن ينزل** عليه الوحي بتفصيل مسائله»[١] وهذا تعريف فلسفي صوفي باطني خطير.

فإن روح النبي إذا أمكن أن تنطوي على جملة الدين فما المانع من أن تنطوي على تفصيلاته؟، فقد يؤول الأمر على هذا الوصف إلى القول بأن الدين والنبوة والرسالة شيء نابع من ذات النبي ما دامت روحه منطوية عليه، وهذا هو رأي المدرسة العقلية، حيث تميل إلى أن النبوة والرسالة والدين نشاط إنساني، لا صلة له بقوى غيبية خارجية، كالملائكة وجبريل ونحو ذلك.

ويذهب الشيخ إلى أبعد من ذلك، حين يعقب على تعريف النبي بقوله: «وذلك يكون بالفطرة، أي لا يحتاج فيه إلى الفكر والنظر، ولكن التعليم الإلهي، فإن فطر على دعوة بني قومه إلى ما جبل إليه فهو رسول أيضًا، وإلا فهو نبي وليس برسول فتفكر فيه فإنه دقيق»[٢].

فهو جعل الفطرة مكان الوحي في هذا الوصف، **وهذا يخالف الوصف** الشرعي للنبوة، **فإنه خلط بين الفطرة التي فطر الله الجميع الناس عليها، وهي** شيء مركوز في كيان الإنسان ويولد معه، **وبين النبوة التي هي اصطفاء طارئ بالوحي ولبعض الخلق، وهم قليل، فالرسول لو كان فطر على دعوة بني قومه كما يزعم محمد عبده، فلماذا لم تحدث للنبي ﷺ ولم تتحرك لديه هذه الفطرة إلا بعد سن الأربعين، مع توفر الأسباب والدواعي؟**

ومع أننا قد **نوافق الشيخ محمد عبده بأن النبيّ قبل اختياره للنبوة، مفطور** على الفطرة السليمة، والأخلاق الفاضلة، والخصال الحميدة، **بل إنه أفضل**

(١) تفسير المنار جـ٢ ص١٤.

(٢) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين ـ تحقيق وتقديم سليمان دنيا ص٣.

البشر في ذلك، لكن لا يعني هذا أن روحه منطوية على الدين جملة؛ لأنه لو كان كذلك لم يجهل جملة الإيمان، حيث قال الله عنه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [٥٢: الشورى]. وقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [٦، ٧: الضحى].

وإذا كان فُطِرَ على النبوة فكيف تكون خديجة رضي الله عنها وورقة بن نوفل أعلم منه بحاله أول عهده بالوحي؟ فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما في قصة بدء الوحي أنه ﷺ حين أنزل عليه الوحي في حراء رجع إلى منزله يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «**زملوني زملوني**» **فزملوه** حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «**لقد خشيت على نفسي**» وقالت خديجة: **كلا والله ما يخزيك الله أبدًا**. وأنها انطلقت به إلى ورقة بن نوفل وأنه أخبره بأن هذا هو الناموس الذي يأتي إلى موسى عليه السلام[1].

وهذا يخالف كل المخالفة ما أشار إليه الشيخ هنا.

وبناء على ما تذهب إليه العقلية الحديثة من أن النبوة والرسالة نشاط بشري رأت أنها نوع وصاية على الإنسان، بما تحمله من دعوة إلى توحيد الله وعبادته دون سواه وبما جاءت به من أوامر ونواهٍ، وأن هذه الوصايا ما هي إلا قيود دينية نابعة من سلطات الأنبياء والمرسلين، لذلك لا بد من التحفظ على هذه السلطات الدينية وإضعافها كما قضت العقلية الغربية الحديثة على سلطات الكنيسة، أو أضعفتها. **ربما يظن القارئ أني أبالغ أو ألزم العقلانيين ما لم يقل به أحد منهم، لذا فإني أحيله إلى ما يذهب إليه** الدكتور محمد أحمد خلف الله في ذلك، بأن القرآن الكريم - بزعمه - جاء لتحرير الإنسانية من سلطات الأنبياء والمرسلين! وهذا نص عبارته: «**إذا كان القرآن الكريم قد عمل على تحرير العقل البشري من سلطات الآلهة فإنه**

---

(١) رواه البخاري.

قد عمل هنا أيضًا على تحريره من سلطات الأنبياء والمرسلين»[١] .

وهذا تحريف لآيات الله ، فإن الله تعالىٰ هو الذي أرسل الأنبياء والمرسلين رحمة للعالمين ، فما هي تلك السلطات التي يزعمها الكاتب؟ أو يزعم أن القرآن حرر منها؟ والكتب المنزلة ومنها القرآن نفسه إنما جاءت من الله تعالىٰ عن طريق المرسلين ، والقرآن أمر باتباع الرسول ﷺ وجعله شرطًا للإيمان .

وكذلك فالقرآن الكريم جاء بعكس ما قاله الكاتب ، فإنه جاء لتحرير العقل البشري من سلطان الهوىٰ والطواغيت ، ودعىٰ إلىٰ اتباع ما جاء به الأنبياء والمرسلون ، وما أرسل الله من نبي ولا رسول إلا ليطاع بأمر الله ، لا بتسلط الرسول نفسه .

قال تعالىٰ : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾[٦٤ : **النساء**] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾ [٥٦ : **الكهف**] .

فالرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ما هم إلا مبلغون عن الله ، وليست لهم أي سلطة علىٰ الناس يطلبونها ، إلا سلطة دين الله الذي كله رحمة وهداية وأمن ، قال تعالىٰ : ﴿ **فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾ [٣٥ : **النحل**] .

وهم حجة الله علىٰ خلقه : ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** ﴾ [١٣٠ : **الأنعام**] .

ويتابع الدكتور خلف الله شبهاته حول النبوات والأنبياء ، وينتقص منهم ويتهمهم بأنهم دخلاء علىٰ الدين حين يقول :

«والأساس الأول الذي بنىٰ عليه القرآن فكرة تقدم العقل البشري خطوة إلىٰ الأمام في سبيل التحرير من سلطات الأنبياء والمرسلين ، كان القضاء علىٰ تلك الهالة التي يراها الناس قدسية ويحيطون بها الأنبياء والمرسلين ، فقد كان الناس

---

(١) راجع القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة للدكتور أحمد محمد خلف الله ص٢٥ .

يرتفعون بهم حينًا من مصاف البشر إلىٰ مصاف الملائكة . كما كان الذين يؤمنون ببشرية الرسل يؤمنون بامتيازات خاصة لهم ترتفع بهم في مقام البشرية طبقات وهي أنهم قادرون علىٰ الإتيان بالمعجزات وإحداث الخوارق من العادات ، وأن هذا كله هو الدليل علىٰ أنهم رسل السماء إلىٰ أهل الأرض حقّاً. حارب القرآن كل هذه الأفكار وحرص العقل البشري على الثورة أو دفع به إلىٰ الإيمان فقط بالمبادئ ـ المبادئ التي ترتقي بها الحياة»[1] .

هكذا ترى أيها القارئ هذه المزاعم والدعاوى الخطيرة.

فالدكتور لا يزال يردد فريته علىٰ كتاب الله بأنه بنىٰ فكرة تقدم العقل علىٰ التحرير من سلطات الأنبياء والمرسلين ، وهذه دعوىٰ عريضة فهي **أولاً** لا تستند إلىٰ أي دليل من القرآن ، علىٰ أنه جاء لتحرير البشرية من سلطات أنبياء الله ورسله . **وثانيًا**: القرآن مليء بالنصوص التي تأمر توصي باتباع الأنبياء والمرسلين وتقرر أن من خرج من سلطاتهم التي هي العدل والسعادة والهداية والرحمة فهو ضال هالك شقي في الدنيا والآخرة؛ لأنهم هم الذين جاءوا بالهدىٰ من الله ، قال تعالىٰ : ﴿ **رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ [١٦٥ : النساء] .

وقال : ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ** ﴾ [١٢٣ ، ١٢٤ : طه] .

فالقرآن جاء لتحرير العقل البشري من سلطات غير الأنبياء والمرسلين ، لكن من عادة العقلانيين تحريف آيات الله عن مواضعها وفرض مفاهيم ومقررات عقلية مسبقة علىٰ كتاب الله .

كذلك يزعم المؤلف ـ كما ترىٰ ـ أن الناس هم الذين أحاطوا الأنبياء بالتقدير والاحترام والهالة ، ونسي ـ أو تجاهل ـ أن الأنبياء بحق هم خيار الخلق ،

---

(١) المصدر السابق ص٧٥ .

وهم المُصطَفَوْن الأخيار، وقد أوجب الله على الناس الإيمان بهم واحترامهم وطاعتهم، وجعلهم في مصاف الملائكة، بل إن الأنبياء والمرسلين أفضل من جملة الملائكة، فلو لم يأمرنا الله باحترامهم، لاحترمناهم لحميد خصالهم، فكيف وقد شرفهم الله بالنبوة والرسالة والوحي والاصطفاء؟ فهم المصطفون الأخيار كما وصفهم الله.

أما قوله :أنهم قادرون على الإتيان بالمعجزات وإحداث الخوارق من العادات وأن ذلك دليل على أنهم رسل السماء، وأن ذلك من الهالة التي أضفاها المؤمنون على المرسلين، فقد أخطأ.

لأن الله تعالى هو الذي أمدَّ الأنبياء والمرسلين بالمعجزات ولم تكن من خيالات المؤمنين، فهي ثابتة ومتكررة في القرآن، كما أن المعجزات ليست من قدراتهم، إنما هي مدد من الله لهم، لا يملكون جلبها، ولا صرفها ولا التحكم فيها، إلا بأمر الله.

فإن طوفان نوح، وعصا موسى، ونار إبراهيم، وناقة صالح، ومعجزات محمد ﷺ ليست من اختراعات المؤمنين، حيث ذكرها الله في كتابه على أنها معجزات لعباده المرسلين، ولم يحارب القرآن هذه الأفكار ـ كما زعم الدكتور ـ بل إن القرآن هو الذي جاء بهذه الحقائق وحكاها.

وعليه: فإن المدرسة العقلية الحديثة قد تشعر بأن شرائع الأنبياء والمرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ كابوس جاثم، يثقل كاهل الإنسان، فإن القارئ الجاهل، إذا قرأ كلام الدكتور الآنف الذكر، يكاد يشعر بأن الأنبياء والمرسلين بهذا الوصف، ما هم إلا عصابة انتهازية متسلطة، تتحكم برقاب البشر وعقولهم وقلوبهم، وإلا فما هي يا ترى سلطات الأنبياء والمرسلين التي جاء القرآن لتحرير البشرية منها؟! فإنَّ الله تعالى هو الذي يسلط رسله كما قال تعالى: ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [٦: الحشر].

نعم؛ إن ما جاء به الأنبياء من الحق والهدى، ثقيل على الكفار والمنافقين، ويتضمن الإنذار للمعرضين وجهادهم وإن كان (خلف الله) يشير إلى سلطات الكنيسة في الغرب، فهذا بهتان بحق الله ثم الدين والعلم والتاريخ وعباد الله المرسلين؛ لأن الكنيسة ـ والدكتور يعرف هذا ـ تحكم باسم رجال الدين، ولا تحكم بما أنزل الله، والله ورسله بريئون من تعاليم الكنيسة في الغرب، والقرآن أخبرنا أن النصارى بدّلوا كلام الله وحرفوا كتبهم كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [٣١: التوبة] ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [١٣: المائدة]، ولم يبق لهم سند صحيح من تعاليم نبيهم عيسى عليه السلام، كذلك اليهود، فالتوراة والإنجيل دخلهما التَّحريف، فالذنب ذنب المُحَرِّفين، ولا يحمّل به أنبياء الله ورسله.

ثم إذا كان هذا الكلام الذي ذكره الدكتور يخص الكنيسة فَلِمَ يُعمِّم الكلام على أنبياء الله ورسله؟ مع العلم أنه لا يجوز التفريق بين أحد منهم فالذي يطعن بدين عيسى، يسيء إلى محمد ﷺ، وسائر المرسلين، لكن أكثر العقلانيين من الذين قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [١٥٠: النساء].

وأخيراً نريد من الدكتور (خلف الله) أن يحدد بالدليل ـ ما دام يتكلم حول القرآن ـ ما هي سلطات الأنبياء والمرسلين التي جاء القرآن لتحرير العقل البشري فيها: أهي دعوات التوحيد؟! أم هي الشرائع؟!

هل يجد في القرآن آية تحرر العقل من سلطة نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد؟ العجيب أنه لم يورد آية من كتاب الله ـ ولن يستطيع ـ ليدعم فريته، بل العكس هو الصحيح، لكنه الباطل قذفه الشيطان على لسانه.

ونتيجة هذا الحوار: أن العقلانية الحديثة تجعل الدِّين الذي جاء به الرسل، وما يشتمل عليه من عقيدة وشريعة وأوامر ونواهٍ، بمثابة الوصاية على الإنسانية، والتسلط غير المشروع من قبل المرسلين على البشر، وأن البشرية اليوم وصلت

إلىٰ مستوىٰ من العقلية الراقية، يجعلها في غنىٰ عن تعاليم السماء التي جاء بها الأنبياء والمرسلون، وأنا أعلم أنه ليس كل العقلانيين علىٰ هذا المذهب الجانح بل كثيرون منهم يمقتونه، لكن لكل منهم نصيب من التأثر به، ومناهجهم توافقه وتتأثر به.

أما ربط النبوة بالكهانة والسِّحر، ومن ثمَّ وصف الأنبياء بالكهنة فإنه أيضًا من سمات العقلية الحديثة، إذ يرىٰ بعضهم أن النبوات ما هي إلا تدرج سام عن السحر والكهانة والتنجيم، وأن الإنسان توصل إلىٰ النبوة بالتطور الفكري والعقلي والتجارب الطويلة التي مارسها عبر مهنة الكهانة، والشعوذة، وأن النبوة صنعة، أو حرفة كهنوتية راقية يمارسها النبي والرسول.

وهذا ما يميل إليه عباس العقاد، حين يزعم أن النبوات التي ظهرت في غير السلالة العربية، إنما هي من عمل الكهان!

فيقول: «إن النبوة التي تنفصل من الكهانة خاصة لم تتكرر في غير السلالة العربية، فما من ديانة كبرىٰ أو صغرىٰ في أنحاء العالم إلا ويستطيع المؤرخ أن يحيلها كلها من مبدأ التاريخ إلىٰ عمل الكهّان»[١].

ويقول: «أما ديانات الأنبياء فلا وجود لها في غير السلالة العربية»[٢].

وهذه العبارات فيها خلط وتناقض:

ولست أدري من يعني بالسلالة العربية؟ فإن كان يعني بها بني آدم كلهم فلا فائدة للتخصيص، والنبوات المذكورة في القرآن لم تخرج عن بني آدم.

وإن كان يعني بالسلالة العربية من هم بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه يقع في إنكار صريح القرآن، فقد ذكر الله نوحًا، وإدريس، ولوطًا، وصالحًا، وهم قبل

---

(١) إبراهيم أبو الأنبياء ـ للعقاد ـ ص٤٨٢ من المجلد الأول من موسوعة العقاد الإسلامية.

(٢) المصدر السابق.

العرب[(١)]، فهل يكون هؤلاء كهّان؟ وإن كان يقصد بالعرب الساميين فكذلك يخرج منهم[(٢)] آدم ونوح وإدريس[(٣)] أيضًا، ويقع عليهم حكمه بأنهم كهنة، وحاشاهم، فهذا تفريق بين الرسل، والله تعالىٰ يقول عن الرسل والمؤمنين: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [٢٨٥: البقرة].

وقوله: «إن النبوة التي تنفصل من الكهانة» يفيد أن هناك نبوات لا تنفصل من الكهانة، وهذا خلط، **فالنبوة اختيار إلهي، واصطفاء** من الله تعالىٰ لواحد من خيار خلقه، فليقل لنا العقاد: أي نبي من الأنبياء وجد أن نبوته فيها شيء من الكهانة؟

إنه يجيب: بأن النبوات في غير السلالة العربية لا تنفصل من الكهانة، لكنه لم يسم لنا هذه النبوات.

ولعله يعني بالديانات والنبوات التي تنفصل عن الكهانة: تلك الجاهليات الوثنية في فارس واليابان والصين والهند، وهذا خلط لا يعذر فيه مثل العقاد! فهو يعرف أن تلك الوثنيات ليست بنبوات، والنبوات لا تكون إلا من الله تعالىٰ وباختياره، والكهانة ما هي إلا شعوذة ودجل لا تليق بمقام النبوة.

لكن العقاد يصر إلىٰ أن تكون الوثنية نبوة، وأن تكون نبوات الأنبياء والمرسلين الذين اختارهم الله نبوات وثنية، فيها العبادة والسحر، وفيها الخبل والصدق علىٰ حد سواء، حين يقول:

---

(١) انظر الإيمان بالرسل، أحمد عز الدين البيانوني ص١٣.

(٢) كما يُعترض علىٰ العقاد بعيسىٰ عليه السلام فهو لا ينتمي لأي سلالة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [٥٩: آل عمران] وعيسىٰ عليه السلام صاحب ديانة كتابية كبرىٰ.

(٣) راجع الإيمان بالرسل عليهم السلام لأحمد عز الدين البيانوني ص١٣ وراجع النبوات لابن تيمية ص١٧٣.

«بهذه الفكرة الرشيدة عن النبوة يفرق الإسلام بين طريقتين شاسعتين في تاريخ الأديان: طريق موغلة في القدم تنحدر إلىٰ مهد النبوات الوثنية، حيث تشتبك العبادة بالسحر والكهانة، ثم تتقدم خطوات وئيدة، يلتقي فيها الخبل باليقظة، وتختلط فيها الخرافة بالإلهام الصادق والموعظة الحسنة»(١).

فما هي يا ترىٰ النبوات الوثنية، ومتىٰ اشتبكت العبادة بالسحر والكهانة والخبل باليقظة، والخرافة بالصدق؟! وعلىٰ يد مَن مِن الأنبياء؟

يجيب العقاد علىٰ ضوء النظريات الغربية المادية خاصة نظرية التطور حين يقول: «إن النبوة التي تنفصل من الكهانة خاصة لم تتكرر في غير السلالة العربية»(٢).

وعلىٰ هذا الزعم: فالنبوات الوثنية التي اتصفت بتلك الصفات هي نبوات نوح وآدم وإدريس ولوط وصالح وغيرهم من رسل الله الذين أرسلوا لكل أمة من الأمم غير العربية!

كما أن هذه الصفات التي ذكرها عن النبوات، تنطبق علىٰ وثنيات الفراعنة، واليونان، والرومان والفرس، وعلىٰ تعاليم خوفو وحامورابي، وبوذا، وشنفوس، وخيالات أرسطو وأفلاطون وأرسطاليس، وتخليط اليهود والنصارىٰ في كتبهم المحرفة، ولا تليق بالنبوات التي جاءت من الله، وقامت علىٰ التوحيد الخالص، فلا سبيل للخرافة والخبل والكهانة إليها، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [٣٦: النحل] وقال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [٢٥: الأنبياء].

---

(١) راجع حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد، المجلد الخامس من موسوعة العقاد الإسلامية ص٧٢.

(٢) إبراهيم أبو الأنبياء للعقاد ص٤٨٢، جـ١ من موسوعته الإسلامية.

فالنبوات كلها **ارتكزت على التوحيد الخالص، وتنقية العقيدة من الشرك وذرائعه، لكن العقلية الحديثة** ، ممثلة بالعقاد ومن ذهب مذهبه ، **تأبى إلا أن تجعل النبوة بشرية بحتة، لا صلة لها بالله تعالى، حين تخلط النبوة بالكهانة** .

وربما يوضح هذا جليّاً قول العقاد بأن النبوات لم تبدأ إلا من إبراهيم عليه السلام .

حين يقول : «إن الدعوات النبوية التي بدأتها دعوة إبراهيم ، سلالة لم يظهر لها نظير في غير الأمم العربية والأمم السامية»[١] .

فيا سبحان الله ، كلما أراد أن يخرج من الفتنة أركس فيها ، وكلما نحاول أن نجد لكلامه محملاً أقرب إلى الحق ، أبى إلا أن يقع في الخطأ نفسه ، فهو لا يزال يصر على أن النبوات قبل إبراهيم كما ذكر .

كما يؤكد مذهبه بأن النبوات غير العربية خليط من الكهانة والإلهام والصدق والخبل حين يقارن بين النبوة والكهانة ، فيذكر الفروق العقلية ، لكنه لم يشر إلى الفروق الشرعية البتة[٢] .

فمن البديهي أن من أهم الفروق بين الكهانة والنبوة : أن النبوة من الله ، والكهانة بشرية وشيطانية بحتة ، والنبوة مؤيدة بمعجزات خارقة ، والكهانة ليست كذلك ، والنبوة توحيدية ، والكهانة وثنية ، لكنه لم يشر إلى هذه الفروق أو شيء منها ، ثم إن الأنبياء معصومون[٣] عن الخطأ والتناقض اللَّذَيْنِ يقع فيهما الكهّان ، بل إنه لا داعي للمقارنة بينهما ؛ لأنهما على طرفي نقيض . وكل ما ذكره العقاد لا يستند إلى أي دليل علمي .

---

(١) المصدر السابق ص٥٠٦ .

(٢) راجع إبراهيم أبو الأنبياء للعقاد ص٤٧٨ إلى ٤٨٤ من موسوعته الإسلامية جـ١ .

(٣) راجع مجموع فتاوى ابن تيمية المجلد ٤ ص١٦٨ ، والمجلد ١٠ من ص٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ .

وعلىٰ كل حال: الإيمان بالنبوات والرسالات والكتب السماوية والأنبياء والمرسلين أصل من أصول العقيدة الإسلامية، وركن من أركان الإيمان التي لا يصح إسلام المسلم إلا بها.

والإيمان بالقرآن والتصديق والالتزام لما جاء به فرض علىٰ المسلم كذلك لا يتم إسلامه إلا به.

وأمر النبوات والأنبياء في التاريخ غيب لا نعرفه بطريق صحيح إلا ما جاء عن الله وصح عن رسوله ﷺ.

وقد أخبرنا الله تعالىٰ أنه أرسل النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب والميزان بالحق، فمنهم مَنْ قَصَّه علينا ومنهم من لم يقصصه وأنه أرسل في كل أمة رسولاً من السلالة العربية وغير السلالة العربية، قال تعالىٰ: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله**﴾ وقال: ﴿**وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**﴾.

وأن النبوات كلها جاءت لتوحيد الله، ومحاربة الوثنية والكهانة والدجل، وأنها لا تلتقي مع الكهانة والسحر، بل هي حرب عليها، فَلِمَ يلبس العقلانيون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون وهم يقرءون كتاب الله؟ إن منهج العقلانيين هذا هو منهج أهل الكتاب الذين يحرفون الكلم عن مواضعه.

كما أن العقلية الحديثة، انساقت مع موجة العلمانية المادية الحديثة فأرادت **أن تُخضِع النبوَّة للاستدلال المادي العلمي، بدعوى أن المسلمين لا تثبت لهم عقيدتهم في العصر الحديث إلا بتأييد العلم الحديث** وإخضاع أصول العقيدة للبحث العلمي، بالأسلوب الغربي، فالإيمان بالنبوة بالأسلوب التقليدي، الذي درج عليه المسلمون، وجاء في الكتاب والسنّة، لا يكفي لإثباتها علميا[1] (كذا يَدَّعون).

(١) انظر تفاصيل هذه الشبهات والرد عليها في: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، لمصطفىٰ صبري ص١٢١ ـ ١٢٥ جـ١ وغيرها.

وكان من أكثر المنتصرين لهذه الفكرة محمد فريد وجدي[١] والشاعر محمد إقبال، حيث كان ـ أي إقبال ـ يقارن بين النبوة **وحالة الصوفي كحالتين** متماثلتين أو متقاربتين **في كنه الصلة بالله تعالى**[٢]، ويرى إقبال أن النبوة نوع من الوعي الصوفي[٣].

وهذا منزلق خطير من إقبال، فمقارنة حالة الوجد عند الصوفي بحالة الوحي عند النبي، توهم بأن حالة **الوحي حالة باطنية فردية تنبع من ذات النبي، كما هي الحال عند الصوفي في حال الوجد**، مع أن الأمر ليس كذلك، فحالة الوجد عند الصوفي حالة إرادية إنسانية، تحدث بالتأمل الباطني والكشف، وتتمخض عن نتائج قد تكون شيطانية أو وهمية في الغالب، ولا تعدو شخص الصوفي، ولا تصدر عنها تعليمات إلهية، وأكثر حالات الوجد حالات تصدر من وساوس الشياطين والجن وتوهمات الإنسان وفطرته ووساوسه لأنها لم تحدث لأصلح الخلق بعد المرسلين، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، وهم القدوة بعد رسول الله ﷺ.

أما حالة الوحي عند النبي فهي حالة تتمثل فيها أمور إلهية تحدث من خارج ذات النبي، مثل نزول الملك عليه، وسماعه الوحي مثل صلصلة الجرس؛ ولا يأتيه الوحي بإرادته، بخلاف الصوفي، فإنه يقع في الوجد والتأمل والكشف بإرادته المحضة وبممارسته الذاتية.

وعلى أي حال: فالصوفي يمثل ـ في الغالب ـ الانحراف عن خط النبوة، فالمقارنة بينهما لا مكان لها أصلاً.

---

(١) راجع مقالته (السيرة النبوية تحت ضوء العلم والمدنية) في مجلة الأزهر مجلد ١٠ العدد الأول ص١٥.

(٢) راجع تجديد الفكر الديني لمحمد إقبال، تعريب عباس العقاد ص٣١، ٣٢.

(٣) انظر المصدر السابق ١٤٣.

وبهذه المفهومات العقلانية للنبوة، صارت تعادل مفهومات العبقرية والعظمة:

وعليه: فالأنبياء عند العقلانيين (على أحسن تقدير) مجموعة من العظماء والعباقرة، وقد يكونون من المصلحين إذا حسن بهم الظن، وقد يكونون من المتسلطين كما أشار إلى ذلك محمد أحمد خلف الله في كلامه الذي سبق ذكره قبل صفحات.

وربما يقال على منهج العقلانية المنحرف: إنه من الممكن الاستغناء عن النبوة، ما دامت بهذا الوصف؛ لأن كل عصر يملك أن يجود بالعبقريات في أفراد عظمائه، فكيف بالعصر الحديث الذي تحرر فيه العقل وتقدم فيه العلم؟

وهذا ما دفع أحد الشعراء في مصر (محمد إحسان المحامي) أن يعلن أن العلم الحديث يملك قوة النبوة ويزيد ـ فهو المستحق أن يتبع ـ في قصيدة قال فيها:

قام في الناس نبي إنما ... شأنه ليس شأن المرسلين

وَحَّد الناس وقد فرقهم ... كافة الرسل على مر السنين

جاءهم من غير إنجيل ولم ... يأتهم بالوحي جبريل الأمين

معجزات العلم أوفت على ... معجزات الدين ماضي للقرون

إلخ القصيدة[1] التي تحكي حال العقلانيين وتعبر عن مناهجهم الضالة، نسأل الله السلامة.

والكلمة الأخيرة التي نقولها للعقلية الحديثة بمختلف وجهاتها واتجاهاتها العقلانية التي سقت شيئًا منها:

إن النبوة وحي واصطفاء من الله تعالى، والرسل ليسوا إلا مبلغين عن الله، وقد اختارهم واصطفاهم وشرفهم بها، فقال تعالى: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ**﴾ [٧٥: الحج].

---

(١) عن موقف العقل لمصطفى صبري ص٣٥٣ جـ١.

وإنهم خيار البشر: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) ﴾ [٤٧ :ص].

ولم تكن نبوتهم نابعة من ذواتهم، إنما هو وحي من الله، ولا يملك الرسول طلبه ولا دفعه، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [٨٦ : الإسراء].

وما كانوا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضراً ولا نفعًا، قال تعالىٰ لرسوله: ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [٤٩ : يونس].

فكان الوحي ينزل إليهم بإرادة الله لا بإرادتهم ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [١٥ : يونس].

وكل الأنبياء لهم حق الاحترام والتقدير، ولا يجوز تخصيص أنبياء السلالة العربية ونبواتهم بشيء إلا بدليل، فالله تعالىٰ يقول: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [١٣ : الشورى].

ولم يرد أن للعرب مزية علىٰ غيرهم في نبوات ولا في غيره إلا بالدين إذا اتبعوه، أما الإسلام فلم يكن عربيّاً، ولا النبوة عربية، إنما كان دينًا عالميا، فهو دين الله للناس كافة ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [١٣ : الحجرات].

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [٨٥ : آل عمران].

ولم تكن النبوة تسلطًا، ولا قيودًا علىٰ الناس، إنما كانت رحمة وهدىٰ، ولم تكن مهمة الرسل، ومنهم رسولنا ﷺ، قاصرة علىٰ التوجيه والوعظ والإرشاد، إنما كانوا مبشرين ومنذرين، ومشرعين وموجهين، وحاكمين وقادة، في أممهم وأقوامهم ولهم السلطة عليهم، يُحكِّمون شرع الله وينفذون أوامره، ويقيمون الحدود ويقضون بين الناس بالعدل.

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [٦٥ : النساء].

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ ٢٨٥ : البقرة].

ثانيًا: معجزات الأنبياء:

إن المدرسة العقلية الحديثة حين حاولت تنزيل النبوة إلىٰ مستوىٰ النشاط الإنساني، اصطدمت بحقيقة المعجزات المادية والمعنوية التي صحبت النبوات، وكانت دليلاً أفحم كل الملحدين والمرتابين في كل أمة، ومع كل رسول، وقد جعل الله المعجزات للأنبياء التي يؤيدهم بها، هي الحُجَّة النهائية التي لا يُردَّها إلا مكابر ومعاند، ولا يكون بعدها من الله إلا الإعذار، ومن ثم الهلاك القاصم في الدنيا والآخرة.

فكانت معجزات الأنبياء آيات بينات من الله تعالىٰ، كما جاء في تعريف المعجزة وهو أنها: شيء خارق للعادة يصحب النبي، مقرونًا بالتحدي، وليس بمقدرة الإنس والجن فعل مثله[١].

ولم تجرؤ العقلية الحديثة علىٰ إنكار شيء من أصول العقيدة، جرأتها علىٰ إنكار المعجزات للأنبياء والمرسلين، وتأويلها تأويلاً يؤول إلىٰ الإنكار.

فإنه بالرغم من ثبوت المعجزات الخارقة، للأنبياء في الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، حقيقة كما وردت في ظاهر النصوص، فإن العقلية الحديثة تزعم أنه لابد من إعادة النظر فيها، إما بتأويلها، أو بتكذيبها، حسب مقتضيات العلم المادي الحديث، القائم علىٰ التجربة والمشاهدة، والاستقراء المحسوس، فإنه - في نظرهم - من الجهل والسذاجة أن نبقىٰ متمسكين بعقائد وموروثات لا يسندها العلم الحديث الذي بلغ شأوًا بعيدًا في التثبُّت والموضوعية[٢]..

---

(١) راجع كتاب النبوات لابن تيمية ص٥ - ١٣.

(٢) من المؤلفات العقلانية التي تعرضت لإنكار المعجزات أو بعضها أو التشكيك فيها:

١ - حياة محمد، لمحمد حسين هيكل.

٢ - القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة. محمد أحمد خلف الله. =

وهذا من أعظم البهتان على العلم الحديث وغير الحديث، فإن العلم هو ما جاء به الوحي، والعلم التجريبي المادي البشري لا يملك نفي المعجزات، بل يثبتها.

وللشيخ محمد عبده قصب السَّبق من بين العقلانيين المحدثين في تأويل المعجزات والخوارق التي وردت في القرآن الكريم، حسب مقتضيات العلم المادي الغربي الحديث بزعمه.

ثم جاء من بعده باحثون ساروا على منهجه، صارت لهم الجرأة على إنكار المعجزات، وأكثرهم يستند إلى تأويل الشيخ الإمام (محمد عبده) كما سنرى بعد.

فأول محمد عبده قصة البقرة (وهي معجزة) بأنها حالة لم يحدث فيها إحياء الميت، بضربه ببعض البقرة، وإنما المقصود «الاستبقاء»[1] . . بحقن الدماء وأنه: «معنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس، أي يحييها بمثل هذه الأحكام، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ﴾ [٣٢ :المائدة]، وقوله ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [١٧٩ : البقرة]، فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو في الآيتين»[2].

قلت: لماذا أَنِفَتْ نفسُ هذا العقلاني إثبات المعجزة، وهي أن يحيي الله الميت بإذنه بضربه ببعض البقرة، فإنها آية ولا شك؟

ويرد عليه: بأن الله تعالى قال: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ ومعروف أن

= ٣ ـ السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفلسفة. محمد فريد وجدي ـ مجموعة مقالات في مجلة الأزهر، المجلدان ١٠ ـ ١١.

٤ ـ روح الإسلام ـ سيد أمير علي.

٥ ـ تفسير محمد عبده (المشهور بتفسير المنار).

(١) تفسير المنار ـ المجلد الأول ص ٣٥٠ ـ ٣٥١.

(٢) نفس المرجع السابق.

الموتى من فارقوا الحياة، كما أن الآيتين اللتين ذكرهما في الاستبقاء للأحياء ليس فيهما ذكر الموت، بخلاف آية البقرة.

والشيء الآخر: أنه تعالى قال: في آية البقرة: ﴿**فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [٧٣: البقرة].

فالآيات هي المعجزات؛ لأن المسألة كانت تدور حول استنطاق القتيل ليتضح الحق، ويدل ذلك على استغرابهم وتعجبهم من موسى حين قال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً**﴾ [٦٧: البقرة]، قالوا: ﴿**أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا**﴾، فلو كانت المسألة عادية معروفة لديهم وليس فيها إعجاز لما قالوا لنبيهم هذا.

قال ابن كثير: ﴿**فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا**﴾ [٧٣: البقرة]، هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة، فالمعجزة حاصلة به وخرق العادة به كائن[(١)].. فالآية إنما تحكي حدثًا خارقًا فيه مشاهد عجيبة، فالبقرة هي الحيوان المعروف، فهي حقيقة، ووصفها حقيقة، وذبحها حقيقة، وضرب الميت ببعض لحمها حقيقة، وحياته بعد الموت ـ بإذن الله ـ حقيقة، ونطقه حقيقة. وبهذا تكون للقصة فائدتها وقيمتها، لكن القوم لا يفقهون.

كما أوَّل محمد عبده قصة الطير الأبابيل: فالحجارة من سجيل بزعمه هي: جراثيم الجدري أو الحصبة تنقل بواسطة الذباب أو البعوض، التي هي الطير تنقل المكروبات لتلك الأمراض[(٢)]..

وهذا تأويل بعيد عن هدف القصة، ومعاني الإعجاز، وأساليب اللغة، فألفاظ القرآن محددة لقوله تعالى: ﴿**وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ**﴾ [٣، ٤، ٥: الفيل].

فعبارات القرآن، (طير)، (ترمي)، (حجارة)، (سجيل) (العصف المأكول)،

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ـ للصابوني ـ المجلد الأول ص٧٨.

(٢) راجع تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ص١٥٥، ١٥٦ تفسير سورة الفيل.

ألفاظ عربية واضحة، يفهمها العربي لأول وهلة، ولا ينصرف الذهن إلى المعاني التي أشار إليها محمد عبده إلا بدليل شرعي عن الله وعن رسوله؛ لأن الأمر يتعلق بكلام الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿**كعصف مأكول**﴾، يوحي بأن طبيعة هذه الخارقة من القواصم الحاسمة التي لا تحصل بداء الجدري والحصبة التي في العادة تأخذ الجسم رويدًا رويدًا، وإن أهلكت الإنسان فلا تدعه كعصف مأكول.

وهذه محاولة مكشوفة من الشيخ لرد المعجزة والخارقة إلى المألوف المادي من السنن الكونية، وإلا فما معنى هذا التكلف في تأويل خارقة ذكرها الله في كتابه؟ وليس لدينا خبر آخر عن الله ورسوله يحملنا على هذا التأويل والتحريف في سياق الحادثة إلا الفتنة بالعلم الحديث[1]. نسأل الله السلامة.

ثم إن القصة مشهورة ومشهودة يعرفها كثيرون من جيل المشركين الذين نزل عليهم القرآن، فلو لم تكن كما ذكر في ألفاظها، لسارع المشركون آنذاك لتكذيب القرآن، أو الشك فيه؛ لأنهم لا يدركون هذه المعاني الحديثة للجراثيم، ولا يسمون البعوض والذباب طيراً، فلو لم يروا الطير والحجارة، لكذبوا القرآن. ولو كانت القصة كما ذكر (معتادة) لما يكن لذكرها والتنويه عنها في كتاب الله كبير فائدة.

وهذان نموذجان من تأويلات الشيخ محمد عبده لكثير من المعجزات التي وردت في القرآن.

والعقلانيون لإعجابهم بالغرب وأفكاره المادية الإلحادية، يستحيون من ذكر معجزات النبي ﷺ ولذلك يحاول بعضهم إنكارها أو تأويلها، أو بعضها.

وحرصًا على تضييق نطاق الغيبيات ـ التي لا تتفق في علمية الغرب المادية

(١) راجع تفسير الظلال لسيد قطب جـ٦ ص٣٩٧٨ تفسير سورة الفيل ط دار الشروق (٥).

بزعمهم ـ حاول بعض رواد المدرسة العقلية الحديثة، أن ينكر كل معجزة لنبينا محمد ﷺ أو خارقة، غير القرآن الكريم، كما فعل بعض العقلانيين الأولين من المعتزلة والفلاسفة ومن سلك سبيلهم، مع أنه من المعلوم أن معجزاته ﷺ الكبرىٰ هي القرآن، لكن لا يعني هذا أنه لم يحظ بأي معجزة أو خارقة أخرىٰ فقد صحت الأخبار في السُّنَّة أنه حصلت له ﷺ خوارق ومعجزات أخرىٰ مثل:

شق صدره وغسل قلبه ﷺ، وقد حدثت له قبل النبوة وبعدها[1]، وانشقاق القمر[2]، والإسراء والمعراج[3]، وحنين الجذع[4]، وقصة فرس سراقة[5]. . وبصقه في عين علي فبرئت[6]، وغيرها من الخوارق والمعجزات، التي لا سبيل إلىٰ إنكارها أو التشكيك في صحتها، وفيها ما هو متواتر قطعي الثبوت، وعليه إجماع المسلمين. فقد ورد منها في البخاري ومسلم وسائر السنن والمسانيد في أحاديث صحيحة الشيء الكثير.

وبالرغم من هذا فإن محمد حسين هيكل، يرىٰ أن المعجزات والخوارق التي حصلت لرسولنا ﷺ، كانت من وضع المسلمين إمعانًا في تقديسه ومبالغة في

---

(١) وردت القصة في صحيح مسلم في كتاب الإيمان، حديث رقم ٢٦٠ ـ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلىٰ السماوات. وكذلك الحديث رقم: ٢٦١.

(٢) وردت في الصحيحين وغيرهما ـ راجع صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر، وصحيح مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب انشقاق القمر، حديث رقم ٤٣، ٤٤.

(٣) قصة الإسراء والمعراج مستفيضة وردت في الصحاح والمسانيد والسنن والسير، راجع صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج، وصحيح مسلم كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ حديث رقم ٢٥٩.

(٤) وردت في صحيح البخاري ـ راجع كتاب الأنبياء ـ باب علامات النبوة في الإسلام.

(٥) راجع صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق ـ باب في حديث الهجرة ـ حديث رقم ١٥.

(٦) وردت في الصحيحين وغيرهما ـ راجع صحيح البخاري، فضائل الصحابة، باب مناقب علي رضي الله عنه.

احترامه ﷺ[١].

ويزعم أنها لا تصمد أمام النقد العلمي الصحيح[٢]، ولا يصدقها العقل[٣]، وأن الرسول ﷺ لم تحدث له معجزة أو خارقة غير القرآن الكريم[٤].

فهو يقول:

«وندع الدين جانبًا ونقف عند سيرة صاحبه عليه السلام، فقد أضافت أكثر كتب السيرة إلى حياة النبي ﷺ ما لا يصدقه العقل، ولا حاجة إليه في ثبوت الرسالة»[٥]..

وقوله: «ندع الدين جانبًا» منزلق خطير؛ لأننا إذا تركنا الدين ولم نعتبره في مثل هذه المسألة الغيبية، لم يبق لنا ما يستند إليه، ولا يكون للعلمية والمنهجية التي يدعيها المؤلف معنى، وعلى أي حال، فالعقلية الحديثة كما هو واضح من هذه العبارة تميل إلى التجرد من الدين عند البحث، ولو كان من المباحث الدينية نفسها، وهذا انحراف، فالتجرد من الدين ردة.

ويقول: «فحياة محمد حياة إنسانية بلغت أسمى ما يستطيع إنسان أن يبلغ.

ولقد كان ﷺ حريصًا على أن يقدر المسلمين أنه بشر مثلهم يوحى إليه، حتى كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن، ويصارح أصحابه بذلك»[٦].

ويتهم السلف الصالح وكتب الحديث التي حفظ الله بها السنة فيقول:

«... فقد لاحظ الذين درسوا هذه الكتب أن ما روته من أنباء الخوارق

---

(١) راجع حياة محمد، لمحمد حسين هيكل ص٤٧، ٤٨، ٤٩.

(٢) المصدر السابق ص٤٩، ٥٤، ٥٥.

(٣) المصدر السابق ص١٤.

(٤) المصدر السابق ص٥٤، ٥٥.

(٥) راجع حياة محمد ـ لمحمد حسين هيكل ص١٤.

(٦) المصدر السابق ص٤٥.

والمعجزات ومن كثير غيرها من الأنباء، كان يزيد وينقص، دون مسوغ، إلا اختلاف الأزمان التي وضعت هذه الكتب فيها»(١). .

ثم يقول: «أما ومضرة الروايات التي لا يقرها العقل والعلم قد أصبحت واضحة ملموسة، فمن الحق على كل من يعرض لهذه الأمور أن يراعي جانب الدقة العلمية في تمحيصها، خدمة للحق، وخدمة للإسلام وتاريخ النبي العربي»(٢). .

وإذا علمنا أن كثيراً من روايات المعجزات والخوارق له ﷺ وردت في البخاري ومسلم وسائر السنن والمسانيد، ومنها المتواتر القطعي الثبوت، وقد أجمع عليها المسلمون ـ إذا علمنا هذا كله ـ قدرنا مبلغ الخطورة، والانحراف والخطأ الذي وقع فيه هيكل في عباراته هذه، وقد وقع كثيرون من المعتزلة القدامى والجدد في هذا المزلق.

ومن هذا المنطلق، أوَّلَ هيكل الخوارق والمعجزات التي مر بها في كتابه «السيرة»، فقال في حادثة الفيل ـ كما قال أستاذه الإمام محمد عبده ـ:

«كان وباء الجدري قد تفشى في الجيش وبدأ يفتك به، وكان فتكه ذريعًا لم يعهد من قبل قط، ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر، وأصابت العدوى أبرهة نفسه»(٣).

وقد ناقشت هذا التأويل في تفسير محمد عبده لهذه الخارقة لكني أرى أن هيكل أعطى القصة مفهومًا عقلانيا أبعد مما فعل شيخه، فهيكل يرى أن جراثيم الجدري جاءت مع الريح من ناحية البحر. . وهذا فتح علمي جديد! (على حد تعبير العقلانيين). . وأنا أعجب كيف يقول ذلك من يدعي العلمية والمنهجية

(١) حياة محمد. محمد حسين هيكل ص٤٧، ٤٨.

(٢) حياة محمد. محمد حسين هيكل ص٥٤.

(٣) حياة محمد. محمد حسين هيكل ص١٠٢.

والموضوعية. فأي علم تحقق به أن الطير جراثيم، وأنها مع الريح، وأنها من جهة البحر، والبحر نقيٌّ، أقول: بل هذه كهانة على النمط الحديث فاعتبروا!

كذلك لما مر بقصة سراقة حين ساخت فرسه وهو يريد الرسول ﷺ أثناء الهجرة، ادعى أنها لم تحدث له خارقة، إنما هي أمر عادي تَطَيَّر له سراقة، وما حدث إنما هو مجرد كبوة لفرسه[1]. .

ويقال له: بأن سراقة كان فارسًا فاتكًا شديد البأس ولا ترده الطيرة في مثل هذا الموقف لولا أن حدث له أمر قاهر خارق. كما أنه موعود بجائزة عظيمة من كفار قريش، ثم يحفزه طلب الفخر والظفر الذي يسجله الزمان وتتحدث به الركبان، فليس للتطير مجال هنا.

كما أن القصة وردت في البخاري ومسلم، وهي صريحة في أنها حدثت خارقة لأن رجلي الفرس انغرست في الأرض كلها، مع أن الأرض صلبة، كما ورد في الصحيح من حديث البراء بن عازب (فذكر قصة الهجرة) عن أبي بكر - رضي الله عنهم - إلى أن قال أبو بكر:

«واتبعنا سراقة بن مالك قال: ونحن في جلد من الأرض، فقلت: يا رسول الله، أوتينا فقال: لا تحزن إن الله معنا. فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فارتطمت فرسه إلى بطنها»[2]. . إلخ الحديث.

ويقول (هيكل كذلك) عن حادثة شق الصدر التي حصلت له ﷺ قبل النبوة أثناء رضاعه في بني سعد[3]، وحصلت له أيضًا بعد النبوة أثناء الإسراء

(١) راجع حياة محمد ص٢١٤ - ٢١٥.

(٢) رواه مسلم - كتاب الزهد والرقائق - باب في حديث الهجرة - حديث رقم (٧٥).

(٣) راجع السيرة النبوية لابن كثير المجلد الأول ص٢٣١ - تحقيق مصطفى عبدالواحد، وصحيح البخاري، كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة، وراجع صحيح مسلم كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله ﷺ.

والمعراج[١]، وقد وردت في الصحيحين البخـاري ومسلم وغيرهما، يقـول هيكل فيها: «لا يطمئن المستشرقـون، ولا يطمئن جماعة من المسلمين كذلك إلىٰ [قصة] الملكين هذه، ويرونها ضعيفة السند»[٢]. .

وهذه العبـارات توحي بأن المؤلف يذهب إلىٰ أن المستشـرقين صـاروا من الأئمة العدول وأعلام الهدىٰ والحق، ومـن رجال الجرح والتعديل في السنة، وصارت أحاديث رسـول الله ﷺ ضعيفـة بتضعيفهم لها، أمـا علماء الحديث المسلمـون فهم متهمون كما يذكر المؤلف في مواضع من كتابه، وكما أشرت قبل قليل.

ويكمل هذا بقوله:

«وإنما يدعو المستشـرقين، ويدعو المفكرين من المسلمين، إلىٰ هذا الموقف من ذلك الحديث: أن حيـاة محـمـد كلهـا **إنسـانية سـامية، وأنه لم يلجـأ في إثبـات رسالتـه إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق**»[٣]. .

وتأمل جـمـعـه بين المسـتـشـرقين والمفكرين من المسلمـيـن لتعلم من يعني بهم، ولتـعلم أن العـقلية الحـديثة تقـدم ـ بل تقـدِّس ـ المستشـرقين حتىٰ في الحكم علىٰ السند في الحـديـث، وأن مـجـرد عـدم اطمـئنان المستشـرقـين لحديث من أحـاديث رسولنا ﷺ، ولو تواتر عـنـد المسلمين، يكـفي، للحكم عليه بعـدم الصحة، فتأمل جيداً قوله: (لا يطمئن المستشرقون) وقوله: (ويرونها ضعيفة السند).

وعلىٰ هذا: فـعـلىٰ جـهـود علمـائنـا وسلفنا الصـالح العـفـاء، وقـد كـادت أن تضيع جهـود البخاري ومسلم وأحمـد والشافعي وغيرهمـا في جهل هيكل! (ولن تضيع بين المسلمين حتىٰ تقوم الساعة، إن شاء الله).

---

(١) المرجع السابق.

(٢) راجع حياة محمد ص١١١.

(٣) راجع حياة محمد ص١١٢.

ولا يقل موقف الشيخ محمد فريد وجدي خطراً عن موقف هيكل من المعجزات، إذ يرىٰ أن معجزاته ﷺ غير القرآن من وضع الناس، لا سيما تلك المعجزات التي صحت رواياتها، وتواتر وقوعها في السنة مثل: انشقاق القمر، كذلك حادثة شق صدره ﷺ قد صحت في السنة . . ومع هذا يقول رائد رواد العقلية الحديثة، الذين لا يعذرون بجهل السنة، وهو الشيخ محمد فريد وجدي ـ رئيس تحرير مجلة الأزهر ـ الأسبق:

«تمتاز العصور النبوية (يعني عصور الأنبياء)[1] بالخوارق للنواميس الطبيعية . . فأساطير الأديان ملأىٰ[2] بذكر حوادث من هذا القبيل، كان لها أقوىٰ تأثير في حمل الشعوب التي شهدتها علىٰ الإذعان للمرسلين الذين حدثت علىٰ أيديهم، وقد حدثت أمور من هذا القبيل في العصر المحمدي صاحبت الدعوة في جميع أدوارها، وكانت أعظم شأناً وأجل أثراً من كل ما سبق من نوعها، ولست أقصد بها ما تناقله الناس من شق الصدر، وتظليل الغمامة، وانشقاق القمر، وما إليها مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس، ومما يتأتىٰ توجيهه إلىٰ غير ما فهم منه، ولكني أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التي تمت علىٰ يد محمد ﷺ في أقل من ربع قرن»[3] . .

ثم قال: «وقد لاحظ قراؤنا أننا نحرص فيما نكتبه في هذه السيرة علىٰ أن لا نسرف في كل ناحية إلىٰ ناحية الإعجاز، ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية حتىٰ لو بشيء من التكلف . . مسايرة لمذهب المبالغين في التثبت والمحافظة علىٰ الدستور العلمي، ثقة منا بأن بحثاً لا تحترمه النخبة المثقفة، ولا يجد فيه صورة

---

(١) وتسمية عصور ما قبل الإسلام بالعصور النبوية، مصطلح عقلاني، له دلالة انهزامية!.

(٢) لعله نسي أنّ القرآن نفسه ـ وهو كلام الله ـ ذكر كثيراً من معجزات الأنبياء، فلماذا يخص أساطير الأديان؟

(٣) مقالة بعنوان: (السيرة المحمدية في ضوء العلم والفلسفة)، في مجلة الأزهر ـ العدد السابع من المجلد الحادي عشر ص٣٨٥.

صحيحة لمثلها الأعلىٰ في عرض المسائل وتحليلها لا يمكن أن يؤدي إلىٰ ما قصد منه من الخدمة العامة»[١] . .

وهذه هي الانهزامية بعينها، فهو لا يقبل شق الصدر، وانشقاق القمر، رغم أنهما صحتا في السنة ـ كما سيأتي بعد قليل ـ لا لشيء إلا لأنهما مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس. سبحان الله! إن أكثر أصول عقيدة المسلمين لا يمكن إثباتها بدليل محسوس، فالنبوة والوحي والملائكة، والجنة، والنار، وسائر أمور الغيب، لا يمكن إثباتها بدليل محسوس، أفننزلها من حساب العقيدة؟ وإذا كنا لن نؤمن إلا بما دل عليه الحس انهدم الإيمان بالغيب، فإن الغيب هو غير المحسوس، وما يدرك بالحواس ليس من الغيب.

وشعار الإثبات بدليل محسوس، والدستور العلمي، هما شنشنة[٢] العقلانية المادية الملحدة.

أما قوله بأن الانقلابات الأدبية والاجتماعية التي حصلت له ﷺ هي معجزة فهذا حق، أما أن تكون هي وحدها المعجزة كما يزعم، فليس الأمر كذلك.

لأن الاستدلال، وقصر الإعجاز علىٰ تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية علىٰ حد تعبيره يؤدي إلىٰ إنكار معجزات أقوىٰ وأبلغ، وثابتة في السنة لا يمكن نفيها، ومن الممكن أن تدعي كل أمة لعظمائها الإعجاز بالانقلابات الاجتماعية والعلمية والأدبية والدستورية.

وما أكثر الذين لهم معجزات في عرف العقلية الحديثة، **«فلوثر»** صاحب معجزات وانقلابات تحررية.

«وماركس» عند المعجبين به من الملاحدة وغيرهم، يملك رصيداً ضخماً من الانقلابات الاقتصادية والوثنية، «ولينين» كذلك.

---

(١) المصدر السابق ص٣٨٥، ٣٨٦.

(٢) الشنشنة: الخلق والطبيعة. . (مختار الصحاح كلمة ش. ن. ن).

«وفرويد ، و داروين» أصحاب انقلابات فكرية واجتماعية وعلمية وجنسية خطيرة في عرف النخبة المثقفة التي يتطقها وجدي ، وكل هؤلاء عظماء في عرفهم كذلك ، وكل صاحب اتجاه منهم يزعم أن في تلك الانقلابات معجزات لروادها .

كما أنه من الممكن أن تعترض النخبة المثقفة ـ وقد فعلت ـ فتقول : واقع المسلمين اليوم بعيد عن تلك الانقلابات المحمدية ، فلا داعي للتشبث بها اليوم .

وأقول : إن تلك الانقلابات التي لرسولنا ﷺ بالإسلام . . إنما هي وحي من الله . . فليست معجزة بالاصطلاح الشرعي ، إنما المعجزة الباقية هي القرآن ، لا على أنه من عند محمد ﷺ ، بل لأنه كلام الله ، كما أن الإسلام (القرآن والسنة) لا زال يملك القدرة على الانقلاب الأدبي والاجتماعي ، متى ما طبقه المسلمون وتمسكوا به وعملوا بمقتضاه .

أما المعجزات الأخرى التي ثبتت وصحت في السنة لرسولنا ﷺ ـ غير القرآن ـ فإنها وإن لم يستمر التحدي بها ـ كانشقاق القمر ـ إلا أنها هي معجزات بذاتها لا سبيل لإنكارها ، وبثبوتها سنداً يبقى فيها الإعجاز والاعتبار .

أما محمد أحمد خلف الله فهو يزعم أن القرآن الكريم حارب فكرة المعجزات ! يقول : «وحارب القرآن فكرة المعجزات ، وبين أنها لم تكن إلا للتخويف والإلزام وأن العقل البشري يجب أن يترك من غير تخويف ليتحمل المسئولية على أساس من الحرية والمقدرة الحقة على التمييز والمفاضلة والاختيار .

لم يحرص القرآن على المعجزات في إثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وبين أن المعجزات قد تضطر الإنسان إلى التسليم ، ولكنها لا تدفع به حقاً إلى حظيرة الإيمان»[1] . .

ويقول : «لقد حرر القرآن الإنسان من الخوف الذي كان يفسر تفسيراً وهمياً ،

(١) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة ص٧٦ ـ ٧٧ ـ لمحمد أحمد خلف الله .

ولم يكن يفسر تفسيراً علميّاً، حين كان يرد الكوارث إلىٰ غضب الآلهة، ولا يردها إلىٰ الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية والتاريخية.

وحرره من الآيات الملجئة المتمثلة في المعجزات وخوارق العادات، وردها إلىٰ نفسه يفكر فيها، وإلىٰ الآفاق يتدبر أمورها»[1]..

ويرد عليه بما سبق بأن كل هذه الأمور التي يزعم أن القرآن جاء بها، فإن القرآن جاء بعكسها تمامًا، فالقرآن ذكر بأن المعجزات من آيات الله، وأورد كثيراً منها في قصص النبيين وغيرهم، فذكر معجزة إبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، وصالح، وأصحاب الكهف، وغيرها.. فكيف يزعم أن القرآن حارب المعجزات؟!

وحين يزعم أن القرآن لم يحرص علىٰ المعجزات في إثبات نبوة محمد ﷺ، فإنه يجانب الصواب، ولا أظنه يجد الدليل لذلك، بينما نجد أن القرآن نفسه أول معجزة للرسول ﷺ.

وإن كان يقصد بالمعجزات غير القرآن كما ذهب زميله هيكل، فإن السنة تواترت فيها المعجزات (مع القرآن) له ﷺ.

كذا بقية مزاعمه لا تستند إلىٰ دليل، إذ لم يدلل عليها بآية من كتاب الله فيما أعلم.

ومما يدل علي جهل هؤلاء العقلانيين بدين الله، وعقيدة المسلمين، وبديهيات الكتاب والسنة، ما ذهب إليه الدكتور أحمد زكي في جريدة الأهرام حين قال:

بـ «أن انشقاق القمر من قبيل الخرافات والأضاليل التي أدخلها كعب الأحبار

---

(١) المصدر السابق ص٧٩.

ووهب بن منبّه في العقائد الإسلامية»[١] . .

وقد ذكرت قبل قليل أن محمد فريد وجدي زعم أن قصة شق الصدر، وانشقاق القمر، من أحاديث الناس، وهذا جهل أو تجاهل للسنة النبوية؛ لأن قصة انشقاق القمر جاءت في البخاري ومسلم وغيرهما، فهي صحيحة متواترة المعنىٰ واقعة باتفاق المسلمين، وليست من روايات كعب ووهب ـ رحمهما الله ـ بل رواها غيرهم، فرواها خيار صحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم.

فقد روىٰ البخاري عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: انشق القمر علىٰ عهد رسول الله ﷺ شقين فقال النبي: **«اشهدوا»**[٢] . .

وروىٰ أيضًا عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه حدثهم أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر[٣] . .

وروىٰ نحوه عن ابن عباس، وابن مسعود أيضًا[٤] . . كما أن أكثر الصحابة والمفسرين قالوا بأن قوله تعالىٰ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، نزل في هذه الحادثة[٥] . .

---

(١) جريدة الأهرام ١٦ ربيع الأول عام ١٣٤٨هـ ـ ٢١ أغسطس ١٩٢٩م ـ نقلاً عن مجلة الهداية ـ الجزء الأول ـ المجلد الثاني ـ جمادىٰ الآخرة عام ١٣٤٨هـ.

(٢) صحيح البخاري ـ باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية، فأراهم انشقاق القمر جزء ٤ ص٢٥١.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) قال ابن كثير: ﴿وانشق القمر﴾ قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما وردت في ذلك الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وقد تبين في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «خمس قد مضين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر» . . وهذا أمر متفق عليه بين العلماء بأن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدىٰ المعجزات الباهرات» . . انتهىٰ كلام ابن كثير.

=

أفتكون آية انشقاق القمر هذه من قبيل الخرافات والأضاليل؟ وهل يكون ابن مسعود، وابن عباس، وأنس، والبخاري، ومسلم، وسائر صحابة رسول الله وسلفنا الصالح من المضللين، ومروجي الخرافات؟ إنما هو الجهل والتقليد الأعمى، فإنه لم يقل هذا الكلام إلا المستشرقون وأتباعهم، وأسلافهم المعتزلة والزنادقة.

أما قصة شق الصدر التي أشار إليها (وجدي) على أنها من أحاديث الناس فقد وردت أيضًا في البخاري ومسلم وغيرهما.. وهذه رواية البخاري «**عن أنس ابن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فرج عن سقف بيتي، وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا، فأفرغه في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء**»[1].. الحديث.

والتأويل وتحريف النصوص من أهم السمات التي عرفت بها المدرسة العقلية الحديثة كما ذكرت، وقد مر علينا تأويل محمد عبده، ومحمد حسين هيكل، لبعض المعجزات النبوية والخوارق.

وعلى هذا المنوال سار المدعو أبو زيد في حاشيته التي كتبها على المصحف وسماها «الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن».

فقال في عصا موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾

= ثم سرد الأحاديث الصحيحة التي وردت في ذلك في البخاري ومسلم والترمذي والبيهقي، وأبي داود، وأحمد.

راجع مختصر تفسيرابن كثير للصابوني ـ مجلد ٣، ص٤٠٨.

(١) صحيح البخاري كتاب الصلاة ـ باب كيف فرضت الصلاة ـ الحديث الأول ص٩٢ جـ١، وراجع صحيح مسلم ـ كتاب صفات المنافقين ـ باب انشقاق القمر.

[١٠٧ : الأعراف]، «مثال من قوة حجته وظهور برهانه»[١].

وقال عن معجزات عيسى عليه السلام:

فقال عن خلق الطير بإذن الله: «مثل من إخراج الناس من ثقل الجهل إلى خفة العلم»[٢].. «أو أنه تكميل التكوين الجسماني بالأخلاق الطيبة»[٣]..

وقوله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [٤٩ : آل عمران]. قال: «يعلمهم التدبير المنزلي»[٤]..

وقوله تعالى أيضًا عن موسى عليه السلام ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [٦٠ : البقرة].

يقول: «الغرض أن الله هداه إلى محل الماء وعيونه»[٥]..

وإبراهيم عليه السلام لم ينج من النار بمعجزة بزعمه.. «إنما نجاه الله من النار بالهجرة»[٦].. وهذا مخالف لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [٦٩ : الأنبياء].

بل إن إسراء ومعراج الرسول ﷺ لم يكن معجزة بزعمه؛ لأنه في رأيه هو

---

(١) نقلاً عن مجلة نور الإسلام ـ المجلد الثاني الجزء الثالث ـ عدد ربيع الأول لعام ١٣٥٠ ـ الصفحات من ١٧٧ إلى ١٨٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق.

(٦) المرجع السابق.

«الهجرة»[١] . . من مكة إلىٰ المدينة «والمسجد الأقصىٰ مسجد المدينة»[٢] . .

وقد سار علىٰ هذا المنهاج كثيرون، مثل: محمود شلتوت الذي أنكر رفع عيسىٰ بجسده إلىٰ السماء[٣]، ومحمد مصطفىٰ المراغي حيث زعم أن القرآن هو المعجزة الوحيدة لنبينا محمد ﷺ[٤]، وعبد العزيز جاويش.

وهكذا يتجرأ العقلانيون علىٰ النصوص الصريحة المحكمة في كتاب الله، فيحرفون معانيها وألفاظها . . لإخضاعها لمبدئهم العقلاني المادي في إنكار المعجزات.

فإن المدرسة العقلية تضيق بالمعجزات والخوارق، في حين أنها لا تضيق ببعض الخرافات والدجل والشعوذة الغربية، مثل: التنويم المغناطيسي، الذي هو من عبث الشياطين والجن وكهنة القرن العشرين، وما يصدر أحيانًا عن بعض المشعوذين الغربيين من تنبؤات ونظريات هي أشبه بالخرافات والأساطير ولا تمت إلىٰ العلمية والمنهجية بأي صلة، وكذلك يتغنىٰ العقلانيون بالنظريات الغربية المادية والإلحادية والانحلالية وغيرها، أما ما يَرِدُ في كتاب الله ويصح في سنة رسوله ﷺ ويعتقده المؤمنون، ففيه عند العقلانيين نظر إلا ما تؤمن به العقلية الغربية المادية، وأنىٰ لها ذلك؟!

﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [٤٦: الحج].

وللعقلانيين في مواقفهم من الآيات والمعجزات مذاهب شتىٰ، فهم في أمر

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق. وقد ناقشت هذه الدعوىٰ في موضوع (الوحي والقرآن).

(٣) مجلة الرسالة العدد (٤٦٢) في ٢٥/ ٤/ ١٣٦١هـ.

(٤) راجع (حياة محمد) ص١٣.

مريج، فلكل واحد منهم فيها مذهب، وقد وصل الأمر بأحدهم إلى أن يدعي أن قصة صاحب القرية الذي قال ﴿ **أنى يحيي هذه الله بعد موتها** ﴾ وقصة إبراهيم مع الطيور الأربعة إنما هي رؤيا منام لا حقيقة[١]. ولا أدري ما وجه الإعجاز فيها وما وجه التنويه عنها في كلام الله إذا كانت مجرد أحلام؟! فإنه بالإمكان أن تحدث هذه الرؤى لكل إنسان. وكذلك يدعي هذا العقلاني ـ وهو سيد أحمد خان ـ أن كثيراً من آيات الأنبياء مجرد أمور طبيعية لا إعجاز فيها[٢].

*****

(١) انظر: الاسلام دين الفطرة والحرية لجاويش، ص١٤٨.

(٢) راجع: مفهوم تجديد الدين للبسطامي سعيد، ص١٢٨.

المبحث السادس
مزاعم المدرسة العقلية في نبينا محمد ﷺ

عرفنا رأي المدرسة العقلية الحديثة في النبوة والأنبياء على وجه العموم، وقد خصّت رسولنا محمد ﷺ بشبهات، وآراء عقلانية لا تلتزم الحق الشرعي، وهذا أمر ليس بغريب. وذلك:

لأن العقلية الحديثة، تواجه الإسلام، والقرآن والسنّة - أي تواجه دين محمد ﷺ - مواجهة فكرية وعقائدية، وعملية، تواجه السنة حية بين المسلمين المتمسكين بسنته ﷺ، فهي في صراع قائم بين السنة وأهل البدع ومنهم العقلانيون، فكان من الطبيعي أن تكثر شبهاتها حول القدوة الذي يحتج به أهل السنة وهو الرسول ﷺ في نبوته ورسالته، وفي سنّته وهديه، وفي أوامره ونواهيه، وفي أقواله وأفعاله وفي سيرته وسلوكه، وفي مكانته بين المسلمين.

ورسالته ﷺ - الإسلام وسنته - لا تزال بحمد الله حية نقية ظاهرة تقوم بها الحجة على أهل البدع والضلال بشتى صوره وأشكاله، والعقلية الحديثة تمثل جانبًا من هذا التحدي بطرفيه.

فهي (أي المدرسة العقلية الحديثة) قد درست حياة الرسول ﷺ، ونبوته وسيرته، وكل ما جاء به، دراسة مفصّلة، وكوّنت بذلك مكتبة كبيرة تضم مختلف الدراسات حول نبي الإسلام ودينه، في كتب وبحوث ورسائل، ومقالات وصحف ومجلات، ومناهج دراسية.

وأهم ما تميزت به هذه الدراسات العقلانية، أنها تزعم بأنها درست وناقشت حياة الرسول ﷺ بشتى جوانبها - قبل النبوة وبعدها - وأن حصيلة هذه الدراسة

تلخصت بأنه ﷺ إنسان عبقري ممتاز فحسب، وأنه لا صلة له بعالم وقوىً غيبيّة خارج ذاته، كالملائكة ـ وجبريل بالأخص ـ ومن هذا المنطلق، يعزون كل ما صدر عنه ﷺ من نشاط علمي وعملي (ومنه الوحي الذي أنزل إليه من الله) إلىٰ ذاته ﷺ بصفته عبقريّ فذ، أو مصلح اجتماعي عظيم، أو ثائر سياسي محنك، أو قائد سياسي بطل، أو زعيم ثوري متحرر، أو مرشد روحي ملهم. . إلخ من الصفات التي تبعده عن معاني الوحي والنبوّة والإيمان.

فإن الرسول ﷺ (بزعمهم) امتاز بهذه الصفات أو بعضها مجردة من المعاني الإيمانية الربانية، من وحي ونبوة ورسالة، وهداية. هذا ما تذهب إليه العقلية الحديثة، حينًا بالتصريح، وآخر بالتلميح والتعريض.

وقد وصفوا النبي ﷺ ببعض الصفات والألقاب الجاهلية المستحدثة مثل قولهم بأنه: **نبي الاشتراكية،**

أو رسول الحرية،

أو نبي العروبة،

أو رائد القومية العربية،

أو نحوها من الصِّفات والألقاب التي تحصر وظيفة الرسول ﷺ في جانب ضيق من جوانب الحياة المادية.

فهي تهتم بصدر الآية لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

وتهمل آخر الآية نفسها وهو قوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [**الكهف**: ١١٠].

وأكثر **ما اهتمت به المدرسة العقلية من شخص النبي صلى الله عليه وسلم، جانب العبقرية**، فهي تريد أن تضيف كل ما قاله أو فعله ﷺ إلىٰ عبقريته الفردية الفذة، بدعوىٰ أن جانب الوحي والنبوة والرسالة أمور غيبية روحية، لا تثبت أمام

البحث العلمي، والموضوعية، ولا قيمة لها في نظر العلم الحديث الذي قذف بها في عالم الأساطير والخرافات.

أما العبقرية ـ **على حد زعمهم، فهي صفة إنسانية، يقرها العلم ويحترمها**، ويقدسها ويمكن للمسلمين أن يثبتوها علميّاً، حسب مقررات العلم الحديث. (كذا يزعمون).

وكل ذلك انهزامية، وضعف إيمان بالله ورسالاته، وجهل بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

وأكبر دليل على ذلك أن غالب مؤلفات العقلية الحديثة تحمل في عناوينها اسم الرسول (محمد) مجردة دون اعتبار للنبوة والرسالة. ويحيدون عن وصفه بالنبوة والرسالة التي هي أهم خصائصه ﷺ (بأبي هو وأمي).

وذلك مثل: (عبقرية محمد) للعقاد، و (إنسانيات محمد) لخالد محمد خالد، و (حياة محمد) لهيكل، و (محمد والقوى المضادة) لمحمد أحمد خلف الله، و (محمد) لمصطفى محمود، و (محمد) لتوفيق الحكيم، وهم يفعلون ذلك باسم العلمية ومسايرة الرقي العقلي الذي وصلت إليه الإنسانية، ذلك الرقي الذي يُكْبِرُ العبقرية، ويعظمها، أما النبوة فلم تعد تهمه، بل وصل ببعضهم الانهزام الفكري والعقدي إلى أن جعل العبقرية مساوية للنبوة ولها نفس الخصائص التي في النبوة.

يقول محمد فريد وجدي، في حديثه عن السيرة:

«فإننا إن سرنا على شرط العلم في إثبات الحوادث وعزوها إلى عللها القريبة فإنها سيتألف من جملتها أمر جلل يقف العلم نفسه أمامه حائراً لا يستطيع تعليل صدوره عن فرد واحد وسيكون مضطراً بأن يعترف بأن محمداً ﷺ كان عبقريّاً من طراز خاص فاق به جميع العباقرة، وهذا كسب عظيم للقائلين بنبوته،

لأن العبقرية في العلم لا تعني ما تعنيه في عرف العامة، هي في العلم: ما يلقى في روع العبقري من علم أو عمل بدون جهد منه فيجيء فذاً لا سابقة له يتخذ مثالاً لغيره ولا يمكن تقليده، فالعبقرية بهذا المعنى العلمي تقرب معنى النبوة إلى العقل وتسوغها في العلم»[١] وهكذا نجده يركز على عزو ما جاء به النبي ﷺ إلى عبقريته!

ونجد الضغط بشكل ملفت على العبقرية الإنسانية، في دراسة حياته ﷺ مجردة عن الدين والهدى والنبوة والوحي والرسالة الإلهية، وهي السمة الغالبة في أكثر تلك المؤلفات.

ولنستعرض على سبيل المثال فهرس (عبقرية محمد) للعقاد؛ لنرى أثر تلك السمات العقلانية، ولنرى مدى اهتمام العقلية الحديثة بالنبوة والرسالة بجانب اهتمامها بالعبقرية أو على الأصح اهتمامها بالعبقرية والعظمة المجردة، أكثر من النبوة والوحي والإيمان، وهاك فهرس عبقرية محمد[٢]:

(١) عن مجلة الأزهر، السنة العاشرة العدد الأول لعام ١٣٥٨هـ ص١٥ مجلد ١٠.

(٢) راجع عبقرية محمد للعقاد طبعة دار الهلال.

وأنا لا أحب أن أتكلف الرد والاستدلال، لكني أسأل القارئ: ماذا تجد في هذه العناصر مما يدل على الرسالة، والنبوة، والإيمان، والهداية، والدين، والإسلام؟ وأي فرق في هذه الصفات بين الرسول محمد ﷺ وبين سائر العباقرة الذين لا حظ لهم في الدين وقد يكونون من الطغاة والجبابرة في الغالب؟ بل وحتى الوحي بالنسبة للعبقرية، أو العبقرية للوحي.

ويؤكد خالد محمد خالد هذا الاتجاه العقلاني حين يزعم أن محمداً ﷺ إنما هو محمد الإنسان فلو لم يكن رسولاً لكان في مستوى الرسول، فلا اعتبار للرسالة والنبوة، إنما هي تحصيل حاصل، ويؤكد ذلك فيقول: «لو لم يكن محمد رسولاً لكان إنسانًا في مستوى الرسول، ولو لم يتلقَّ الأمر من ربه: ﴿**يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ [٦٧ : **المائدة**]، لتلقاه من ذات نفسه: يا أيها الإنسان بلغ ما يعتمل في ضميرك.

ذلك أن محمداً الإنسان جاوز نضجه وارتقاؤه كل تخوم الذات وحدودها ولم يكن ثمة سبيل لانتشار هذا النضج وهذا الارتقاء خارج الذات وخارج البيئة، بل خارج كل زمان ومكان، إن عظمته التي فرضت نفسها ونادت إليها ولاء المؤمنين وإعجاب المغرضين»،[1] «عظمه تنبع أول ما تنبع من إنسانية محمد، من الطريقة التي كوّن بها نفسه»[2].

سبحان الله! إنه بهذا يلغي كل قيمة للنبوة والرسالة والاصطفاء من الله تعالى، لأنه يزعم أن الرسول ﷺ مستغن عن إرسال الله له وأمره بالتبليغ، لأنه لو لم يأمره ربه لأمره ضميره!

وأنه لو لم يرسله الله، لجاوز هو بذاته ونضجه منزلة النبوة، والرسالة.

كما أن قوله بأن عظمته ﷺ هي التي نادت إليها ولاء المؤمنين، هو كلام غير

---

(١) إنسانيات محمد لخالد محمد خالد ص٩ المقدمة.

(٢) المصدر السابق ص١٠.

دقيق؛ لأنه ﷺ - حقاً - ذو عظمة لا تعادلها عظمة في البشر، لكنها حصلت له بالنبوة والرسالة والتأييد المباشر له من الله، أكثر مما حصلت له بإنسانيته المُجرَّدة من النبوة، فالنبي ﷺ قبل الرسالة ما كان على مثل ما كان عليه بعدها.

وأقل ما يقال في تركيز العقلية الحديثة على العبقرية والإنسانية لدى الرسول ﷺ، أنها وإن لم تتجرأ على إنكار النبوة والرسالة تمامًا إلا أنها أعطت جانب العبقرية والإنسانية في شخصه ﷺ قدرًا من الدراسة والاهتمام، وكان ذلك على حساب جانب النبوة والوحي والرسالة، ويجعل الثانية تبدو خافتة ضئيلة أمام الأولى، وهذه النظرة - ولا شك - تنطوي على خطورة لا يستهان بها على العقيدة الإسلامية؛ لأن النبوة والرسالة والوحي وسائر الجوانب الإيمانية الأخرى هي التي قام عليها الإسلام كله.

فتفصيلات الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، وأركان الإسلام الخمسة، وأحكام الشريعة، كلها أمور لا تدرك إلا بالوحي والرسالة ولا دور لعبقرية محمد ﷺ وإنسانيته فيهما.

بل كان ﷺ قبل النبوة، لا يعمل بهما ولا يعرفهما البتة كما ذكر الله عنه، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [٥٢: الشورى].

وقد حدثت فعلاً - آثار هذه المفاهيم العقلانية حول النبوة والعبقرية، وكثرت على ألسنة الكتاب والباحثين، بل وعامة الناس، الاصطلاحات العقلانية الجديدة، فيقال عن الإسلام: دين محمد، وشريعة محمد، وتعاليم محمد والدين المحمدي، والوحي المحمدي[1]، دون أن تضاف إليها كلمة النبي أو

---

(١) هذا عنوان كتاب للشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله، وربما تشعر كلمة (الوحي المحمدي) بأنه غير الوحي الإلهي، كما أنها كلمة لم ترد في الكتاب والسنّة ولا عبارات السلف، في حين أنها تتعلق بأمر شرعي توقيفي يجب أن يقتصر فيه على النصوص الشرعية.

الرسول ﷺ بل دون ذكر الصلاة والسلام عليه في كثير من الأحيان، وأحيانًا تشعر بأن بعضهم يستحي - أو يستكبر - عن الصلاة والسلام عليه ﷺ (بأبي هو وأمي).

وهذا خلاف ما جاء في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وما أثر عن الصحابة والتابعين والسلف الصالح.

ومن جانب آخر، وبناء على اهتمام المدرسة العقلية الحديثة، بالتركيز على الجانب الإنساني فحسب من حياة الرسول ﷺ قالوا بأن الرسول ﷺ حين قاتل، فإنما قاتل كبطل عسكري فحسب، وحين حكم وأقام دولة الإسلام، فإنما أقامها بصفته رئيسًا وملكًا، ولا علاقة لذلك كله بالدين والوحي والنبوة.

يظهر ذلك جليّاً في تلك التي أعلنها علي عبدالرازق في كتابه **(الإسلام وأصول الحكم)**، في أن الرسالة والنبوة والإسلام لا شأن لها بالدولة والقضاء والملك والجهاد، وأنه لا علاقة للدين بالسياسة.

وذلكم حين يقول: «أنت تعلم أن الرسالة غير الملك وأنه ليس بينهما شيء من التلازم بوجه من الوجوه»[١].

ويقول: «إن المسلم العامي يجنح غالبًا إلى اعتقاد أن النبي ﷺ كان ملكًا رسولاً وأنه أسس للإسلام دولة سياسية مدنية كان هو ملكها وسيدها، لعل ذلك هو الرأي الذي يتلاءم مع ذوق المسلمين العام، ومع ما يتبادر من أحوالهم في الجملة، ولعله أيضًا هو رأي جمهور العلماء من المسلمين»[٢].

ثم يقول: «ولا يهولنك أن تسمع أن للنبي ﷺ عملاً كهذا خارجًا من وظيفة الرسالة، وأن ملكه الذي شيده هو من قبيل ذلك العمل الدنيوي الذي لا علاقة له

---

(١) ص ١١٢ الإسلام وأصول الحكم.

(٢) ص١١٣ الإسلام وأصول الحكم.

بالرسالة»[١] وربما استعمل عبارة الملك إمعانًا في التلبيس لكنَّه قصد المضمون في شرحه لمقصوده، فإنه ينكر أن يكون للدين علاقة بالسياسة.

وسيأتي النقاش لهذا الموضوع في (فصل الدين عن الحياة والدولة) إن شاء الله.

ويهمنا هنا أن نعرف وجهة المدرسة العقلية الحديثة، في عزل النبوة عن النشاط الإنساني العام ومنه النشاط الاقتصادي والسياسي، وأنها جعلت النبوة أمرًا إرشاديّاً توجيهيّاً فحسب، وأن الوحي إنما يهمه هذا التوجيه والإرشاد، أما الدولة والسياسة، والحرب، والاقتصاد والإدارة، وسائر ما يتعلق بكيان الدولة من أوجه النشاط البشري الفردية والجماعية فهي شيء لا صلة للوحي والنبوة فيه.

ويقول الشيخ **محمود شلتوت** كذلك، في كتابه **(الإسلام عقيدة وشريعة)**: «ويهمنا هنا أن نعرض لما عرض له القرآن من وظيفة الرسل، وأنها لا تعدو الإرشاد والتعليم عن طريق الوحي، لهم أسمىٰ مكانة الاحترام والقيادة الروحية التهذيبية»[٢] وعليه فالرسل مجرد وعاظ ومرشدين.

وأرىٰ أن في هذا انهزامية وتساهلاً؛ لأنه من المعروف أن الرسل الذين قصّ الله علينا أخبارهم لم يكتفوا بمجرد الإرشاد والتعليم، إنما جاؤوا بالشرائع والأحكام التي تنظم سائر شؤون حياة الأمم في جميع أوجه الحياة العلمية والعملية.

وقام بينهم وبين أقوامهم صراع، وحروب وجاهدوا باللسان والسيف، وكانوا يفعلون ذلك بأمر الله ووحيه.

فإن وظيفة الرسل الإرشاد والتعليم، والتنفيذ لأوامر الشرع، وهناك أمور

---

(١) ص١٢٠ الإسلام وأصول الحكم.

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة ص٣٨.

من الدين والوحي، لا تتم إلا بسلطة، فلا تتم بمجرد التعليم والتوجيه، كتنفيذ الحدود وإقامة الجهاد والحسبة.

وقد ذكر الله عن إبراهيم أنه كسّر الأصنام، واصطدم مع قومه، حتىٰ أضرموا له النار ليحرقوه.

وموسىٰ عليه السلام، قاد بني إسرائيل، وحارب فرعون بأمر الله، وقتل داود جالوت.

هذا بالنسبة للأنبياء غير محمد ﷺ، أما نبينا محمد ﷺ، فإنه من المعلوم في الدين بالضرورة: أنه ﷺ لم يقتصر في دعوته علىٰ مجرد الإرشاد والتعليم، ولم تكن قيادته روحية تهذيبية فحسب.

فقد أقام الدولة وعين القضاة والولاة والأمراء، والجباة، والعمّال، وقاد الجيوش، وأرسل إلىٰ الملوك، وحارب بنفسه، وأقام الحدود، وعزّر، وأمر بالمعروف ونهىٰ عن المنكر باللسان واليد والسيف، وأثخن في الأرض، ونصوص القرآن والسنّة وإجماع الأمة علىٰ هذا.

لكنّ العقلية الحديثة تصرّ علىٰ تأكيد فصل النبوة عن الحياة العملية والدولة، فيقول **محمد حسين هيكل**: «أما محمد، وكانت ظروفه ما قدَّمنا، فكانت رسالته عقلية روحية، وأساسُها الدعوة إلىٰ الحق والخير والجمال، دعوة مجردة في بدئها وفي غايتها، ولبعدها عن كل خصومة سياسية لم تزعج النظام الجمهوري الذي كان قائمًا بمكة بأية صورة من صور الإزعاج»[1].

وهذا جهل أو تجاهل لأصول الإسلام، ولنصوص القرآن والسنَّة، والأحداث والتاريخ، فإنه من المعروف أن الرسول ﷺ أزعج أهل مكة المشركين أيما إزعاج، وقام بينهم وبينه الصراع، وصدر قرار **جمهوري** (تمشيًا مع أسلوب

(١) حياة محمد. محمد حسين هيكل ص١٥٠.

هيكل لإلزامه) بنفيه أو قتله وإيذائه، وتشريد أصحابه وتعذيبهم وحوصر هو وعشيرته من بني هاشم في الشعب مدة طويلة.

ثم هاجر، وأعلن الحرب ضد نظام مكة (الجمهوري) على حد زعم هيكل وعمل لإزعاجه ومحاصرته اقتصاديا، وسياسيّاً وعسكريّاً، وفي النهاية أسقط ذلك النظام (الجمهوري) بقوة السيف! لكني أكاد أجزم بأن هيكل حين قال تلك العبارات ونحوها قد استعار عقلاً غربيّاً مستشرقًا مُجخِّيًا (مقلوبًا).

إنهم يريدون أن يجعلوا مهمة الرسول ﷺ، بل والإسلام نفسه، مجرد تعاليم وإرشادات توجيهية، تصلح القلب والضمير، وترمي الفرد التقي العابد ولا شأن لها بعد ذلك بالحياة، والدولة، ولا تتدخل في شؤون الناس وطرائق معيشتهم وأساليب حياتهم، وتلك من غايات المدرسة العقلية الحديثة.

كما نلحظ أن كثيراً من رواد المدرسة العقلية الحديثة وأساتذتها يحرصون على القول بأن الرسول ﷺ كان قبل النبوة وبعدها على صلة بالنصارى، وعلى صلة باليهود، وغيرهم من أصحاب الديانات والمذاهب، ويُلمِّح بعضهم ويصرح آخرون بأنه تأثر بهؤلاء وأخذ عنهم، وأن لذلك أثره في القرآن والسنّة، وأنه استمد بعض التقاليد والقصص والمعلومات والأفكار عن أولئك، وربما يقول بعضهم بأنه استمد منهم مجموع الإسلام، وصاغه صياغة خاصة.

وقد أشار إلى ذلك الدكتور طه حسين حين قال:

«أخذ زميلنا الأستاذ أحمد أمين نفسه بأن يحلل هذه الحياة العقلية العربية تحليلاً ليس أقل دقة واستقصاء من تحليل صاحب الكيمياء في معمله، نعم، وأخذ زميلنا نفسه بأن يرد هذه الحياة العقلية العربية ما استطاع إلى عناصرها المختلفة المكونة لها، وأن يعرف إلى أي حد امتزجت هذه العناصر وتداخلت، وما مقاديرهذه العناصر في هذا المزاج العام؟ وما مقدار العنصر الجاهلي، وما مقدار

العنصر الفارسي، وما مقدار العنصر اليهودي، وما مقدار العنصر اليوناني؟ وما طبيعة هذه العناصر نفسها، وما العناصر المختلفة التي كوّنت كل واحد منها؟ ثم بعد هذا كله: ما المزاج العربي الذي خرج من تفاعل هذه العناصر المختلفة فظهر في الآداب العربية كما تراه في شعر الشعراء، وخطب الخطباء، وعلوم العلماء، وأمثال الناس، في أحاديثهم العامة والخاصة»؟[1].

فهو قد يشير من بعيد إلى أن الإسلام تكوّن من عناصر مختلفة، وهذا قد يفهم منه بعض الناس أن الرسول ﷺ استمدها من تلك العناصر الجاهلية، والوثنية، واليهودية، واليونانية، أو أن المسلمين بعده ـ ومنهم الخلفاء الراشدون ـ خلطوا في مصادر الدين، وأنهم شكلوا الدين من هذه الأخلاط الوثنية والجاهلية والأممية.

وهذه مغالطة يكذبها القرآن وتكذبها السنّة، ويكذبها التاريخ، وإجماع المسلمين، والواقع، ويبدو أن الدكتور استمدها من المستشرقين، أساتذته وحاضنيه.

فالله تعالى رد هذه الفرية من أسلاف الدكتور الذين قالوا: «إنما يعلمه بشر» فقال لهم: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

والإسلام جاء بمنهج فريد في أصوله وفروعه، ولا يلتقي مع تلك العناصر التي أشار إليها طه حسين، بل إنه جاء بخلافها، وقوّض أصولها ومناهجها.

والعرب بعد الإسلام لم تكن لهم عقلية منفصلة عن الإسلام ولا عن بقية المسلمين من غير العرب والعناصر اليهودية والفارسية واليونانية، لم تزد المسلمين إلا كدراً وفرقة، فأنى يؤفك هؤلاء؟

---

(١) مقدمة طه حسين على كتاب (فجر الإسلام) لأحمد أمين، ص(ط).

وخلاصة القول:

أن الرسول ﷺ كان أفضل الخلق خلقًا وسلوكًا، وأكبرهم عقلاً، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [٤: القلم].

كما كان أعظم الناس ذكاء وفطنة.

فقد توفرت فيه سائر صفات العظمة والسؤدد والكرم والمقدرة وسائر الصفات الإنسانية الفاضلة.

وقد اصطفاه الله إمامًا للمتقين، ورحمة للعالمين، وفضله علىٰ جميع المرسلين، فأوحىٰ إليه القرآن الكريم، دستورًا ومنهجًا للحياة، فأدّاه عليه الصلاة والسلام بقوله وفعله فكانت سنّته امتثالاً لأمر الله وبلاغًا لرسالته ولم يكن فيما جاء به من الوحي والتشريع والجهاد والقضاء والحدود إلا متبعًا لأمر الله ووحيه، فما جاء وما عمل بعد النبوة من عند نفسه بشيء، ولم يكن شيء من أصول الإسلام والعقيدة، صادرًا عن عبقريته أو عظمته، بل كان عبدًا لله ممتثلاً قوله تعالىٰ عنه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [٩: الأحقاف]. وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [١٨: الجاثية].

* * * * *

المبحث السابع
مزاعم المدرسة العقلانية في السنة وحجيتها والسلف

أولاً: السُّنة وحجيتها:

السنة النبوية هي: ما نقل عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خُلُقية، أو خَلْقِية[١].

ويطلق من الناحية العلمية التخصصية على الحديث وعلومه.

والسنة هي المصدر الثاني من مصادر العقيدة والتشريع الإسلامي، بعد القرآن الكريم.

ومقتضى شهادة أن محمداً رسول الله يوجب تصديق ما جاء عنه ﷺ إن كان خبرًا، كما يوجب اتباعه وطاعته إن كان أمرًا، أو نهيًا، أو إباحة[٢]..

وقد أمرنا الله تعالى باتباع سنة نبيه، كما أمرنا باتباع كتابه، قال تعالى: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [٧: الحشر].

وقال الرسول ﷺ: «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة رسوله**»[٣]..

وقال ﷺ في حديث العرباض بن سارية، فذكر الحديث إلى أن قال:

---

(١) الفتاوى لابن تيمية جـ١٨، ص٦ ـ ٩، والسنة ومكانتها في التشريع لمصطفى السباعي ٤٧.

(٢) راجع مجموع الفتاوى لابن تيمية ص٧ جـ١٨.

(٣) موطأ مالك ـ كتاب القدر ـ الحديث رقم (٣)، والحاكم في مستدركه في كتاب العلم جـ١، ص٩٣.

«فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكو بها وعضوا عليها بالنواجذ»[١] إلخ الحديث.

وقال ﷺ: **«ألا إني أوتيت هذا الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه»**[٢]. . . إلخ الحديث.

كما أن المسلمين أيضًا مجمعون على حجية السنة النبوية وأنها وحي من الله تعالىٰ لرسوله ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلا وحي يوحىٰ، ولم يشذ عن هذا إلا المنافقون والزنادقة.

أما المدرسة العقلية الحديثة فإنها تنظر إلىٰ السنة نظرة أقلها الشك والتوقف في حجية السنة النبوية، أو بعضها.

فتتفاوت مواقف العقلانيين المحدثين من السنة ما بين رافض لها ولحجيتها البتة، وما بين من يرد بعضها، أو لا يقبل إلا المتواتر، والسمة الغالبة علىٰ العقلانيين تجاه السنة أن ليس لهم قاعدة في منهجهم تجاه السنة، لكن يجمعهم أنهم يحكمون عقولهم القاصرة في ذلك فتجد أحدهم يرد ما شاء من الأحاديث الصحيحة بهواه وحسب مزاجه أو منهجه الذي ارتضاه لنفسه، ولهم في هذا شبهات كثيرة ومتنوعة كذلك، وأغلبهم يلجأون إلىٰ لمز رواة السند من الصحابة ومن دونهم.

---

(١) هذه من رواية أبي داود في سننه حديث رقم (٤٦٠٧) باب لزوم السنة، وأخرجه الترمذي في كتاب العلم حديث رقم: (٢٦٧٦)، وأخرجه أحمد في المسند جـ٤ ص١٢٦، ١٢٧، وابن ماجه في المقدمة باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين رقم (٤٢).

(٢) هذا رواية أبي داود في سننه ـ باب لزوم السنة (٤٦٠٤)، كما أخرجه الترمذي وأحمد وابن ماجه. راجع جامع الأصول ص٢٨١، جـ١.

ومنهم من يرىٰ أن كتب الحديث الصحيحة اشتملت علىٰ كثير من الأحاديث غير الصحيحة مما يبطل أو يضعف من قوة الاحتجاج بالسنة عمومًا، وبين هذه الآراء شبهات تتفاوت.

إنما العقلية الحديثة علىٰ العموم تطعن في حجية السنة النبوية، وقد كثرت منهم المؤلفات والرسائل والبحوث في هذا.

وأصبحت السمة السائدة عند غالب العقلانيين المعاصرين، أن الأحاديث النبوية علىٰ الأقل إن لم تكن من وضع الرواة في العصور الأولىٰ، فهي مشكوك في صحة نسبتها عن المعصوم ﷺ، ولذلك قد يطعنون في السند وقد يطعنون في المتن علىٰ غير قاعدة عندهم، إنما يجمعهم الهوىٰ وتقديم الرأي الشخصي علىٰ النص الشرعي.

بل وصلت الحماقة ببعضهم إلىٰ التشكيك في السنة كلها بما في ذلك كتب الصحاح كما فعل إسماعيل أدهم في رسالته عن تاريخ السنة.[1] وفي الآونة الأخيرة كثُرَ هذا الصنف من الذين يطعنون في السنة ـ لا كَثَّرهم الله ـ أمثال: الترابي، ومصطفىٰ المهدوي، وجمال البنا، ومحمد سعيد مشتهري، وإسماعيل منصور، وصبحي منصور، والمتنبي الكذاب رشاد خليفة[2].

هذا وتتلخص شبهات العقلية الحديثة حول السنة في:

* الشك في نقل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ورواياتهم وهم نقلة السنة، واتهام نواياهم وأنهم تغيروا بعد رسول الله ﷺ وصارت مواقف وآراء وأهواء. وكذلك بقية رواة الحديث وعلمائه علىٰ وجه العموم بدعوىٰ أنهم هم الذين وضعوا الأحاديث تبعًا لمذاهبهم واتجاهاتهم وأهوائهم.

* ومن ثم الشك في نسبة كل ما نقلوا من الأحاديث والآثار.

(١) راجع مجلة الفتح عدد ٤٩٤ والسنة ومكانتها في التشريع لمصطفىٰ السباعي ٢٣٧.

(٢) راجع شبهات وشحطات منكري السنة لأبي إسلام أحمد عبد الله.

* الدعوة إلى الاكتفاء بالقرآن، وأنه وحده مصدر التشريع والتلقي المأمون.

* ادعاء فساد، أو نقص، مقاييس علماء الحديث، في تصحيح السنة، سندًا، ومتنًا ورواية ونصًّا، أو أنهم عنوا بالسند، ولم يعنوا بالمعنى والمتن، وأنه لابد من تمحيصها من جديد على ضوء العلمية والعقلية الحديثة، ومن ثم صاروا يدعون إلى وضع مقاييس غير مقاييس علماء الحديث الأئمة الأعلام، والتي تعارف عليها المسلمون.

* دعوى أن السنة لم تتوفر لها الأسباب الكافية للحفظ والثبوت.

* الدعوة إلى الاهتمام بالسنة لمجرد المتعة الأدبية والفنية والبلاغية فحسب، أو لأنها مجرد تراث يفتخر به كغيره من التراث المطمور، الذي لم يعد صالحًا للتطبيق في هذا العصر... إلخ.

* هذا مجمل آراء العقلية الحديثة في السنة النبوية.

وبما أن الطعن في عدالة الصحابة وإخلاص نقلة الحديث عن الرسول ﷺ هو أشد المطاعن العقلية على السنة النبوية، ولأن العقلانيين كانوا أشد جرأة في ذلك منهم في غيره، آثرت أن أفرد له الحديث، وأتوسع فيها؛ لأهميته وخطورته العقائدية والأصولية على الإسلام والمسلمين في العصر الحاضر، وسيأتي هذا في الكلام عن السنة، إن شاء الله.

* **ومن أهم الآراء الخطيرة حول السنة للعقلانية الحديثة قولهم:**

* إنه لابد من إعادة النظر في طريقة المسلمين ومقاييسهم التي محصوا بها الأحاديث حتى حكموا بأن هذا صحيح، وذلك ضعيف أو موضوع، وقد فرضت العقلية الحديثة مقاييس جديدة على ضوء المقاييس المادية الجاهلية الغربية، التي لا تؤمن بالغيب ولا بالدين، ولا تسلم إلا بما تدركه من المحسوسات.

فقالوا: إنه لابد من عرض الأحاديث النبوية على العلم - أي العلم الغربي

الحديث ـ فكذبوا أحاديث صحيحة، بدعوىٰ أنها تخالف العلم، أو تخالف العقل، أي عقولهم هم.

من ذلك حديث التمرات الذي ورد في الصحيحين وغيرهما: عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من اصطبح كل يوم بسبع تمرات عجوة لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم إلى الليل**»(١)..

قال فيه محمد أحمد خلف الله: «فهذا الحديث لا يمكن أن يكون صحيحًا لأنه مخالف للعلم والواقع»(٢).. وكذلك أحمد أمين زعم أن هذا الحديث غير صحيح، وأورده مثالاً علىٰ أن البخاري إنما يعني بجرح الرجال فحسب(٣).. ولا يهتم بالمعنىٰ، وأنت ترىٰ أن هذا الحديث ثابت، فقد اتفق عليه البخاري ومسلم وغيرهما، فلا مجال للشك في صحته، لأن العلماء ـ علماء الحديث ـ فحصوه متنًا وسندًا ومعنىٰ، أما البخاري ـ كغيره من أئمة الحديث الأعلام ـ فهو من صيارفة الحديث متنًا ومعنىٰ.

ومن جانب آخر لم يثبت أن العلم والواقع يخالفان مضمون الحديث، والعكس هو الصحيح. ولو فرضنا أن العلم قال بما يخالف الحديث، فإن هذا سيكون من وجهة نظر الباحث نفسه بهذا الصدد؛ لأن العلم، علىٰ ألسنة المتخصصين قرر: أنه ليس هناك شيء اسمه الحكم النهائي القطعي في مجال العلوم، وهناك كلمة يرددها العلماء في معاملهم ومختبراتهم «العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة»، وما ذلك إلا لقصوره، خاصة الطب الذي هو موضوع هذا الحديث، فلماذا يفترون علىٰ العلم ويكذِّبون باسمه أحاديث الرسول ﷺ؟

---

(١) رواه البخاري في كتاب الطب ـ باب الدواء بالعجوة للسحر، ومسلم، وأبو داود، راجع جامع الأصول جـ٧ ص٥٢٠.

(٢) راجع الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، مجموعة بحوث جمعها محمد أحمد خلف الله ص١٦٧ في مقالة للمذكور.

(٣) راجع فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين ص٢١٨.

ثم هل أثبت لنا هذا المدعي بالعلم والبرهان أن العلم والواقع يخالف ما جاء في الحديث، أو هو البهتان والافتراء والهوىٰ؟

وشيء آخر: أن الحديث من الممكن - لو فرضنا أنه خالف العلم من جانب - بأن يحمل علىٰ معنىٰ من جانب آخر، وأهم من ذلك أنهم لا يحددون ما هو العلم المقصود هنا، الذي يقرر الحقيقة النهائية، ولا يفقهون أن ما ثبت عن النبي ﷺ هو العلم، ولا يمكن أن يعارض المعلوم الحقيقي عن البشر.

وما رده العقلانيون أيضًا بحجة مخالفة العلم من السنة الصحيحة حديث الذباب وهو قوله ﷺ: **«إذا وقع الذباب في إناء أحدكم، فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء»**[(١)]..

قال عبدالوارث كبير مفتي مجلة العربي:

«أما حديث الذباب وما في جناحيه من داء وشفاء فحديث ضعيف، بل هو عقلا حديث مفترىٰ»[(٢)].. كما رد أيضًا الطبيب محمد توفيق صدقي بدعوىٰ أنه ينافي الطب والعلم، وزعم أن الحديث مشكل، وتابعه محمد خليل هراس[(٣)]..

فمقاييس العقلانية الحديثة تكذب أحاديث الرسول ﷺ لمجرد أنها لا ترىٰ صحتها هي في ذوقها؛ لأن قوله: حديث ضعيف، وعقلاً حديث مفترىٰ، كلامه غير منهجي ولا علمي؛ لأن الافتراء علىٰ الرسول ﷺ من قبل الصحابة وأعلام المسلمين الرواة وجمهورهم ليس بالأمر الهين، بل إنه يحبط عمل أمة

---

(١) هذا نص رواية البخاري في كتاب الطب، باب إذا وقع الذباب في الإناء ص١٨١ جزء ٧.

(٢) عن مجلة العربي الكويتية عدد (٨٢) لجمادىٰ الأولىٰ لعام ١٣٨٥هـ - سبتمبر أيلول ١٩٦٥م ص١٤٤ (باب أنت تسأل ونحن نجيب).

(٣) راجع سبل السلام شرح بلوغ المرام - للصنعاني - مراجعة محمد خليل هراس - الجزء الأول ص٣٥ - ٣٦. مع العلم أن الشيخ محمد خليل هراس ليس من هذا الصنف، بل هو من علماء السنة، وعقيدته سليمة في الجملة، لكنه زل في هذه المسألة، غفر الله لنا وله.

بأكملها، فالكاتب ومن هم على شاكلته من العقلانيين لا يستطيعون أن يثبتوا لنا أن العقل والعلم يكذبان هذا الحديث، ونقول لهم: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

مع العلم أن الحديث متفق عليه في البخاري ومسلم وغيرهما فهو ثابت.

وهو يعيد النغمة العلمانية التي يرددونها، وهي أنه عقلاً مفترىٰ، فأي عقل يحكم بافترائه دون تثبت وتحقيق؟ لا سيما وأن الحديث معلل بتعليل علمي وهو بأن بأحد جناحيه داء وفي الآخر دواء، وقد أثبت الطب الحديث ذلك فلا حجة بعده للعقلانيين إلا المكابرة وهي عادتهم..

لقد قرر علماء الطب منذ زمن ليس بالقريب أن الذباب اشتمل علىٰ جراثيم وميكروبات كما اشتمل علىٰ مضادات لها في نفس الوقت، وقد أصبح ذلك من البديهيات العلمية عند علماء الغرب وغيرهم، ومن العلماء الذين اكتشفوا هذا: العالمان الانجليزيان آرنشتين وكوك بين عامي ٤٧ ـ ١٩٥٠م، وكومس وفارمر ـ انجليزيان ـ وجرمان دروث والتنجر وبلاتنر من سويسرا عام ١٩٤٩م كما أثبت ذلك العالم موفتس عام ١٩٤٧م[١].

* والعقلانيون لا يكتفون بالطعن في أحاديث معينة، بل يطعنون في صحة ما جاء **في كتب السنة المعتمدة** لدىٰ المسلمين **كالبخاري ومسلم**.. يقول أحمد زكي أبو شادي، طاعنًا في كتب الحديث المعتمدة عند المسلمين:

«وهذه سنن ابن ماجه والبخاري، بل وجميع كتب الحديث والسنة طافحة بأحاديث وأخبار لا يمكن أن يقبل صحتها العقل، ولا نرىٰ نسبتها إلىٰ الرسول الكريم صاحب أعظم شريعة عقلية إنسانية»[٢]..

---

(١) راجع (الرسول ﷺ) جـ١ للشيخ سعيد حوىٰ ص٣٧ ـ ٤٠.

(٢) ثورة الإسلام لأحمد زكي أبو شادي ص٤٤.

وهكذا بهذه السهولة . . يريد أن يهدم نصف الإسلام، حين يرد السنة ويكذب البخاري وكتب الحديث بدعوىٰ أن العقل ـ عقله بالطبع ـ لا يقبل صحتها وهو لا يرىٰ نسبتها للرسول بهذه المقاييس المادية الجاهلية .

وإلىٰ مثل هذا يذهب إسماعيل بن أدهم كما أسلفت قبل قليل .

ونقول للعقلانيين:

أي عقل لا يقبل صحة البخاري وأحاديث الرسول ﷺ الثابتة . . أهو عقل الغربيين، أم عقل المرتابين من العقلانيين، أم عقل من استحوذ عليه الشيطان؟ لأن عقول الصحابة والسلف الصالح والمسلمين كلهم، قبلت ما جاء في البخاري وسائر الأحاديث الثابتة عن المعصوم ﷺ! وأرىٰ أنه أخطأ في وصفه الشريعة الإسلامية بأنها شريعة عقلية إنسانية بهذا الإطلاق؛ لأن الشريعة الإسلامية ربانية إلهية أولاً، ثم إنها توافق العقل السليم وتصلح الإنسانية ثانيًا .

وكذلك يقول محمود أبو رية مشككًا في صحة كثير من الأحاديث في كتب السنة :

«ولـمّا وصلت من دراستي إلىٰ كتب الحديث المعتمدة لدىٰ الجمهور ألفيت فيها من الأحاديث ما يبعد أن يكون في ألفاظه أو معانيه أو أسلوبه من محكم قوله وبارع منطقه صلوات الله عليه، ومما راعني أني أجد في معاني كثير من الأحاديث ما لا يقبله عقل صريح، ولا يثبته علم صحيح، ولا يؤيده حس ظاهر، أو كتاب متواتر»[1] . .

ومن المعروف أن الكتب المعتمدة لدىٰ جمهور المسلمين منها البخاري ومسلم. فأبو رية يزعم أن فيها ما لا يقبله عقل صريح ولا يثبته علم صحيح، أو حسّ ظاهر، أو كتاب متواتر، بل يصدر حكمه الجائر هذا علىٰ معاني كثير من الأحاديث في كتب الحديث المعتمدة لدىٰ الجمهور، وقوله: «ما لا يقبله عقل

---

(١) أضواء علىٰ السنة المحمدية ص١٩ .

صريح»، يقال له: إن عقول المسلمين والعلماء الأعلام التي اعتمدت تلك الأحاديث عقول صحيحة وسليمة، وأمينة أيضًا.

وقوله: «ولا يثبته علم صحيح»، يقال له: ليس هناك علم أصح في التثبت في المتن والسند والمعنى من علوم المسلمين، وبالأخص علم الحديث، كما سأبينه بعد صفحات.

فليس هناك علم أصح من علوم المسلمين دراية ورواية ومنهجًا وتحقيقًا، لكن أبا رية وسائر العقلانيين، يريدون عرض الحديث النبوي على عقولهم وعلى عقول أساتذتهم، رواد العلم الجاهلي المادي الحديث، كالمستشرقين.

ويؤكد هذا حين يقول في كتب الحديث:

«على أننا لم نجد في أي من هذه الكتب ـ على ضخامتها وكثرتها ـ دراسة قيمة ولا نقدًا موضوعيًّا يقوم على الأسلوب العلمي الحديث الذي يظهر حقًّا، أو يصحح غلطًا، أو يعدل رأيًا»[1]. . فالعلم الحديث عنده هو وحده الذي يظهر حقًّا أو يصحح غلطًا أو يعدل رأيًا. . أما علم المسلمين فلا. فهو يريد أن يمحِّص الحديث على الأسلوب العلمي الحديث الذي يقوم على الإلحاد والمادية، ومن المعروف أن ذلك الأسلوب الإلحادي المادي يرفض الوحي. وما هي الدراسة القيمة إذا لم تكن دراسات المسلمين وعلماء الحديث قيمة؟

ويقول عن جهده في كتابه: (أضواء على السنة المحمدية) الذي امتلأ بالطعون والشبهات حول الحديث النبوي:

«حتى تسنى لي أن أعثر على تلك المواد الغزيرة، التي مكنتني من أن أسوي منها هذا الكتاب الجامع، الذي يعتبر الأول في موضوعه، وأن أذيعه في الناس، حتى يكونوا على بينة من أمر الحديث المحمدي، **يدرسونه على نور العلم ويفهمونه بمنطق العقل**»[2]. .

---

(١) أضواء على السنة المحمدية لأبي رية ص٢٩.

(٢) نفس المصدر السابق ص٢٦.

ونقول: إن المسلمين بحمد الله كانوا ولا يزالون على بينة من الحديث المحمدي، قبل أن يبحث المرتاب (أبو رية) فيخرج كتابه للناس، الذي يعتبر من أبعد البحوث عن نور العلم ومنطق العقل بحق. وما نقلته وما سيأتي من العبارات التي قالها أكبر برهان على ذلك.

فهو كما قال عن نفسه ـ ومن هم على شاكلته من العقلانيين ـ لا يقبل من الحديث إلا ما يوافق هواه إذ يقول:

«لمّا انكشف لي ذلك كله وغيره مما يحمله كتابنا، وبدت لي حياة الحديث المحمدي في صورة واضحة جلية، تتراءى في مرآة مصقولة، أصبحت على بينة من أمر ما نسب إلى الرسول ﷺ من أحاديث آخذ ما آخذ منها ونفسي راضية وأدعو ما أدعو وقلبي مطمئن ولا عليّ في هذا أو ذلك أي حرج أو جناح»[1]. فجعل نفسه وقلبه (هواه) هو الميزان. ومعلوم أن مثل هذا مريض القلب عليل النفس كما هو ظاهر من كلامه.

ويقول عن الأحاديث التي يستدل بها ويوردها في كتابه: «فإن منها ما يبدو عليه علائم الصحة، كأن يكون بيانًا للقرآن الكريم، أو متفقًا مع العقل السليم، أو جاء على مقتضى الأصول التي قام عليها الدين وإليها قامت الدعوة ولأجلها منحت النبوة، أو أتنور خلال معانيه شعاعًا من نور النبوة، ولو كان خافتًا ضئيلاً، وهذا أمر أحسه بوجداني فما كان من مثل ذلك مما يطمئن به القلب ويسلم به العقل، فأنا آخذ به وأرويه وأنا مطمئن، وأعتبره من بيان الرسول للكتاب العزيز، وإن كنت على ثقة بعد ذلك كله من أنه من أحاديث الآحاد»[2]..

وكل تلك الطرق التي ذكرها، وجعل منها مقاييس للصحة، فقد عمل

---

(١) نفس المصدر السابق ص٢٥.

(٢) أضواء على السنة المحمدية ص٣٤.

المسلمون بهذه المقاييس التي ذكرها وهي من أصولهم، بل زادوا من المقاييس الاحتياطية ما لم يخطر على باله وما ذكر من الأصول، بل لا تساوي شيئًا بالنسبة لاحتياط علماء الحديث ودقتهم، وليست مقاييسه الوجدانية التي ذكرها هنا علمية ولا منهجية ولا موضوعية.. بينما وضع المسلمون منهجًا علميّاً دقيقًا تحقق به معرفة الحديث الصحيح من غيره، بحيث لا يمكن لأحد بعدهم، أن يصل إلى درجتهم العلمية تلك[1].. نعم إن وجدان وقلب الشيخ أبي رية قد يقوده لغير الحق فأي علمية فيه؟ ووجدانه وقلبه وعقله تلك أمور تخصه، ولا يجوز له أن يجعلها مقياساً للمسلمين يقيسون بها سنة رسولهم ﷺ، فربما يكون وجدانه هويّاً، وعقله مختلاً، وقلبه كالكوز مجخّيًا. فهذا أمر يحتمل علميّاً أيضًا! بل أرى أن الخلل واضح في عقل أبي رية وفطرته وقلبه ووجدانه، وكلامه شاهد عليه.

* كذلك نرى العقلانيين المحدثين يضيقون بكتب الحديث كل الضيق ويعتبرون الاهتمام بها من أسباب التخلُّف، بل ربما يتجرأ بعضهم على القول: بأنها لا تنسجم مع القرآن الكريم، يقول أحدهم: «**وأما التغني بأبي داود، والترمذي، والنسائي، ومسلم وترديد** الأحاديث الملفقة التي لا تنسجم وتعاليم القرآن.. فبمثابة الخيانة لرسالة الإسلام الخالدة»[2]..

كذا بكل جرأة وصراحة: التغني بكتب السنة خيانة لرسالة الإسلام، مع أن تلك الكتب هي التي حملت لنا رسالة الإسلام، ولا تزال هي الكنز الثاني مع كتاب الله لدين الله، والعقيدة والشريعة الإسلامية.

*ومن الدعاوى التي تتمسك بها العقلية الحديثة في إسقاط حجية السنة النبوية قولهم: إن القرآن شامل لكل شيء، فلا نحتاج بعده إلى مزيد، وأن

---

(١) راجع السنة ومكانتها في التشريع لمصطفى السباعي ص٩٠ ـ ٩١، وتدريب الراوي ص٤٠، ٤١ جـ١ ومقاييس نقد السنة للدكتور مسفر الدميني.

(٢) ثورة الإسلام لأحمد زكي أبو شادي ص٢٥.

القرآن قطعي، والسنة ظنية، فلا يعدل من القطعي إلى الظني.

ويستدلون على ذلك بأن الرسول ﷺ أمر بألاّ يكتب إلا القرآن، وأن كبار الصحابة كانوا يقلون الرواية للحديث.

لكنهم ماذا يصنعون بقوله تعالى: ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾، وقوله تعالى: ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾، وقوله ﷺ: «**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه**»، وقوله ﷺ: «**عليكم بسنتي..**».

ويقول أبو رية **مهونًا من شأن السُّنَّة وحجيتها:**

«لو كانت أحاديث رسول الله كلها من الدين العام - كالقرآن - لا يقوم إلا عليها، ولا يؤخذ إلا منها، وأنه يجب على كل مسلم أن يعرفها ويتبع ما فيها، كما يتبع ما في القرآن، وكان النبي ﷺ قد أمر أصحابه أن يحفظوا هذه الأحاديث لكي تؤثر من بعده لكان أكثر الصحابة رواية لها أعلاهم درجة في الدين، وأثبتهم قدمًا في الإيمان، وأسناهم مرتبة في العلم»[1].

«وهذا الأمر قد دعانا إلى أن نفرد ترجمة خاصة لمن كان أكثر الصحابة تحديثًا عن رسول الله، وأوسعهم رواية، على حين أنه كان من عامة الصحابة، وكان بينهم لا في العير ولا في النفير، ذلكم هو أبو هريرة»[2]، وقد كذب والله، فإن أبا هريرة رضي الله عنه في العير والنفير، حيث نذر نفسه لحفظ سنة رسول الله ﷺ، وقد دعا له النبي ﷺ بذلك رغم أنف أبي رية وأمثاله.

---

(١) أضواء على السنة المحمدية ص١٩٤.

(٢) نفس المصدر السابق ص١٩٥.

وسيأتي نقاش هذه الفرية على أبي هريرة، عند الكلام على الطعن في الصحابة، في آخر هذا الفصل، ويقول: «وكان عمر يقول: أقلوا الرواية عن رسول الله إلا فيما يعمل به، ولا غرابة في أن يفعل ذلك عمر.. لأنه كان لا يعتمد إلا على القرآن والسنة العملية»[١]..

والأمر خلاف ذلك.. فكان عمر وسائر الخلفاء الراشدين يعملون بالسنة العملية والقولية، فكانوا يعتمدون عليها مع القرآن الكريم، فقد أخذ عمر بحديث الطاعون، وحديث المجوس، وحديث الديات، وغيرها من الأحاديث القولية[٢]..

ويقول في قوله ﷺ: **«ألا إني أوتيت الكتب ومثله معه»**[٣]: «وهذا الحديث من أغرب ما قذفته الرواية في سيلها! لأن النبي إذا كان قد أوتي مثل الكتاب أو مثل القرآن، فمعنى ذلك أنه قد أوتي ذلك ليكون تمامًا على القرآن، وإكمالاً له لبيان دينه وشريعته، وإذا كان الأمر كذلك فَلِمَ لَمْ يعن النبي بكتابة هذا المثل في حياته عندما تلقاه من ربه، كما عني بكتابة القرآن»[٤].. ثم يسرد شبهاته الكثيرة على هذا النمط، ويعترض على هذا الحديث الصحيح بعقله وهواه، دون أن يثبت لنا علميّاً عدم صحته، بل يبرهن على جهله وعدم فقهه لمعنى «ومثله معه» كما قال تعالى: ﴿ **ويعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ والحكمة هي السنة، والكتاب هو القرآن.

ويقول عن حكمة نهي الرسول ﷺ عن كتابة الحديث: «هو لكي لا تكثر أوامر التشريع ولا تتسع له أدلة الأحكام، وهو ما كان يتحاشاه ﷺ حتى كان يكره

(١) نفس المصدر السابق ص٥٥.

(٢) راجع السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للسباعي ص٦٨، ٦٩.

(٣) وذلك في حديث رواه أبو داود في سننه حديث رقم: ٤٦٠٤، والترمذي بلفظ آخر يفيد هذا المعنى رقم ٢٦٦٤ في كتاب العلم، وأحمد في المسند جـ٤، ص١٣١، ١٣٢، وابن ماجه في المقدمة ـ باب تعظيم حديث رسول الله حديث رقم ١٢. (جامع الأصول جـ١ ص٢٨١).

(٤) أضواء على السنة المحمدية ص٥٢.

كثرة السؤال، أو يكون من أحاديث في أمور خاصة بوقتها، بحيث لا يصح الاستمرار في العمل بها»[(١)] . .

وهكذا يريدون محاصرة السنة، وحصرها بدعوىٰ التقليل من أوامر التشريع وهذا مما تهدف إليه العقلية الحديثة، أي أنها تنزع إلىٰ التخفف والتملص من الأوامر والتكاليف الشرعية، وتحصر الدين في ضمير الفرد، أو تكاد.

ويريدون أيضًا محاصرة السنة بقولهم ـ تبعًا لأساتذتهم المستشرقين ـ بأن السنة جاءت في أمور خاصة بوقتها.

لكن نذكرهم ـ لعلهم يتذكرون ـ بقوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [٧: **الحشر**].

أما عن رواية السنة بالمعنىٰ فإنهم يثيرون هذه الشبهة من ناحيتين:

الناحية الأولى: قولهم: بأن السنة لم تنقل كما نقل القرآن حرفيًا، مما يسقط حجية السنة ويلحق الضرر بالدين ـ بزعمهم ـ.

يقول أبو رية في ذلك:

«ولقد كان لرواية الحديث بالمعنىٰ ـ ولا جرم ـ ضرر كبير علىٰ الدين واللغة، والأدب، كما ستراه فيما بعد»[(٢)] . .

ويقول: «وكان البخاري وهو شيخ رجال الحديث، وكتابه كما هو مشهور بين الجمهور أصح كتاب بعد كتاب الله ـ كما يقولون ـ يروي علىٰ المعنىٰ»[(٣)] . .

ويقول: «لما كانت أحاديث النبي ﷺ قد جاء نقلها بالمعنىٰ ـ كما بينا من قبل ـ وأنهم قد أباحوا لرواتها أن يزيدوا فيها ويختصروا منها وأن يقدموا ويؤخروا في ألفاظها ـ بله ما سوغوه من قبول الملحون منها ـ كما كان الأمر قد جرىٰ علىٰ

---

(١) أضواء علىٰ السنة المحمدية ـ لمحمود أبي رية ـ ص٥١ .

(٢) المصدر السابق ص٢١ .

(٣) نفس المصدر السابق ص٢١ .

ذلك . . فقد نشأ من أثر ذلك كله ـ ولا جرم وبخاصة بسبب نقل الحديث بالمعنىٰ ـ ضرر عظيم»[١] . .

ونقول :

أولاً: إن السنة ليست كلها رويت بالمعنىٰ ، فإن منها أحاديث كثيرة في البخاري ومسلم رويت بالنص .

ثانيًا: أن ما روي من السنة إنما هو مروي عن الصحابة ، وهم أمناء علىٰ الدين والرسالة ، فإن حديثهم وإن كان قد يروىٰ بالمعنىٰ أحيانًا ، إلا أنه مروي بأمانة وتحرٍّ وفقه . . فلا يمكن أن يروي الصحابة حديث رسول الله ﷺ بما يحيل المعنىٰ ، أو يصرفه عن مراد رسول الله لأنهم ـ أي الصحابة ـ يفقهون الدين والعربية ومعانيها ويطبقون ما يسمعون ، وعدالة الصحابة متفق عليها عند سائر من يعتد به من المسلمين . . لأنهم حملة الشريعة ونقلة السنة[٢] . .

ثالثًا: أن في كتب السنة الشيء الكثير من أحاديث السنة العملية التي نُقلت عن رسول الله ﷺ عمليّاً وطبقها المسلمون اقتداء برسول الله وطاعة لأمر الله . . وهذا مما لا يؤثر فيه الرواية بالمعنىٰ .

رابعًا: زعم المؤلف أن رجال الحديث أجازوا في الرواية النقص والزيادة ، والتقديم والتأخير والملحون . . فهذا ليس صحيحًا علىٰ الإطلاق ، فإنهم لم يجيزوا ذلك إلا بشروط قاسية وشديدة ، واحترازات قوية يندفع بها الضرر[٣] . .

الناحية الثانية:

وهي التي ترتكز عليها كثير من شبهات العقلانيين والمستشرقين . . فهي

---

(١) المصدر السابق ص٩٧ .

(٢) راجع تدريب الراوي للسيوطي ص٢١٤ ، جزء ٢ .

(٣) راجع المصدر السابق ص٩٢ إلىٰ ١١٠ جزء ٢ .

دعوىٰ أن علماء الحديث كان جل همِّهم في سند الحديث ورجاله، ولم تكن تهمهم صحة الحديث من ناحية المعنىٰ أو المتن، فقد يروون ما يعارض القرآن وما لا يعقل، وأن طريقتهم لذلك غير موضوعية ولا علمية، ومن ثم غير موثوقة وبهذا يُسقِطُون حجية السنة، وأكثر من تولىٰ كِبْرَ إثارة هذه الشبهة أبورية، وسبقه أحمد أمين في فجر الإسلام، قال في ذلك: «وقد وضع علماء الجرح والتعديل قواعد ليس هنا محل ذكرها، ولكنهم ـ والحق يقال ـ عنوا بالإسناد أكثر مما عنوا بالمتن فقبل أن تظفر بنقد من ناحية أن ما نسب إلىٰ النبي ﷺ لا يتفق والظروف التي قيلت فيه، أو أن الحوادث التاريخية الثابتة تناقضه، أو أن في عبارة الحديث نوع من التعبير الفلسفي يخالف المألوف في تعبير النبي، أو أن الحديث أشبه في شروطه وقيوده بمتون الفقه، وهكذا، لم تظفر منهم في هذا الباب بعشر معشار ما عنوا به من جرح الرجال وتعديلهم، وحتىٰ نرىٰ البخاري علىٰ جليل قدره ودقيق بحثه يثبت أحاديث دلت الحوادث الزمنية والمشاهدة التجريبية علىٰ أنها غير صحيحة لاقتصاره علىٰ نقد الرجال» . . وضرب لذلك أمثلة تبرهن علىٰ جهله . . لأن علماء الحديث افترضوا شبهاته هذه وردوها في كتبهم[1]. وذكرت نبذة من أقوال أبي رية، وسأذكرها بعد ذلك في مناسبات أخرىٰ[2]، من ذلك قوله ـ عن علماء السلف من رجال الحديث: بأنهم قصروا حين

اهتموا بالسند ولم يهتموا بالمعنىٰ هل هو معقول أو غير معقول ـ علىٰ حد زعمه ـ وأنه يجب علىٰ الأدباء أن يتعقبوا رجال الحديث في قوله: «فإن العلماء والأدباء لم يولوه ما يستحق من العناية والدرس وتركوا لمن يسمون رجال الحديث يتداولونه فيما بينهم، ويدرسونه علىٰ طريقتهم وطريقة هذه الفئة التي اتخذتها لنفسها قامت علىٰ قواعد جامدة لا تتغير ولا تتبدل، فنرىٰ المتقدمين منهم وهم الذين وضعوا هذه القواعد قد حصروا عنايتهم في معرفة رواد الحديث والبحث ـ

---

(١) أضواء علىٰ السنة ص١٧ .

(٢) راجع فجر الإسلام ص٢١٧، ٢١٨ .

على قدر الوسع ـ في تاريخهم، ولا عليهم بعد ذلك إن كان ما يصدر عن هؤلاء الرواة صحيحًا في نفسه أو غير صحيح، معقولاً أو غير معقول، ذلك بأنهم وقفوا بعلمهم عندما يتصل بالسند فحسب، أما المعنى فلا يعنيهم من أمره شيء».

*** ونقول لهؤلاء:**

أولاً: أمّا أن علماء الحديث اهتموا بالسند ورجاله.. فهذا حق، وهو من توفيق الله تعالى تحقيقًا لوعده بحفظ دينه.. فتصحيح السند ودراسة الرجال أدق طريقة علمية عرفها تاريخ العلوم الإنسانية، وهي أسلم طريقة علمية وموضوعية للتثبت والتحقيق العلمي، فاهتمام سلفنا بالسند برهان على موضوعيتهم وأمانتهم وعدالتهم، وصدقهم، وعبقريتهم العلمية.

ثانيًا: دعوى العقلانيين أن علماء الحديث بجانب اهتمامهم بالسند أهملوا المعنى، أو أنهم قصروا في تمحيص المعنى والمتن، وأنهم لذلك رووا ما يخالف القرآن، أو ما ينافي العقل.. فهذا كلام باطل وزعم لا يستند إلى دليل، والواقع يكذبه، وينافي العلمية والموضوعية التي يتشدق بها العقلانيون كل المنافاة.

فلم يكن اهتمام السلف عمومًا ورجال الحديث على الخصوص، بالسند فحسب، بل اهتموا ومحصوا لنا الحديث سندًا ومعنىً ومتنًا.

فكانوا ـ رحمهم الله ـ لا يقبلون الحديث الذي يخالف صريح القرآن، أو يخالف العقل السليم، أو يخالف أصلاً من أصول الدين، أو يخالف الحس والمشاهدة.. فقد جعلوا هذه الأشياء والقواعد من الموازين التي يوزن بها الحديث الصحيح من غيره، ومن علامات الوضع في الحديث.

كما أنهم تابعوا الوضع والوضاعين، والضعفاء، حتى طهروا أحاديث رسول الله ﷺ، من الأحاديث الموضوعة، والضعيفة، فأصبحت اليوم ـ بحمد

الله ـ تُعْرَفُ دون كبير عناء بفضل الله، ثم بفضل جهود علمائنا، واهتمامهم بالمتن والمعنى والسند للحديث.. وإليك طَرَفًا من أقوال العلماء المتخصصين بهذا الصدد، لنذكِّر العقلانيين بطرف من جهود علمائنا بالمتن والمعنى:

قال الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: «وقد أكثر العلماء ـ رحمهم الله ـ من البيان للأحاديث الموضوعة، وهتكوا أستار الكذابين، ونفوا عن حديث رسول الله ﷺ انتحال المبطلين، وتحريف الضالين»(١)..

«وهم ـ رحمهم الله ـ قسمان: قسم جعلوا مصنفاتهم مختصة بالرجال الكذابين والضعفاء وما هو أعم من ذلك»(٢).. «وقسم جعلوا مصنفاتهم مختصة بالأحاديث الموضوعة»(٣)..

والعقلانيون حين زعمو أن علماء الحديث تنقصهم العلمية والموضوعية وأنهم لم يهتموا بما يخالف العقل والحس والتجربة، إنما يبرهنون بذلك على جهلهم، فقد قال علماء الحديث: «بأن من جملة دلائل الوضع أن يكون مخالفًا للعقل بحيث لا يقبل التأويل، ويلتحق به ما يدفعه الحس والمشاهدة، أو يكون منافيًا لدلالة الكتاب القطعية أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعي»(٤)..

بل إن في قواعد الحديث وموازينه وضوابطه عند علمائنا السابقين، مما لا يتصوره العقلانيون اليوم كما رأيت.. وقالوا: «كل خبر أوهم باطلاً ولم يقبل التأويل فمكذوب»(٥)..

---

(١) راجع الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة لمحمد بن علي الشوكاني ص٣، ٤ ومقاييس نقد متون السنة للدكتور مسفر الدميني..

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) راجع تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي ـ جزء ١ ص٢٧٦.

(٥) المصدر السابق جزء ١ ص٢٧٧.

«وقال السيوطي في تدريب الراوي:

«وقال ابن الجوزي: ما أحسن قول القائل: إذارأيت الحديث يباين المعقول، أو يخالف المنقول، أو يناقض الأصول، فاعلم أنه موضوع»[١]..

وطبقوا هذه القواعد عمليّاً على الحديث حتى أصبح الآن من السهل جدّاً معرفة الحديث الصحيح من غيره بحمد الله.

فرجال الحديث ـ وعلماء الإسلام عمومًا ـ لم يستهينوا ـ كما تزعم العقلانية الحديثة ـ بموافقة الحديث للمنقول والمعقول والحس والمشاهدة، فقد صرحوا ـ كما قرأت ـ بأن من علامات الموضوع مخالفته لصحيح المنقول وصريح المعقول وللحس والمشاهدة، وراعوا ذلك بكل منهجية وموضوعية، لكن العقلانيين يجهلون ذلك أو يتجاهلونه.

يقول الدكتور مصطفى السباعي في كتابه: «**السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي**»:

«لا يستطيع من يدرس موقف العلماء ـ منذ عصر الصحابة إلى أن تم تدوين السنة ـ من الوضع والوضاعين وجهودهم في سبيل السنة، وتمييز صحيحها من فاسدها، إلا أن يحكم بأن الجهد الذي بذلوه في ذلك لا مزيد عليه، وأن الطرق التي سلكوها هي أقوم الطرق العلمية للنقد والتمحيص، حتى لنستطيع أن نجزم بأن علماءنا ـ رحمهم الله ـ هم أول من وضعوا قواعد النقد العلمي الدقيق للأخبار والمرويات بين أمم الأرض كلها، وأن جهدهم في ذلك جهد تفاخر به الأجيال، وتتيه به على الأمم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم»[٢].

---

(١) المصدر السابق جزء ١ ص٢٧٧.

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى السباعي ص٩٠، وراجع السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب من ص٢٤٢ إلى ٢٤٨، والمنار المنيف في الصحيح والضعيف =

ثم ذكر العلامات التي جعلها علماؤنا الأعلام دلائل لوضع الحديث ذكر منها:

* تكذيب الحس للحديث.

* وركاكة اللفظ.

* وفساد المعنىٰ.

*ومخالفته صريح القرآن.

* ومخالفته لحقائق التاريخ المعروفة في عصر النبي ﷺ.

* ووجود قرائن تشهد بعدم صحته . . . إلخ.

أفيكون بعد هذا (وهو غيض من فيض) من اعتراض للعقلانيين، إلا ما يبرهنون به علىٰ جهلهم بعلوم السنة والحديث، وقصورهم عن معرفة الجهود العلمية، والمنهجية، والموضوعية التي بذلها إسلامنا في خدمة السنة، بل وتحاملهم وبهتانهم (العقلانيين) لأهل الحق؟

ويقف العقلانيون عند الأحاديث التي رويت بطرق وألفاظ مختلفة ليخلصوا منها ـ بزعمهم ـ بأن السنة مشكوك في صحة نقلها، وأن ضبط الصحابة لا يعتمد علية، وأن هناك من يزيد علىٰ الرسول ﷺ في حديثه.

وضربوا لذلك مثلاً بحديث التشهد في الصلاة، فقد ورد بعدة طرق وألفاظ مختلفة عن أكثر من صحابي، وأن كل صحابي من الذين رووا التشهد يزعم أن الرسول لقَّنه تشهده هذا. . يقول أبو رية:

«هذه تشهدات تسعة وردت عن الصحابة، وقد اختلفت ألفاظها، ولو أنها كانت من الأحاديث القولية التي وردت بالمعنىٰ لقلنا عسىٰ! ولكنها من الأعمال

= لابن القيم ـ تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ص٥١، ٨٠، ١٠٢، وراجع مجلة كلية أصول الدين ـ بالرياض ـ ص١٣٧ إلىٰ ١٥٧، مقالة للشيخ الدكتور محمود الطحان بعنوان: عناية المحدثين بمتن الحديث كعنايتهم بإسناده والرد علىٰ شبهات المستشرقين وأتباعهم.

المتواترة التي كان يؤديها كل صحابي مرات كثيرة كل يوم، وهم يعدون بعشرات الألوف، ومما يلفت النظر أن كل صاحب تشهد يقول: إن الرسول كان يعلمه التشهد كما يعلمه القرآن»[١] . .

ثم يقول: «ومما يلفت النظر كذلك أن هذه التشهدات على تباين ألفاظها، وتعدد صيغها، وكثرة رواتها، قد خلت كلها من الصلاة على النبي، فكأن الصحابة كانوا ـ كما قال إبراهيم النخعي ـ يكتفون بالتشهد والسلام عليك أيها النبي ورحمة الله»[٢] .

وهكذا يدخلون الشبه بما يوهم التناقض ويبرهنون على جهلهم المركب، لكن نقول لهم: إن أحاديث التشهد الصحيحة برواياتها وألفاظها وطرقها المختلفة، كلها ثابتة عن الرسول ﷺ، وقال العلماء[٣] . . بأن كل منها صحيح تجوز الصلاة به، لأنها ألفاظ متعددة كلها صحيحة واردة عن المعصوم ﷺ وهذا دليل على يسر الدين وسعته، وتعدد الألفاظ يحمل معاني متعددة عظيمة مفيدة للناس.

فإن كان كل صاحب تشهد من الصحابة، قال بأن الرسول ﷺ علمه إياه، فكلهم صادقون، وليس في هذا ما يلفت النظر كما ادعى المؤلف، لأنه ليس هناك ما يمنع تعليم الرسول ﷺ كل واحد من هؤلاء بصيغة غير الصيغة الأخرى، لا عقلاً، ولا شرعًا.

فهذه التشهدات من باب الدعاء، ولا يتعلق بها اختلاف في الحلال والحرام، فجائز أن يكون الرسول ﷺ لقنها الصحابة بكل تلك الألفاظ التي صحت في كتب السنة . . فلا داعي لهذه الجعجعة.

---

(١) أضواء على السنة المحمدية ص٨٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) راجع المغني لابن قدامة ـ المجلد الأول ص٥٣٦.

كما أنهم بناء على ذلك لا يتورعون عن تكذيب أحاديث رويت صحيحة وثابتة وقد تكون متواترة عن المعصوم ﷺ:

من ذلك حديث: «**من كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار**»[1] وهذه رواية مسلم.

فقد طعن أبورية في قوله (متعمدًا) وزعم أنها مكذوبة على الرسول ﷺ، فقال: «ولما قرأت حديث «**من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**» غمرني الدهش لهذا القيد الذي لا يمكن أن يصدر من رسول جاء بالصدق وأمر به ونهى عن الكذب وحذر منه[2]..».

وقال في موضع آخر رد فيه الحديث: «هذا ما رأينا إيراده من الأدلة على أن حديث الرسول «**من كذب عليَّ**»، لم يكن فيه كلمة «**متعمدًا**»[3].

ثم قال: «وإن العقل السليم والخلق الكريم.. لينفران من قبول رواية (متعمدًا).. لأن الكذب هو أبو الرذائل كلها، سواء أكان عن عمد، أم غير عمد»[4]..

مع العلم أن رواية (متعمدًا) جاءت بطرق صحيحة عن أكثر من صحابي، وأخرجها كل من البخاري ومسلم وغيرهما[5]..

وقد رواها من الصحابة كل من: عبدالله بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوام،

---

(١) الحديث متفق عليه عند البخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، وهذه رواية مسلم في المقدمة حديث رقم ٣.

(٢) أضواء على السنة المحمدية لأبي رية ص١٩.

(٣) المصدر السابق ص٦٥.

(٤) أضواء على السنة المحمدية لأبي رية ص٦٥.

(٥) راجع البخاري في كتاب العلم - باب إثم من كذب على النبي ﷺ، ومسلم في المقدمة حديث ٣.

ورواها أبو هريرة، والمغيرة بن شعبة، وأنس بن مالك[١] . . وهؤلاء كلهم يستحيل تواطؤهم على الكذب، وهم عدول صادقون بإجماع المسلمين[٢] . .

وعلى هذا **فقوله بأن العقل السليم**، والخلق الكريم، ينفران من رواية (متعمدًا) تعسف ورد صريح لماجاء به الرسول ﷺ، بل العكس هو الصحيح فإن عبارة (متعمدًا) تستقيم مع قواعد الشرع ونصوصه كقوله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾ [٢٨٦ : البقرة].

وقوله: لا يمكن يصدر من رسول جاء بالصدق، يلزمه أن يثبت ذلك شرعًا، وإلا فليتحمل الوعيد الذي في الحديث. . نسأل الله العافية!

وعلى أي حال. . فإن هذا الحديث بلفظه (متعمدًا) من الأحاديث المتواترة لفظًا ومعنى عن أكثر من ستين صحابيًا[٣] . . فهو ثابت قطعي الدلالة، ومعروف الحكم في إنكار المتواتر عند علماء الإسلام، وأنت ترى في مثل هذا الموقف مدى التزام العقلانيين للعلمية، والموضوعية التي يزعمونها! . . فأي علمية وموضوعية في إنكار مثل هذا الحديث المتواتر القطعي الثبوت؟!

ومثله حديث الإسراء والمعراج الذي ذكر فيه أن النبي ﷺ حين فرضت عليه الصلاة راجع ربه في عددها **ومنه:**

قوله ﷺ: **«ففرضت عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى صلى الله عليه وسلم فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك...»** الحديث إلى قوله: **«فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد، إنهن خمس**

(١) راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير الجزري، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط جـ١٠ ص٦١٠، ٦١١.

(٢) راجع السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي لمصطفى السباعي ص٢٦١.

(٣) راجع تدريب الراوي ص١٧٧ جـ٢.

صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر.. فذلك خمسون صلاة»[1] . . . إلخ الحديث.

وقد قدح أبورية في هذا الحديث مع أنه ثابت صحيح عن رسول الله ﷺ، ورده واعتبره من الإسرائيليات بمجرد اعتراضات عقلية اصطنعها من نفسه، مع أن الأمة أخذت هذا الحديث بالقبول والصحة حيث قد ثبت في البخاري، ومسلم، وسائر السنن والمسانيد.

فيقول فيه أبو رية بتهكم وسخرية من الحديث:

«وفي حديث المعراج أنه لما فرض الله خمسين صلاة على العباد في النهار وفي الليل لم يستطع أحد من الرسل جميعًا ـ غير موسى ـ أن يفقه استحالة أدائها على البشر، فهو وحده الذي فطن لذلك وحمل محمداً ﷺ على أن يراجع ربه عشر مرات في حديث، وخمس مرات في حديث ثان، وبضع مرات في حديث ثالث. . وفيها كلها أنه صلوات الله عليه كلما نزل بعدد منها من عند الله أعاده موسى إلى ربه لينقصها حتى رجعت إلى خمس صلوات، وكأن الله سبحانه وتعالى لمَّا فرض الصلاة على المسلمين، كان لا يعلم مبلغ قوة احتمال عباده على أدائها ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وكذلك لا يعلم محمد الذي اصطفاه للرسالة العامة إلى الناس كافة ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته ـ لا يعلم إن كان من أرسل إليهم يستطيعون احتمال هذه العبادة أو لا يستطيعون حتى بصره موسى! . . وهكذا ترى الإسرائيليات تنفذ إلى ديننا وترى في معتقداتنا، فتعمل عملها، ولا تجد أحدًا إلا قليلاً يزيفها[2] . . أو يردها، بل نرى ـ وا أسفاه ـ من يصدقها ويعتقدها من حشوية آخر الزمان».

وعلى أي حال فقد ثبت أن الحديث صحيح علميّاً عند علماء الحديث

---

(١) هذا جزء من رواية مسلم في كتاب «الإيمان» باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، حديث رقم (٢٥٩) من أحاديث كتاب الإيمان.

(٢) أضواء على السنة المحمدية لأبي رية ص١٦٢.

وغيرهم، من سائر المسلمين، وترديد الرسول ﷺ بين ربه وموسىٰ لحكمة قد نعلم بعضها، وقد لا نعلم، مثلها مثل: خلق السماء والأرض في ستة أيام، ومثل فرض الظهر أربع ركعات، والمغرب ثلاث ركعات، والفجر ركعتين.

وإن كان الله فضل موسىٰ علىٰ سائر الأنبياء بخصلة من الخصال، لا تقوم شبهة تثير السخرية، كما فعل أبو رية. فإن عيسىٰ ـ عليه السلام ـ يحيي الموتىٰ ـ بإذن الله، ويوسف علم تأويل الأحلام، وسليمان علم منطق الطير دون سائر الأنبياء، ومحمد ﷺ أفضل الأنبياء، ومع ذلك لا يعلم الغيب إلا بتعليم الله له ما شاء منه.. لكن العقلانيين لا يفقهون.

بل إن أبا رية يزعم أن ما جعله المسلمون صحيحًا من أحاديث الرسول ﷺ.. إنما هو صحيح من وجهة نظرهم.. لا أنه صحيح في ذاته، أي أن تصحيح المسلمين لحديث ما لا يدل علىٰ صحته في واقع الأمر حتىٰ يأتي الشيخ أبو رية ويبحثه علىٰ الطريقة العلمية الحديثة، وما يطمئن له ضميره كما قال من قبل.

فيقول: (يصف جهده في تحقيق صحة السنة والحديث):

«حتىٰ انتهيت إلىٰ حقائق عجيبة، ونتائج خطيرة! ذلك أني وجدت أنه لايكاد يوجد في كتب الحديث كلها مما سموه صحيحًا، أو ماجعلوه حسنًا ـ حديث ـ فقد جاء علىٰ حقيقة لفظه ومحكم تركيبه، كما نطق الرسول به، ووجدت أن الصحيح منه علىٰ اصطلاحهم إن هو إلا معان مما فهمه بعض الرواة! وقد يوجد بعض ألفاظ مفردة بقيت علىٰ حقيقتها في بعض الأحاديث القصيرة، وذلك في الفلتة والندرة، وتبين لي أن ما يسمونه في اصطلاحهم حديثًا صحيحًا إنما كانت صحته في نظر رواته، لا أنه صحيح في ذاته، وأن ما يقال عنه متفق عليه، ليس المراد أنه متفق علىٰ صحته في نفس الأمر، وإنما المراد أن البخاري ومسلم قد اتفقا علىٰ إخراجه، وليس من شروط الحديث الصحيح أن يكون

مقطوعًا به في نفس الأمر لجواز الخطأ والنسيان والسهو على الثقة، ومن أجل ذلك جاءت الأحاديث وليس عليها ضياء بلاغته صلوات الله عليه إلا نور خافت أو شعاع ضئيل[١] . . ». وهكذا يريد بزعمه أن ينسف جهود خيار الأمة بهذه المزاعم الباردة.

وهكذا نجدهم حريصين كل الحرص على أن يطفئوا نور الله بأفواههم، لكن الله سيتم نوره، ولو كره العقلانيون.

ففي هذا المقطع القصير أراد الكاتب أن يمحو السنة كلها لمجرد أنه لا يرى أن ما ثبت عن العدول الثقاة، وسماه المسلمون صحيحًا يكون صحيحًا في واقع الأمر حتى يصححه.

وهذا مبدأ يقوم دينه ومذهبه على الهوى ومرض القلب. . لأن المسلمين اتفقوا على صحة ما صححه علماء الحديث، وعلى صحة ما رواه البخاري ومسلم على وجه العموم[٢] . . فتلك سبيل المؤمنين لأنهم كانوا يحتاطون لدينهم، وتهمهم صحة الحديث من كل جانب، وكان نظرهم وهواهم تبعًا لما جاء عن الله ورسوله.

وهذا أمر تقتضيه ضرورة الدين. . لأننا إذا **اعتبرنا ما صححه المسلمون غير صحيح** في واقع الأمر، **هدمنا كل السنة**، وبهذا يهدم الإسلام نفسه، ثم إن المؤلف لم يستند إلى دليل موضوعي وعلمي في مزاعمه، إلا اتباع هواه، وكان هواه تبعًا لما جاء به المستشرقون والعقلانيون.

وقد أكثرت **الاستدلال من كتاب أبي رية** (أضواء على السنة المحمدية). . **لأنه بحق يعتبر** عصارة آراء العقلانيين المحدثين وأساتذتهم المستشرقين، كما أن العقلانيين أنفسهم يعتبرونه كتابهم وقد تأثر به كثيرون، فقد **أثنى عليه الدكتور طه**

---

(١) المصدر السابق ص٢٠.

(٢) راجع تدريب الراوي ص٩١، ص١٣١.

حسين في مقدمته له[١] وقال: «وموضوع الكتاب خطير حقاً وقيم حقاً، لا يقف الناس عنده في هذه الأيام، وإنما يشفقون منه أشد الإشفاق يخافون أن تزل أقلامهم، أو يثيرون سخط المحافظين الذين قرروا أن هذا النحو من العلم قد أصبح شيئًا مقدسًا أو كالمقدس لا ينبغي التعرض له إلا بالنقل والاستشهاد»[٢]. .

ويقول: «الموضوع إذن خطير قيم وهو نقد ما وصل إلينا من الحديث الذي يحمل عن النبي ﷺ وتميز الصحيح من غيره ليطمئن المسلمون إلىٰ ما يروىٰ لهم عن رسول الله»[٣]. .

وكأني بالعقلانيين ـ وعلىٰ رأسهم الدكتور طه ـ لم يعلموا حتىٰ الآن بأن المسلمين ـ بحمد الله ـ قد اطمأنوا منذ قرون لحديث رسول الله ﷺ، وعرفوا الصحيح من غيره مسبقًا. . أما العقلانيون وأهل الأهواء والذين في قلوبهم مرض أنفسهم فلن يطمئنوا ـ فيما يبدو من أقوالهم تلك ـ حتىٰ يروا السنة قد اندثرت وزالت معالمها، وسيموتون بغيظهم لأنه تعالىٰ قد تكفل بحفظ دينه إلىٰ يوم القيامة.

ومن أخف العقلانيين المحدثين تهورًا في **نظرته إلى السنة الشيخ محمود شلتوت**، ومع ذلك **يرى أن العقيدة لا تثبت إلا بالقرآن**، أما السنة فلا. فيقول:

«والمسلمون الذي يعتقدون بأن مصدر العقيدة في الشئون الغيبية هو القرآن وحده ـ وهو الحق الذي نؤمن به ـ يقفون في الإيمان بالملائكة عند الحق الذي أخبر به القرآن»[٤]. .

---

(١) انظر كلمة الدكتور طه حسين في أول كتاب أضواء علىٰ السنة بعنوان «أضواء علىٰ السنة المحمدية جهد وعبء ثقيل لا يقوم به في هذه الأيام إلا القليلون».

(٢) أضواء علىٰ السنة المحمدية.

(٣) المصدر السابق.

(٤) راجع الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص٣٠.

«وتطبيقًا للمبادئ التي ذكرناها يتبين لنا: أن الطريق الوحيد لثبوت العقائد هو القرآن الكريم، وذلك فيما كان من آياته قطعي الدلالة . .»[١] .

وهو بهذا يعرض عن المتواتر والصحيح من السنة والإجماع، وهما مصدران من مصادر العقيدة؛ لأن المتواتر في السنة قطعي الدلالة .

وقد تواتر في السنة أشياء لم ترد في القرآن مثل: حديث الشفاعة وهي من العقيدة، وأحاديث الرؤية .

وحديث الكذب على رسول الله ﷺ، فقد رواه بضع وسبعون صحابياً[٢]، وحديث الحوض[٣]، ومنكر ونكير[٤]، وغيرها من الشئون الغيبية (على حد تعبير الشيخ شلتوت) .

ومن الشبه التي تثيرها العقلية الحديثة حول السنة قولهم: «بأنه لا تمكن الثقة بأحاديث لم تكتب إلا بعد الرسول ﷺ بمائة سنة أو أكثر، وبعد أن فشت الدعايات السياسية وغير السياسية، لذلك دعا بعضهم إلى تمحيص كتب السلف على الطريقة العلمية (الجاهلية) الحديثة للاطمئنان على صحة نسبتها إلى الرسول ﷺ كما ذكرأبو رية فيما سقته عنه من قبل .

ومن ذلك ما قاله **الدكتور هيكل في** «حياة محمد» حين قال:

«**وسبب آخر يوجب** تمحيص ما ورد في كتب السلف ونقده نقداً دقيقًا على الطريقة العلمية: أنَّ أَقْدَمَها كُتب بعد وفاة النبي بمائة سنة أو أكثر، وبعد أن فشت في الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية كان اختلاقُ الروايات والأحاديث بعضَ وسائلها إلى الشيوع والغلب، فما بالك بالمتأخر مما كتب في أشد أزمان التقلقل والاضطراب»[٥] .

---

(١) المصدر السابق ص٥٧ .

(٢) عن تيسير مصطلح الحديث لمحمود الطحان ص١٩ ، ٢٠ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) تدريب الراوي جـ٢، ص١٨٠ .

(٥) حياة محمد ص٤٩ .

وقصد بهذا التشكيك في صحة البخاري ومسلم والسنن، لأنها دونت متأخرة من القرن الأول، يؤكد هذا قوله عن البخاري، وأبي داود، وغيرهما من أهل الصحاح والسنن.

«وكثير من هذه الأحاديث التي صحت عندهم كانت موضع نقد وتمحيص عند غيرهم من العلماء انتهى بهم إلى نفي الكثير منها».

وأنت تدرك خطورة هذا الاتجاه حين تتأمل قوله بأن كثير من الأحاديث التي صحت عندهم كانت موضع نقد عند غيرهم، وقوله: (نفي الكثير منها) وهذا يعني أن الكثير مما في البخاري ومسلم والسنن منفي ومرفوض، وهذا خلاف الواقع، فإن أهل الحديث والمسلمين كلهم متفقون على أن ما في البخاري ومسلم والكثير جدا مما في السنن صحيح على العموم، وما اتفقا[1] عليه يحصل به العلم القطعي[2].

وبهذا تسقط دعوى العلمية لأول وهلة، لأنه افترى على علماء المسلمين وزعم أنهم نفوا الكثير من كتب السنة الصحيحة، دون أن يثبت ذلك علميا.

ومن المعروف أن هذا هو أسلوب العقلية الحديثة ومنهجها، تريد أن تصد عن الحق وتبطله بعبارات طائشة طافحة مالها من قرار علمي ولا منهجي وتفعل ذلك بدعوى المنهجية والعلمية! لا سيما وأن الأمر يتعلق بأصل من أصول الدين، ومصدر من مصادره، أي السنة النبوية، التي تستلزمها شهادة أن محمداً رسول الله من الركن الأول من أركان الإسلام.

أما أحاديث الآحاد، فإن الاتجاهات العقلانية الحديثة على مذهب أسلافها المعتزلة وأهل الكلام، فإنها إذا كانت ترد المتواتر كما أسلفت فكيف بالآحاد؟

---

(١) أي البخاري والمسلم.

(٢) راجع تدريب الراوي للسيوطي ص١٣١.

فهم يرون أن حديث الآحاد لا يفيد العلم ولا اليقين وإن صح سنده، وكذلك لا تثبت به عقيدة عندهم، ولذلك رد أكثرهم أموراً كثيرة من أمور العقيدة.

وقد تزعم هذا الاتجاه العقلاني محمد عبده، ومحمود شلتوت، وأحمد أمين، ومحمد الغزالي، ومحمد عمارة.

ومن أخطر التوجهات الجديدة للعقلانية تشكيكهم بالضوابط والأصول التي اعتمدها أئمة الإسلام للجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف، ومناهج المحدثين في دراسة الأسانيد والمتون تلكم المقاييس العلمية والشرعية التي حفظ الله بها الدين والسنة، ثم دعوة هؤلاء المعتزلة الجدد إلى وضع ضوابط عقلانية جديدة للتمييز بين الصحيح والضعيف. . وما علموا أنهم بذلك حكموا على الأمة بأنها أجمعت على ضلالة وخطأ، وأنها لم تكن على الحق والسنة والدين المطلوب منذ القرن الأول إلى يومنا هذا.

ومن أبرز من ينزعون إلى هذا المنهج الهدّام: الدكتور حسن الترابي، ومحمد الغزالي، ومحمود أبو ريَّة، وأحمد أمين، والدكتور البطيري إسماعيل منصور.

ثانيًا: الصحابة وعدالتهم، (والتابعون والسلف الصالح):

وحيث إن القدح في الصحابة وعدالتهم، وسبهم، وفي التابعين والسلف الصالح، وأهل السنة أهل الحديث، يعد طعنًا في السنة[1]، لأنهم هم الذين نقلوها لنا عن رسول الله ﷺ، ثم دونوها، ودرسوها، ومحَّصوها، وبذلوا جهوداً جبارة، حتى أوصلوها لنا نقية صافية، نعرف صحيحها ونطمئن إليه، ونعرف ما دون ذلك بكل وضوح بأسلوب علمي شرعي تحقَّق به قوله تعالى: ﴿**إنا أنزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾، فهم الذين حفظوا لنا الحديث بإسناده، والإسناد من

(١) راجع مجموع الفتاوى لابن تيمية ص١٠٢ جـ٤.

الدين[1] وهم الأئمة العدول الذين قال عنهم النبي ﷺ: «**يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله**»[2]. لذلك أفردت لهذا الموضوع بحثًا تابعًا لبحث السنة.

إن المدرسة العقلية الحديثة حين تناولت حياة الصحابة وسلوكهم أفرادًا وجماعات، فإنها لم ترقب فيهم ذمة ولا وعهدًا، وكذلك التابعين، والسلف الصالح (أهل السنة والجماعة)، والمجتمع الإسلامي في القرون الثلاثة الأولىٰ الفاضلة بالأخص، الذين هم حملة الدين، وحماة الإسلام.

فقد أعملت الألسنة السليطة، والأقلام الحاقدة، وخاضت في الأعراض بشراسة وضراوة كماسنرىٰ، وكانوا في قدحهم في سلف الأمة بين الجاهل والمتحامل وصاحب الهوىٰ.

وأرىٰ - قبل أن أتناول هذا الموضوع بالتفصيل - أن أعرض لحق الصحابة وسلفنا الصالح - رضي الله عنهم أجمعين - كما هو في الكتاب والسنة - كما يجب علىٰ المسلم أن يعتقده نحوهم، وحقهم علىٰ المسلمين، بل علىٰ كل مسلم.

قال الطحاوي - رحمه الله - في العقيدة السلفية:

(ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بالخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان).

وقال شارح الطحاوية - رحمه الله -:

«وقد أثنىٰ الله علىٰ الصحابة هو ورسوله، ورضي عنهم، ووعدهم الحسنىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [١٠٠: التوبة].

---

(١) راجع مقدمة صحيح مسلم باب: الإسناد من الدين جـ١، ص١٤.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ ١٠/ ٢٠٩، وابن عدي في الكامل ١/ ١٥٣.

وقـــال تعـــالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [٢٩ : الفتح] إلى أن قال :

وقـال تعـالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٨ ، ٩ ، ١٠ : الحشر] .

وساق أدلة كثيـرة في ذلك[١] . . وقـال النبي ﷺ : **«لا تسبوا أصحابي»** الحديث .

وحيث إن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ هم رواة السنة النبوية ، وهم الذين حصلوا الدين وتحملوا نقله وتبليغه عن رسول الله ﷺ إلى الأجيال التي تلت من المسلمين ، وكان من الصعب على بعض العقلانيين الطعن في السنة النبوية مباشرة لقداستها ، بين المسلمين ، فقد ركَّزوا على القدح في الصحابة أنفسهم ، وبالأخص رواة الحديث للتشكيك في إسناد الحديث النبوي أو في متونه أو هما معًا . . إضافة إلى المآرب الأخرى الكثيرة التي تتحقق في اتهامهم للصحابة كما نرى .

وبما أن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ هو أكثر الصحابة رواية للحديث ، فقد تعرض للتجريح والسب من قبل العقلانيين أكثر من غيره ، كما كان تعرض له

---

(١) راجع شرح الطحاوية ص٤١٤ إلى ٤١٩ بتحقيق أحمد شاكر .

أسلافهم أهل البدع والافتراق والأهواء من الجهمية والرافضة ومن سلك سبيلهم.

فقيل عنه في كثرة روايته: إنه لا يُعقل أن يروي كل هذه الأحاديث التي رويت عنه من الرسول ﷺ، مع أن إسلامه متأخر.. أي قبل وفاة الرسول ﷺ بثلاث سنوات.. فلا بد أن يكون زاد من عنده أكثرها، وربما يكون استباح الكذب للمصلحة(١)..

وأن أحاديثه غريبة مفرطة في الغرابة، ويضربون مثلاً بحديث إدبار الشيطان عند الأذان..(٢) وغيره.

وأنه لم يسلم ولم يلازم رسول الله ﷺ إلا لملئ بطنه، فلم يكن - بزعمهم - همه حب الرسول ﷺ، ولا حب الإسلام، وأنه كان يوالي من يشبع بطنه كعبدالله ابن جعفر - رضي الله عنه -(٣).

وأنه كان تافهًا في عامة الصحابة، وكان بينهم لا في العير ولا في النفير على حد تعبير أحدهم..(٤)

هذا نموذج في قدحهم في نقلة الدين من الصحابة رضي الله عنهم، وقَلَّ من الصحابة، رواة الحديث أو غيرهم، من لم تتناوله العقلية الحديثة بقدح، جملة أو تفصيلاً.

(١) راجع (هذا هو الإسلام) - فاروق الدملوجي - ص٢٨، ٢٩، وراجع أضواء على السنة لأبي رية ص١٨٣، ١٩٤، ١٩٥.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) راجع أضواء على السنة ص١٩٧.

(٤) راجع أضواء على السنة ص١٩٥.

فهذا **فاروق الدملوجي** يرىٰ أن رجوع الناس في عبد المتوكل إلىٰ السنة نكبة لأنهم رجعوا إلىٰ ما قاله أبو هريرة، وابن عباس[1] ـ رضي الله عنهما ـ.

وتميم الداري رضي الله عنه: يتهمه محمود أبو رية بأنه وضع أحاديث الجساسة والدجال ونزول عيسىٰ[2].

فيقول: «مما بثه تميم الداري من مسيحياته، ما ذكره عن النبي ﷺ من قصة الجساسة ونزول عيسىٰ»[3].

مع العلم أن الرسول ﷺ أقر تميمًا علىٰ ما ذكره من حديث الدجال والجساسة، فيكون منسوبًا إلىٰ الرسول ﷺ، وبرواية صحابة آخرين غير تميم، فقد روته فاطمة بنت قيس، وجابر بن عبدالله، والنواس بن سمعان، وأبو سعيد الخدري، وحذيفة بن اليمان، وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين[4]، بأحاديث متفق عليها في البخاري ومسلم وغيرهما.

وكذلك نزول عيسىٰ عليه السلام، ورد في أحاديث صحيحة في البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة وجابر[5] ـ رضي الله عنهما ـ وحديث جابر في مسلم قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة. قال: فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال صَلِّ لنا. فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة»**[6].

(١) راجع هذا هو الإسلام للدملوجي ص٥٥.

(٢) راجع أضواء علىٰ السنة المحمدية للشيخ (محمود أبي رية) ص١٨٢ ـ ١٨٣.

(٣) المصدر السابق ص٨٢.

(٤) راجع جامع الأصول لابن الأثير الجزري ص٣٣٢ إلىٰ ٣٦١ المجلد العاشر.

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) صحيح مسلم «كتاب الإيمان» باب نزول عيسىٰ حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ ـ حديث (١٥٦).

إذن، فلا يتحمل تميم الداري ـ رضي الله عنه ـ تبعة ثبوت نزول عيسىٰ كما يزعم هذا الجاهل، فقد رويت عن غيره من الصحابة، وما دامت ثبتت في البخاري، ومسلم، والسنن، وصحت عند جمهور المسلمين، فلا اعتبار لكلام أبي رية وطعنه في صحابة رسول الله مع أنه يزعم ذلك دون دليل، وتلك عادة العقلية الحديثة.

وقد تولىٰ **الدكتور طه حسين** كِبْرَ الخوض في الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من جوانب عديدة:

فهو تارة يتهمهم بأنهم، حين طال عليهم الزمن بعد الرسول ﷺ فسدت بينهم الأمور وقاتل بعضهم بعضًا، وساءت بينهم الظنون، وهو يبدأ بالعشرة المبشرين بالجنة حين يقول:

«ولكن مع ذلك ألاحظ أن جماعة من أصحاب النبي قد حسن بلاؤهم في الإسلام حتىٰ رضي النبي عنهم وبشرهم بالجنة، أوضمنها لهم، ثم طال عليهم الزمن واستقبلوا الأحداث والخطوب، وامتحنوا بالسلطان الضخم العظيم، وبالثراء الواسع العريض، ففسدت بينهم الأمور، وقاتل بعضهم بعضًا إلىٰ أبعد ما يمكن أن يسوء ظن الناس بالناس، فما عسىٰ أن يكون موقفنا نحن من هؤلاء؟ لا نستطيع أن نرضىٰ عن أعمالهم جميعًا، فلا نلغي عقولنا وحدها، وإنما نلغي معها أصول الدين التي تأمر بالعدل والإحسان، وتنهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي»[(١)].

وفي أسلوبه هذا مبالغة وبهتان وتحامل وسوء أدب مع أناس زكاهم الله تعالىٰ، ورضي عنهم الله ورسوله.

ومع أن شهادة الرسول ﷺ ثابتة بالسنة الصحيحة، وباتفاق أهل السنة[(٢)]

---

(١) إسلاميات طه حسين ـ الفتنة الكبرىٰ، (عثمان) ص٦٨٩ ـ ٦٩٠ الطبعة الأولىٰ.

(٢) يراجع شرح الطحاوية ص٤٣٥.

للعشرة المبشرين بالجنة ـ رضي الله عنهم ـ لكنا نجد الدكتور طه يعبر عن ذلك بأسلوب المشكك الساخر حين يزعم أن الناس هم الذين يرون أن الرسول ﷺ شهد لهم بالجنة . . فيقول :

«العشرة الذين كان الناس يرون أن رسول الله ـ ﷺ ـ قد ضمن لهم الجنة» . .[1] (وسيأتي حديث العشرة المبشرين بالجنة) .

وتارة نجده يقسم مجتمع الصحابة إلىٰ فئات : طبقة ذات امتيازات خاصة (مادية نفعية ، ودينية مصطنعة) ، كأنه يصور للقارئ مجتمعًا رأسماليًا متناقضًا فيقول :

(هذا الصحابي الذي هاجر الهجرتين وشهد المشاهد مع النبي ثم أقام بعد ذلك في المدينة له استقراطيته الدينية ، وهذا القرشي أو العربي الذي أسلم بأخرة ، ثم أبلىٰ في الفتح بلاء حسنًا ، وامتاز بين الفاتحين له استقراطيته الدنيوية ، وهذا الصحابي الذي سبق إلىٰ الإسلام وهاجر لله ورسوله وشهد المشاهد مع النبي وامتاز بعد ذلك في الفتح ، له استقراطية الدين والدنيا جميعًا»[2] .

وهكذا نجده يصنف الجماعة الإسلامية الأولىٰ ـ التي زكاها الله تعالىٰ ـ تصنيفًا طبقيا ، وكأن الصحابة ـ علىٰ وصفه هذا ـ اتخذوا الإسلام مطية لاقتسام الحظوظ من الدنيا ولتَسنّم درجات الأرستقراطيات . ثم يصف الستة ـ أصحاب الشورىٰ ـ وكأنهم مجموعة من الانتهازيين ، كل منهم يتحين الفرصة ليثب إلىٰ الحكم ، حين يقول عن أصحاب الشورىٰ الذين عينهم عمر ـ رضي الله عنه ـ :

«ولم يكد المشيرون يجتمعون حتىٰ تبينوا الآفة الخطيرة التي كانت توشك أن تذهب بمجلسهم غير مذهب ، وهي ستة منهم كانوا مشيرين وكانوا جميعًا مرشحين للخلافة ، فلم يكن لهم بد من أن يحملوا أنفسهم علىٰ ما لم تتعود

---

(١) إسلاميات طه حسين ـ الفتنة الكبرىٰ (عثمان) ص٧٠٠ .

(٢) إسلاميات طه حسين ـ الفتنة الكبرىٰ (عثمان) ص٧٠٤ .

النفوس أن تحمل»(١). فالقارئ الجاهل، أو من لا خبرة له بأحوال الصحابة وحقوقهم في الكتاب والسنة، قد ينطلي عليه هذا البهتان، ويشعر أنه أمام أناس تحولوا من رجال أتقياء صالحين بشهادة الرسول ﷺ إلىٰ طلاب ملك ومكاسب شخصية.

ثم يقول:«يرىٰ كل واحد منهم أنه أقدر علىٰ احتمال العبء، وأجدر أن يرعىٰ ما ينبغي له من حق، وقد فوجئ المسلمون الذين كلفوا حراسة هؤلاء المشيرين مفاجأة أليمة حين رأوا هؤلاء المشيرين يختلفون في غير ائتلاف، ويتنافسون في غير وفاق، حتىٰ قال أبو طلحة رئيس الحرس: لقد كنت من أن تدافعوها أخوف من أن تنافسوها، كان رحمه الله من سذاجته وطهارة قلبه يرىٰ كما كان يرىٰ عمر أن الخلافة عبء ثقيل ينبغي أن لا يطمع فيه، بل ينبغي أن يرغب الرجل عنه إيثاراً للعافية في دينه ودنياه، ولكن المشيرين لم يكونوا يرون هذا الرأي، وإنما كانوا يرون أن الخلافة واجب يجب أن يتنافس المتنافسون في النهوض بأعبائه مهما ثقل تقربًا لله إن حسنت بهم الظنون» **ولاحظ ـ أخي القارئ ـ هذا الإشراك ومغزاه، وكيف حكم على قلوب هؤلاء الأخيار ونواياهم، وجعل إحسان الظن استثناء في حقهم.**(٢)

إلىٰ أن قال: «فقد كان علي يخاف أن يميل عبدالرحمن إلىٰ عثمان لصهر كان بينهما، وكان غير علي يخاف أن يميل عبدالرحمن إلىٰ سعد لقرابة كانت بينهما»(٣).

كما يصف بعد ذلك كبار الصحابة كذلك بقوله: «وأي غرابة في أن يعظم ثراء هؤلاء الناس من جهة، ويكثر أتباعهم وأشياعهم من جهة أخرىٰ، ويصبح

(١) إسلاميات طه حسين ـ الفتنة الكبرىٰ (عثمان) ٧٠٥.

(٢) إسلاميات طه حسين ـ الفتنة الكبرىٰ (عثمان) ص٧٠٥.

(٣) نفس المرجع السابق.

كل واحد منهم رئيس حزب من الأحزاب، يراه أحق الناس بولاية أمور المسلمين، وينتهز الفرصة ليمكن من ولاية المسلمين»[١] **وهكذا تصدر أحكامه الجائرة دون دليل ولا برهان، وأغلب الظن أن مستنده في ذلك أقوال المستشرقين وكتب التاريخ التالفة التي وضعها الوضاعون من الشيعة والإخباريين التالفين.**

ولست أدري من يقصد بهؤلاء الذين شكلوا أحزابًا في المسلمين، إنما يكفي أنه يعني بهم أناسًا من الصحابة رضوان الله عليهم! ويخص منهم العشرة المبشرين بالجنة. فهل كان الرسول ﷺ مجانبًا للصواب حين شهد لهم بالجنة؟ وأخطر من هذا فإن الله تعالى أقره على ذلك، فما هو ﷺ إلا مبلغ عن الله، ثم الشهادة لهم بالجنة تتعلق بالخاتمة، فهل علم هؤلاء أنهم بذلك يكذبون الله ورسوله ﷺ؟

ويقول طه حسين عن الوليد بن عقبة:

«وجملة القول أن الوليد إنما كان رجلاً من قريش أسلم إسلامًا ظاهرًا، واحتفظ بجاهليته كلها». .[٢] وقوله: «احتفظ بجاهليته كلها» تحامل لا مبرر له، وزعمه أنه أسلم ظاهرًا رجم بالغيب وحكم على القلوب، فيما لا يعلمه إلا علام الغيوب سبحانه، ولا دليل عليه، ولو قال ببعض خصال الجاهلية لكان الأمر أخف. . لأن الوليد بالرغم مما حصل منه من شرب وغيره فهو صحابي مات مسلمًا، ويعمه فضل الصحابة[٣]. . ».

وقال فيهم رسول الله ﷺ: **«لا تسبوا أصحابي»**..[٤] الحديث.

---

(١) إسلاميات طه حسين ـ الفتنة الكبرى (عثمان) ص٧١٨.

(٢) إسلاميات طه حسين ـ الفتنة الكبرى (عثمان) ص٧٣٤.

(٣) راجع أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ لابن الأثير ص٩٠ ـ ٩١ جـ٥.

(٤) من حديث رواه البخاري في باب فضائل أصحاب النبي ﷺ كما رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

وقال: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم**» . .[١] الحديث .

فبأي حق يتجرأ هؤلاء على سبهم دون حق أو علم أو دليل؟ فنحن نلاحظ أن الدكتور طه وأمثاله لا سند عنده، ولا دليل ولا حتى قرائن يعتمد عليها، حين أطلق تلك الأحكام الجائرة على أصحاب رسول الله ﷺ.

قال في تدريب الراوي عن عدالة الصحابة: «الصحابة كلهم عدول من لابس الفتن وغيرهم بإجماع من يعتد به» . . هذا نص التقريب، وقال السيوطي في الشرح:

«قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾ الآية [١٤٣: البقرة] أي عدولاً، وقال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [١١٠: آل عمران]، والخطاب فيها للموجودين حينئذ»، ثم ذكر قول إمام الحرمين: «والسبب في عدم الفحص عن عدالتهم أنهم حملة الشريعة، فلو ثبت توقف في روايتهم لانحصرت الشريعة على عصره ﷺ، ولما استرسلت سائر الأعصار . .»[٢] يعني أن الطعن في عدالة أحد من الصحابة نقلة الدين يعود إلى الطعن في الرسالة التي جاء بها النبي ﷺ والشك في الدين الذي تكفل الله بحفظه. فتأمل رعاك الله.

ونعود إلى أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ فقد كان هدفًا للعقلانيين، ومرضى القلوب من المنافقين والزنادقة . . وما ذاك إلا لأنه ـ رضي الله عنه ـ روى جزءاً كبيراً من السُّنَّة، وتُشكِّل أحاديثه نسبة كبيرة من الأحاديث الصحيحة . . لأنه كان ملازمًا للرسول ﷺ، كما كان قوي الحافظة ببركة دعوة النبي ﷺ، فقد ذكر أنه قال للرسول ﷺ: يا رسول الله، أسمع منك أشياء فلا أحفظها، قال: «**ابسط**

---

(١) ثبت ذلك في: أحاديث رواها البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود، والنسائي، راجع جامع الأصول جـ٨، ص٥٤٨.

(٢) تدريب الراوي ص٢١٤ جزء ٢.

رداءك» فبسطته فحدث حديثًا كثيرًا فما نسيت شيئًا حدثني به . .[١]

وقال له ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ: «كنت ألزمنا لرسول الله وأحفظنا لحديثه» . .[٢] ومن أكثر العقلانيين قدحًا وتهجمًا على هذا الصحابي الجليل **محمود أبو رية**، وقد أفرد له كتابًا أسماه «شيخ المضيرة»، وأكثر من ذلك في كتابه «أضواء على السنة المحمدية».

وهذه نبذة من أقواله فيه :

بعد أن ذكر أن أقوال الرسول ليست من الدين العام بحيث لا يعول إلا عليها وأن الصحابة كانوا ينقلون الرواية عن رسول الله، قال :

«وهذا الأمر قد دعانا إلى أن نفرد ترجمة خاصة لمن كان أكثر الصحابة تحديثًا عن رسول الله، وأوسعهم رواية . . على حين أنه كان من عامة الصحابة، وكان بينهم لا في العير ولا في النَّفير، ذلك هو أبو هريرة.

ولولا أن هذه الكثرة البالغة بفضل فقه الجمهور بها، وقد استفاضت في كتب الحديث، وأخذت مكان الاعتبار والتصديق من قلوب المسلمين، وسيطرت على عقولهم وأفكارهم، وجعلوها من عام دينهم على ما فيها من مشكلات تحار فيها عقول المؤمنين، وشبهات وخرافات تتخذ مطاعن على الدين، وأسانيد يتكأ عليها في إثبات الإسرائيليات والمسيحيات وغيرها من الملل والنحل . . لولا ذلك كله ما جرى بهذا البحث قلمُنا» . .[٣]

ثم هو يتهم أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ بأنه لم يصاحب رسول الله للمحبة

---

(١) أخرجه الترمذي ـ كتاب المناقب ـ مناقب أبي هريرة ـ الحديث رقم (٣٨٣٥)، وهو طرف من حديث قد أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ـ مناقب أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ رقم٣٨٣٦ . وقال: حديث حسن.

(٣) أضواء على السنة المحمدية لأبي رية ص١٩٥ .

والهداية، إنما لأغراض مادية، فيقول:

«كما كان صريحًا صادقًا في الكشف عن حقيقة نشأته[(١)]، فلم يقل إنه صاحبه[(٢)] للمحبة والهداية ـ كما كان يصاحبه غيره من سائر المسلمين ـ وإنما قال: إنه قد صاحبه على ملء بطنه». .[(٣)]

وقال فيه آخر:

«كذلك لا يوجد ذو عقل ودين يقبل من أبي هريرة أحاديث تخالف نصوص القرآن» إلى قوله: «ومن المعلوم أن أبا هريرة كان قد أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بنحو ثلاث سنوات، وعلى رواية من سنتين. من العجيب أنه روى من الأحاديث حول الحدود والفرائض والأحكام ما لو جمعت لزادت على ما روته الصحابة كافة، وكانت أحاديثه معظمها خيالية مفرطة وعلى جانب كبير من الغرابة كحديث الشيطان عند التأذين مثلاً»[(٤)] **ولست أدري لماذا ضاقوا بأبي هريرة رضي الله عنه وبما رواه، وقد دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكون أحد نقلة الدين عنه، لكن ربما لأن مروياته اشتملت على كثير مما لا يوافق أهواءهم.**

وخير ما نرد به على هؤلاء: قوله ﷺ: **«لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه»..**[(٥)].

وقد شهد له الصحابة ـ رضوان الله عليهم بالفضل.

---

(١) يعني أبا هريرة.

(٢) أي صاحب رسول الله ﷺ.

(٣) أضواء على السنة المحمدية ص١٩٧.

(٤) هذا هو الإسلام لفاروق الدملوجي ص٢٨، ٢٩.

(٥) البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ ـ باب قول النبي: لو كنت متخذًا خليلاً، ومسلم في فضائل الصحابة: باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، رقم (٣٢٢)، كما رواه أبو داود والترمذي.

فقال عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ : «كنت ألزمنا لرسول الله وأحفظنا لحديثه»(١) وجـاء في المستدرك عن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ : (. . . فإنه بينا أنا وأبو هريرة وفلان في المسجد ذات يوم ندعو الله تعالىٰ ونذكر ربنا خرج علينا رسول الله ﷺ حتىٰ جلس إلينا ، قال : فجلس وسكتنا . فقال : **«عودوا للذي كنتم فيه»** قال زيد : فدعوت أنا وصاحبي قبل أبي هريرة ، وجعل رسول الله ﷺ يؤمن علىٰ دعائنا ، قال : ثم دعا أبو هريرة فقال : اللهم إني أسألك مثل الذي سألك صاحباي هذان ، وأسألك علمًا لا ينسىٰ . فقال رسول الله ﷺ : **«آمين»** فقلنا : يا رسول الله ، ونحن نسأل الله علمًا لا ينسىٰ . فقال : **«سبقكم بها الدوسي»**(٢) .

أما ملازمته رسول الله ﷺ لفقره ومسكنته ، فهذا لا يعني أنه لا يحب رسول الله ﷺ ، والفقر ليس عيبًا يعاب صاحبه به .

أما كونه أسلم قبل وفاة الرسول بثلاث سنوات ، فإنها كافية لمثله أن يحفظ ما صح عنه من أحاديث عن رسول الله ﷺ . لأنه كان ملازمًا له ، وكان حريصًا علىٰ حفظ الحديث ، كما ذكرت في قول الرسول له : **«ابسط رداءك»** .

وهذا إقرار من الرسول ﷺ لأبي هريرة بالحفظ والتلقي من معين النبوة .

ودعوىٰ أنه روىٰ عن رسول الله ﷺ ما يخالف القرآن فتلك دعوىٰ لا دليل عليها ، فلا يلتفت لها ؛ لأن الأمة تلقت أحاديثه التي صحت عنه بالقبول ، أما ما وضعه عليه الوضاعون والعقلانيون القدامىٰ ، فلا يلتفت إليه ؛ لأنه عُرف ومُحِّص وأخرج من الصحيح .

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ـ مناقب أبي هريرة ـ حديث رقم (٣٨٣٥) .

(٢) رواه الحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . كتاب معرفة الصحابة ، في ذكر أبي هريرة الدوسي جـ٤ ص٥٠٨ ، وقال فيه الحافظ الذهبي في تلخيصه : (قلت : حماد ضعيف) (التلخيص للذهبي حاشية المستدرك) جـ٣ ص٥٠٨ .

وبعض العقلانيين قد يسب الصحابة بالجملة، فلم يسلم خيار الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من القدح والأذىٰ من أولئك.

يقول أبو شادي:

«ناهيك بغفلة أمثال أبي هريرة، وأنس بن مالك، وعبدالله بن عباس، وكلهم انتحلوا الحديث، وتأثروا بالإسرائيليات الغريبة، وراح ابن عباس المطعون في ذمته يزعم أن المعوذتين ليستا من القرآن».[1] ويقول الدملوجي أيضًا: «قبلوا من أبي هريرة وابن رزين وابن عباس، ومن اليهود الذين أسلموا ليفسدوا الشريعة الإسلامية»[2].

ومن الغريب أيضًا أن العقلانيين المعاصرين لا يثقون بشهادة الرسول ﷺ لبعض الصحابة بالجنة كالعشرة، وعباراتهم تنبئ عن الشك في هذا.

فمن عباراتهم:

قول الدكتور طه حسين في سعيد بن زيد أحد المبشرين بالجنة:

«مع أنه من العشرة الذين كان الناس يرون أن رسول الله ﷺ قد ضمن له الجنة»[3]. لقد أعمىٰ الله بصيرته كما أعمىٰ بَصَرَهُ! نسأل الله العافية.

كذا بهذه العبارة الباردة (كان الناس يرون) فهو يلقي تبعة القول علىٰ الناس، فلم يصدق بأن الرسول ﷺ بشرهم بالجنة، وأظنه يخاف أن يسخر منه المستشرقون وزملاؤه الآخرون من العقلانيين، حين يصدق خبر رسول الله فيهم.

ويتابعه زميله (أو تلميذه) أبو رية حين يقول:

---

(١) ثورة الإسلام لأحمد زكي أبو شادي ص١٧٤.

(٢) هذا هو الإسلام للدملوجي ص٢٧ ـ ٢٩.

(٣) إسلاميات طه حسين ـ الفتنة الكبرىٰ (عثمان) ص٧٠٠.

«كسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، كما يروون»[١] . .

ويقول عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ: «وسعد هذا من كبار الصحابة ومن العشرة المبشرين بالجنة كما يقولون[٢]».

وشهادة رسول الله ﷺ للعشرة المبشرين بالجنة ثابتة في السنة الصحيحة، وقد تلقتها الأمة بالقبول باتفاق أهل السنة، فقد روى أبو داود، والترمذي، وغيرهما، عن سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قوله: أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وإني لغني أن أقول عليه ما لم يقل فيسألني عنه غدا إذا لقيته ـ: **«أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة» وسكت عن العاشر، قالوا: ومن هو العاشر؟ فقال: سعيد بن زيد ـ يعني نفسه ـ**[٣] . . إلخ.

وقد اتفق أهل السنة وسائر المسلمين ـ عدا الرافضة ـ على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم . .[٤] فضلاً عن شهادة رسول الله ﷺ الثابتة لهم، وكفى بها.

وقد أيد الدكتور طه حسين أبا رية فيما ذهب إليه في كتابه «أضواء على السنة» من القدح في رواة الحديث النبوي من الصحابة والتابعين، وأنه لا تنبغي الثقة بتلك الأحاديث التي رووها؛ لأنهم من المحتمل أن تكون سرائرهم مدخولة.

---

(١) أضواء على السنة المحمدية لأبي رية ص٥٦.

(٢) أضواء على السنة المحمدية لأبي رية ص٥٥.

(٣) جزء من حديث رواه أبو داود في السنة ـ باب في الخلفاء، والترمذي في المناقب، وقال: حديث حسن صحيح، وقد صححه المحدثون (راجع جامع الأصول جـ٨، ص٥٦٠).

(٤) راجع شرح العقيدة الطحاوية ص٤٣٥.

فيقول عن الراوي للحديث أيّاً كان :

«وقد يكون الرجال الذين روىٰ عنهم حديثه صادقين مأمونين مثله يقبل القضاة شهادتهم إن شهدوا عندهم، ولكن سرائرهم مدخولة تخفىٰ دخائلها علىٰ الناس» . .[١] وهذا كلام لا يقوله إلا مغرض؛ لأن كون السرائر قد تكون مدخولة غيب لا يجوز لنا افتراضه في الدين، لأننا متعبدون بالظاهر، وبما نستطيعه، أما ما لم يبلغه علمنا فأمره إلىٰ الله، والعدالة هي الأصل في سائر الصالحين من المسلمين، فكيف بالصحابة والتابعين وخير القرون؟!

ويقول الدملوجي : «والغريب أن بعض المغالين من المحدثين قد قبلوا بعض الأحاديث مع مضاربتها نصوص القرآن، ويكفي عندهم أن يكون الرواة المحدثون ممن يعتقد بصحة رواياتهم، فقد وزن رجال الحديث زهد الرواة وصدقهم وإخلاصهم وتعبداتهم، ولم يزنوا أقوالهم ومطابقتها للقرآن، فطلبوا من أبي هريرة، وابن رزين، وابن عباس، ومن اليهود الذين أسلموا ليفسدوا الشريعة الإسلامية كل ما قالوه، عن حسن نية أو سوء قصد عن السيد الرسول ﷺ دون النظر إلىٰ مطابقته الموضوع لما هو موجود في القرآن، مكتفين بإخلاص المحدث وتقواه وتظاهره بالإسلام»[٢] . . **قلت: لقد رد الكاتب على نفسه من حيث زعم أنهم يروون ما يخالف القرآن، وهذا لم يقع من الرواة العدول بحمد الله. وكذلك قوله: مكتفين بإخلاص المحدث وتقواه وتظاهره بالإسلام، وهذه بغية كل باحث عن الحق فإذا توفرت هذه الصفات فحسبك بالراوي وروايته .**

ونرىٰ هذا الخلط العجيب، والجهل المطلق بمنهج السلف في الحديث، فهذا الكاتب يزعم أنهم يقبلون ما يخالف القرآن، وأن الرواة الثقات الزاهدين الصادقين أيضاً يروون ما يخالف القرآن. وهذا يوهم الجاهل بأنه صدق

(١) كلمة للدكتور طه حسين في مقدمة أضواء علىٰ السنة المحمدية لأبي رية ص١٠ .

(٢) هذا هو الإسلام ـ فاروق الدملوجي ـ ص٢٧ ، ٢٨ .

وحق، وهو من الباطل كما أسلفت، فأين ما رووه مما يخالف القرآن. عند التحقيق لم يوجد بحمد الله، وبهذا يعود سحر الساحر عليه.

لأن الواقع والصحيح خلاف ذلك، فإن رواة الحديث وعلماءه وكل المسلمين الذين على السنة لم يقبلوا من الروايات ما يخالف القرآن بهذا الإطلاق، كما بينت آنفًا.

إذن فقد ثبت أن الصحابة والتابعين وسائر الرواة العدول لم يحدث ـ ولم يثبت ـ أن أحدًا منهم روى ما يخالف القرآن وما ينبغي لهم، وما كذبه عليهم الوضاعون في ذلك قد مُحِّص وبُيِّن وعُرِف... لكن هذا شيء يقصر عنه علم العقلانيين، والذين في قلوبهم مرض، والمرتابين.

ومن أساليب العقلية الحديثة أيضًا: وصف المجتمعات الإسلامية الأولى بصفات سلبية جاهلية، وأنها كغيرها من المجتمعات الفاسدة، تمارس الرذيلة وتعايش المنكرات فيسبون أبناء الصحابة والتابعين والقرون الثلاثة الأولى الفاضلة، التي شهد لها الرسول ﷺ بالفضل، والتي أثبت التاريخ أنها خير مجتمع بعد الصحابة في الصلاح والاستقامة والعدل والإحسان، يصفونها بأنها مجتمعات مجون وانحلال.

يقول أحمد أمين عن تلك القرون الفاضلة:

«بجانب هذه الحياة الجليلة الوقورة التي تصفها لنا كتب طبقات المحدثين والفقهاء والمفتين، كانت تسود في الحجاز حياة أخرى هي حياة فرح ومرح وطرب وشراب، تصفها لنا كتب الأدب وخاصة كتاب الأغاني»..[1]

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين جـ١ ص١٧٦.

ثم يقول: «بالحجاز زهد، وورع، وتقوىٰ، وحديث، وفقه، وكان بالحجاز شراب وتشبيب بالنساء ـ حتىٰ في موسم الحج ـ ولهو، ولعب كثير».[١]

«فقد امتلأت مكة والمدينة وضواحيها بالمغنين والمغنيات حتىٰ روىٰ لنا أبو الفرج أن المغنين كانوا يخرجون إلىٰ الحج قوافل».[٢]

«وكان لمغني مكة مذهب في الغناء، ولمغني المدينة مذهب».[٣]

«والحق أن الحجاز كان غنيا بفَنَّي الغناء والمنادرة كما كان غنيًا بالفقه والحديث».[٤]

وأول ما يلفت النظر أن المؤلف اعتمد في كل هذا علىٰ كتاب الأغاني الذي يورد فيه صاحبه مما هب ودب دون إسناد ولا تحقيق ومما افتراه الزنادقة والفساق والإخباريون التالفون علىٰ السلف الصالح، وجعل من كذبهم حقائق علمية في زعمه.

وقد فعل مثل ذلك زميله الدكتور طه حسين حين قال عن التابعين وتابعيهم بإحسان:

«ورأينا أبناء أبي بكر، وعمر، وعثمان، وزهرة الشباب الهاشمي، مضطرين إلىٰ أن يحيوا في ضياعهم، فأما أكثرهم فانصرف إلىٰ اللهو والمجون وأما أقلهم فانصرف إلىٰ الدين والتلقي، ووقف فريق بين بين يحتفظ بمكانته الدينية، ويأخذ مع ذلك بحظه من متاع الحياة».[٥]

كذا بهذه اللهجة الاستشراقية وبهذا البهتان العظيم يزعم: أكثرهم انصرف

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) فجر الإسلام لأحمد أمين جـ١، ص١٧٧.

(٤) المصدر السابق.

(٥) حديث الأربعاء ـ طه حسين ص٢٤١ جـ١ طبعة ١٩٦٥.

إلى اللهو والمجون وأقلهم إلى الدين، إنه يقول هذا دون أن يثبت ذلك بدليل أو قرينة، ولا إخاله يستطيع ذلك؛ لأن التاريخ يثبت خلاف ذلك؛ فقد كان مجتمع أبناء الصحابة وأبنائهم هو من القرون الفاضلة التي جاهدت في الله حق جهاده، والتي حملت الدين وأقامته، وشيدت الدولة والحضارة الإسلامية الشامخة، وكان الصالحون فيهم هم الأكثر، والإسلام فيهم مهيمن، وكان الدين كله لله، وبالطبع أن يوجد بعض الفسقة، وأصحاب المجون، لكنهم قليل جداً وهم مخذولون أذلة صاغرون. ومما يدل على افترائهم زعم الدكتور نفسه أن الصحابي الجليل عبدالله بن جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ كان يرتاد مجالس المغنيات فيقول:

«ولعلك تعلم مكانة عبدالله بن جعفر، وهذا الجلال الديني الذي كان يحيط به، وأنه لم يكن يكره أن يسمع الغناء، ولا أن يختلف إلى مجالس المغنيات»[١] **وعلى أية حال أظنه من الخبل أن نطالب طه حسين وأمثاله بالدليل على ما يقول، لا سيما وقد أحالنا على بضاعته من كتب الأدب والتاريخ التي لا أصل لها، فقد كفينا بحمد الله.**

وبما أن أقوال العقلانيين المحدثين في الصحابة والتابعين والسلف وأهل السنة والجماعة وافتراءاتهم عليهم كثيرة، فإني أرى أن أسرد نماذج من تلك الأقوال ثم أرد عليها مجتمعة:

يقول طه حسين عن عصر التابعين والقرن الأول، وأول القرن الثاني:

«إن النتيجة الواضحة التي انتهت إليها هذه الفصول كلها هي أن هذا العصر الذي انحلت فيه الدولة الأموية، وقامت عليه الدولة العباسية، قد كان عصر شك وعبث ومجون، أو كان الشك والعبث والمجون أظهر مميزاته»[٢]..

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) كل أولئك هم الذين ترجم لهم طه حسين في كتابه «حديث الأربعاء» ومن ثم حكم بهم وبمجونهم وفسقهم على المسلمين في ذلك الحين!

كذا بهذا الأسلوب عصر التابعين وأبناء الصحابة وخيرة قرون الإسلام يحوله الدكتور طه إلى عصر شك وعبث ومجون، وإذا تنازل فالشك والعبث والمجون أظهر ميزاته. ونقول: سبحان ربنا هذا بهتان عظيم، إنه حكم على المسلمين كلهم من خلال سيرة الزنادقة، والماجنين، والفساق.[١] **أما علماء الأمة، وأئمة الدين الأعلام الذين زخرت بهم تلك الأزمنة، والذين كانوا هم أهل الحل والعقد في الأمة، وهم ربان سفينة المجتمع آنذاك، وهم القدوة الأعلام، فقد صاروا عند طه من سقط المتاع!**

ويقول أحدهم عن أهل السنة والجماعة:

«أما أصحاب المدرسة القديمة المحافظة وكان يرأسها أحمد بن حنبل فبقيت جامدة حول النصوص لا حراك فيها، فلم تقدم، ولم تؤخر، وكأنها بمعزل عما آثاره الدخلاء والمضللون والمفسدون الذين قبلوا الديانة الإسلامية مرغمين أو من الملل الأخرى من نصرانية ويهودية ووثنية وبقايا الزرادشتية والمانوية والمزدكية، وكانوا بمثابة المحافظين على السياسة والفلسفة والعلم والدين، فوقفوا عند النص لا يتزحزحون قيد شعرة من حرف ولفظ.. وعندما تغلبت هذه المدرسة القديمة على المتكلمين والمعتزلة في زمن المتوكل تبينت قواعدها **واستدامت** عقائدها، ولم تزل مستديمة في جمودها حتى يومنا هذا..»[٢].. ويقصد بالجمود: التمسك بالدين وبالمدرسة القديمة، أهل السنة، وقوله: لا تزال إلى يومنا. نقول له: ولن تزال إلى قيام الساعة تحقيقًا لقوله ﷺ: **«لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»**.. رواه البخاري ومسلم..[٣] وغيرهما بنحوه.

---

(١) راجع حديث الأربعاء ـ الجزء الأول.

(٢) هذا هو الإسلام لفاروق الدملوجي ص٣٦.

(٣) رواه البخاري في كتاب الاعتصام ـ باب قول النبي ﷺ **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين»**، ومسلم في كتاب الإمارة ـ باب قول النبي (ﷺ) **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا**

ثم يقول: «ونشط العلماء الرجعيون يحدثون بالروايات والمنقولات». .[(١)]

«فخنقوا حرية البحث والاستقراء وأعلنوا أن ليس لأحد أن يتعرض لأحكام الدين». .[(٢)] يعني بذلك أهل السنة.

ويقول أيضًا:

«ولم يكن بمقدور الحنابلة ورجال أهل السنة والجماعة المحافظون على أمانة النصوص والجامدون على المنقولات والروايات الصمود تجاه هذه التيارات العنيفة، كما لم يكن لديهم من الجرأة والشجاعة ما يمكنهم من الوقوف وقفة المدافع والمناضل عن حياض القواعد الإسلامية. .»[(٣)]. .

«وكان الأشاعرة ومن تمذهب بمذهبهم من أهل السنة والجماعة يلعنون الفلاسفة وأهل الفكر والمعتزلة ومن يذهب مذهبهم ويحرقون كتبهم تقربًا إلى الجمهور الجاهل، وزلفى إلى الله. وبهذه الطريقة النكدة انطفأت الآراء الحرة من رؤوس المفكرين فكانت السبب في سقوط العالم الإسلامي من شاهق عزه، ولم يزل منحدرًا لا يرتقي»[(٤)] وهكذا نرى هذا العقلاني المتهور يضيق ليس بأهل السنة **فحسب بل حتى من متكلمة الأشاعرة ويحشرهم مع أهل السنة.**

ويقول آخر:

«بقيت الأقطار المتخلفة مجترة معارف السلف المحدودة وتقاليدهم معرضة عن روح التقدمية العلمية الرفيعة فصارت أبعد ما تكون عن الإسلام»[(٥)]. .

يضرهم من خالفهم» حديث رقم ١٧٠.

(١) هذا هو الإسلام للدملوجي ص٥٠.

(٢) المصدر السابق ص٥٠.

(٣) المصدر السابق ص٥٢.

(٤) المصدر السابق ص٦١.

(٥) ثورة الإسلام ـ لأحمد زكي أبو شادي. ص٦٥.

ثم يقول: «أما القول باتباع السلف الصالح فسليم من ناحية المبدأ، وقد يكون خادعًا عقيماً أو ضاراً من ناحية التطبيق، إذا كان في أيد غير نزيهة تميل إلىٰ التلاعب، في حين أن الواقي من هذا الخطر الذي لا يأتيه الباطل من أمامه ولا من خلفه هو مذهب الأصولية العلمية»[1]. **وقد أنطقه الله بالحق وهو لا يشعر، فإن مذهب أهل السنة هو الذي يتحقق فيه هذا الوصف.**

ونذكره أن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو كتاب الله ووحيه فقط، وهو ما يتمسك به أهل السنة.

ويصف عبد الستار الراوي السلف بالتخلف والرجعية حينما قاوموا شيوخه وأسلافه المعتزلة فيقول عن ما أسماه (الحنبلية): «التي كانت من أشد التيارات السلفية عداء ورفضًا للاعتزال، وأكثر الفرق الإسلامية تخلفًا ورجعية(!) وقد اتسمت قيادتهم بالرعونة والفوضىٰ»[2] ويقول مفضلاً المعتزلة وسابّاً للسلف: «وبالقدر الذي أبداه معتزله القرن الثالث من الانفتاح الفكري، فإن السلفية (الحنبلية) لم تستطع أن تحلل ضرورة لجوء الاعتزال إلىٰ الفكر العالمي، وانفتاحه علىٰ فلسفته وخبراته المنهجية»[3].

وهكذا يذم الاستمساك بالوحي والتزام السنة، ويمدح اتباع الأمم الهالكة الذين حذر الله منهم ورسوله ﷺ.

ويقول محمد أحمد خلف الله:

«يجب أن نغير من أفكار هذا الإنسان ومن اتجاهاته وأساليب معيشته، وأن نستبدل قيمه السلفية بقيم أخرىٰ جديدة تمكنه من السير في مضمار الحياة علىٰ أسس من الحضارة العلمية الصناعية الحديثة وإلا ظللنا عاجزين علىٰ أن نحدث

---

(١) ثورة الإسلام ـ لأحمد زكي أبو شادي ص١٢٣.

(٢) العقل والحرية ص٣٤.

(٣) المصدر السابق ص٢٠.

أي تغيير في أسلوب معيشتنا فضلاً عن أن نحقق التقدم والرخاء» . .[١] **إن استبدال القيم** السلفية الإسلامية بقيم غربية جاهلية هدف أساس من أهداف المدرسة العقلية الحديثة، كما صرح الكاتب .

وهكذا تبدو حربًا سافرة على السلف الصالح وأهل السنة ؛ الصحابة ومن بعدهم، يتولى تسعيرها العقلانيون، والمستشرقون . وبعض من ينسبون للدعوة الإسلامية كالترابي الذي يزعم أنه ليس هناك فرق بين الصحابة وبين غيرهم في العدالة والرواية! وأنهم ليسوا كلهم عدول، ثم يلمز بعض الصحابة رضي الله عنهم[٢] .

ويقول محمد عمارة : «أما سلفية الاتجاه العقلاني المستنير فهي لا تدعو للعودة إلى مجتمع السلف لأنها تدرك استحالة ذلك فضلاً عن خطره وضرره . . . »[٣] وهكذا يزعم أن السير على نهج السلف الذي هو السنة مستحيل وضار كذلك .

ويزعم الترابي «أن أفكار السلف الصحيح ونظمهم قد يتجاوزها الزمن»[٤] ويسير على هذا الاتجاه محمد عمارة ومحمد الغزالي السقا حين سخر بكثير من الأحاديث الصحاح وسخر بأهل الحديث وكثير من علماء السلف .

وعلى كل حال : فإننا تبينا من خلال هذه النصوص القليلة عن بعض رواد المدرسة العقلية الحديثة، أنهم يقولون ويقدحون في أصحاب رسول الله ﷺ وفي التابعين والسلف الصالح، والقرون الثلاثة المفضلة الفاضلة ؛ لهوى في نفوسهم، وانحراف في عقولهم ؛ لأن العقل السليم لا يرضى بأن يقول شيئًا

(١) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة للدكتور أحمد محمد خلف الله ص٦١ .

(٢) انظر الرد القويم، للشيخ الأمين الحاج محمد أحمد .

(٣) تيارات الفكر الاسلامي لمحمد عمارة ٢٨٧، ٢٨٨ .

(٤) تجديد الفكر الإسلامي حسن الترابي ص٢١ .

يخالف الواقع، ويخالف الحقيقة الناصعة، ويخالف التاريخ الواضح، ويخالف الحقيقة العلمية التي يزعمونها.

فهم حين يقدحون في تلك القرون الفاضلة، يخالفون الشَّرع والعقل والعلم والإجماع والواقع والتاريخ، ولم يبق لهم إلا شبهات أساتذتهم المستشرقين، وإلا هوىٰ نفوسهم التي أظهروا أنها تكره الدين والإسلام ومن ثم تريد التشفي من حملته وأعلامه.

أما مخالفتهم للشرع فتتبين من مخالفتهم لآيات القرآن التي تزكي أصحاب رسول الله ﷺ. قال تعالىٰ: **﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾** [٢٩: الفتح]. وآيات كثيرة أخرىٰ.

كما وردت أحاديث كثيرة في تزكية الصحابة وتحريم سبهم في صحيح السنة عن رسول الله ﷺ ذكرت شيئًا منها قبل قليل.

كما أن هناك أحاديث في تزكية القرون الأولىٰ وهي صحيحة أيضًا.

وأذكر منها قوله ﷺ فيما رواه عمران بن حصين: **«خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»**. قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة..[1] الحديث.

أما العقل، فإنه لا يستسيغ أن يطعن في عدالة وتزكية وسلامة وصلاح مجتمع بأكمله توجد كل الأدلة علىٰ صلاحه وفضله وسبقه إلىٰ الخير والإيمان، بل أجيال متعاقبة وقرون، بمجرد ظنون أو من خلال سلوك أفراد منه كالزنادقة

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود، والنسائي. راجع صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢١١ وراجع جامع الأصول جـ٨ ص٥٤٧.

والمنافقين والفساق فأهل الأهواء والافتراق ونحوهم، في حين أن تاريخ الأمة بمجموعها يشهد لها بالصلاح بإجماع العالم، بل إن العقلانيين أنفسهم يعرفون أن مجموع الناس في ذلك الوقت ورواد العلم وقواد الجيوش والولاة كلهم في جملتهم مسلمون صالحون متمسكون إلا النادر الذي لا حكم له.

أما الإجماع فهو لم يكن من المسلمين فحسب، بل شهادة عقلاء الكفار بذلك معلومة، . . بل إن الأمم كلها تشهد بأن المسلمين في قرونهم الأولىٰ علىٰ الأقل خير مجتمع سعدت به الدنيا، وإن كانوا يأخذون عليهم مآخذ جزئية في بعض الأمور الاعتقادية التي يخالفهم بها أهل الأديان الأخرىٰ. لكنهم يشهدون للأمة الإسلامية بالفضل علىٰ البشرية.

أما المسلمون بشتَّىٰ فرقهم كأهل السنة والمعتزلة والشيعة المعتدلة **(إن صح التعبير)**. . فهم لا خلاف بينهم أن القرون الثلاثة الأولىٰ هي خير القرون، وأفضلها.

كما أن الله أمرنا باتباعهم وسلوك سبيلهم، هم وسائر المؤمنين المخلصين، الذين يتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله فقال تعالىٰ: **﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾** [**١١٥: النساء**].

فيجب علىٰ كل مسلم موالاتهم[1]، وخصوصًا العلماء منهم، وسائر الذين قدحت فيهم العقلية الحديثة والقديمة، **إنما هم خيرة علماء الأمة وأعلامها، وتلك مصيبة!**

فالقدح فيهم ـ لا سيما الصحابة وعلماء السنة ورواتها ـ يكون قدحًا في دين الله (الإسلام) **لأنهم هم الذين نقلوا لنا السنة العملية والقولية**، بل القرآن نفسه إنما جاءنا عن طريق الصحابة ثم التابعين وهكذا. . فقد توفي رسول الله والقرآن في صدورهم وعسبهم وأوراقهم وصحائفهم.

---

(١) راجع شرح العقيدة الطحاوية ص٤٣٩.

وحين تكفل الله بحفظ الذكر وهو القرآن والسنة (أي عموم الوحي والشرع). . فإن ذلك يستلزم تزكيتهم وعدالتهم وصلاحهم؛ لأنهم هم الذين حفظ الله بهم الذكر.

والعقلية الحديثة، والقديمة قبلها، حين تحاول إسقاط حجية السنة بهذه الوسائل والأساليب الرديئة فإنها كناطح صخرة، ليوهنها بأنامله ولا أعجب وأغرب من كونهم يفعلون ذلك، زاعمين أنهم إنما يسلكون طريق الموضوعية والعلمية، والعلمية والموضوعية منهم براء.

ومما يبرهن على أن بصائر هؤلاء العقلانيين عمياء، وقلوبهم مقلوبة، وأمزجتهم فاسدة بالأهواء: أنهم حين يرد ذكر أئمة الضلالة من الجهمية، والمعتزلة، والفلاسفة، والباطنية، والزنادقة وأهل المجون، نجدهم يرفعون عقيرتهم بالمدح والثناء عليهم وتمجيدهم والتأسف لما حصل لبعضهم من إقامة حدود الله فيهم، وحين يذكر الصحابة أو بعضهم أو أئمة الدين أو أحدهم يشرعون بالسب والاستنقاص والشتم والسخرية ويضيقون بهم ذرعًا. واسمع قول الله تعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾. واسأل ربك العافية فإن الهداية موهبة من الله تعالى يختص بها من يشاء من عباده، وأن من ضل وأتبع هواه لا ينفعه علمه ولا ذكاؤه ولا مواهبه ولا عقله ولا ثقافته ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [٤١: المائدة].

* * * * *

المبحث الثامن

مزاعم المدرسة العقلية في الإيمان بالملائكة والمخلوقات الغيبية الأخرى

أخبرنا الله تعالىٰ في كتابه الكريم، وأخبرنا رسوله ﷺ في السنة الصحيحة، عن وجود مخلوقات أخرىٰ ـ غير هذا الإنسان ـ في هذا الكون، لها صفات، وأعمال وواجبات، وحركات، وجوارح، ووظائف وتكاليف.

وأن هذه المخلوقات أيضًا، تسمع، وتتكلم، وتقول، وتمشي، وتهبط، وتعرج، وتوالي، وتعادي، وتطيع، وتعصي، وتهتدي، وتضل، وتموت، وتبعث، وتُجزىٰ بالإساءة والإحسان.

وغير ذلك من الصفات التي لابد أن تكون لكائنات حية عاملة متصرفة، ومن هذه المخلوقات: الملائكة، والجن، وإبليس، والشياطين.

وأخبارها متواترة بالكتاب والسنة، ووجودها من المعلوم من الدين بالضرورة بإجماع المسلمين، فإنكارها كفر صريح.

وحيث إن هذه المخلوقات ـ التي أخبرنا الله ورسوله بها ـ مخلوقات غيبية نؤمن بها، ولا نعرف كنهها، ولا تدركها حواسنا، ولا عقولنا، فقد أمرنا بالكف عن الخوض فيها، كغيرها من أمور الغيب المحجوبة ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [٦٥: النمل]، وقال: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [١٨٥: البقرة]، وقال عن إبليس والشياطين والجن: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ [٢٧: الأعراف، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥٦: الذاريات]، وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [٦: فاطر]، وقال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [١٢١: الأنعام].

وحيث إن الاتجاهات العقلية تُحكِّم العقول في النّص، بل إن العقلية الحديثة تُحكِّم العقلية الغربية (الوثنية الحديثة) في كتاب الله وسنة رسوله وفي الإسلام، ولا تأخذ ما جاء من عند الله وصح عن رسوله بالتسليم والإيمان والإذعان والاطمئنان، والرضا، حتى تعمل فيه أفكارها بمقاييس البشر المادية القاصرة، فلم تذعن لِمَا ورد في القرآن وصحيح السنة في شأن الملائكة والجن والشياطين، وإبليس، فأخذت تخوض في آيات الله بغير علم.. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [١٩ : ٢٠ الزخرف].

وقد سلكت العقلية الحديثة في الخوض في آيات الله التي وردت بشأن هذه المخلوقات مسالك شتى، بالإنكار حينًا ـ وهذا قليل ـ وبالتحريف والتأويل، وبالتشكيك وإثارة الشبه حينًا آخر، وهذا هو الغالب كما قال سبحانه عن هذا الصنف: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [٧ : آل عمران].

وقال الله في حق هؤلاء وأمثالهم: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [٦٨ : الأنعام]، وقال: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [١١٩ : الأنعام]، وقال: ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [٣٦ : الإسراء]، وقال: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا ﴾ [٨٤ : النمل].

فوصفوا الملائكة والجن والشياطين بصفات سلبية عَدَمِيَّة هي إلى التأويل الفاسد أو الإنكار والتشكيك أقرب منها إلى الإثبات والتسليم، كل ذلك انهزامية أمام موجة الإلحاد والتشكيك التي جاءت مع الجاهلية الغربية الحديثة والقديمة، والتي لا تؤمن بالله ولا بملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا اليوم الآخر، فَحَكَّموها في عقيدتنا، وكتاب ربنا، وسنة رسولنا ﷺ باسم العلم والتَّنور، وباسم البحث العلمي والموضوعية، وباسم المسايرة للركب، وباسم الحرية الفكرية، وغير ذلك

من الشعارات المُضلِّلة.

وأنا لا أعجب حين يقع أولئك المنهزمون ـ من صنائع الغرب، وأنصاف المثقفين، الذين يقدسون العلم والعلمانية ـ في الخوض في آيات الله بغير علم ولا هدىٰ ولا كتاب منير، إنما أعجب كل العجب، حين أرىٰ علماء ينسبون للعلم الشرعي ويدَّعون أنهم يعرفون الإسلام وعقيدته ويدافعون عنه ويحترمونه ويؤمنون به ثم هم يقعون في هذا الشراك، أمثال الشيخ محمد عبده، وكثير من تلاميذه ورواد مدرسته.

إن الشيخ محمد عبده يعتبر من أوائل العلماء المسلمين الذين تعرضوا في العصر الحديث لتأويل نصوص القرآن لتتفق مع النظريات الغربية خاصة ما يتعلق بأمور الغيب كالملائكة، والجن، والقصص، والمعجزات، وأحس أنه إذا عرض لتفسير هذه الأمور ـ خاصة في تفسيره الذي نقله عنه تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا (في تفسير المنار) ـ أحس أنه يقع في تناقض واضطراب ومراوغة بين الالتزام والتأول..[1] وكأنه يشعر برقيب من العلم الحديث، أو لعله كان يريد المصالحة والتقريب بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون، لكنه ـ كما عبر الشيخ مصطفىٰ صبري في كتابه (موقف العقل)[2] ـ قرَّب المؤمنين إلىٰ الإلحاد خطوات، ولم يقرِّب الملحدين إلىٰ الإيمان خطوة.

فقد أخطأ في هذا المسلك وانحرف منهجه، لذلك ـ مع الأسف ـ اتكأت عليه الاتجاهات العقلية الحديثة ـ بصفته عالم ومصلح من مفكري المسلمين ـ وَحَمَّلته ما تحمَّله وما لم يتحمله..[3] فاتخذت من تأويلاته لبعض الغيبيات قاعدة

---

(١) راجع علىٰ سبيل المثال: تفسير المنار ـ المجلد الأول من ص٢٦٤ إلىٰ ٢٦٩، ومن ص٢٨٠ إلىٰ ص٢٨٣ وص ٣٥١ ـ وتفسير سورة الفيل من تفسير جزء عم ١٥٥.

(٢) راجع موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين للشيخ مصطفىٰ صبري جـ١ ص١٣٣، ١٣٤.

(٣) من الذين استندوا إلىٰ آراء الشيخ محمد عبده في آرائهم الشاذة: محمد أحمد خلف الله، ومحمود أبو رية، وغيرهما.

ومنطلقات لشبهاتها وتحريفاتها للنصوص ـ خصوصًا في الغيب ـ بغير علم، فصنعت من الحبة قبة تجاه آراء الشيخ الذي يسمونه الإمام.

بل الأخطر من ذلك أن تلاميذه المباشرين أو المتأثرين بدعوته الموصوفة بـ **(الإصلاحية)** أكثرهم من رواد الاتجاهات العقلية الحديثة، وممن لهم أدوار لا تحمد في مختلف شعب الحياة العلمية والعملية في تاريخ الإسلام الحديث وفي قلب حقائق الإسلام وعزله عن الحياة: **أمثال:**

١ ـ قاسم أمين: في تحرير المرأة، وقد خالف الإسلام، ودعا إلى ما يفسد الأخلاق والأسرة، خاصة دعوته إلى التبرج.

٢ ـ وسعد زغلول في السياسة.. رفع شعار الوطنية الجاهلية.

٣ ـ ومحمد أحمد خلف الله: في رمي القرآن بحكاية الأساطير، وشبهاته، وتحريفه لآيات الله، وحقائق الإسلام في كتابيه (القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة)، و(الفن القصصي في القرآن) وغيرهما.

٤ ـ ومحمود أبو رية: في طعنه في السنة وحجيتها، وتكذيب الصحابة، والإساءة إليهم، ودعوته إلى اعتبار الكفار مسلمين في كتابه (دين الله واحد).

٥ ـ وعلي عبد الرازق: في نظام الحكم، والقضاء والخلافة، وفصل الدين عن الدولة.

٦ ـ وأحمد أمين: في جوانب كثيرة، أهمها تحريف التاريخ الإسلامي، والفقه والأخلاق.

٧ ـ ومحمد حسين هيكل في السيرة والمعجزات (حيث أنكر بعضها)، وتابع المستشرقين في شبهاتهم باسم العلمية. وكل من هؤلاء جعل الشيخ محمد عبده رائده وقدوته ومتكأه بحق حينًا، وبغير حق في أكثر الأحيان..

*ولنرجع إلى موضوعنا ـ بعد هذا الاستطراد الذي أراه ضروريًا بهذه المناسبة ـ لنرى بعض آراء الشيخ في الملائكة والجن، وهي التي تهمنا هنا.

إن الشيخ محمد عبده عندما عرض عقيدة السلف في الملائكة، ذكر بعده آراء العقلانيين من الفلاسفة ونحوهم بأن الملائكة هم نوازع الخير.. ثم انتصر لهذا الرأي وبين أنه ليس من المستبعد أن يسمي الله تعالىٰ الأفكار والخواطر التي تدفع إلىٰ الخير ملائكة..[١] وكذلك الشيطان يحتمل أن يكون هاتف الشَّر..[٢]

وكذلك يميل إلىٰ تأويل قصة آدم وسجود الملائكة له وقصته مع الشيطان في الجنة بأنها من قبيل التمثيل لا الحقيقة..[٣] وقد مر هذا في فصل الوحي والقرآن.

ويرىٰ أن الميكروبات من الجن..[٤] ويقول محمد رشيد رضا في مجلة المنار: «وقد تقدم لنا في المنار أن هذه الميكروبات من الجن»..[٥]

كما أن الدكتور محمد البهي أيضًا تناقض وأخطأ، حينما فسر الجن تفسيرات غريبة وطريفة، فهو أولاً: سماهم العالم غير المرئي حينما قال: «قوله تعالىٰ: ﴿**لئن اجتمعت الإنس والجن**﴾ أي العالم المرئي والعالم غير المرئي من مخلوقات الله»..[٦]

وهذا تفسير لا يستند إلىٰ دليل، فالعالم المرئي فيه غير الإنس، ومنه ما لم يكلفه الله، وكل عالم الشهادة مرئي.

وكذلك العالم غير المرئي فيه غير الجن كالملائكة وغيرها من مخلوقات الله، وسائر عالم الغيب غير مرئي.. أفيكون عالم الغيب كله من الجن؟ هذا ما لا دليل عليه.

---

(١) راجع تفسير المنار ص٢٦٧ ـ ٢٦٨، ٢٦٩. وراجع أيضًا منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن لعبدالله شحاتة ص٥٤، ٨٥، والفكر الإسلامي المعاصر لغازي التوبة ص٤٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) راجع تفسير المنار ـ المجلد الأول ص٢٦٤ ـ ٢٦٧.

(٤) راجع تفسير المنار ـ المجلد الثالث (المنار) ص٩٦.

(٥) راجع مجلة المنار ـ المجلد السابع ـ عدد ١٦/ ٩/ ١٣٢٣ ص٧٠٦.

(٦) راجع تفسير سورة الجن ـ للدكتور محمد البهي ص٧.

ثم إن الله تعالىٰ خاطب الإنس والجن هنا علىٰ سبيل التحدي، بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهذا شيء لا يخاطب به إلا المكلفون، وليس كل العالم المرئي وغير المرئي مكلفًا.

ثم يذهب الدكتور البهي إلىٰ أنه يدخل في عالم الجن: من يتخفىٰ من عالم الإنسان في إيمانه وكفره، وفي خيره وشره، باعتبار أن هذا الذي يتخفىٰ غير ظاهر، وغير مرئي.

* وأن شياطين الجن من بني الإنسان.

* وكذلك الشرِّير من الناس هو من عالم الجن!

* والذي يتخفىٰ في إيمانه، إنما هو من عالم الجن!

* والجن الذين استمعوا للقرآن، إنما هم من الإنس!

* وأن البشر وحدهم، هم المكلفون بالرسالة، أما الجن فهم غير مكلفين![١]

فيقول: «والجن موجود قطعًا.. وهم قوىٰ مخلوقة من نار صافية.. لذا كانوا قوىٰ روحية، وعالم الجن قائم إلىٰ يوم البعث، لا مرية في ذلك»[٢].

أما موجوداته الأصلية فهي طبائع الملائكة، وهي العناصر الخيرة المطيعة، وطبيعة إبليس كذلك، وهو العنصر الشرير فيها.. وهو قد وصل إلىٰ الشر بعد أن عصىٰ ربه، فلم يسجد لآدم كما سجدت جميع الملائكة عداه معتزًا بأنه خلق من نار، بينما آدم خلق من طين..[٣]

ويقول:

«ويدخل في عالم الجن ـ ملحقًا بطبائعه الأصلية ـ من يتخفىٰ من عالم

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ص٨.

الإنسان في إيمانه وكفره، وفي خيره وشره. . باعتبار أن هذا يتخفى غير ظاهر وغير مرئي، وذلك كشياطين الجن، فإنهم من الإنسان يخفون شرهم وكيدهم لدين الله». . [١]

ويقول:

«ومثل هذا الفريق الشرير من الناس في إلحاقه بعالم الجن لتخفيه في الكفر والإيذاء والإغراء: فريق آخر من الناس أيضًا تخفى في إيمانه ولم يظهر في تعرفه على الهداية تبشيره بالدعوة لدين الله، وهو هذا الفريق الذي أعلن عنه الوحي في سورة الجن في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ ..[٢] الآيات [١: الجن].

وكذلك في سورة الأحقاف في قوله القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [٢٩: الأحقاف]، أي من العالم غير المرئي، ولكن ليس من القوى النارية. . [٣] إلى أن قال: «فهذا الفريق الذي تخفى ولم يكن معروفًا للمكيين، حتى كذلك لرسول الله ﷺ، عند سماعه القرآن بمكة، ثم في إيمانه وفي دعوته وتبشيره بين قومه. . وهو من البشر وليس من القوى النارية»[٤].

ثم ساق الدكتور البهي حججه التي في زعمه تدل على أن الجن الذين ورد ذكرهم في القرآن في سورتي الجن والأحقاف. . إنما هم من بني الإنسان!

وأهم أدلته: ما يزعمه بأن «البشر وحدهم هم المكلفون باتباع رسل الله»[٥] فيقول:

---

(١) المصدر السابق ص٨، ٩.

(٢) المصدر السابق ص٩.

(٣) المصدر السابق ص٩.

(٤) المصدر السابق ص١٠

(٥) المصدر السابق ص١٠.

«فرسالة الله بما فيها من دعوة إلى الإيمان بوحدة الألوهية، وبما فيها من وعد المؤمن، ووعيد لمن بقي على كفره، هي للناس وتعاليم الإنس، وليست لتلك القوى الأخرى التي خلقت من نار، وهي: الملائكة التي توجد في العالم الثاني، وهو العالم غير المرئي، أو عالم الجن». .[1]

ويقول في موضع آخر: «شياطين الجن وهم من البشر تخفوا ويتخفون في مباشرة الشر للناس». .[2]

وظل المؤلف يؤكد هذه المزاعم بتحريف آيات الله، وتأويلها بما لا تحتمله.

وعلى أية حال. . فإن في هذا مخالفة لدلالة نصوص القرآن والسنة وإجماع المسلمين، كما سأبينه ـ إن شاء الله ـ بعد سرد مجموعة من آراء العقلانيين حول هذا الموضوع.

ويذهب سيد أمير علي إلى أن المقصود بالملائكة بعض مبادئ الطبيعة فيقول: «**إن ما نعتبره بعض مبادئ الطبيعة**، كان أسلافنا يعتبرونه ملائكة. .»[3]. .

وقوله: «كان أسلافنا» تجاهل لأن الله تعالى هو الذي أخبر أسلافنا وأخبرنا بالملائكة ولم يأتوا من عندهم بعلم من الغيب.

ثم يرى بعد ذلك أن إيمان المسلمين بالملائكة (وهو ركن الإيمان) ولّد كثيراً من الخرافات، إذ يقول:

«والحق أن الاعتقاد بالملائكة والشياطين، وقد ولد كثيراً من الخرافات في كلتا الديانتين: الإسلام، والمسيحية، فالقديسون والملائكة يحاربون مع المسيحي، أما

---

(١) المصدر السابق ص١١.

(٢) راجع المصدر السابق ص١٧.

(٣) روح الإسلام ص٧٨ ـ سيد أمير علي.

المسلم فهو يقبل مساعدة الملائكة في معارك الحياة» . .[(١)]

وكأنه ينعىٰ علىٰ المسلمين سذاجتهم وبساطتهم في قبول مساعدة الملائكة! ولم يعرف أن المسلمين لم يكن يدور بخلدهم هذا، لولا أن الله قال لهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [١٢: الأنفال] **وأعجب ولا ينقضي عجبي: هل هؤلاء لم يقرؤوا القرآن؟! أم على قلوب أقفالها؟.**

بل إنه يتهم عقول أصحاب محمد ﷺ حين يقول: «ولا مندوحة من القول إن عقول أصحاب محمد كالمسيحيين الأولين، ترىٰ مشيئة الله تتدخل في كل صغير وكبير من أمورهما فينسبون إليها كل ما يقع معهم من شؤنهم العامة والخاصة، وقد بدت تلك الريح والسهام التي نقلتها نصراً من الله فكأن الملائكة كانت تحطهم الريح ليلقوا الرعب في قلوب الكفار» .[(٢)]

ويبدو أنه يريد أن يقول: تحرر المسيحيون المعاصرون من هذه العقيدة، فلم لا يتحرر المسلمون؟ هذا مفهومٌ لازمٌ لكلامه.

وإذا كانت هذه آراء المفكرين والمثقفين وبعض المحسوبين من علماء المسلمين في العصر الحاضر فكيف بآراء المتطفلين علىٰ علوم الشريعة، وعلوم العقيدة من أشباه العلماء وأنصاف المثقفين؟ **مثل أبي زيد صاحب التفسير المسمى «الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن»** . .[(٣)]

الذي يفسر الملائكة بالنظام وعالم السنن . .[(٤)]

---

(١) المصدر السابق ٧٩.

(٢) المصدر السابق ص٧٧.

(٣) راجع تقرير اللجنة الأزهرية التي شكلت للرد علىٰ المذكور (أبو زيد) صاحب تفسير الهداية والعرفان في تفسير القرآن ـ المنشور في مجلة نور الإسلام (المجلد الثاني) الجزء الثالث عدد ربيع الأول لعام ١٣٥٠هـ ـ الصفحات ٢٠٠ إلىٰ ٢٠٣.

(٤) المصدر السابق.

وسجود الملائكة لآدم بالتسخير له . .[1]

وأن إبليس اسم لكل مستكبر على الحق، ويتبعه لفظ الشيطان . .[2]

والشياطين هم المستكبرون، دعاة الشر، والثعابين، والحيات . .[3]

والجان النوع المستعصي على الإنسان تسخيره، والنوع الذي إذا قابلته يؤذيك . . والجن يطلق على النوع الخفي والظاهر القوي، ومن كل شيء أوله ومقدمته، وجن الجيش قواده، والإنسان هم طائعوه، ومرؤوسوه! . .[4] والجن أيضًا السادة والكبراء (والشياطين كل بناء غواص) (٣٧ ص) الصناع الماهرون والأشقياء والمجرمون . .[5]

قلت: وعلى هذا الرأي يكون سادة الأمة وكبراؤها هم الجن والشياطين!

أما صادق جلال العظم، فنراه يقطر خجلاً حين يعتقد المسلم في النصف الثاني من القرن العشرين« بوجود كائنات مثل الجن وإبليس، وجوداً حقيقيًّا غير مرئي» . . ولأنه يحق له أن يعتقدها كائنات أسطورية، مثل آلهة اليونان، وعروس البحر والغول والعنقاء» . .[6] لا صك فوه!

ويذكر العقاد أن بعض العقلانيين يعتقد أن الشيطان إنما هو «عوامل الوعي الباطن التي نسميها الغيرة، أو الكبت أو العقد النفسية أو علل الشخصية السقيمة أو ما شابه هذه الأسماء»[7] . . إذن على هذا الرأي الشياطين ساكنة في كل إنسان!

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) عن كتاب مفتريات على الإسلام ـ لمحمد أحمد جمال، ص٢٣٩.

(٧) راجع إبليس ـ للعقاد ص٢٢٢.

ويرىٰ عبدالجبار الوائلي في كتابه وحدة الوجود العقلية أن الشيطان هو «العواطف السلبية وحدها» . .[(١)] «فمجموعها هو الشيطان الأكبر وأبناؤه العواطف علىٰ انفراد» . .[(٢)]

بل إن العقلية الحديثة نصبت نفسها ـ متأثرة بموجة الحرية العالمية ـ محاميًا ومدافعًا عن الشيطان(إبليس) بدعوىٰ أنه مظلوم ومهضوم الحق حين كُتِبَتْ عليه اللعنة والطرد، وليس له ذنب . . إلا أنه استعمل حقه في حرية الفكر وحرية الاعتقاد، وأبىٰ أن يسجد لآدم حين أمره الله . . لأنه كان يعتقد أنه خير منه فإن كان حرم هذه الحرية في عصور الهمجية، فلا ينبغي أن يحرم من حرية القرن العشرين ! ! .

يقول عبدالعظيم مصطفىٰ سعد في كتابه : البعث، أو معنىٰ الروح، بعد أن ذكر قصة آدم عليه السلام، وأمر إبليس في السجود له «بأن السجود[(٣)] أو الطاعة لآدم أو لواحد من بنيه أمر يدعو إلىٰ الاستغراب» . .[(٤)]

فيذكر أن الشيطان ذكي ويعتز بنفسه، وأن الله لم يفضل عليه آدم، إنما تخلىٰ عن هذه المسئولية :

«وأنه تعالىٰ قد جرب بنفسه ذكاء الشيطان ومقدار اعتزازه بشخصه، وكان ما كان وترك ابتلاء بني آدم للشيطان، علىٰ سياسة التخلي[(٥)] عن المسئولية في

---

(١) راجع وحدة الوجود العقلية (كتاب) لعبد الجبار الوائلي ص٢٠٣، ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) يلاحظ أن المؤلف يحذف (الـ) التعريف في كثير من أسماء المعرفة مثل السجود، الطاعة، الشيطان، الجنة، النار، إلخ في أكثر الأحيان، فزدتها من عندي .

(٤) البعث، أو معنىٰ الروح، لعبد العظيم مصطفىٰ سعد ص٢٠ .

(٥) فكرة التخلي عن المسئولية التي أشار إليها الكاتب هنا، فكرة وثنية تقول : بأن الله لما خلق الخلق استراح وترك الكون تتنازعه الآلهة ـ علىٰ حد زعم المشركين ـ تعالىٰ الله عما يقولون علواً كبيراً .

المفاضلة بين قوم وقوم». .[1]

وأن تسميته بالشيطان عرف خاطئ، فهو أقل من ابن آدم. . . لأن ابن آدم سجد لفرعون، بينما هو لم يسجد لآدم. .[2]

ثم يقول ما نصه: «وإن أمره بالسجود وضع شاذ في الدين، وإلا فكيف يطيعه وهو على ثقافة أرقى ويتمركز في سمته في السماء». .[3] «وامتناعه عن السجود لا يسمى عصيانًا! ولا يؤاخذ على شعوره بالأفضلية لوجوده في تكوينه»[4].

ثم هو يعتذر للشياطين، ويعتذر منهم أيضًا حين يقول: «وبعد نيل الإنسان قسطًا من التربية والتعليم، وطريقًا يعيش به على منهج صالح في الحياة هنا، يمكن أن نقول إن الشيطان كان على خطأ في التفكير فقط، وإعداد الجواب. . وخطأ فكري كهذا لا يعاقب عليه دين أو قانون». .[5] «وبعد هذا الشوط البعيد المدى في المدنية والثقافة يجب أن نتخلص من عداوة ذكرت لنا ولهم في كثير من آي القرآن». .[6] **سبحان الله! ما أوسع حلم الله على أمثال هؤلاء، حين يردون ما جاء في كتاب الله تعالى ردًا صريحًا وبتهكم وكبرياء، وما أقل غيرة المسلمين في هذا الزمان على دينهم. وحسبنا الله ونعم الوكيل.**

وذكر الشيخ محمد الحامد في كتابه (ردود على أباطيل) أن أحد المحاضرين ألقى محاضرة في النادي الثقافي العربي في بيروت وصف فيها إبليس بالتقوى

---

(١) المصدر السابق ص٢٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ص٢١، ٢٢.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) نفس المصدر السابق.

ويرىٰ ضـرورة تبرأته من الفسق ورفع اللعنة عنه، ورد الاعـتـبار إليـه ووصفـه بالبطولة!![1]

يا له من محـام بارع! وقد سبـقـه إلىٰ ذلك شيخ الـزنادقة والملاحـدة ابن عـربي الطائي الهالك.

ولئن شقـيت الإنسـانية بحـرية القـرن العـشريـن، فـقـد سـعـد بهـا إبليس كل السعـادة، لقد برأه هؤلاء المنصفون له من دينهم وعقيدتهم، كـما برأ البابا اليـهود من اضطهاد المسيح، بل هم أبر بالشيطان، فليهنأ بهم حلفاء ورفاقًا.

وهذه نماذج من تفاسـيـر وتأويلات وآراء مـن يُدْعَون برجـال الحـرية العـقلـية والحـرية العلميـة، والمعاصرة والمسـايرة، وغيرهـا من ألقاب التطوير والتنوير الخـادعة. ونحن نعلم أن من العـقلانـيين من ينكر هذه الآراء الشـاذة والإلحاد الحـاد، لكنهم مع ذلك يـسيـرون على المنهج على تفـاوت بينهم، ثم أين هم من هذا الاتجاه الإلحـادي، وماذا صنعوا تجاههُ، وماذا هم صـانعون؟ إن معـاول العقـلانيين ضـد السنة واحدة لكن منهم من يضـرب في الصمـيم ومنهم من يكتفي بالجلبة وضرب الطبول وبينهما مسالك شتى.

إنّ الإيمان بالملائكة ركن الإيمان الذي لا يتم إسـلام المسلـم إلا به كـما جاء في حديث جبريل المشـهور حين سأل رسـول الله ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحـسان وأشراط الساعة« قال: فأخبـرني عن الإيمان: قال: أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[2].

وقـال تعـالىٰ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [٢٨٥: البقرة].

وقال سبحـانه عن الملائكة: ﴿**بل عباد مكرمون**﴾ [٢٦: الأنبياء] فـهم عبـاد من عباد الله كما وصفهم الله، لا نوازع وخواطر كما يزعم العقلانيون.

---

(١) ردود على أباطيل.. للشيخ محمد الحامد ص١٩٤.

(٢) صحيح مسلم، الحديث الأول ـ من كتاب الإيمان، ورواه البخاري وغيره أيضًا.

وقد ذكر الله عن الملائكة، وصح عن رسول الله ﷺ أيضًا، بأن لهم صفات وأعمالاً، وتكاليف، لا يمكن أن تنطبق على نوازع الخير، ولا على الأفكار والخواطر كما يذهب الشيخ محمد عبده، ولا سنن الطبيعة كما يزعم سيِّد أمير علي. ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [١٩: الزخرف].

وإن كان ما أشاروا إليه يمكن أن يكون من بعض صفات الملائكة وأعمالهم لكنه ليس هو الملائكة[1].

فمن صفات الملائكة وأعمالهم التي وردت عن الله ورسوله: أنهم يتكلمون ويخاطبون ويحاورون: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [٣٠: البقرة].

وحديث جبريل، الذي كلم فيه الرسول ﷺ جبريل أمام الصحابة[2]، والملائكة الذين حدثوا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [٢٥: الذاريات].

وفي هذه النصوص أيضًا ما يدل على أنهم يتمثلون بصورة الآدمي، أفيكون ذلك من الخواطر ونوازع الخير؟! إن هذا أمر يحتاج إلى دليل. كما ذكر الله عنهم أنهم يسجدون، والسجود من أعمال الجوارح: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [٤٩ ـ ٥٠ النحل].

وذكر في الآية أيضًا أنهم يخافون ولا يستكبرون أفيكون ذلك من النوازع والخواطر وسنن الطبيعة.

ثم ذكر الله عنهم أنهم يَصُفُّوْن، وكذلك ورد في السنّة الصحيحة، فقال تعالى عنهم قولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [١٦٥: الصافات].

---

(١) راجع مجموع الفتاوى لابن تيمية ص١٢٠، ١٢١ من المجلد الرابع.

(٢) صحيح مسلم ـ الحديث الأول من كتاب الإيمان.

وقال ﷺ: «**جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة**»[١].

وقال ﷺ: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟**» قلنا: بلى يا رسول الله، كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «**يُتمون الصف ويتراصون في الصف**»[٢].

أفيليق من نوازع الخير والخواطر ومبادئ الطبيعة ونظامها أن توصف بهذه الصفات، ثم كيف يكون ملك الموت، وإسرافيل، وجبريل، وميكائيل، ومالك، والكرام الكاتبين، وحملة العرش، وخزنة جهنم، وملائكة الرحمة وملائكة العذاب والحافون حول العرش، والذين يدعون للمؤمنين ويستغفرون لهم، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم رضا بما يصنع، كيف تكون هذه المخلوقات التي هذه صفاتها نوازع الخير، أو العواطف والخواطر والأفكار بله سنن الطبيعة وقوانينها؟

كما أن من صفات الملائكة: أنها تصلي على النبي ﷺ وعلى المؤمنين، وتحضر صلاة الجمعة، وتتفقد أهل المساجد، وتحضر مجالس الذكر وتقاتل مع المؤمنين، وقد قاتلت فعلاً يوم بدر، كما أن الله يصطفي منهم رسلاً كما يصطفي من الناس، قال تعالى: ﴿**الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس**﴾.

ومن صفاتهم أيضًا: أنهم ذوو أجنحة مثنى وثلاث ورباع والله يزيد لهم في الخلق ما يشاء، قال تعالى: ﴿**جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [١: فاطر].

وأنهم لا يدخلون البيوت التي فيها كلاب أو صور، كما جاء في الصحيحين قال ﷺ: «**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلبٌ ولا صورة**»[٣].

---

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ حديث رقم (٤).

(٢) رواه مسلم في كتاب الصلاة ـ باب الأمر بالسكون في الصلاة ـ حديث (١١٩).

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس، باب تحريم تصوير الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش وأن الملائكة عليهم السلام لا يدخلون بيتًا فيه صورة ولا كلب، حديث رقم (٨٤).

وإذا كان الأمر كذلك ـ كما وصف الله ورسوله ـ فإن العقلية الحديثة بتأويلاتها وتخرصاتها التي ذكرناها، تكون قد حرفت كلام الله عن مواضعه، وأنهم يتكلمون في غيب الله بما لم يحيطوا بعلمه، ولا يملكون الحق في تأويله؛ لأنه من الغيب الذي لا يعلم تأويله إلا الله! وكل تلك الصفات التي ذكرتها للملائكة ثابتة في القرآن الكريم وفي صحيح السنَّة، بل في البخاري ومسلم، فلا شك في ثبوتها.

وإذا كانت الملائكة ـ كما وصف أولئك العقلانيون ـ بهذه الصفات التي ذكرتها عنهم، فيا ترىٰ أي فائدة من الإيمان بها، ما دامت معلومة لكل بشر، ثم أي ميزة تميز المؤمنين بإيمانهم بالملائكة إذا كانت هي نوازع الخير، سنن الطبيعة ونظام الكون؟ لأنهم في ذلك يشاركهم غيرهم. بل يعترف بالإيمان بها كل ملحد وماركسي جاحد! وهل ينكر هذه الأشياء إلا مجنون؟ أفلا يعقلون!

كما أن قول الشيخ الإمام محمد عبده رحمه الله «لا يستبعد أن يسمي الله الخواطر ونوازع الخير ملائكة» فإنه افتراض للغيب ـ الذي يستحيل علىٰ البشر إدراك كنهه ـ ؛ لأن النص جاء للبيان من الله، فيكون الكلام بعده بغير علم رجمًا بالغيب.

وقد قال بعض العقلانيين القدامىٰ في الملائكة قولاً قريبًا من قول الشيخ محمد عبده هذا، حيث قالوا: بأن الملائكة هي العقول والنفوس والقوىٰ الصالحة[1]، **هذا قول بعض الفلاسفة والجهمية وبعض المعتزلة شيوخ العقلانيين.**

وقد رد عليهم الشيخ ابن تيمية ـ رحمه الله ـ حيث قال بعد أنْ أورد النصوص التي وردت في الكتاب والسنة في الملائكة (وقد أوردت أكثرها آنفًا):

«وأمثال هذه النصوص التي يذكر فيها أصناف الملائكة وأوصافهم وأفعالهم

(١) راجع مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية ص١١٩، جـ٤.

ما يمنع أن تكون على ما يذكرونه من العقول والنفوس، وأن يكون جبريل هو العقل الفعال وتكون ملائكة الآدميين هي القوى الصالحة، والشياطين هي القوى الفاسدة كما يزعم هؤلاء»[1].

أما الجنّ فقد تواترت الأخبار عن وجودهم في الكتاب والسنّة والإجماع وأنهم موصوفون بصفات العقلاء ـ في سورة الجن وغيرها ـ ولهم عالم وكيان مستقل عن بني الإنسان، فليسوا من البشر، وليس من البشر أحد منهم وأنهم مكلفون بالإيمان والإسلام وتصديق الرسل كبني آدم، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [١، ٢: الجن].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥٦: الذاريات].

وأن منهم الصالحين، ومنهم غير الصالحين: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [١١: الجن].

ومنهم السفيه وغير السفيه: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ [٤: الجن].

وأنهم مخلوقون من قبل بني آدم، ومن مادة أخرى غير المادة التي خلق منها الإنسان، قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [٢٧: الحجر].

وأنهم يظنون: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [٥: الجن].

فما مكان الميكروبات التي زعم الشيخ محمد عبده أنها من الجن من هذه الصفات التي وردت في هذه النصوص، مثل: السَّفَه، الصلاح، السّماع، والاستماع، النّفر، الظن، القول، إلى آخر الصفات التي وردت في القرآن والسنّة الصحيحة؟

أمّا ما ذهب إليه الدكتور محمد البهيّ في رأيه السابق الذكر من أن البشر هم

(١) راجع مجموع الفتاوى لابن تيمية ص١٢٧، جـ٤.

وحدهم المكلفون برسالة الله، فإنه رد لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [٥٦ ـ ٥٧ الذاريات].

ولقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا﴾ [١٣٠: الأنعام].

وذكر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [١٤، ١٥ الجن].

أفيكون الإسلام والإقساط والجزاء عليهما بدون تكليف؟!

بل كيف يذهب الدكتور البهي إلى أنّ من يتخفَّى من بني آدم، بخيره أو شره، فهو من الجن؟ والله تعالى يذكر أن الإنس غير الجن كما في النصوص التي أوردتها آنفًا، وأن الجن خلقوا من نار السموم والإنس خلقوا من طين، وأن الجن خلقوا من قبل بني آدم، فهم خلق غيرهم قطعًا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [٢٦، ٢٧: الحجر].

كما يذهب الدكتور (في تناقضاته) مذهبًا أبعد حين يزعم أن شياطين الجن هم من بني آدم ويرد عليه ما قلناه في الفقرة السابقة.

ونقول له أيضًا: إذا كان شياطين الجن من بني آدم، وشياطين الإنس من الجن، ومن يتخفَّى بخيره وشره من بني آدم، يكون من الجن. فمن هم الجن يا ترى؟!

إنه من المعقول أن يشترك الجن والإنس في بعض الصفات مثل الشيطنة، ففي الجن شياطين، وفي الإنس شياطين (بالاشتراك اللغوي) لكن شياطين الجن غير شياطين الإنس بالنوع، بنص قوله تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [١١٢: الأنعام].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [٨٣: مريم].

كذلك المستضعفون من الإنس يشاركون الجن في صفة الاستتار والتخفي من ناحية المدلول اللغوي فحسب، أما أن يكونوا منهم كما زعم الدكتور البهي فهذا تحريف وتأويل فاسد لآيات الله عن مواضعها، وكما عرّفها السّلف الصالح.

وأقل ما يقال في هذا التأويل في الملائكة والجن من الدكتور البهيّ والشيخ محمد عبده ومن تبعهما: أنه رجم بالغيب، وقول على الله بغير علم؛ لأنها مخلوقات لانعرفها إلا بقدر ما أخبر الله عنها، فيجب أن نسلّم لله بما جاء عنه وعن رسوله ونقف عنده، بدل أن نلتمس التأويلات ونلوي أعناق الأدلة لتوافق النظريات الغربية والعقليات المتشككة المنهزمة التي لا تؤمن إلا بالمحسوس، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه أمام كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

وعلى هذا: **فالجن عالم حقيقي مكلّف** كالإنسان، له وجود ثابت مستقل ليس بالوهم ولا التخيل، ولا بالجراثيم والميكروبات التي هي خلق آخر من خلق الله، وما أكثر خلق الله العجيب في الكون الواسع العريض، أفكلما اكتشف العلم الحديث شيئًا أدرجناه في قائمة المخلوقات التي نعرفها أو نسمع بها وكأن الله لم يخلق غيرها؟!

وأن الإنس هم بنو آدم، سواء خفوا أو ظهروا، وسواء كانوا من المستكبرين أو من المستضعفين.

وشرارهم وخيارهم هم بنو آدم، فعلام التشويش وزعزعة العقيدة وبذر الشبهات والافتراضات في أمور لا يعلمها إلا علاّم الغيوب؟!

ونقول مثل ذلك عن إبليس (الشيطان) والشياطين عمومًا، فهم خلق آخر ذكرهم الله في كتابه الكريم وذكرهم رسول الله ﷺ في سننه، ووجودهم معلوم بالإجماع.

وأن شياطين الإنس، غير الشياطين الذين هم من غير بني آدم وغير إبليس، وأنهم إنما يشتركون معهم في صفات الخبث والمكر والإفساد، ولا يذكر شياطين

الإنس إلا في هذا التقييد (شياطين الإنس) والشياطين خلق آخر من مادة ونوع غير نوع بني آدم.

وإبليس (الشيطان) قد لعنه الله وطرده من رحمته، بذنبه ومعصيته لربه حين أمره بالسجود لآدم، فحكم الله بشقاوته، ولا رادَّ لحكم الله وقضائه، ولا مبدل لكلماته.

ورحمة الله قد وسعت كل شيء فكتبها لعباده المؤمنين، وحرم منها إبليس وجنوده وأتباعه من الجن والإنس، فلا داعي لدفاع العقلية الحديثة عن أستاذها إبليس والترحم عليه والمحاماة عنه، وما أسموه برد الاعتبار إليه، فإنه لا يزال للإنسان عدوًّا مضلاً مبينًا، يغويه ويأمره بالسوء والفحشاء والقول على الله بغير علم، وهل هذه التأويلات والشبهات والتحريفات التي سقتها عن العقلانيين، إلا من وساوس الشيطان؟

أما إن كان تأويل المدرسة العقلية الحديثة للملائكة والجنّ والشياطين ودفاعها عن إبليس الرجيم، إنما هو من أجل تقريب معانيها **لعقليات المرتابين والمشككين والمفتونين** بالعلم الحديث الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوس، أو بما يثبته العلم في الغرب، إذا كان هذا التأويل لأجلهم فإنه لم يزدهم إلا ارتيابًا وشكًا، بل إنه فتح لهم ولغيرهم من المبطلين باب الشبهات والسخرية والتهكم، فما دام أنه من الممكن عندهم أن تكون الميكروبات من الجن، وأن تكون الملائكة نوازع وخواطر النفس، وأن يكون المستضعف من بني آدم من الجن، فمن الممكن، بل من الطبيعي ـ بناء على ما تذهب إليه العقلية الحديثة ـ أن يقول قائل عن الميكروبات التي أكثرها ضار بالإنسان: أهذه من الملائكة التي أمرنا الله بالإيمان بها مقرونًا بالإيمان به تعالى ورسله وكتبه؟

وما هي تلك المخلوقات التي لا نعلمها تعرج للسماء ولها أجنحة؟

وسيقال أيضًا عن الجنّ:

إذا كان الجنّ فيهم من هو من بني آدم، وبنو آدم فيهم من هو من الجنّ، فمن هم الجنّ اللذين ذكرهم الله تعالىٰ، وذكر بأنهم غير الإنس كما في الآيات السابقة؟ كل هذه الأسئلة لا تجيب عليها العقلية الحديثة بإجابات علمية، ما لم تلتزم بنصوص الكتاب والسنّة فيها.

وهذا الخلط والتناقض كله من جراء تحريف آيات الله، وتأويلها بغير علم، وصرفها عن معانيها دون دليل صادق، واتباع سبل الأمم الهالكة والمذاهب الضالة، وشيع الشيطان والدجال.

* * * * *

المبحث التاسع

مزاعم المدرسة العقلية في الإيمان باليوم الآخر وأخبار القيامة

الإيمان باليوم الآخر، وبالحساب، والجنة والنار، وما ورد في ذلك من أخبار صحيحة عن الله ورسوله، أصل من أصول الإيمان والإسلام التي جاء بها الرسل (عليهم السلام).

قال تعالىٰ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [٣٧: **يوسف**].

وقال تعالىٰ: ﴿فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [٢٢: **النحل**].

وقال تعالىٰ: ﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ﴾ [٨: **سبأ**].

والآيات في هذا كثيرة جدّاً، وكذلك الأحاديث الصحيحة في السُّنَّة أيضًا، منها حديث جبريل المشهور، جاء فيه: **«الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»** الحديث متفق عليه[١].

وقد اتضح لي ـ من خلال قراءتي في بعض كتب وبحوث العقلانية الحديثة ـ أن بحث موضوع الآخرة وأخبارها، والبعث، من أقل الأمور التي اهتمت بها المدرسة العقلانية الحديثة. وذلك راجع إلىٰ عدة عوامل ربما من أهمها: النظرة المادية عند أكثرهم للحياة، ثم المبالغة في عمارة الحياة الدنيا، وضعف الإيمان

(١) هذه رواية مسلم في كتاب الإيمان ـ الحديث الأول.

واليقين، وقلة الورع، وتحكم الأهواء، والانسياق مع النظريات الغربية السائدة التي لا تهتم بالحياة الآخرة، بل لا تعترف بها، فليس للآخرة كبير شأن عندهم غالبًا. وأكثر كلامهم في هذا الصدد كان عن أشراط الساعة، ولهم في أشراط الساعة كلام مضطرب يدور بين الإنكار والتأويل والسخرية.

وتتمثل مواقف العقلانيين من أشراط الساعة في ثلاث مسائل: خروج المهدي، ونزول عيسى عليه السلام، وخروج الدجال. وقد تواترت الأحاديث في ذلك: منها قوله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها**»[1] والأحاديث في ذلك كثيرة صحيحة مستفيضة، وكذلك الأحاديث في خروج المهدي زمن الدجال.

وكذلك الأحاديث في خروج الدجال[2] وأن عيسى عليه السلام يقتله.

ويتصدَّر العقلانيين شيخُهم محمد عبده في إنكار نزول عيسى عليه السلام بتأويل النصوص الواردة فيه أو ردِّها، فقد ذكر أنه له في التنصل من الأحاديث الواردة تخريجين: (أحدهما): أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي؛ لأنه من أمور الغيب، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي؛ لأن المطلوب فيها هو اليقين، وليس في الباب حديث متواتر. (وثانيهما): تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس، وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم، والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها، والتمسك بقشورها دون لبابها، وهو حكمتها وما شرعت لأجله، فالمسيح - عليه السلام - لم يأت لليهود بشريعة جديدة، ولكنه جاءهم بما يزحزحهم عن الجمود

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه الحديث رقم (٣٤٤٨)، ومسلم الحديث رقم (١٥٥).

(٢) راجع صحيح البخاري الحديث رقم (٧١٢٧)، ومسلم الحديث رقم (٢٩٣٣)، والأحاديث في الصحيحين وغيرهما فيه كثيرة.

على ظواهر ألفاظ شريعة موسى ـ عليه السلام ـ ويوقفهم على فقهها والمراد منها، ويأمرهم بمراعاته، وبما يجذبهم إلى عالم الأرواح بتحري كمال الآداب)[١].

وهكذا يحاول التخلص من الإيمان بنزول عيسى عليه السلام، بالرد أو بتأويلات الفلاسفة والجهمية والباطنية[٢].

ويتابعه على ذلك محمد رشيد رضا ويدعي الاضطراب في أحاديث الدجال والمهدي[٣]، وكذلك يفعل محمود شلترت[٤] وعبد الوهاب النجار[٥] وحسن الترابي[٦].

وكذلك موقفهم من الدجال التكذيب أو التأويل، ويتصدَّرهم أيضًا شيخهم محمد عبده حين يزعم أن المقصود بالدجال الرمز إلى الخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها[٧].

ويتابعه على ذلك محمد رشيد رضا حين يزعم أن أحاديث الدجال مشككة، ويتكلف في صرف الأحاديث بشبهات واهية[٨].

وكذلك يفعل مصطفى محمود ومحمد أسد (ليوبولد فايس) يقول مصطفى محمود حين يتأول الدجال ويزعم أن المقصود به هو الحضارة الغربية فيقول: (تروي لنا الأديان حكاية رجل يظهر في آخر الزمان، يأتي من الخوارق

(١) الأعمال الكاملة لمحمد عبده ٥/ ٣٢ ومجلد المنار ١٠/ ٢٤٥، ٢٤٦.
(٢) مجلة المنار ١٠/ ٢٤٥، ٢٤٦، و٢٨/ ٧٥٥ـ٧٥٧.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر الفتاوى له ص٦٥.
(٥) انظر كتابه قصص الأنبياء ٤٢٤.
(٦) انظر: دراسات في السيرة لمحمد سعد زين العابدين ص٣٠٨.
(٧) انظر: تفسير المنار ٣/ ٣١٧، ٣١٨.
(٨) انظر تفسير المنار ٩/ ٤٨٩.

والمعجزات بما يفتن الناس، من كافة أرجاء الأرض، فيسيرون خلفه، وقد اعتقدوا أنه إله.

وتصفه الروايات بأنه أعور، وأنه يملك من القوة الخارقة ما يجعله يرى بهذه العين الواحدة ما يجري في أقصى الأرض، كما يسمع بإذنه ما يتهامس به الناس عبر البحار، كما يسقط الأمطار بمشيئته فينبت الزرع ويكشف عن الكنوز المخبوءة ويشفي المرضى، ويحيي الموتى، ويميت الأحياء، ويطير بسرعة الريح.

ويفتتن به كل من يراه ويسجد له، على أنه الله. بينما يراه المؤمنون على حقيقته، ولا تخدعهم معجزاته ويشهدون رسم الكفر على وجهه.

ذلك هو المسيخ الدجال، إحدى علامات الساعة التي نقرأ عنها في كتب الدين.

والمسيخ الدجال قد ظهر بالفعل، كما يقول الكاتب البولندي ليوبولد فايس.. وقد أسلم هذا الكاتب وعاش بمكة.

وهذا المسخ الشائه ذو العين الواحدة، كما يقول ليوبولد فايس هو: التقدم المادي والقوة المادية والترف المادي... معبودات هذا الزمان.

مدنية العصر الذري، العوراء العرجاء، التي تتقدم في اتجاه واحد، وترى في اتجاه واحد هو الاتجاه المادي، بينما تفتقد العين الثانية «الروح» التي تبصر البعد والروحي للحياة.. فهي قوة بلا محبة، علم بلا دين، وتكنولوجيا بلا أخلاق.

وقد استطاع هذا المسخ فعلاً عن طريق العلم أن يسمع ما يدور في أقصى الأرض «باللاسلكي» ويرى ما يجري في آخر الدنيا «بالتليفزيون» وهو الآن يسقط المطر بوسائل صناعية، ويزرع الصحاري، ويشفي المرضى، وينقل قلوب الأموات إلى قلوب الأحياء...»[1] إلخ كلامه.

(١) رحلتي من الشك إلى الإيمان، له، ص١٠٤، ١٠٥.

وهكذا نجدهم يفسرون الدجال بالحضارة الغربية والتقدم المادي والمدنية، على طريقة الفلاسفة والباطنية خصوم الأنبياء، فالنزعة العقلانية تجعلهم لا يصدقون بأن الدجال كائن حي وأن صفاته المذكورة في السنة وأفعاله وأحداثه كائنة حقيقة على الوجه الذي وصفه النبي ﷺ.

أما شبهات العقلية الحديثة حول الآخرة والبعث والجنة والنَّار فهي مثلُها في سائر أصول الدين التي مرّ ذكرها **وأهم تلك الشبهات إجمالاً:**

* أن الجنّة والنار والآخرة - بزعمهم - رموز وضوابط روحانية، يعيش فيها ومن خلالها الإنسان آلامه وآماله النفسية، وينفِّس باعتقادها عن كثير من عقد الحياة وألغازها التي تقلقه.

وعلى هذا: فهي ضرب من الوهم، يُدخِلُ على الإنسان الرضا والشعور بالأمل في هذا العيش المثالي الجميل، ويسمى الجنة، أو بالروادع والرعب والخوف، ويسمى النار.

* أن البعث والثواب والعقاب إنما يكون للروح، أما الجسد فلا يعقل بعثه بعد أن يتحلل ويندثر، وأن العلم الحديث لا يؤمن ببعث الأجسام بعد موتها وتحللها، ومرور أزمان سحيقة عليها.

* أن الدنيا والآخرة، والجنّة والنار والثواب والعقاب، كلها رموز لما يتحقق ويجري في هذه الدنيا، من سعادة وشقاوة، وراحة وتعب، أما تصويرها في النصوص الشرعية على ذلك النحو، والذي يشعر بأنها في حياة أخرى؛ فإنما هو لمجرد الترغيب والترهيب، وعليه: فهي مجرد تصويرات تمثيلية وتخيلات وهمية لا حقيقة لها.

وبناء على هذا قال بعضهم: بأن الجنَّة التي ذكرت في القرآن والسنّة إنَّما هي هذه الحياة، التي يعيشها العالم في القرن العشرين، قرن التنور والعلم والذرة! كما يصفونه.

* أن فلسفة الآخرة والبعث والجزاء ـ على حد تعبيرهم ـ إنما هي من اختراع الإنسان نفسه أو من اختراع طبقة معينة كرجال الدين والأنبياء، ليدعموا بها حركاتهم ودعواتهم، ويجلبوا الدهماء إليهم. ونحو ذلك من الشبهات والتخرصات. ﴿قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون﴾.

المهم أن العقلية الحديثة ـ فيما يبدو ـ تريد أن تتهرب من مواجهة هذه الحقيقة، والشعور بها؛ لأنها تولد لدى الفاسق والعاصي قلقًا نفسيّاً من جراء الشعور بالذنب، والتقصير في جنب الله، وهذا أمر فطري يوجد حتى عند بعض الملاحدة الخُلَّص.

وهذه نماذج من آراء العقلية الحديثة في ذلك:

يقول أحدهم:

« والآن بوسعنا أن نقول شيئًا في الجنة والنار اللتين بشرت وأنذرت بهما الأديان السماوية، فما النار إلا تلك التأسفات على التفريط بالخير والتقصير بالواجبات وانحطاط الدرجة وضعف الحرية، وقلة الإمكانات على إيجاد عوامل السعادة، وما الجنّة إلا رضا العقول الخالدة عن أعمالها الخيرة في الدنيا، والشعور بعدم التقصير في الواجبات مع العلم بسمو الدرجة بالإضافة إلى نصيبها الوافر من الإمكانات على إيجاد السعادة»[1].

وعلى هذا التقسيم للكاتب ووصفه للجنَّة والنار يمكن أن يقال: أهل الجنَّة هم الغربيون والدول المتقدمة علميّاً ـ بمفهومه ـ لأنهم هم الذين يملكون الإمكانيات، وأهل النار هم الشعوب الفقيرة النامية والمتأخرة علميّاً، ومنهم العالم الإسلامي (أستغفر الله!).

ويقول: «وإنني أستبعد كل الاستبعاد وجود جهنم كما تصفها الكتب

---

(١) وحدة الوجود العقلية لعبد الجبار الوائلي ص١٩٢.

السماوية في ظاهر عبارتها، ولا مبرر لوجودها على تلك الحالة القاسية، ولا فائدة فيها، كما أنها منافية للعدل والرحمة والحكمة والإلهية المطلقة»[١].

ويقول: «وما شقاء الدنيا وعذاب أولى سِنِيِّ الآخرة ألاّ جهنم التي أنذر الله بها عباده العاصين ولا أعتقد أن عذاب جهنم أكثر من هذا»[٢].

وكل هذه المغالطات من الكاتب والتأويلات الإلحادية إنما تنبئ بوضوح عن التهرب من الإيمان باليوم الآخر والجنّة والنار كما وصفها الله، وأخبر عنها في كتابه الكريم.

فآيات القرآن التي وردت في هذا واضحة كل الوضوح وبأساليب وصور ومناسبات كثيرة جدّاً، إذا أمكن تأويل واحدة منها فيستحيل تأويل مجموعها إلى ما ذهب إليه الكاتب.

وسأسرد النصوص بعد أن انتهي من النقول الأخرى، وأبين خطأ هؤلاء وانحرافهم وإلحادهم الصريح على ضوئها.

ويقول صاحب كتاب: البعث أو معنى الروح:

«ولقد كان ذكر جنّة أو نار في ذلك للترغيب والترهيب فقط كأسلوب من أساليب التربية والتعليم»[٣].

«وكان يشتد ذكر جنّة في نفوس قوم يسكنون بطون الصحراء، **فإذا لمسوا فيها** شيئًا بعد الهجرة، على ضفاف الأنهار، تربعوا عليه، ونسوا بؤس الحياة، في حين أن آخرين حسبوها شيئًا آخر في غيب السماء، والواقع أنها لم تكن أزيد من ذلك، إلا بقدر ما يجد المعرفة من بحوث واختراعات تهيء لهؤلاء وهؤلاء جزءاً من السَّعادة»[٤].

(١) المصدر السابق ص١٩٣.

(٢) المصدر السابق ص١٩٤.

(٣) البعث أو معنى الروح، لعبد العظيم مصطفى سعد ص٨ ـ ٩.

(٤) المصدر السابق ص٩.

ومفاد كلامه أن الجنة والنار، إنما هما الرخاء والرفاهية في الحياة الدنيا!

ثم يتابع قوله: «إننا في الواقع لو جئنا بالإنسان الأول لو فرضنا ـ معدومًا ـ ليعيش معنا في ربوع العلم، وتحت ظل من حضارة القرن العشرين ما شك أنها جنّة، وأن الغيب الذي كثر تردده في الدين، هو كل جديد تأتي به رسالة أو يستحدثه عقل، أو ينتجه نبوغ، وهل يعلم سابق أو لاحق ما ستكون عليه الحضارة بعد قرن مثلاً أو قرنين»[١].

وحين تضيق الأرض بجنّته هذه ـ جنّة القرن العشرين ـ وناره، ينتقل إلى الكواكب ليوزعها على الأمم فيقول:

«ولقد كان الموت أشد ما ابتلي به الإنسان، حتى جرى خطأ على الألسنة أن الدنيا دار فناء»[٢].

«إن ابن آدم ما فني بجسمه ولا بروحه إذا مات أو أعلنت له الوفاة، إنه يتمتع بقسط وافر من الحياة على ظهر الكواكب، كل على حسب دينه وتكوينه في دنياه.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [١٦١: آل عمران].

وأن ذلك إرغام لمن قتل أو لم يقتل في سبيل الله، فإذا بعث نبي، أو جد في الدنيا، بين حياة وحياة، وثبت لدينه وجود، واعتراف عام، هيء له ولأنصاره بعد الوفاة، حياة على ظهر واحد من الكواكب، وألقي بالمخالفين في آخر مع من سبقوهم من المحافظين، أو الرجعيين عن كل تجديد، وقد أصبحت هذه الكواكب موردًا لموتى كل دين بعد الأحياء»[٣].

(١) المصدر السابق ص٩.

(٢) البعث أو معنى الروح لعبد العظيم مصطفى سعد ص٩ ـ ١٠.

(٣) المصدر السابق ص١٠.

«هذا ما يجب أن نفهمه في شأن الإنسانية بعد الموت، وهل يتباهى الله سبحانه بخلق سبع سموات وتكون مجدبة من الحياة»[١].

هذه المقاطع التي نَقَلْتُها تمثل مجموعة الشُّبهات العقلية الإلحادية، والتصوّرات الوثنية، والأوهام الفلسفية عمومها، وهي لأول وهلة ليست من العقيدة والتصور الإسلامي في شيء، بل هي منحرفة عن الحق في اليوم الآخر والجنّة والنار كلّ الانحراف، وبعيدة عن معاني النصوص الشرعية الواردة في الكتاب والسنّة كل البعد، بل هي مباينة لما جاء عن الله تعالى ورسوله ﷺ.

كما نجد كثيرين من العقلانيين يتأولون الآيات والأحاديث الصحيحة في نعيم الجنة وعذاب النار، ويزعمون أن هذه رموز أومجرد تمثيل وتخييلات كما تقول الفلاسفة والباطنية والملاحدة، وممن ينزع إلى هذا التفسير: مصطفى محمود[٢]، وعبد القادر المغربي[٣]، ومحمد أسد[٤]، ومحمد إقبال[٥].

فالإيمان باليوم الآخر، كما أخبر الله عنه، من أساسيات الإيمان وأصول العقيدة، لذلك كثيراً ما يُقْرَنُ بالإيمان بالله تعالى، قال تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٦٩ : المائدة].

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [٢٨ : التوبة].

وقد وردت آيات كثيرة في ذلك.

لذلك نرى جل تكاليف الشرع، والتصور الكلي لأصول العقيدة، يقوم على الالتفات إلى أصل البعث، والجزاء والحساب على الخير والشر، والطاعة والمعصية، وهذا ما يقتضيه الشرع والعقل.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر كتابه: القرآن محاولة لفهم عصري ص٧٩ـ٨٦.

(٣) انظر كتابه: على هامش التفسير ٢٧، ٢٨.

(٤) انظر كتابه: ترجمة لمعاني القرآن ٩٩١.

(٥) انظر كتابه: تجديد الفكر الديني ١٤١.

أما العقل: فإنه ما دام المطلوب من الإنسان عقلاً أن يقوم على الحق، وينهض بالخير، ليدفع الباطل والشر، فلا بد أن يكون هناك جزاء على هذا العمل، أَوْ له، والإنسان يلاحظ أن كثيراً من الناس تنتهي حياته الدنيا، دون أن يلقى جزاء على الخير وافيًا، أو جزاء على الشر وافيًا، إذًا؛ فلا بد من بعث الجزاء والحساب على العمل، والناس يموتون بين ظالم ومظلوم، وغني وفقير، وصحيح وسقيم، ومستوفٍ ومنقوص، لكن تكون المساواة والعدل والقصاص يوم الحساب.

وحين يسقط هذا التَّصور من حساب الإنسان ـ خاصة المؤمن ـ تنهار معه كل القيم الأخلاقية، ولا تستقيم النفس بالرضا والاطمئنان لنصرة الحق[1].

* وإذا تصورنا الآخرة على ذلك التأويل والألغاز والرموز، التي تؤول في النهاية إلى الاعتقاد بأن الآخرة والجنّة والنار إنما هي صورة تمثيلية بزعمهم، لا واقع لها، ولا حقيقة، فإنها عقلاً تسقط قيمتها الاعتقادية والخلقية، وإذا قالوا بأنها: إنما هي تخييلات لتهذيب سلوك العامة، والدهماء من النَّاس الذين ينقصهم التفكير السليم والعلم والتربية، ولكي تردعهم عن الفوضى فيقال لهم: إن عقيدة اليوم الآخر لم تكن للدهماء فقط؛ لأن الدهماء تتبع دائمًا الكبراء والسادة والقادة والموجهين، وهؤلاء ليسوا بغنىً عن مبدأ الاعتقاد بالجزاء والحساب، هذا شيء. والأمر الآخر أنه لا يعقل أن تبقى عقيدة اليوم الآخر بهذا المفهوم الخيالي التمثيلي، الذي يشيرون إليه، محجوبة عن الدهماء، فإذا انخدعوا في موقف، أو مرحلة من مراحل الزمن، فلا بد أن تظهر الحقيقة، فالفصل بين عقيدة الدهماء والخاصة، شيء غير علمي ولا واقعي، ولا متصور، ولا عادل.

هذا كله فضلاً عن أن النصوص الشرعية التي جاءت في الكتاب والسنّة،

---

(١) راجع اليوم الآخر في ظلال القرآن ـ جمعه وأعده من تفسير سيد قطب: أحمد فايز.

صريحة في إحقاق اليوم الآخر ولا تحتمل التأويل بوجه من الوجوه، فهي - كما قلت - جاءت بألفاظ وعبارات كثيرة، ومتعددة المعاني.

كما جاءت بصور ومواقف متعددة أيضًا.

وجاءت بمناسبات واعتبارات كثيرة.

وكل هذه الجوانب يستحيل تأويلها حسب ما يزعمون.

وإليك بيان ذلك:

أولاً: أن الله تعالى؛ حين ذكر الآخرة والبعث بعد الموت، والجنّة والنّار، ذكر قبل ذلك أحداثًا ومشاهد، تحصل لهذا الكون والأرض والإنسان وجميع المخلوقات، لا يمكن تأويلها وتصورها بالرموز والصور التمثيلية، منها:

قوله تعالى: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ**﴾ [١، ٢، ٣: **التكوير**].

﴿**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**﴾ [٦: **التكوير**].

فتكوير الشَّمس وانكدار النجوم وتسيير الجبال وتسجير البحار، تلك محولات ضخمة هائلة، عظيمة، وجذرية، في الكون، لا يمكن أن تحصل أو تفسر بغير ما دلّت عليه في ظاهرها، كما أنها عرضت بأسلوب بيِّن واضح لا لبس فيه ولا غموض.

كذلك قوله تعالى: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ**﴾ [١ - ٤: **الانفطار**].

﴿**إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ**﴾ [١: **الانشقاق**].

وهذه الآيات ونحوها كثيرة في القرآن، وحكت لنا حدوث تلك التغيرات الكونية بأساليب متعددة، وعبارات وصور كثيرة.

فمثلاً: لو أراد أحد أن يؤوّل انكدار النجوم بتأويل يصرفه عن ظاهره، فإنه

سيقف حائرًا أمام قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَت ﴾ .

ومثل قوله في البحار: ﴿ سجرت ﴾ ثم ﴿ فجرت ﴾ .

ومثل قوله في السماء: ﴿ انفطرت ﴾ ثم ﴿ انشقت ﴾ وهكذا.

ثانيًا: أنَّ الله تعالىٰ ذكر صورًا وأحوالاً ومواقف في القيامة بعد البعث وقبله، لا يمكن أن تحصل للإنسان في حياته الدنيا، مثل:

سؤال منكر ونكير وقد تواتر في السنَّة[1] فهو وحي من الله؛

ومثل طلوع الشمس من مغربها وهو ثابت في السنّة[2] أيضًا، وهو من آخر مراحل الدنيا وأول مراحل القيامة.

والنفخ في الصور، قال تعالىٰ: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ [٩٩: **الكهف**].

وقال: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [١٠٢: **طه**].

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [١٠١: **المؤمنون**].

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ﴾ [٦٨: **الزمر**].

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [٥١: **يس**].

فالنفح في الصور بهذه الصور والأحوال المتعددة حدث مستقل، لا يشبه أحداث الدنيا، ولا يتصور وقوعه فيها وهي سويّة، إلا بتغير جذري كوني بقدرة الله تعالىٰ.

لأن فَزَع من في السماوات والأرض، وجمعهم كلهم، وحشر المجرمين زرقا، وضياع العلاقات والأنساب، والذهول الذي يجعلهم لا يتساءلون، كل

---

(١) راجع تدريب الراوي للسيوطي ص١٨٠.

(٢) راجع جامع الأصول ص٣٩١.

هذه الأمور لا يعقل حدوثها للإنسان في حياته الدنيا العادية، مهما أوتي من العلم.

وعلىٰ هذا فهذه الأمور كلها لابد أن تكون في حياة أخرىٰ غير هذه الحياة الدنيا التي نعيشها.

ثالثًا: كما أن من أحداث القيامة ما لا تحتمله الأرض بشكلها هذا ولا يحتمله الإنسان في حياته الدنيا مثل:

قوله تعالىٰ: ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [٢٢: **الفجر**].

وقوله تعالىٰ: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**﴾ [٤٨: **ابراهيم**].

كما جاء في وصف الجنّة أنها أكبر من الأرض، قال تعالىٰ: ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [١٣٣: **آل عمران**].

وقوله ﷺ: «**يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم**» أخرجه البخاري ومسلم[١].

فإن هذا يستحيل عقلاً في الدنيا، ولا يمكن تأويله بأية حال، فهو واقع في دار غير الدنيا.

وقوله ﷺ: «**تدني الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل**» رواه مسلم والترمذي[٢]. وأمثال هذا كثير في الكتاب والسنَّة.

رابعًا: أن الجنّة فيها من النعيم والأشياء ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، سواء تقدم علميّاً ـ علىٰ مفهوم العقلانيين ـ أو لم يتقدم.

كما أن النّار فيها من العذاب ما لا تطيقه الجبال والصخور، ولا يعرف له

---

(١) راجع البخاري، كتاب الرقاق، باب قوله تعالىٰ: «**ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم**» ومسلم رقم ٦١ من كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة.

(٢) رواه مسلم في صفة الجنة، باب صفة يوم القيامة، والترمذي، حديث رقم: ٢٤٢١.

صورة في الحياة الدنيا، ولو حدث شيء منه في هذه الحياة الأولىٰ لما عاش فيها الإنسان.

وعليه فالآخرة والجنّة والنار يستحيل عقلاً أن تكون في الدنيا فيتحتم أن تكون في حياة أخرىٰ، وأمثلة ذلك:

قوله تعالىٰ عن الجنّة: ﴿ **أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا** ﴾ [٣٥: **الرعد**].

وقوله تعالىٰ: ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** ﴾ [١٢٢: **النساء**].

في آيات كثيرة.

وقوله تعالىٰ عن النّار: ﴿ **وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ** ﴾ [٦: **التحريم**].

وقوله تعالىٰ عن أهل النّار: ﴿ **ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ** ﴾ [١٣: **الأعلى**].

وقوله تعالىٰ: ﴿ **لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا** ﴾ [٣٦: **فاطر**]

وجاء في السنّة في صفات الجنّة قوله ﷺ فيما رواه سهل بن سعد: «**إنَّ في الجنّة شجرة يسير الراكب في ظلّها مائة عام لا يقطعها**» رواه البخاري ومسلم[١].

ومهما تتهرب العقلية الحديثة من الاعتراف بحقائق البعث والقيامة والحساب والجنّة والنّار، فإنها لن تستطيع إذا سلكت السبل الموضوعية والعلمية حقا، وحكمت العلم والعقل السليم، حتىٰ ولو تخلت عن النصوص الشرعية جدلاً، فإنها لابد أن تصل إلىٰ حتمية الإيمان باليوم الآخر.

وأختم هذا الفصل بجواب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن شبهات أسلاف هؤلاء العقلانيين، حين (سُئل رحمه الله عن رجل قيل له: إنه ورد عن

---

(١) البخاري كتاب الرقاق باب صفة الجنّة والنّار، ومسلم حديث رقم (٨) كتاب الجنّة وصفة نعيمها باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها.

النبي ﷺ : أن أهل الجنة يأكلون ويشربون، ويتمتعون، ولا يبولون ولا يتغوطون. فقال: من أكل وشرب: بال وتغوط. ثم قيل له: إن في الجنة طيوراً إذا اشتهى صار قدامه على أي صورة أراد من الأطعمة وغيرها. فقال: هذا فشار [يعني هذيان][1] هل بجحده هذا يكفر ويجب قتله أم لا؟

فأجاب: الأكل والشرب في الجنة: ثابت بكتاب الله وسنة رسوله، وإجماع المسلمين، وهو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، وكذلك الطيور والقصور في الجنة بلا ريب، كما وصف ذلك في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، وكذلك إن أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون، لم يخالف من المؤمنين بالله ورسوله أحد، وإنما المخالف في ذلك أحد رجلين: إما كافر، وإما منافق.

أما الكافر فإن اليهود والنصارى ينكرون الأكل والشرب والنكاح في الجنة، يزعمون أن أهل الجنة إنما يتمتعون بالأصوات المطربة والأرواح الطيبة مع نعيم الأرواح، وهم يقرون مع ذلك بحشر الأجساد مع الأرواح ونعيمها وعذابها.

وأما طوائف من الكفار وغيرهم من الصابئة والفلاسفة ومن وافقهم فيقرون بحشر الأرواح فقط، وأن النعيم والعذاب للأرواح فقط.

وطوائف من الكفار والمشركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية، فلا يقرون: لا بمعاد الأرواح؛ ولا الأجساد. وقد بين الله تعالى في كتابه على لسان رسوله أمر معاد الأرواح، والأجساد، ورد على الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك: بيانًا في غاية التمام، والكمال.

وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة فإنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون: هذه أمثال ضربت لنفهم المعاد

---

(١) الفشار: قال في القاموس المحيط: والفشار الذي تستعمله العامة بمعنى الهذيان، ليس من كلام العرب. القاموس المحيط للفيروز آبادي، مادة (فشر) ص٥٨٧.

الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة، ومثل المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلى الإسلام، وطائفة ممن ضاهوهم: من كاتب، أو متطبب، أو متكلم، أو متصوف: كأصحاب «رسائل إخوان الصفا» وغيرهم، أو منافق. وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان؛ فإن محمداً ﷺ قد بين ذلك بيانًا شافيًا قاطعًا للعذر، وتواتر ذلك عند أمته خاصها وعامها، وقد ناظره بعض اليهود في جنس هذه المسألة وقال: يا محمد! أنت تقول: إن أهل الجنة يأكلون ويشربون ومن يأكل ويشرب لابد له من خلاء. فقال النبي ﷺ: «**رشح كرشح المسك**».

ويجب على ولي الأمر قتل من أنكر ذلك ولو أظهر التصديق بألفاظه، فكيف بمن ينكر الجميع؟ والله أعلم)[1].

* * * * *

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٣١٣ـ٣١٥.

المبحث العاشر

مزاعم المدرسة العقلية الحديثة في القدر

الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالىٰ هو ركن الإيمان ومن أصول العقيدة الكبرىٰ، كما ورد في حديث جبريل المشهور، والذي جاء فيه قول جبريل للرسول ﷺ: «**فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت**»[١]. .

فيجب علىٰ المسلم أن يؤمن بأن الله بكل شيء عليم، وأنه وسع كل شيء علمًا، وأن الله كتب مقادير كل شيء وبأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن الله خالق كل شيء، وأن إرادة الله اقتضت من العبد أن يطيع الله ويتبع شرعه، وأن يسعىٰ الإنسان في هذه الحياة ويكدح ويعمل علىٰ ما يرضي الله، ويعرف أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . .

وإن مسألة القدر من أعقد المسائل التي يتعرض لها الفكر البشري، ومن المشكلات التي تقف أمام العقلانيين ومرضىٰ القلوب في القديم والحديث.

والقضاء والقدر له مساس كبير بعلم الغيب، بل هو من علم الغيب، لذا نجد الإسلام يطلب من المسلم التسليم بقضاء الله وقدره، والرضا بحكمه، كما أنه في الإسلام تعتبر قوة الإيمان بالقدر، بقدر قوة الإيمان بالله، فكلما ضعف إيمان المرء بالله، كلما قل إيمانه بالقدر، وكلما قوىٰ إيمانه بالله، قوىٰ إيمانه بقدر الله.

كما أن مسألة القدر من أول المسائل التي تعرض لها أهل الأهواء وأثيرت فيها

---

(١) الحديث متفق عليه، وهذا النص من رواية مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام الحديث الأول.

الشبه في الإسلام، كما مر، فإن القدرية «منكرة القدر» ظهرت بعد منتصف القرن الأول الهجري، وكان العامل العقلاني من أظهر العوامل التي تسببت في بروز مذهب القدرية الأولى فكان روادها الأوائل كمعبد الجهني ت(٨٠) وغيلان الدمشقي ت (١٠٥) من ذوي النزعة العقلانية الجدلية، ولما ظهرت المعتزلة أخذت بمذهب القدرية، ثم قابلتها الجبرية الجهمية.

فالقدرية والجبرية انحرفتا عن الصراط السوي؛ لأن القدرية ـ ومنها المعتزلة ـ قالت باختيار العبد مطلقًا، وأنه الخالق لأفعاله، والجبرية قالت بعكس ذلك، أي أن العبد مجبور على أفعاله وليس له اختيار فيها مطلقًا. وكلا الفريقين خالف الحق؛ لأن النصوص دلت على أن للعبد اختياراً وقدرة محكومة وتابعة وخاضعة لمشيئة الله العامة.

وقد تعرضت الاتجاهات العقلية الحديثة لمسألة القدر في الإسلام من عدة جوانب **أهمها:**

* قولهم: بأن من أهم أسباب تأخر المسلمين وانحطاطهم في عصورهم المتأخرة، هو إيمانهم بعقيدة القضاء والقدر، وردهم كل شيء إلى مشيئة الله تعالى..[1]

* وأن الإنسان يتمتع بمطلق الحرية في أفعاله وتصرفاته، وليست هناك سلطة أخرى تحد من تصرفاته.. ومن ثم فالإيمان بالقدر يقيد من حريته بغير حق.

* وأن الإسلام جاء ليحرر الإنسان من الاعتقاد بسلطان القدر،[2] وذلك ظنا منهم بأن الله تعالى هو مُقَدِّر أفعال العباد خيرها وشرها، يعني الوصاية على الإنسان.

فهم غالبًا يميلون إلى قول المعتزلة في القدر، من ذلك قول محمد أحمد

(١) راجع: موقف البشر تحت سلطان القدر، للشيخ مصطفى صبري ص٢١٨.

(٢) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة ص٧٩.

خلف الله: «لقد حرر القرآن الإنسان من الخوف الذي كان يفسر تفسيراً وهميّاً ولم يكن يفسر تفسيراً علميّاً، حتىٰ كان يرد الكوارث إلىٰ غضب الآلهة ولا يردها إلىٰ السنن الطبيعية والظواهر الاجتماعية والتاريخية»(١).

ونقول لهذا الجاهل بعقيدة القدر: نعم إن الكثير من الكوارث التي يقدرها الله علىٰ العباد هي من غضب الله عليهم بسبب ذنوبهم، أليس الطوفان الذي أغرق الله به قوم نوح من غضب الله؟ وكذلك ما فعله الله بقوم هود وقوم صالح وقوم لوط. ثم أليست السنن الطبيعية من أقدار الله؟ بلىٰ إن الخير والشر كله بقدر الله.

ويقول أحدهم كذلك منكرًا أن الله تعالىٰ كتب أرزاق العباد وأعمالهم وأعمارهم: «لقد ظن الكثير أن عمر الانسان ورزقه وعمله مكتوب عليه سلفًا، والمكتوب جاءت بمعنىٰ مقدر عليه سلفًا. . .» إلخ هذيانه(٢). بل يتطاول هذا الكاتب إلىٰ ما هو أعظم حين يزعم أن الانسان بإمكانه أن يطيل الأعمار ويؤجل الموت يقول «وعندما يدرس الإنسان كتاب الموت وتزيد معرفته به يستطيع أن يؤجل هذه الشروط، ويطيل الأعمار»(٣).

ومنهم ـ أعني العقلانيين ـ من يذهب إلىٰ مذهب الأشاعرة بالقول بالكسب، وهو نوع من الجبر، ومنهم مضطربون لا يستقرون علىٰ قول، كما فعل محمد عبده(٤)، ومحمد فريد وجدي(٥)، ومحمد إقبال(٦).

---

(١) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة ص٧٩.

(٢) القراءة المعاصرة لمحمد شحرور ص٣٣٢.

(٣) القراءة المعاصرة لمحمد شحرور ص٣٣٣.

(٤) انظر الأعمال الكاملة لمحمد عبده ٣/ ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٤٩، ٤٥٠، وراجع الاتجاه العقلاني لدىٰ المفكرين الإسلاميين (رسالة دكتوراه) لسعيد عيضة الزهراني ٢/ ٤٤٩ ـ ٤٥١.

(٥) راجع المصحف المفسر ١٣٧، ١٣٨.

(٦) راجع تجديد الفكر الديني ٦١.

أما محمد عمارة فهو يذهب إلى قول المعتزلة تمامًا ويسمي أهل السنة (مجبرة)[1].

ولا يتسع المقام بأن نتوسع في بحث هذه المسألة إلا بقدر ما يمس هذا الموضوع.

أما دعوى أن عقيدة الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى، هو سبب خمول المسلمين وانحطاطهم وتواكلهم، فتلك دعوى باطلة، يبطلها الشرع والعقل والواقع؛ لأننا عند التحقيق العلمي، والاستقراء، بعد النظر في الأدلة الشرعية في هذه المسألة نجد أن الأمر بالعكس، أي أن من أعظم أسباب تأخر المسلمين وتواكلهم في عصورهم المتأخرة، إنما هو تقصيرهم في فهم عقيدة القدر، وضعف إيمانهم بالقضاء والقدر، وإخلالهم بمقتضى الإيمان بها، **وإليك بيان ذلك:**

أولاً: أن الإسلام - إذا تمسك به المسلمون - فإنَّه يأمرهم بالعلم والعمل والاستقراء والنظر، والإنتاج، والجد، والتفوق، والجهاد، كل ذلك على مقتضى العقيدة والإيمان بالقدر. قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [٩: الزمر]، وقال تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [١١: المجادلة].

ثم أمر الله فقال: ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾.. [١٠٥: التوبة]، وقال: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [١١٠: الكهف]، وقال تعالى: ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [١٠١: يونس]، وقال: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ [١٤: يونس]، وقال تعالى في الأمر بالقوة: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن**

(١) انظر المعتزلة ومشكلة الحرية ٧٥ - ٨٩.

[٦٠ : الأنفال]، وقال في الأمر بالجهاد: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [٧٨ : الحج]، وقال تعالىٰ: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [٤١ : التوبة].

ومن جانب آخر لا نجد آية في كتاب الله تأمر المسلم بالقعود أو تبيح له الخمول والتواكل والاستسلام في غير ما عذر شرعي.

وكذلك السنة:

قال ﷺ: «**المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قُل: قدر الله وما شاء فعل. فإن لو تفتح عمل الشيطان**»(١). وقال ﷺ: «**كل عامل ميسر لعمله**»(٢)، وقال ﷺ: «**اعملوا فكل ميسر**»(٣) وفي لفظ «**كل ميسر لما خلق له**».

ففي هذه الأحاديث وأمثالها من التوجيهات النبوية ما يكفي للرد علىٰ العقلانيين الذين يزعمون أن الإيمان بالقدر هو سبب تأخر المسلمين وخمولهم.

* فالمؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله.
* والحرص علىٰ ما ينفع أمر مطلوب شرعًا.
* والاستعانة بالله وعدم العجز كذلك.

والركون إلىٰ الأماني والندم علىٰ ما فات أمور منهي عنها، ولو تفتح عمل الشيطان.

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر - باب في الأمر بالقوة، وترك العجز والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله - حديث رقم (٣٤).

(٢) رواه مسلم، الحديث رقم (٢٦٤٨).

(٣) رواه مسلم، الحديث رقم (٢٦٤٨).

أما عمل كثير من المسلمين الذين توازعتهم القدرية والمرجئة والجبرية، والصوفية التي تذهب إلىٰ مذهب الجبرية، فهو ليس بحجة؛ لأن هؤلاء سلكوا سبل الأهواء والبدع والافتراق.

ثانيًا: واقع التاريخ يشهد أن المسلمين، إنما انحطوا، وتواكلوا، وساءت حالهم حينما ساء مفهومهم للقدر واختل إيمانهم بالقدر بين قدرية وجبرية، وتركوا الأسباب وتعلقوا بالقبور والأضرحة، وركنوا إلىٰ التوسلات البدعية، وضعف توكلهم علىٰ الله، وركنوا إلىٰ غير الله.

فبعد المسلمين عن حقيقة الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالىٰ، فكان انحرافهم في عقيدة القدر وجهلهم بها، من أعظم أسباب تأخرهم وخمولهم، وقعودهم عن الجد والاجتهاد و الجهاد في عصورهم المتأخرة، إذ إن جميع العقلاء متفقون علىٰ أن المسلمين في عصورهم المتأخرة، كثرت بينهم البدع وفرقتهم الأهواء، وكثر خلل الاعتقاد بينهم، وصاروا أقل تمسكًا بالدين، والتزامًا بأحكام الإسلام من ذي قبل، وأن المسلمين وصلوا إلىٰ ما وصلوا إليه من قرونهم الأولىٰ من سؤدد ومجد ورفعة وحضارة بتمسكهم بالإسلام واستقامتهم في العقيدة والعبادة. ولم تضرهم عقيدة الإيمان بالقضاء، إنما زادتهم قوة إلىٰ قوتهم، ودفعتهم إلىٰ العمل والجد والجهاد والنشاط.

أما قول العقلانيين: بأن الإنسان مطلق الحرية دون ضوابط ودون مشيئة الله وتقديره وأن عقيدة الإيمان بالقدر من الله تقيد من حريته.. فهذا كلام باطل في الجملة.

وفيه حق من جانب أن الإنسان حر الإرادة والاختيار، لكن ليس علىٰ الإطلاق، فإن حريته محدودة، ومقيدة من جوانب كثيرة.

* فهي محدودة بمشيئة الله **﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾**.

* وهي كذلك محدودة بحدود المصلحة العامة، فإن تصرفات الإنسان الفرد قد تضر الجماعة فيلزم ضبطها.

* ومحدودة بحدود الشرع الذي جاء من الله العليم الخبير، والذي هو حق وخير وعدل.

* ومحدودة بحدود طاقة الإنسان الضعيفة وعمره القصير، وعلمه القاصر المحدود.

* ومحدودة بحدود الغيب المحجوب عن الإنسان في علم الله **﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله...﴾**، **﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾**.

وهذه الحدود، ليست قيوداً، إنما هي مبنية على مصلحة الإنسان نفسه ومبنية على علم الله العليم الخبير، وتقديره الذي هو قطعًا عين الحكمة.

ومبنية على خضوع الإنسان وتسليمه لله تعالى، ووقوعه تحت مشيئة الله وإرادته العامة، الكونية القدرية، والدينية الشرعية.

فالله أعطى الإنسان القدرة على اختيار الحق من الباطل، والتمييز بينهما بعد أن بين له طريق الخير ويسره له، وبين له طريق الشر وحذره منه، كما قال تعالى: **﴿إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾**.

فإيمان الإنسان بقدر الله المحجوب في علم الغيب، يعطيه أو يمنحه ـ بإذن الله ـ القوة والعزيمة والنشاط في العمل، والرضا والطمأنينة بكل ما يعمله وما يعترضه.

فيسعى في هذه الحياة ويعمل ويكدح بجد ونشاط غير مستسلم للأوهام والخرافات، وغير معتمد على الأسباب وحدها. ويعمل بالأسباب حسب توجيه الشرع.

والمسلم مأمور ـ بدافع إيمانه بالقدر ـ أن يستعيذ بالله من الكسل، والعجز، والفقر.

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: **«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن، والهرم، والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات»**. [1]

فالاستعاذة من العجز والكسل، والفقر، تدفع المسلم إلىٰ عدم الركون والخمول، وتشعره بالابتعاد عن الوقوع في هذه المعاني. ومثل هذا التوجيه العظيم من الرسول ﷺ يقضي علىٰ شبهة بعض العقلانيين الذين يزعمون أن عقيدة القدر في الإسلام تؤدي إلىٰ الخمول والتواكل!

أما دعوىٰ أن الإسلام جاء ليحرر الإنسان من عقيدة القدر، فليس هذا بصحيح؛ لأن القدر غيب في علم الله، وليس بإمكان الإنسان أن يعلم الغيب أو يكشفه، إنما عليه أن يعمل ويجتهد ويخطط وينفذ، ثم يكل الأمر بعد ذلك وقبله لقدر الله، ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾.

وكيف يتحرر الإنسان من عقيدة الإيمان بقدر الله وقضائه، وهو محكوم بحكم هذا القدر، من حين أنشأه الله ثم في حياته، فقد قدر الله له كل شيء رزقه وعمله وصحته ومرضه وموته، وسعادته وشقاوته ونجاحه وفشله، فلا مفر للإنسان من قدر الله، فكيف يتحرر من القدر؟!

إن العقلانيين حين يفرون هم أو غيرهم من قدر الله ـ بزعمهم ـ فإنما يقعون في قدر الله أيضًا رغم أنوفهم، فلو لم يكن أمامهم من قدر الله إلا الموت لكفىٰ للعاقل أن يذعن ويستسلم لله العلي الكبير، فلا ملجأ من الله إلا إليه (لو كانوا يعقلون).

﴿ **قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [٨: الجمعة].

* * * * *

(١) رواه مسلم، كتاب «الذكر والدعاء» باب التعوذ من العجز والكسل وغيره، حديث رقم (٥٠).

المبحث الحادي عشر

موقف العقلانيين من التشريع والأحكام الإسلامية ومصادرها وتطبيقاتها

منهج العقلانيين تجاه العمل بالشريعة متفاوت ومضطرب، والدارس لمناهجهم وآرائهم يجد أن عامة العقلانيين يعترضون على العمل بشرع الله أو بعضه، أو يدعون إلى العمل بالشرع على أصولهم وقواعدهم واجتهاداتهم هم، مع إلغاء اجتهاد السلف وعلماء الأمة وفقهائها.

وذلك تحت شعارات ودعاوى كثيرة كالتجديد والتحديث والمعاصرة والمسايرة للحضارة الغربية المادية الوثنية.

ولهم محاولات كثيرة للتنصل من التشريع أو بعضه، والانفلات من العمل بسنة النبي ﷺ أو بعضها.

ومن هذه الوسائل تقسيمهم للسنة إلى تشريعية وغير تشريعية، أو سنة ملزمة أو غير ملزمة، أو ما هو وحي وما هو اجتهاد نبوي.

وقد سار على هذا النهج أمثال: **السيد أحمد خان**، والشيخ شلتوت في كتابه: (الاسلام عقيدة وشريعة)، **ومحمد سليم العوّا** في مقالته (السنة التشريعية وغير التشريعية)، **وعبد المنعم النمر** في كتابه (السنة والتشريع)، **وأحمد كمال أبوالمجد** في مقالته: (الخيط الرفيع بين التجديد في الإسلام والانفلات منه)، **ومحمد عمارة** في (معالم المنهج الإسلامي)، **وفهمي هويدي** في مقالته: (وثنيون هم عبدة النصوص)، **وأمين الخولي** في كتابه (المجددون في الاسلام)، **وحسن الترابي** في بعض محاضراته ومؤلفاته، **وعبد الله العلايلي** في كتاب: (أين الخطأ؟)،

ومحمد فتحي عثمان في كتاب (الفكر الإسلامي والتطور).

وكذلك زعمهم التحرر من اجتهاد السلف والقواعد والأصول والضوابط التي استنبطوها وعملوا عليها في الاجتهاد، واستحداث أصول جديدة للاجتهاد، ولهم في ذلك مسالك شتى وطرائق متعددة، ونجد أكثر من سبق ذكرهم آنفًا من أكثر الناس دعوة لهذا الاتجاه التجديدي، ويميل إلى هذا الاتجاه محمد الغزالي، ومعروف الدواليبي وعبد الحميد أبو سليمان، وغيرهم.

فمنهم من يحصر الأحكام والتشريع بالعبادات، وبعض الأحكام القطعية، وغالبهم يعترضون على تطبيق الحدود الشرعية، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (بمفهومه الشرعي في السنة) ويضيقون ذرعًا بالحجاب، كما سبق بيانه، وهذه الأمور من خصال المنافقين، نسأل الله السلامة.

* * * * *

المبحث الثاني عشر
مزاعم المدرسة العقلية حول الإسلام على العموم

عرفنا من خلال الفصول الماضية رأي المدرسة العقلية الحديثة في أكثر وأهم أصول العقيدة الإسلامية، كالتوحيد والوحي والنبوة، ومسائل الغيب وغيرها.

وإذا كان هذا هو رأي العقلانيين في أصول العقيدة، فما رأيهم في الإسلام على وجه العموم؟

وقبل أن أعرض آراء العقلانيين في الإسلام، أحاول تعريفه من خلال الكتاب والسنّة:

لقد عرّف بعض السلف الإسلام بأنه:

«الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراء من الشرك»[١] وأنه «الاستسلام لله، وهو الخضوع له، والعبودية له»[٢].

ويعرّفه بعضهم بأركان الإسلام الخمسة، ويعرفه آخرون بأركان الإيمان الستة، والصحيح أن التعريف يشملهما عند الإطلاق كما ذكر كثير من السّلف[٣].

ومن هذه التعاريف، ومن خلال الأدلة من الكتاب والسنّة، يتبين لنا أن الإسلام بمعناه الاصطلاحي الشامل، هو التسليم لله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، والخضوع لدين الله، الذي أنزله على رسوله ﷺ المتمثل بالكتاب والسنّة وما اشتملا عليه عقيدة وشريعة، أي الأصول والأحكام، والعلم والعمل.

---

(١) راجع ثلاثة الأصول ـ للشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ حاشية الشيخ عبدالرحمن بن قاسم ص٤١.

(٢) كتاب الإيمان لابن تيمية ص٢٢١.

(٣) المصدر السابق من ص٢١٦ إلى ٢٢٨.

فالإسلام يتضمن أركان الإيمان، وأركان الإسلام، وأمور الغيب والأخبار الثابتة من الكتاب والسنة، والحدود، والحلال والحرام، والأخلاق، والجهاد والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وأنظمة الحكم، والقضاء، والاقتصاد والاجتماع، وسائر شُعَب الحياة(١).

والإسلام دين الله الذي ارتضاه لعباده كما قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [٣: المائدة] ولن يقبل من الناس غيره ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴾ [٨٥: آل عمران].

فالإسلام شامل لكل أوجه الحياة، للفرد والدولة والمجتمع والبشرية كلها، كما أنه اشتمل على العقيدة والشريعة المتكاملة التي تعطي البشرية التصور الكامل والتشريع والنظام الكافي، حول الإنسان، والكون، والحياة وخالقها، وحول مصير الإنسان بعد الحياة (شؤون الدنيا والآخرة).

والإسلام دين إلهي رباني، لا أثر للبشر فيه، إنما عليهم العمل والتطبيق اجتهاداً وعملاً، فالإنسان لا يملك إلغاء الإسلام، أو استبداله، ولا الزيادة أو النقص فيه، أو التعديل في أصوله وأدلته، ويستحيل على البشرية وضع منهج بديل عنه أفضل منه، أو يساويه أو يقاربه.

ولكن العقلانية الحديثة ـ تبعًا للمد الفكري والثقافي الغربي، الذي يتنكر للأديان ـ انتهكت حرمة الإسلام وقداسته، نظريّاً وعمليّاً.

فمن الناحية النظرية: أعطت الإسلام كثيراً من الأحكام، والمفاهيم والتفسيرات، التي لا تنطبق عليه، وأثارت حول أصوله وفروعه في العقيدة والشريعة، الكثير من الشكوك والشبهات، والتفسيرات الخاطئة.

---

(١) موضوع فصل الإسلام عن الدولة والحياة، سيأتي الحديث عنه تحت فصل: أهداف المدرسة العقلية، مع العلم أنه يدخل تحت هذا الفصل.

وأعملت الأقلام فيه، وكأن الإسلام نشاط بشري أو ظاهرة أو نظرية، أو حركة قابلة للنقد والتعديل والزيادة والنقص والتخطئة، وقد تفسره أحيانًا بتفسيرات مذهبية، أو مادية وضعية، بحسب الرأي والهوىٰ والمزاج الشخصي، وكل يريد أن يفسر الإسلام كما يشتهي، كما سنرىٰ.

وقد يرىٰ بعضهم أن الإسلام دين رباني شامل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لكنَّه لا يصلح للتطبيق في هذا العصر، حيث يزعم كثيرون من العقلانيين والعصرانيين أن الإسلام جاء لمرحلة زمنية محدودة، ولبيئة بدوية ساذجة، فلا يصلح للعصور الحديثة المتطورة!

ومن الناحية العملية: سعت العقلية الحديثة لإبعاد الإسلام عن الدولة، ونظام الحكم وعن القضاء، ثم عن التعليم والتربية، والاقتصاد، والاجتماع، أي عن كل نشاطات الحياة، ليكون محصوراً في العبادة الفردية لا يتعدىٰ ضمير الفرد ووجدانه، أو ممارساته التعبيرية البحتة.

وقد يتسامح بعضهم، ويجعل الإسلام دينًا اختياريّاً للفرد والجماعة، في الحياة العامة، والخاصة، إلاّ أنه لا يتدخل في شؤون الدولة، والسياسة، والعلاقات الخارجية.

وكثيرون منهم يحصرون الإسلام في الأحوال الشخصية (الزواج والطلاق والميراث ونحو ذلك) كما يفعل الغربيون تجاه دينهم المحرف.

هذا: ومن العقلانيين من هو أكثر اعتدالاً، ومنهم من هو أكثر تطرفًا مما ذكرنا، فهم طرائق متعددة ومذاهب شتىٰ، وكثيراً ما يكون لكل واحد منهم مذهب ورأي ينفرد به تجاه الدين، **وإليك شيئًا من هذه الآراء لبعض العقلانيين حول الإسلام:**

* بعض العقلانيين المعاصرين يتجاهل الإسلام والدين والوحي ويلغيه من

حسابه حينما يتصدىٰ ـ بزعمه ـ لحل مشكلات الأمة، فإما أن يذهب شطر الغرب الكافر يلتمس الحلول في أطلال الوثنية والمادية، أو يرقِّع، أو ينتحل من أوهامه ما يزعم أنه الحل في أزمة تخلف الأمة اليوم. وإليك أخي القارئ أنموذجًا من الطرح العقلاني العجيب، وهو ما يذهب إليه زكي نجيب محمود في كتابه (تجديد الفكر العربي) بعد أن صوّر حيرته والتيه الذي كان يعيش، ثم ما هو الحل ومن أين استمده واهتدىٰ إليه حسب زعمه؟ يقول: «وفجأة وجدت المفتاح الذي أهتدي به، ولقد وجدته في عبارة قرأتها نقلاً عن هربرت ريد، إذ وجدته يقول: «إنني لعلىٰ علم بأن هنالك شيئًا اسمه «التراث»، ولكن قيمته عندي هي في كونه مجموعة من وسائل تقنية يمكن أن نأخذها عن السلف لنستخدمها اليوم ونحن آمنون بالنسبة إلىٰ ما استحدثناه من طرائق جديدة؟ فمثلاً هنالك طريقة استخدمها السابقون في حزم الدريس، وأخرىٰ استخدموها في نظم المقطوعات الشعرية (السوناتا) ونستطيع أن نعلّم هذه الطريقة أو تلك لمن شاء أن يتعلم... وإن الحالة التي يعانيها العالم اليوم لهي في رأيي كافية للدلالة علي مدىٰ ما تستطيعه الصور الفكرية التقليدية ـ كَنَسِيَّةً كانت أو أكاديمية ـ في حل مشكلاتنا، وهي الصور التي يطالبوننا اليوم بأن نحيطها بالتبجيل والتقديس؛ لأنها هي التراث...».

فانظر كيف أعمىٰ الله بصيرته ـ نسأل الله السلامة ـ عن البحث عن الحل في كتاب الله وسنة رسوله ونهج السلف الصالح، ثم هو يفرح حين يجده ـ بزعمه ـ عند كافر لم ينفع نفسه؟!

ثم تأمل هذا الشعور العجيب والإعجاب الأعمىٰ بهذا الحل الفاسد الباطل حين قال: «أقول إنني وجدت في هذه العبارة مفتاحًا للموقف كله؛ فماذا عسانا أن نأخذ من تراث الأقدمين؟ الجواب هو: نأخذ من تراث الأقدمين ما نستطيع تطبيقه اليوم تطبيقًا عمليّاً، فيضاف إلىٰ الطرائق الجديدة المستحدثة؛ فكل طريقة للعمل اصطنعها الأقدمون وجاءت طريقة جديدة أنجح منها، كان لابد من اطراح

الطريقة القديمة ووضعها على رف الماضي الذي لا يعنى به إلا المؤرخون؛ بعبارة أخرى: إن الثقافة ـ ثقافة الأقدمين أو المعاصرين ـ هي طرائق عيش، فإذا كان عند أسلافنا طريقة تفيدنا في معاشنا الراهن، أخذناها وكان ذلك هو الجانب الذي نحييه من التراث، وأما ما لا ينفع نفعًا عمليّاً تطبيقيّاً فهو الذي نتركه غير آسفين، وكذلك نقف الوقفة نفسها بالنسبة إلى ثقافة معاصرينا من أبناء أوربا وأمريكا».

وهكذا يصور هذا الحائر المتخبط ـ نسأل الله العافية ـ أن المسألة مسألة: طرائق عيش، وأن مالا يفيدهم في معاشهم ولا ينفع عمليّاً فهو منبوذ بغير أسف بزعمه، فما قيمة الدين والهدى والإيمان والتقوى عند هؤلاء؟.

ثم يقول: «المدار هو العمل والتطبيق، والمدار هو ما يعاش به، هو ما يستطاع سلكه في جسم الحياة كما يحياها الناس، أو كما ينبغي لهم أن يحيوها؛ فإذا ألفيتُ عند السلف طريقة تنفعني اليوم في بناء المنازل، أو في رصف الطرق، أو في إقامة الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة، أو في طرائق التعبير باللفظ عما يريد الناس أن يعبروا عنه مما تعتمل به نفوسهم اليوم، كان ذلك هو التراث الذي تحييه، وأما ما يبقى فلا مندوحة له عن أن يظل راقدًا في أجداثه، مجالاً لمن شاء من المؤرخين».

وهكذا لا يهمه أنْ يرث عن السلف إلا الماديات.

ثم قال: «على أنه ليس كل ما يأخذه ابن اليوم من إنسان الأمس جائز القبول، حتى ولو كان أداة من أدوات الحياة العملية؛ فالفلاح المصري قد ورث عن جده القديم طريقته في حرث الأرض وريها، لكنه تراث ظهر له اليوم من آلات البخار والكهرباء ما ينسخه، فعندئذ لا يجوز لهذا الفلاح أن يحتج على أدوات عصره قائلاً: لكن المحراث والشادوف والساقية هي تراثي من الآباء والأجداد، برغم أنه تراث عملي نافع في حدوده؛ والفلاحة المصرية قد ورثت عن جدتها القديمة طريقتها في تشييع موتاها، لكننا لا نتردد في رفض تراث

كهذا، ونتمنى له الزوال السريع».

ونسأل هذا العقلاني: وهل كان ما ورثه المصري المعاصر في تشييع موتاه إلا الشرع الإسلامي القويم ـ إذا أخرجنا البدع ـ؟!

ثم يقول: «وإني لأعلم أن من القراء ممن سيأخذه العجب لهذه الأمثلة التي أسوقها تدليلاً على التراث، متى يجوز بقاؤه ومتى لا يجوز، قائلاً لنفسه: ليس هذا هو التراث الذي نعنيه حين نتحدث عن حياتنا الثقافية كيف ينبغي لها أن تكون، وماذا يجب أن تستمده من «التراث» وماذا يجب أن تهمله؛ فليس المحراث والشادوف وصرخات المرأة الحزنة المشيعة لفقيدها جزءاً من «التراث» بهذا المعنى الذي نعنيه؛ إنما نعني في هذا الصدد شرع الدين ونظم الشعر وإرسال الحكمة، والشجاعة في القتال وإكرام الضيف، وما إلى هذه الجوانب من حياة أسلافنا، وما قيل فيها وما روي بشأنها؛ لكنني أقول للمعترض بأنه لا فرق في الأساس والجوهر ـ ما دمت قد جعلت قاعدتي ما أستطيع أن أستمده من الأسلاف من طرائق العمل في الحياة اليومية الجارية ـ لا فرق بين أن يكون الذي أتعلمه من السابقين هو طريقة حرث الأرض، أو طريقة نظم الشعر، أو طريقة توزيع المواريث على مستحقيها، أو طريقة التعاقد على زواج، أو الاحتفال بمولود جديد، أو إقامة الشعائر الملائمة للجنازات ودفن الموتى؛ كلها وسائل نعيش بها ونسلك على أساسها، فإذا فعلنا كنا بمثابة من أدخل تراث الماضين في صلب حياته الحاضرة، وإذا رفضنا كنا رافضين لهذا التراث أن يكون جزءاً من هذه الحياة».

وهكذا يريحنا المؤلف من التحرز من تفسير المقاصد، فيعلن أنه لا فرق بين ما هو من طرائق العمل كالحرث، وما هو من الشرع كتوزيع المواريث ودفن الموتى، فهو بهذا يحدد موقفه بوضوح من الدين، ويرى أن ما كان منه يتعارض مع شروطه المادية فهو مردود.

ثم يؤكد ذلك بقوله: «فإذا كان السؤال المطروح هو: كيف السبيل إلى دمج التراث العربي القديم في حياتنا المعاصرة، لتكون لنا حياة عربية ومعاصرة في آن؟ كانت طريقة الإجابة السديدة هي أن أبحث عن طرائق السلوك التي يمكن نقلها عن الأسلاف العرب بحيث لا تتعارض مع طرائق السلوك التي استلزمها العلم المعاصر والمشكلات المعاصرة»(١).

هذا أنموذج من المسلك الذي نهجه المؤلف في كتابه، ثم إنك لو تأملت الكتاب كله وجدته لا يكاد يذكر الإسلام ولا الدين، ولا الأمة المسلمة، إنما يرتكز حديثه على العرب والمعاصرة والتراث، والجديد والقديم، والفكر والعقل، والعيش. وإذا ذكر الدين والقديم والسلف كان ذلك على سبيل التبرم والضيق والتنكر والقدح أو على حد تعبيره (فهذا الذي نتركه غير آسفين) كما سبق في النص المنقول عنه.

* يميل كثير من الكتاب العقلانيين المحدثين إلى أن الإسلام دين عربي، ويختلف تفسيرهم لهذه النظرة.

فالقوميون العرب على وجه العموم، يعتبرون الإسلام أحد مقومات القومية العربية، وأنه أحد أسسها التابعة لها(٢).

وأن محمد بن عبدالله ﷺ، كان أول قائد للقومية العربية، أو أنه المؤسس الأول للدولة العربية.

يقول محمد أحمد خلف الله: «من المسلَّم به عند الناس قاطبة أن محمد بن عبدالله ﷺ هو المؤسس للدولة العربية التي اتخذت من الإسلام عقيدة

---

(١) تجديد الفكر العربي - زكي نجيب محمود، ص١٧ - ٢٠.

(٢) راجع تقويم الفكر الديني وصلته بالقومية العربية - د. محمود الشرقاوي ص٥ - ٦، وراجع مجلة العربي - افتتاحية العدد الأول لأحمد زكي رئيس التحرير، والعدد ٤٥ مقالة لعلي بدور بعنوان القومية العربية حدودها لغة وتاريخًا، ص١٦.

ونظامًا»[١]، وتأمل تعبيره حيث صور القومية بأنها هي التي اتخذت من الإسلام عقيدة ونظامًا، فجعل القومية هي الأصل والدين تابعًا لها.

وهذا التعبير في إطلاقه تعبير خاطئ؛ لأنه يوحي بأن الرسول ﷺ إنما أسس دولة عربية، جاء الإسلام تبعًا لها، وأن الإسلام دين عربي. وتبعًا لذلك قالوا في تعبيرهم عن مقومات الأمة الإسلامية: التاريخ العربي، والحضارة العربية، والعقلية العربية، والثقافة العربية، والفكر العربي، والفتوح العربية[٢].. إلخ.

*ومن أخطر الآراء حول الإسلام، قول بعضهم بأن الإسلام بتعاليمه وتشريعاته وتاريخه، يمثل مجموعة العناصر البيئية والحضارية، التي نشأ فيها، والتي دخلت تحت دولته فيما بعد.

وأن الإسلام لم يتبلور فكريّاً وعقائديّاً وتشريعيّاً، إلاّ بعد أن مزج بتعاليمه أعراف الجاهلية، وتعاليم الفرس والروم واليونان والهنود، وعقائد اليهود والنصارىٰ والمجوس والصابئة، وغيرهم من الديانات والملل الضالة.

أو أن الإسلام لم يسلم في عقيدته وأصوله من التأثر بتلك النزعات الجاهلية والفارسية واليونانية وغيرها.

وأنه ما استطاع أن يصهر العرب الذين أسلموا في بوتقته.

يقول أحمد أمين في فجر الإسلام:

«إذًا، كان في العصور الأولىٰ للإسلام نزعات جاهلية، ونزعات إسلامية، كانتا تسيران جنبًا إلىٰ جنب»[٣] هكذا يزعم! والحق أنهما لم تكونا تسيران جنبًا

---

(١) الأهرام عدد ٢٧، ٤/ ١٩٧٢.

(٢) ويتضح ذلك في كثرة المؤلفات الحديثة التي تحمل عناوين عربية في حين أنها تخص الدراسات الإسلامية.

(٣) فجر الإسلام لأحمد أمين ص٨٣.

إلىٰ جنب فكانت النزعة الجاهلية خافتة رغم وجودها في بعض الأعراب والمنافقين.

وقال قبل ذلك: «الحق أن النزاع بين النفسية الإسلامية والنزعات الإسلامية، والنفسية الجاهلية والنزعات الجاهلية، كان شديداً وكان عهده طويلاً، وأن الإسلام لم يصبغ العرب صبغة واحدة علىٰ السواء»[1] **وكلامه بهذا الإطلاق فيه شيء** من المبالغة والإساءة إلىٰ الإسلام. **ويقول**: «وقانون الفرس والقانون الروماني امتزجا بالأحكام التي أوضحها القرآن والسنّة»[2].. هكذا!

لقد اختلط عليه الأمر، فإن القانون الروماني وقانون الفرس لم يختلطا بما جاء في الكتاب والسنة؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، إنما ما جاء به أشياعه من الرافضة والباطنية والصوفية والمعتزلة والزنادقة، وما جاء به هو وأمثاله المستمد من الفرس والروم وأخلافهم من الغربيين وغيرهم.

وأنا ألحظ من الكاتب الحرص علىٰ تأكيد تأثر الإسلام بالعناصر الأجنبية من خلال هذه العبارات، ذلك أنه قد يقصد معنىٰ مقبولاً في بعض ما قاله، لكنه حين يلح بهذه العبارات علىٰ التأكيد لما يقول الدين دون دليل فإنه يجانب الصواب، لا سيما وأنه يخالف أصلاً من أصول الإسلام، وهو أنه دين الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فقد أكمل الله الدين اعتقاداً وتشريعًا، كما قال تعالىٰ: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [٣: المائدة].

وذهب إلىٰ ذلك أيضًا الدكتور طه حسين، وهو أكثر تصريحًا حيث يقول:

«وما رأيك في حياة عقلية للعرب تجد فيها أثر الحياة الجاهلية وهو كثير بعيد، وتجد فيها أثر الإسلام، وهو مركب غير بسيط، وتجد فيها أثر المسيحية، وفيها السامي واليوناني، وتجد فيها أثر المجوسية الفارسية، كما تجد فيها أثر الديانات

---

(١) المصدر السابق ص٨٢.

(٢) المصدر السابق ص٩٣.

الهندية على اختلافها، كما تجد فيها تيارات الحضارات المختلفة، لكل هذه الأمم التي ذكرنا أسماءها»[١]، ويقول عن الأشعار الجاهلية: «وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين»[٢].

وهكذا نجد أن طه حسين يصرح أكبر بأن الإسلام يمثل في حياة المسلمين جزءاً من خليط من الديانات والمذاهب والنزعات، حين يجعل للعرب حياة عقلية، الإسلام ما هو إلا جزء منها، أو مركب من مركباتها وعناصرها المجوسية واليونانية والمسيحية، والجاهلية، على حد زعمه، **إنه بهذه العبارة** الوجيزة لم يُبقِ للإسلام أثراً يذكر! وإنه لم يورد أي دليل حين قال هذا الكلام، ولم يقله هو في الحقيقة، بل قلّد تقليداً أعمى لما قال به كثير من المستشرقين قبله[٣].

وبعضهم يزعم ذلك أيضاً في العقيدة الإسلامية، وأنها تأثرت بتلك المؤثرات العقائدية، الجاهلية والفارسية والرومانية، من نحل وأديان ومذاهب.

فيذهب أحمد أمين في (فجر الإسلام) إلى أن العقيدة الإسلامية نفسها تأثرت بذلك الامتزاج التاريخي، حين يقول:

«حتى العقيدة الإسلامية، لم تخل من تأثر بهذا الامتزاج، أتظن أنَّ الفارسي أو السوري النصراني، أو الرومي، أو القبطي، إذا دخل الإسلام انمحت منه كل العقائد التي ورثها من آبائه وأجداده قروناً، وفهم الإسلام كما يريد الإسلام من تعاليمه؟ كلا، لا يمكن أن يكون ذلك» إلى قوله: «حتى المخلصون منهم في

(١) راجع مقدمة كتاب فجر الإسلام، كتبها د. طه حسين، صحيفة ح وصحيفة ط.

(٢) ص٦٥ (في الأدب الجاهلي) د. طه حسين.

(٣) راجع (الإسلام) للمستشرق (هنري ماسيه) ص٣٩، ٤٢، ١٦٠، ١٦١، و(دراسات في حضارة الإسلام) للمستشرق (جب) ص٣ و(العقيدة والشريعة) للمستشرق (قولد زيهر) خاصة تعليق محمد يوسف موسى على هامش ص١٠.

اعتناقهم الإسلام»[١] .

ونقول لهذا الخلط: نعم إن عقائد الفرق الضالة عن السنة والجماعة ـ كالشيعة والخوارج والقدرية والمرجئة والمعتزلة والجهمية ومن تابعهم من متكلمة الأشاعرة والماتريدية ـ إن عقائد هذه الفرق تأثرت بمن ذكرهم وغيرهم، وهذا مصداق خبر النبي صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سنن من كان قبلكم..» الحديث، أما عقيدة أهل السنة والجماعة فهي نقية صافية لم تشرب إلا من معين الوحي الإلهي.

ونقول أيضًا: صحيح أن كثيرين ممن أسلم من أبناء فارس والروم، بقيت عندهم آثار من تقاليدهم وعاداتهم وطقوسهم وعقائدهم، ولكن لم يكن لذلك أثر على العقيدة الإسلامية بهذا الإطلاق، كما زعم المؤلف والدكتور طه حسين. . كلاّ، بل إن العقيدة الإسلامية لم تتأثر أدنى تأثر بأية مؤثرات جاهلية أو فارسية أو نصرانية أو مجوسية أو يهودية أو غيرها، وإن بقي في نفوس بعض المنتسبين لهذه النحل بعد إسلامهم شيء من أديانهم كان له أثر من ظهور الفرق المفارقة للسنة والجماعة كما أسلفت، فإن العقيدة الإسلامية الحقة شيء واعتقاد هؤلاء وإن أسلموا شيء آخر، ولأن العقيدة الإسلامية هي دين الله الذي لا يأتيه الباطل، وما دخل على المنحرفين من المسلمين من غير هذه المصادر فإنما هو خروج عن الأصل، لا يحسب على العقيدة الإسلامية، ولا يدخل فيها، وليس له أي أثر عليها، إنما كان أثره على اعتقاد الفرق الضالة والطوائف المنحرفة، التي لم تلتزم العقيدة الإسلامية الصافية .

ونرى (محجوب بن ميلاد) يدعي أن العقيدة الإسلامية لم يقم صرحها إلا بعد الخلفاء الراشدين، حين يقول: «فبعد أن كانت آيات ترتَّل وأحاديث تروى، في أيام الرسول العربي، وفي عهد الخلفاء الراشدين، وفي أوائل الدولة الأموية،

(١) فجر الإسلام ص٩٤.

إذا بها تصبح صرحًا فلسفيًّا شامخًا[١]» **نعم وصفه هذا ينطبق على عقائد الجهمية والمعتزلة شيوخه وأسلافه، أما عقيدة السلف فلا.**

وعلى أية حال: فإن هذه الآراء توحي بأن الإسلام في نظر هؤلاء إنما هو وضع بشري تكون من عدة عناصر وخلاصات حضارية وعقائدية وعقلية، من جراء استيلاء المسلمين على مجموع مكونات تلك العناصر، من الشام والعراق والهند وفارس، فهو إذًا بزعمهم: إنما هو وضع بشري اجتهادي قابل للتبديل أو التجديد، ولا داعي للقول بقداسته وقداسة أحكامه ما دام كذلك.

* **ومن جهة أخرى:** نرى فريقًا من العقلانيين يفسر الإسلام بتفسيرات مذهبية أو حزبية على ضوء المذاهب المعاصرة والمصطلحات الحديثة.

فالاشتراكيون يريدون أن يكون الإسلام اشتراكيا، والثوريون يجعلونه اتجاهًا ثوريًّا، والاجتماعيون يقولون: الإسلام ظاهرة اجتماعية فذة، والديمقراطيون يقولون: الإسلام دين الديمقراطية والعدالة، والفوضويون يقولون: هو دين الحرية، إلى آخر هذه السلسلة من الشعارات، كل منها يريد أن يحصر الإسلام (بشموله وسموه) في إطار مذهبه أو فكرة الضيق أو هواه ورغبته الشخصية!

فهذا رأي من آراء الاشتراكيين:

يقول أحدهم: «والواقع أن الإسلام كان ثورة إنسانية شاملة على المظالم الاجتماعية وحقوق الملكية المقدسة واستبداد الطبقات القوية بالطبقات الضعيفة»[٢].

ويقول: «والواقع أن العبيد والمستضعفين كانوا يعرفون أن الإسلام كثورة اجتماعية هو ثورتهم، ولذلك انضموا تحت لوائه وأبلوا في سبيله أحسن

---

(١) في سبل السنّة الإسلامية ص٢٩.

(٢) راجع العدد ٤٦ من مجلة الكاتب لعام ١٩٦٤ ص٤١، ٤٢ من مقالة بعنوان: الصراع بين اليمين واليسار في الإسلام - الوسط يستولي على الحكم - بقلم أحمد عباس صالح.

البلاء»[١] .

ويقول : «وكما يحدث في أي ثورة فإننا نرىٰ في الطليعة المؤمنة بالدين الجديد ثلاثة تيارات ، أحدها يساري ثوري ، والثاني وسط معتدل ، والثالث يميني محافظ»[٢] .

«ويقول الدملوجي في تعريفه بالإسلام بأنه[٣] :

«دين الاشتراكية المعتدلة» .

«ودين الديمقراطية المعتدلة» .

«ودين الرأسمالية المعتدلة» .

«ودين التأميم» وهكذا يصور الإسلام دينًا للمتناقضات : الاشتراكية والرأسمالية . بل ودين التأميم كذلك .

ويقول حسن صعب : «فالإسلام ديمقراطية اجتهادية مطلقة وهو ثورية اجتهادية دائمة»[٤] .

* ويزعم آخرون أن الإسلام حين يُطَالب بتحكيم شرع الله ، ويطلب من المسلم الالتزام بتعاليم أخلاقية وتشريعية معينة ، فإنما يطالب بمثاليات ، يشد إليها المؤمنين مع أنه لا يمكن تحقيقها في عالم الواقع ، فلابد أن يتنازل الإسلام عن مثالياته اليوم ليساير الحياة الجديدة .

* كما يتوهم بعضهم أن الدين لابد أن يفشل في المستقبل ؛ **لأن العلم - في زعمهم - قام علىٰ أنقاضه ، ويعيش كثير من العقلانيين علىٰ هذا الأمل الآثم .**

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

(٣) هذا هو الإسلام - فاروق الدملوجي - ص١١ .

(٤) الإسلام وتحديات العصر - حسن صعب - ص٤٨ .

يقول إسماعيل مظهر:

«إن رجال العلم سيحاولون في المستقبل إخفات صوت الدين»[١].

قلت: نعلم لقد حاول بعض مدعي العلم من العلمانيين والحداثيين والملاحدة إخفات صوت الدين، ولا يزالون، لكن أنّى لهم ذلك والله يقول: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾؟

* وربما يعلل بعضهم أن الإسلام فرض نفسه فيما قبل على الناس بالقوة والسيف، فيزعم الدكتور طه حسين بأن الكلمة في عهد الخلفاء الراشدين لم تكن للحجة ولا اللسان إنما كانت للسيف.[٢] **فتأمل ـ أخي القارئ الكريم ـ** هذا الفهم المعكوس المقلوب، حيث صوَّر الخلافة الراشدة التي هي مضرب المثل في العدالة بأنها تقوم على السيف!!

* ويرى آخرون أن البشرية قد بلغت سن الرشد فلم تعد بحاجة إلى وحي السَّماء، وهو قول الدكتور محمد أحمد خلف الله حين ذكر «أن الإنسانية قد بلغت سن الرشد ومرحلة تحمُّل الأعباء، وليست في حاجة بعد اليوم إلى وحي السَّماء»[٣]. وأي رشد بلغته البشرية؟ إنها في الحقيقة بلغت غاية السفه والانحلال والانحدار والانهيار الخلقي والديني والاجتماعي وغيره.

والخلاصة: أن هذا كله وغيره يقال عن الإسلام، ومن أبناء المسلمين أنفسهم، بل ومن طائفة من مثقفيهم ومفكريهم وأدبائهم وأساتذتهم!

ولكن هل يضر ذلك الإسلام والمسلمين؟

الحقيقة أن المسلمين يضرهم ذلك، وقد ضرهم أشد الضرر، حين تساهلوا بدينهم فكان ذلك من أشد عقوباتهم العاجلة من الله.

---

(١) راجع صحيفة الفتح العدد ٥٧، ١٤/ ٢/ ١٣٤٦ ص٦ المجلد الثاني السنة الثانية ص١٠٢.

(٢) في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين ص١٤٠.

(٣) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة ـ د. محمد أحمد خلف الله ص٧٨.

أما الإسلام فلا، لن يضره كيدهم شيئًا، ولن ينقص ذلك من قيمته وعظمته وتأثيره.

فالإسلام دين الله عقيدة وشريعة ومنهجًا للحياة، يملك ولا يزال بحمد الله ولن يزال هو الحل لكل معضلة، والتنظيم لكل شؤون الحياة، والإسعاد لكل إنسان، ويملك أن ينهض ويتحدىٰ قوىٰ الدنيا كلها، بأفكارها وثقافاتها وصناعاتها وأسلحتها، متىٰ وجَدَ له رجالاً يحملونه عقيدة في صدورهم، يمثلونه في حياتهم العملية منهجًا وسلوكًا.

ولا يقبل الله من البشر دينًا ونظامًا غيره: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [٨٥: آل عمران].

والإسلام ليس مجرد دعوىٰ، إنما هو التزام واستسلام لله ولدينه ولشرعه، إنه التوحيد والطاعة والانقياد لله، وحده لا شريك له، باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وتطبيق حدوده، وإقامة شرعه، والجهاد في سبيله؛ حتىٰ لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله.

والإسلام منهج إلهي نزل من الله تعالىٰ؛ ليعمل به الناس في كل مكان وكل زمان.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [١٨: الجاثية]

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [٩: الإسراء].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٤٤: المائدة].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٤٥: المائدة].

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [٤٠: يوسف].

والشك في جدارة الإسلام وأحكامه وكماله، شك في توحيد الربوبية

والألوهية، وفي كمال الله تعالىٰ.

والعدول عن أحكام الله التي جاء بها الإسلام، إلىٰ أحكام ضعيفة، وتعطيل حدود الله وشرعه، بدعوىٰ أنها لا تصلح، وأن الأنظمة البشرية أفضل منه، ذلك شرك بالله تعالىٰ وعبادة غيره معه.

قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [٢١: الشورى].

كما أن الإسلام اشتمل علىٰ أحكام شاملة لكل أوجه الحياة الفردية والجماعية، كالعبادات والحدود، والقضاء، والبيوع، والنفقات، والمواريث والجهاد، والولايات، والإمارات والعلاقات الخارجية، وغيرها من الأحكام التفصيلية التي تضمنها القرآن والسنّة، مما يبطل دعوىٰ بعض العقلانيين بأن الإسلام لا علاقة له بشئون الحياة، أو أن الإنسان مستغن عن وحي السماء!

فالقرآن حينما حرم الربا والزنا وشرب الخمر والتبرج، وحين أمر بجلد الزاني وقطع السارق، وقتل أو صلب المفسد في الأرض، وحينما فوض المواريث والنفقات، وحرم ولاية الكفار والركون إليهم، وشرع الجهاد والقتال في سبيل الله، فلا بد أن يطبق ذلك في مجال الحياة الفردية والجماعية والدولية والعالمية.

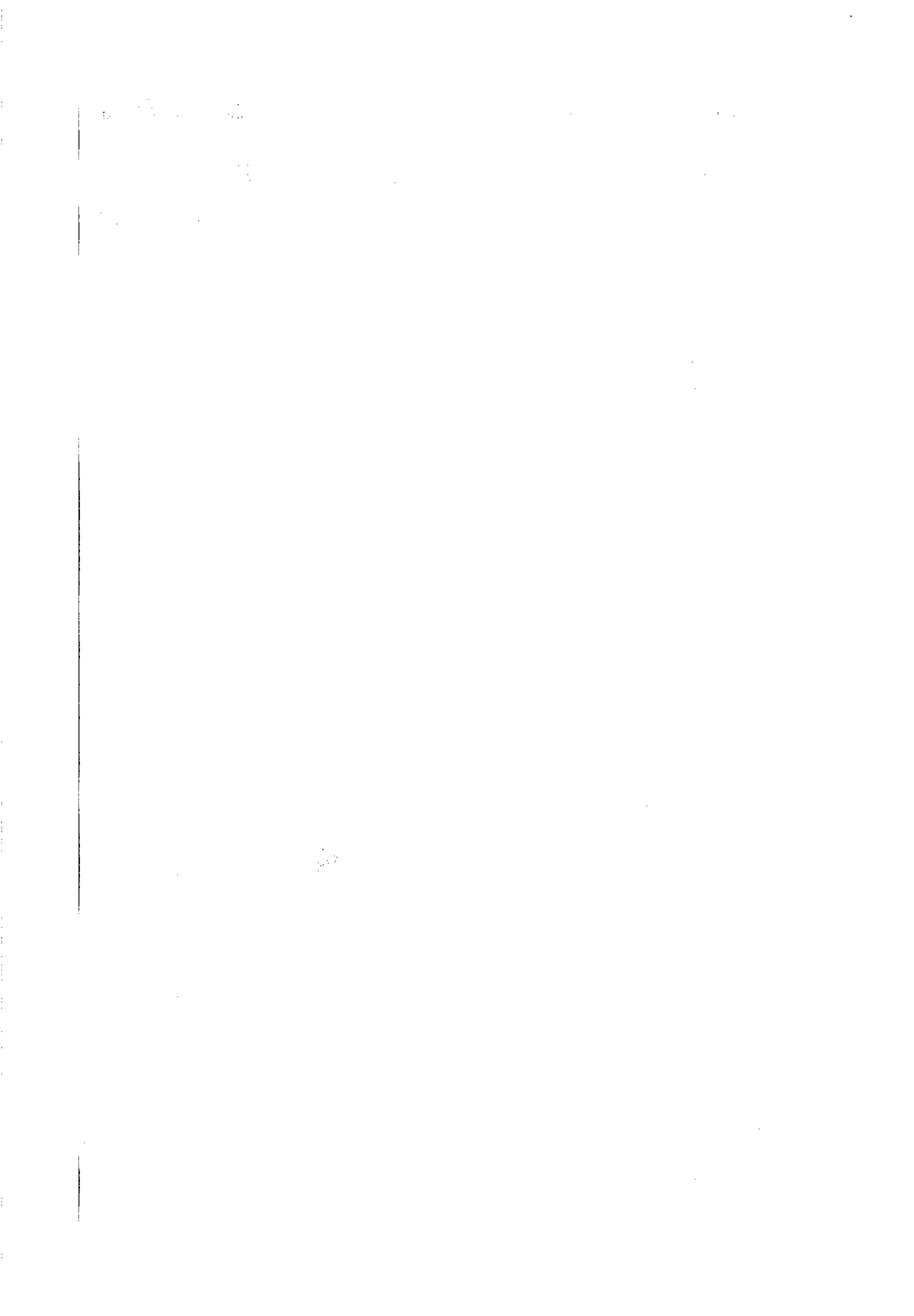
وأي رشد للإنسانية يغنيها عن وحي السماء ـ كما يزعم خلف الله ـ وهي لا تزال تباشر تلك الشركيات والمحرمات والموبقات والفواحش والآثام التي نهىٰ القرآن عنها، بل إنها اليوم في حياتها التي ينشدها العقلانيون تسرف كل الإسراف في اقتراف الآثام من الشرق والفواحش، كالزنا والربا والفساد والمنكر والبغي والظلم، مما لا يمكن تطهير الأرض منه إلا بوحي الله، الذي اشتمل عليه الإسلام[1].

---

(١) راجع فصل الدين عن الدولة ـ في أهداف المدرسة العقلية الحديثة ـ في هذا البحث.

﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ [٦٢، ٦٣ : الأنعام] .

* * * * *



الفصل الرابع

ويشتمل على:

* منهج المدرسة العقلانية الحديثة في دراسة الإسلام إجمالاً.

أصول المنهج العقلاني ومرتكزاته في العصر الحديث تجاه الإسلام.

* أهداف المدرسة العقلية الحديثة.

* سمات المدرسة العقلية الحديثة:

السمة الأولى: الجهل بالعقيدة الإسلامية وأدلتها.

السمة الثانية: ضعف الالتزام بأحكام الإسلام وأخلاقه.

السمة الثالثة: الترابط العضوي بين أعضائها والعمل شبه المنظم بينهم.

* أثر المفاهيم العقلانية في الفكر الإسلامي.

* * * * *

المبحث الأول

منهج العقلانيين في دراسة الإسلام إجمالاً

والمقصود بالمنهج هو: الطريقة أو الأسلوب الذي سلكته المدرسة العقلية في معالجة الموضوعات والأصول والأحكام الإسلامية، ويشمل ذلك: منهج الاستدلال والعرض والنقد، والاستنتاج، أو الحكم على الأشياء، وهل تستند الاتجاهات العقلانية إلى أدلة وبراهين في أحكامها واستنتاجاتها فيما خالفت فيه الحق؟

وما نوع الأدلة التي تستند عليها وما مصادرها، وهل أدلتها علمية وقوية، وهل تستند إلى علم وحق ثابت؟ ومن أين تتلقى المعلومات والأفكار والمفاهيم والآراء عن الإسلام؟ أرجو من الله تعالى أن يوفقني إلى الإجابة على ذلك من خلال استعراض منهج المدرسة العقلية الحديثة، مع أني أجبت عن كثير من ذلك خلال الموضوعات السابقة.

إن المدرسة العقلية الحديثة، في منهجها وأسلوبها في دراسة الإسلام عقيدة وشريعة، ومنهاج حياة، وفي الحكم عليه، إنما سلكت طرقًا ومناهج وأساليب منحرفة معوجة وملتوية فهي إلى الانحراف أقرب منها إلى الاعتدال والصواب، وتعتمد على الأهواء والآراء الشخصية، أو التقليد والتبعية للمناهج الوضعية الغربية وغير الغربية.

وذلك أنها تجاهلت الأدلة الشرعية، فأعرضت عن الاستدلال بنصوص القرآن والسنّة النبوية، وإذا استدلت بهما كانت طريقتها في الاستدلال غير سليمة وغير علمية، وخائنة أيضًا؛ لأنها تأخذ من النصوص ما يوافق اتجاهاتها فحسب وتدع الباقي، وكثيراً ما ترد النص أو تحرفه أو تأوله تأويلات لا يحتملها النص،

كل ذلك من أجل أن يوافق أو يساير الأهواء وما تذهب إليه مذاهب القوم واتجاهاتهم.

كما أنها بجانب إعراضها، وانحرافها في الاستدلال بالنصوص الشرعية للأدلة غير الشرعية، وهي شبهات ودلالات في غير محلها، وأحيانًا أدلة وضعية مكذوبة أو ضعيفة تجعلها في الدلالة مقدمة على النصوص الشرعية الثابتة المُحْكَمَة.

كما أن كثيراً من الاتجاهات العقلانية أعطت النظريات والاجتهادات الغربية منزلة الأدلة القطعية الثابتة تحت شعار العلمية والمنهج العلمي أو التجرد العلمي والموضوعية، ونحو ذلك مما هو عند التحقيق شبهات وأهواء وآراء شخصية ونظريات وضعية، ودعاوى فارغة، إذ كيف يدعى المنهجية والموضوعية والتجرد من يجعل هواه وآراء البشر مقدمة على كلام الله وكلام رسوله وأئمة الإسلام؟

أما بالنسبة للمعلومات فإنها تتلقى المعلومات عن الإسلام من المصادر الأجنبية أكثر مما تتلقى من المصادر الإسلامية نفسها، فهي تتلقى العلوم الإسلامية والمعلومات عقائدية كانت أو تشريعية أو تاريخية عن المستشرقين والكتاب الغربيين والمؤلفات والبحوث والموسوعات ودوائر المعارف الغربية، أو كتب التاريخ، وكتب الأدب، ونحوها مما لا أصل له ولا سند، بل يعتمد على الأسانيد التالفة والروايات المنحولة غالبًا، وتجعل كل ذلك مصدراً أساسًا من مصادر المعلومات عن الإسلام، وتبني أحكامها واستنتاجاتها على ضوئه، في حين أنها تطعن في علمية مصادر الدين: الكتاب والسنة والآثار الثابتة.

والآن لنستعرض هذا المنهج بشيء من التفصيل:

أصول المنهج العقلاني ومرتكزاته تجاه الإسلام في العصر الحديث:

* تقديم العقل والأهواء على نصوص الشرع.

* الإنكار والتشكيك، والتحريف والتأويل، في أصول العقيدة وأدلتها.

* الانحراف في الاستدلال، والتلقي من غير المصادر الإسلامية.

* التنكّر للعلوم الشرعية.

* إبراز الجوانب السلبية في تاريخ الإسلام.

* تقديس العلم المادي الحديث (النظريات الغربية).

* الإشادة بالحياة الغربية والحكم على الإسلام من خلالها.

* عدم التمييز أو المفاضلة بين المسلمين وغير المسلمين (ضعف الولاء).

* تبني الطرح العلماني أو بعضه.

* الاهتمام بعمارة الحياة الدنيا والغفلة عن الآخرة.

أولاً: تقديم العقل والهوى على الشرع:

تحرص المدرسة العقلية على تحكيم العقل وتقديمه على النص الشرعي في الاعتبار والاستدلال والاحتكام إلى العلم الظني، وتحكيم العواطف والأهواء، في أصول العقيدة ونصوصها، ومقررات الدين الثابتة، كالحلال القطعي، والحرام القطعي، دون اعتبار للوحي ولا تسليم للنص المعصوم، ولا احترام لما جاء عن الله صريحًا، أو ثبت عن رسول الله ﷺ صحيحًا.

أي أن الاتجاهات العقلانية على العموم تعتبر دلالة الاستنتاج والحكم العقلي والرأي البشري، مقدمة على دلالة النص، الذي هو وحي من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا هو الأصل في كتاباتهم وبحوثهم وهو الأساس والقاعدة الأولى عندهم.

يقول الشيخ عبد المتعال الصعيدي في كتابه (حرية الفكر في الإسلام):

«**لا شك أن إخضاع دليل** النقل لدليل العقل، فيه من الحرية العلمية كل ما تتسعه هذه الكلمة من معنى، ومما يعطي العلماء سلطة واسعة أمام الجامدين من رجال الدين فلا يكون لأولئك الجامدين سلطان عليهم أصلاً، ولا يكون لهم أن يسلكوا

سبيل التعسف معهم، إنما هو قرع الدليل بالدليل، وما أضعف دليل الجمود أمام دليل التجديد»[١].

ويرى «أنه لابد أن يكون العقل سلطان على النقل، حتى يهيئه الحكم الذي يسعد الناس»[٢].

ويقول قدري حافظ طوقان في مدح ابن رشد: «كان مذهبه (أي ابن رشد) أن يأخذ بالعقل عند البحث، وعدم الاعتماد على ما وصل إلينا من أمور الدين من روايات إذا هي خالفت العقل»[٣].

وأكثر التأويلات والتحريفات التي سقناها للنصوص الشرعية الثابتة من كثير من العقلانيين، مثل تأويل قصص القرآن بأنها حكاية تمثيلية، أو أنها أساطير، وتأويل الملائكة والجنّ، وإنكار المعجزات للرسول ﷺ، والخوض في الغيب، كل ذلك تحكيم للعقل، وتقديم للعلم الظني على كلام الله وكلام رسوله القطعيين.

ومن المفارقات العجيبة: أن العقلانيين حين يردون السنة أو بعضها، بل ويردون الصحيح منها إذا لم يوافق أهواءهم، فإنهم في الوقت نفسه لا يتورعون عن الاستدلال بالموضوعات التي توافق هواهم، وينسبونها إلى النبي ﷺ كما فعل محمد فريد حين أورد قوله: (الدين هو العقل) وقوله: (يا أيها الناس اعقلوا من ربكم وتواصوا بالعقل) على أنهما حديثان[٤].

هذا عن تحكيم العقل، أما عن تحكيم الأهواء لدى العقلانيين فيظهر في إبراز جوانب الضعف في حياة المسلمين الأولى، وإغفال الجانب الإيجابي، والتقاط

---

(١) حرية الفكر في الإسلام ـ عبد المتعال الصعيدي ص٣٢.

(٢) المصدر السابق ص٣٠.

(٣) راجع مجلة العربي الكويتية، المجلد الثاني، العدد ٨ (يوليو ١٩٥٩م ص٧٢).

(٤) المدنية والإسلام لمحمد فريد وجدي ص٥٢.

الزلّات للصحابة والتابعين، كما فعل أبو ريّة[١] والدكتور طه حسين[٢] وغيرهما، اتباعًا للأهواء، فلا العلم يسندهم ولا التاريخ يشهد لهم، ولا سَلَكُوا سبيل التجرد والنزاهة العلمية التي يزعمونها.

ونتساءل: هل كان ما زعمه أحمد أمين من أن التابعين كانت لهم فرق غنائية[٣]، وأنهم كانوا ينهمكون في السماع ـ لا سماع المغنيين فحسب بل سماع المغنيات ـ صحيحًا ومحققًا؟ **لا. بل مستنده** الهوىٰ والجهل والأخذ بأكاذيب رواة التاريخ والأدب من الإخباريين الوضاعين والأدباء المخلطين، وأتباع الفرق الضالة والزنادقة، الذين روّجوا حكايات اللهو والمجون، حتىٰ إن القارئ الجاهل ليتصور أن المجتمع الإسلامي في عهد التابعين كان مجتمعًا ماجنًا، يسود فيه الغناء، والرقص، والشراب واللهو والمجون.

وهل كان ذلك من أحمد أمين وأمثاله إلا اتباعًا للهوىٰ، أو الجهل؟ لا سيما وأن مصدره هو كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني.

وكتاب (الأغاني) ليس من المراجع المعتمدة في صدق الأخبار وإسنادها، ولا من المراجع الأصيلة الملتزمة، والتي يمكن أن يرجع إليها في مثل هذه الأمور ـ ولكن هؤلاء الكتَّاب ـ ممن يَدَّعُون أنهم موضوعيون ـ لا يتبعون إلا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا.

مع العلم أننا لا ننكر أنه قد يكون في المجتمع الإسلامي الأول بعض الانحرافات الخلقية، لكن أن يكون الأمر كما يصوره أحمد أمين، فهذا حكم جائر؛ لأن الإسلام والشريعة الإسلامية كانت هي المهيمنة علىٰ الحياة، وكان المجتمع الإسلامي آنذاك في عمومه ملتزمًا ومتمسكًا بالإسلام. وما يكون من

(١) راجع كتابه: أضواء علىٰ السنة المحمدية، وكتابه: شيخ المضيرة.

(٢) راجع: الفتنة الكبرىٰ (عثمان) وحديث الأربعاء، وغيرهما للدكتور طه حسين.

(٣) راجع فجر الإسلام ص١٧٦، ١٧٧.

البعض من الفسق والمجون فهو أمر غير ظاهر، ولا معلن، وأهله مقموعون مخذولون.

ثانيًا: الإنكار والتشكيك، والتحريف والتأويل، في أصول العقيدة وأدلتها:

أما التعرض لمسائل العقيدة على جهة التفصيل عند العقلانيين فهو قليل، ولم يقع فيه إلا بعض المتطرفين الذين لاحظ لهم في معرفة شيء عن الإسلام، ما عدا الموقف من السنة وأهلها فإن غالب العقلانيين يضيقون بالسنن والأحاديث كما بينت في فصل سابق، وكذلك معجزات الأنبياء، فإن جمهور العقلانيين ومفكريهم، أنكروا أن تكون هناك معجزات للرسول (محمد ﷺ) غير القرآن وكذّبوا الأحاديث الصحيحة[١] - ومنها المتواتر - التي وردت فيها.

وأما التشكيك والتأويل والتحريف، فهو الغالب عند هؤلاء، فلا يكاد أصل من أصول العقيدة الإسلامية يسلم من هذا التحريف، ابتداءً من أسماء الله وصفاته أو ما يتعلق بالرسالة والرسول والنبوة والوحي والقرآن والملائكة، إلى الجنّ والشيطان وسائر المغيبات التي أخبر الله بها.

فكل ما يرى العقلانيون أنه يصطدم مع عقليتهم وأهوائهم، التي هي متأثرة بالعقلية المادية الغربية، والتي لا تكاد تؤمن إلا بالمحسوس، أو ما يخضع لوسائل المعرفة البشرية، تلك الوسائل المحدودة - فكل ما لا تؤمن به العقلية الغربية، نجد أن المدرسة العقلية الحديثة تحاول - بكل وسيلة - أن تخضعه لمقررات العلم الحديث، حتى يوافقها ويسايرها، ولو أدى ذلك إلى تعطيل النصوص أو تحريفها، كما رأينا - مثلاً - من: سيد أمير علي، حين أوّل الملائكة بسنن الطبيعة[٢]، ومن تأويل الشيخ محمد عبده لآيات قصّة الفيل حتى تعطلت من معانيها[٣].

---

(١) مثل أحاديث شق الصدر، وانشقاق القمر، وحنين الجذع، كما مر عند الحديث عن المعجزات.

(٢) راجع روح الإسلام ص٧٨ لسيد أمير علي.

(٣) راجع تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ص١١٥ - ١١٦.

ثالثًا: الخلل والانحراف في منهج الاستدلال والتلقي في العقيدة:

أمّا الانحراف في الاستدلال على العقيدة، وأصول الإسلام، وأحكامه، فإن الاتجاهات العقلانية الحديثة تجعل النصوص المحرَّفة المنسوخة ـ كنصوص التوراة والإنجيل ـ في درجة الأدلة الثابتة، وفي منزلة أدل القرآن، والسنّة، وإجماع المسلمين، كما أنها تعطي الأحكام البشرية الوضعية، مثل النظريات الوضعية والفلاسفة وآراء الفلاسفة والمفكرين، وسائر العقلانيين، والتحكم بالرأي والهوىٰ، قوة الأدلة الشرعية الثابتة عن الله ورسوله، بل إنها أحيانًا تقدم الأدلة الوضعية الظنية والأهواء على القرآن والسنّة بدعوىٰ أنهما نصوص دينية لا شأن لها بالحياة، أو أنها من وضع البشر، كما سبق ذكره في رأيهم في الوحي ودعوىٰ كثيرين منهم بأنه نتاج بشري، ونشاط إنساني.

فتجد على سبيل المثال أن الشيخ أبا ريّة حين أراد أن يبرهن على ضرورة التسامح الديني بين أتباع الأديان، راح يدلل لذلك؛ من التوراة والإنجيل المحرفين[1]، وأعرض عن أدلة القرآن والسنّة، التي تحرم على المسلم طاعةَ اليهود والنصارىٰ (أهل الكتاب) وتصديقَهم.

كذلك فعل الشيخ علي عبدالرازق[2]، حين أخذ يدلل على ما ذهب إليه من أن الإسلام لا صلة له بالحكم، فزعم أن عيسىٰ تكلم في حكومة القياصرة، ومع ذلك أمر بأن يعطىٰ ما لله لله وما لقيصر لقيصر، ومحمد ﷺ حين تكلم عن الحكم، في ذكره للإمامة والخلافة، فلا يعني أنه أمرنا بأن نلتزم ذلك في الحكم.. (!) وهكذا فهو قاس أحكام الإسلام على ما في الإنجيل، وهذا انحراف في الاستدلال؛ لأن شريعة محمد ﷺ أشمل وأبقىٰ من شريعة عيسىٰ

(١) راجع كتابه: دين الله واحد ص٦٩، ٧٩.

(٢) راجع كتابه: الإسلام وأصول الحكم ص٤٥.

عليه السلام، كما أن نصوص الإسلام في ذلك صريحة وواضحة فلا يستدل عليها من نصوص الإنجيل المحرفة المنسوخة.

والعقاد حين أراد أن يبرهن - بزعمه - على أن النبوات في غير السلالة العربية لم تخل من الدخل والدروشة خاصة عند بني إسرائيل، فاستدل على قوله بكتب بني إسرائيل نفسها (المحرَّفة)[1] مع أنه من المفروض أن يلتزم القرآن في أمر النبوة؛ لأنها مسألة تمس العقيدة، وقد يكون عند بني إسرائيل وغيرهم خلط بين النبوة والدجل والكهانة، لكن الدين الحق بريء من ذلك.

ومثل الانحراف في الاستدلال، الانحراف في التلقي، والمقصود بذلك التلقي عن المصادر غير الإسلامية في الحكم على الإسلام، عقيدة، وشريعة، وتاريخًا، واستمداد المفاهيم والمصطلحات، والأحكام، عن غير الإسلام، فالمدرسة العقلية الحديثة تتلقى وتدرس الإسلام نفسه عن الغربيين أكثر مما تتلقى عن المصادر الإسلامية نفسها، وتتلقى بالدرجة الأولى عن المستشرقين، ثم عن الإرساليات التنصيرية، وعن الجامعات والمؤسسات الغربية التي تُعنى بالدراسات الإسلامية، وعن المدارس والجامعات الغربية في العالم الإسلامي، كالجامعات الأمريكية، في بيروت، والقاهرة، وتركيا، وغيرها من المؤسسات الغربية في الشرق الإسلامي، وعن سائر الدراسات والبحوث والصحف والمجلات الغربية، المترجمة وغير المترجمة، وأخيرًا عن الجامعات العلمانية في أكثر بلاد المسلمين، فالأكثرية من الجامعات والمدارس ومؤسسات التعليم في العالم الإسلامي، قامت على أسس فكرية وثقافية غربية في غالب صبغتها، وللعقلانيين أنفسهم دور كبير في توجيه هذه المؤسسات والتأثر بها كذلك، وأكثرهم من خريجيها ومن أساتذتها.

أما التلقي عن المصادر الإسلامية الأصيلة فهو يكاد أن يكون محصورًا في

(١) راجع: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، للعقاد، موسوعته الإسلامية جـ٥ ص٧٥ ـ ٨٤.

الجامعات الإسلامية الخالصة وهي قليلة، والتي لا تخلو - أيضًا - من بعض الشوائب، خاصة في العلوم التطبيقية، والعلوم الإنسانية، كعلم النفس، والاجتماع، والاقتصاد، وغيرها من العلوم التي لم تتحرر من ربقة التفسيرات الغربية المادية بعد، وإن كانت بدأت بوادر السَّعي الجادّ - بحمد الله - لإنشاء دراسات إسلامية بحتة.

فالتلقي من غير المصادر الإسلامية، من قبل الاتجاهات العقلانية الحديثة، جعلها لا تحترم المصادر الإسلامية نفسها، فنجد الدكتور محمد حسين هيكل - في الوقت الذي يرد فيه روايات البخاري ومسلم وكتب السنّة المعتمدة عن المعجزات النبوية، وأحداث السيرة النبوية - يورد روايات المستشرقين في السيرة، ويعتمدها، ويفضل نصوصهم على نصوص كتب السيرة والسنّة، إذ يقول في الرد على منتقديه:

«ذلك قولهم إنني لم آخذ بما سجلته كتب السيرة وكتب الحديث ولم أنهج في التعبير عن مختلف الحوادث نهجها، ولقد كان يكفيني ردّاً على هذا أنني أجري في هذا البحث على الطريقة العلمية الحديثة وأكتبه بأسلوب العصر»[1] **وما الطريقة** العلمية الحديثة التي تجعله لا يأخذ بما سجلته كتب السيرة وكتب الحديث؟ وهل تتنافى مع الطريقة العلمية؟!

ويقول: «وما كان لي - وذلك شأني - أن أتقيد بنهج الكتب القديمة وأساليبها»[2].

ويقول: «وسبب آخر يوجب تمحيص ما ورد في كتب السلف ونقدها نقداً دقيقًا على الطريقة العلمية، أن أقدمها كُتِبَ بعد وفاة النبي بمائة سنة أو أكثر، وبعد أن فشت في الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية، كان اختلاق

---

(١) حياة محمد (محمد حسين هيكل) ص٤٧.

(٢) المصدر السابق.

الروايات والأحاديث بعض وسائلها إلى الذيوع والغلب، فما بالك بالمتأخر مما كتب في أشد أزمان التغلغل والاضطراب؟» **وهكذا أخي القارئ** تجد الكاتب يطعن في كتب السنة طعنًا مكشوفًا كما فعل شيوخه المستشرقون والزنادقة الأقدمون.

ويقول عن البخاري وأبي داود وسائر الذين جمعوا الحديث «وكثير من هذه الأحاديث التي صحت عندهم، كانت موضع نقد وتمحيص عند غيرهم من العلماء انتهى بهم إلى نفي الكثير منها»[١] **فتجده في هذه العبارات يوهم القارئ** بأن صحيح البخاري وسائر كتب السنة ليست محل قبول عند غيرهم من العلماء، وأنهم نفوا الكثير منها، وما هذا الكثير الذي يزعم أنه منفي؟

فلما وصل إلى قصة الإسراء والمعراج قال: «يجب أن نروي قصة الإسراء والمعراج على نحو ما جاءت به كتب السيرة، سرد المستشرق درمنجم هذه القصة مستخلصة من مختلف كتب السيرة، في عبارة طلية رائعة، هذه ترجمتها»[٢].

ثم سرد هيكل ترجمة درمنجم لقصة الإسراء والمعراج، وأغفل القصة كما وردت في البخاري ومسلم، وقال بعد رواية درمنجم «هذه رواية المستشرق درمنجم عن قصة الإسراء والمعراج، وأنت تقع على ما قصّه منثوراً في كثير من كتب السيرة»[٣] **وهكذا نجده** يعدل عن رواية القصة كما وردت في كتب الصحاح إلى رواية مستشرق كافر رواها بالتخليط والكذب وكما يحلو له.

وهذه نماذج من رواية درمنجم للإسراء والمعراج التي أوردها هيكل، يقول:

«استيقظ محمد على صوت يصيح به: **أيها النائم قم**، فإذا أمامه الملك جبريل وضاء الجبين أبيض الوجه كبياض الثلج، **مرسلاً شعره الأشقر** واقفًا في

(١) المصدر السابق ص٤٩.

(٢) حياة محمد (محمد حسين هيكل) ص١٨٩، ١٩٠.

(٣) المصدر السابق ص١٩٢.

ثيابه المزركشة بالدر والذهب، ومن حوله **أجنحة من كل الألوان ترعش**»[١].

«فقيّد محمد دابته وصلىٰ علىٰ أطلال هيكل سليمان»[٢].

«وكانت السماء الأولىٰ من **فضة خالصة**، علّقت إليها **النجوم بسلاسل من ذهب**»[٣].

«وملك النقمة **ذو الوجه النحاسي** المتصرف في عنصر النار والجالس علىٰ **عرش من لهب**»[٤] وتأمل عبارات القصة التي اخترعها شيخه من خياله وأوهامه وأفكاره ومفاهيمه الوثنية.

وهكذا لا يجد المؤلف غضاضة في أن يستند في سرد القصة علىٰ رواية برمنجم، ثم يترجمها من لغة المستشرق إلىٰ لغة السنّة والسيرة، بينما يُحرج كلَّ الحرج من أن يرويها عن البخاري ومسلم أو أحد كتب السنَّة الصحيحة، ولَمَّا يفعل، حيث اعتمد علىٰ تخريفات المستشرقين في ذلك وأوهامهم.

وقبل ذلك يرىٰ المؤلف أنه لا بد للشرق أن يتلقىٰ وينهل من الغرب، لا في العلم التجريبي والتقدم الصناعي فحسب، بل حتىٰ في الفن والأدب والفكر، إذ يقول:

«وليس ريب في أن الشرق اليوم في حاجة أشد الحاجة، إلىٰ النهل من ورد الغرب، في التفكير وفي الأدب والفن، فقد قطع ما بين حاضر الشرق الإسلامي وماضيه قرون من الجمود والتعصب غشت علىٰ تفكيره السليم القديم بطبقة كثيفة من الجهل وسوء الظن بكل جديد، فلا مفر لمن يريد أن يصهر هذه الطبقة، من الاستعانة بأحدث صور التفكير في العالم ليستطيع من هذه السبيل أن يصل بين

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

الحاضر الحي، وثروة الماضي وتراثه العظيم»[١].

بل لا يكتفي بأن يدعو للنهل من الغرب، بل يذهب إلى أن للغرب حقّاً علينا وفضلاً حين عاث بتراثنا، تشويهًا وتحريفًا وبهتانًا، فيقول:

«ومن الحق علينا للغرب: أن ما يقوم به علماؤه اليوم من بحوث نفيسة في تاريخ الدراسات الإسلامية والدراسات الشرقية، قد مهدت لأبناء الإسلام وأبناء الشرق أن يتزيدوا من هذه البحوث في تلك الدراسات»[٢].

وأي بحوث نفيسة في دراسات الغرب للإسلام؟ إلا الدجل والتضليل والدّس والتحريف، لكنه الإعجاب الأعمى، وإلا ففي كتاب ربنا وسنّة نبينا ﷺ، كل ما يكفل لنا التقدم، والسعادة، وللبشرية جمعاء.

وجهود الغرب في دراساتهم الإسلامية (إن صحّ التعبير) لا تساوي شيئًا أمام جهود أسلافنا العلمية ـ رحمهم الله ـ، واعتماد بعض المسلمين على الدراسات الغربية في الفكر والدراسات الإسلامية ما زادهم إلا خبالاً وتيهًا وانحرافًا، وإعراضًا عن شرع الله.

رابعًا: التنكر للتراث الإسلامي:

من سمات العقلانيين المعاصرين: التنكر والانقطاع المتعمد عن التراث الإسلامي والقيم الإسلامية، وبخاصة الكتب الشرعية الخالصة مثل كتب العقيدة وكتب السنّة، والتفسير، والفقه، وأصوله، وسائر ما يطلقون عليه (الكتب الصفراء) إشارة إلى أنها قديمة ولم تعد صالحة ومسايرة لعصر التنور والتقدم بزعمهم، وهذا التصور المنحرف ينطوي على خطورة بالغة؛ لأن التراث بما فيه من القرآن والسنَّة وعلومهما والفقه الإسلامي وأصوله، والعقيدة، وسائر العلوم

---

(١) حياة محمد ص١٦.

(٢) المصدر السابق.

الإسلامية التي يحويها ذلك التراث، كل ذلك بمجموعه إنما هو يمثل الإسلام، فالتنقصُ منه أو إلغاؤه أو التنكر له أو بعضه، إنما هو بمثابة التنكر للإسلام نفسه، وقد لا يدرك بعض العقلانيين هذه الخطورة حين يتنكرون للتراث الإسلامي، والقيم الإسلامية.

فيقول أحدهم ـ وهو محجوب بن ميلاد ـ:

«إن القيم الخلقية الموروثة قد بارت في السوق الجديدة، بوار خلق الثياب، أفليس يجب استنباط وجه جديد لفهمنا إيّاها حتىٰ تلتئم مع العقد الجديد، وتنفق سوقها من جديد؟ أم هل يجب استنباط قيم خلقية جديدة تشتق معدنها من هذا العالم الجديد، ما دامت الحياة الإنسانية تستمد حريتها من القيم الإنسانية»[1].

«ألا يجب استنباط عالم عقلي جديد؟ ألا يجب تنظيم الحياة علىٰ أسس جديدة؟»[2].

وهو بهذا يريد قطع الأجيال وفصلها عن تراثها وقيمها، واعتزالهما، واستنباط قيم خلقية جديدة (بزعمه) للتلائم مع الجاهلية الوثنية الجديدة، والانهيار الخلقي الغربي!

وإلىٰ مثل هذا الرأي يذهب الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه (تجديد الفكر العربي) حيث يرىٰ أن التقيُّد بالتراث الإسلامي، بمثابة سلطان للماضي علىٰ الحاضر، وسلطان الماضي علىٰ الحاضر هو بمثابة السيطرة التي يفرضها الموتىٰ علىٰ الأحياء، وقد يبدو غريبًا أن يكون للموتىٰ مثل هذه السيطرة، مع أنه

(١) في سبل السنّة الإسلامية ـ محجوب بن ميلاد ص٤١.

(٢) المصدر السابق.

لم يبق لنا منهم إلا صفحات مرقومة صامتة[١].

كذا! لم يبق لنا من جهود سلفنا الصالح إلاّ صفحات مرقومة صامتة، على حد تعبيره، أنسي أنهم هم الذين نقلوا لنا الدين وفسّروه وطبقوه وصنعوا به لنا حضارة ناصعة سامقة، سعدت بها البشرية قرونًا، ولم تُر مثلها حضارة قبلها ولا بعدها؟

ثم يستمر المؤلف فيما يسميه باجترار الماضي، ويذكر أن أوروبا لم تتقدم إلا حين تركت كتب الأقدمين إلى كتاب الطبيعة المفتوح[٢] ويقول بأنه استعرض التراث العربي فوجد: «أن هذه الألوف من المجلدات لا تضيف حرفًا واحدًا جديدًا»[٣].

ويضرب لذلك أمثلة منها قوله: «وهذا رجل خلّدوه لأنه حفظ الشاطبية وسرد مرة النسب النبوي طردًا وعكسًا، وهذا آخر خلدوه لأنه قرأ القرآن على فلان، وقرأ الشاطبية والرائية على فلان، وقرأ شرح البهجة على فلان، وقرأ كتاب التبيان في آداب حملة القرآن لفلان، وقرأ السيرة النبوية على فلان، ومسند الإمام الشافعي على فلان، وصحيح مسلم على فلان، وصحيح البخاري...[٤]» حتى القرآن والسيرة النبوية وصحيح مسلم يرى أن قراءتهما والاحتفاء بهما من العيوب. أما سعادته فلا يجد غضاضة في تلمذته على هربرت تريد. انظر (ص١٧) من كتابه هذا.

---

(١) تجديد الفكر العربي ص٥١.

(٢) تجديد الفكر العربي ص٥١.

(٣) المصدر السابق ص٥٤ ـ ٥٥.

(٤) المصدر السابق ص٥٦ ـ ٥٧.

بل إنه يرىٰ أن التراث الإسلامي ما هو إلا طرائق عيش، كالتراث الأمريكي والأوروبي الحاضر، فلنأخذ منه ما يصلح لمعاشنا ونترك الباقي، يقول: «إن الثقافة ـ ثقافة الأقدمين أو المعاصرين ـ هي طرائق عيش، فإذا كان عند أسلافنا طريق تفيدنا في معاشنا الراهن، أخذناها وكان ذلك هو الجانب الذي نحييه من تراثنا، أما مالا ينفع نفعًا عمليّاً تطبيقيّاً، فهو الذي نتركه غير آسفين»[1].

وهكذا يرىٰ أن تراثنا (طرائق عيش) أما أنه دين وعقيدة وشريعة إلهية وقيم وأخلاق وإيمان ودستور ومنهج حياة، وطريق مستقبل فهذا مما لم يرد في ذهنه، ولم يشر إليه في كتابه كله[2].

هذا أنموذج من مواقف بعض العقلانيين المحدثين من القرآن وتفسيره والسنّة وعلومها، والفقه وأصوله، والعقيدة وسائر العلوم الشرعية، والقيم الأخلاقية المستمدة منها.

والبديل عندهم: الورد من مناهل الحظيرة الغربية الجاهلية أو الاعتماد علىٰ العقل البشري المحدود القاصر. **قاتلهم الله أنّى يؤفكون. وحسبنا الله ونعم الوكيل.**

خامسًا: التركيز على إبراز الجوانب السلبية والأخطاء والبدع والانحرافات في تاريخ الأمة، والآراء الشاذة والمذاهب المنحرفة عبر التاريخ الإسلامي، وتمجيد الفرق الضالة وتبني آرائها، ومن ثم الحكم علىٰ الإسلام والمسلمين من خلال ذلك كله.

إن هذا الاتجاه واضح في سائر الدراسات العقلانية، سواء كانت عقدية أو ثقافية أو فكرية أو أدبية أو غيرها، فهي تميل إلىٰ أن تُهوِّل من شأن بعض الانحرافات والأخطاء، التي وقعت من خلال التاريخ الإسلامي، لا سيما في القرون الأولىٰ.

---

(١) تجديد الفكر العربي ص١٨.

(٢) أعني: تجديد الفكر العربي.

مثل التركيز على الفتنة التي وقعت في عهد الصحابة، فنجد أن بعض الاتجاهات العقلانية الحديثة، تهوِّل من هذا الحدث، وتجعل منفذاً للطعن في الصحابة والتابعين وسبِّهم، والإساءة إليهم وإلى الإسلام من وجوه عِدَّة، كما فعل الدكتور طه حسين في كتابه: الفتنة الكبرى، وكما فعل العقاد في كتابه: معاوية في الميزان، وأبو ريّة في كتابه: أضواء على السنة المحمدية.

وقد حرص الدكتور طه حسين، في حديث الأربعاء، على تصوير مجتمع الصحابة والتابعين، تصويراً ماديّاً، فيه كل خصائص المجتمع المادي، بقيمه وموازينه وأخلاقه المادية، فيصف مجتمع التابعين وأبناء الصحابة، بأنه مجتمع ماجن مترف، يسوده الغناء والشرب، والعبث والتشكيك، دون أن يعرض لفضائلهم أو يشيد بها أو يبني عليها أحكاماً تصور الحقيقة التي هم عليها، كما مرَّ في مبحث (رأي المدرسة العقلية في حجية السنّة).

وكذلك فعل أحمد أمين في فجر الإسلام، فوصف التابعين بأنهم يشربون، ويسمعون الغناء.

كما نجد أن من منهج الاتجاهات العقلية الحديثة، في دراستها التراث الإسلامي: الحرص على تمجيد الفرق الضالة الانفصالية المنحرفة القديمة، والحديثة، والسعي لإحيائها، وتنشيطها، وتبني آرائها، والاعتماد على الآراء الشاذة للعلماء والعباد وغيرهم، تحت شعار: حرية الفكر، وحرية الاعتقاد، وحرية البحث.

وتشويه منهج أهل السنة، وتحميلهم تبعة ما يسمونه بالتشدد والتزمت، والقضاء على حرية الكلمة، وحرية الفكر، وذلك لأن السلف قاوموا الاتجاهات المبتدعة مثل الخوارج والروافض والقدرية والمرجئة والجهمية، والمعتزلة والفلاسفة وغيرهم من الفرق العقلانية القديمة، فالعقلانية الحديثة تعتبر المعتزلة أبطال الحرية، وهم الجديرون بالبقاء، وأن انقراضهم وانحسار أفكارهم ومحاربة

بدعهم يعتبر خسارة للأمة الإسلامية، بل للإنسانية أجمع، ويرى بعضهم إحياء الفكر المعتزلي هدفًا ساميًا يجب أن تسعى إليه الأمة الإسلامية.

فيرى زهدي حسن جار الله: «أن النهضة العربية الحديثة شبيهة في ظروفها وأحوالها بالنهضة العربية القديمة التي تلت الفتوح الإسلامية، والتي لعبت فيها المعتزلة دورًا خطيرًا، وإذًا فلابد لنهضتنا هذه من ظهور روح الاعتزال، ولا بد من إحياء تلك الروح»[١].

ويقول فاروق الدملوجي في معرض مدح المعتزلة وسب أهل السنة:

«وشرع المعتزلة لأول مرة بالعالم الإسلامي، في تحكيم العقل في جميع المسائل المعروضة عليهم، فأولوا نصوص القرآن تبعًا لما يقتضيه العقل والمنطق، لا كما يريده الإلهيون والسلفيون، أصحاب المدرسة القديمة، وهم أهل السنّة والجماعة والحنابلة والمتصوفة، من الجمود والوقوف على حد اللفظ والنص، وظاهر الشرع، دون زيادة أو نقصان أو تأويل أو تفسير»[٢].

ويقول أيضًا عن المعتزلة بأنهم «كانوا أحرارًا في آرائهم وفي تأويلاتهم، فلم يقفوا عند حد، ولم يردعهم قيد، وحكموا العقل في جميع القضايا، وأولوا المنقولات كافة حسبما يقتضيه الزمن والحال، فقالوا كلمتهم المشهورة (إذا تعارض العقل مع النقل، وجب التأويل لما يقتضيه العقل)»[٣].

أمّا محجوب بن ميلاد فيرى أنه من الأصلح للمسلمين في العصر الحاضر الجمع بين كل الفرق القديمة، دون تفريق بين الصالح والطالح، والسنّي والمبتدع[٤]، ويصوِّر التعاون بين الفرق كما يجب أن يكون على حد قوله: «فهذا

---

(١) راجع: المعتزلة لزهدي حسن جار الله صفحة (ك) من المقدمة.

(٢) من كتاب: هذا هو الإسلام لفاروق الدملوجي ص٣٩.

(٣) من كتاب: هذا هو الإسلام لفاروق الدموجي ص٤٩.

(٤) وهذا من براهين جهل كثير من العقلانيين بأحكام الإسلام وأصول العقيدة وتجارب التاريخ الإسلامي.

معتزلي يشق طريقه في البحث هي طريقة الاعتزال، وهذا خارجي يشق طريق الخروج على من صار بأيديهم مقاليد الأمور السياسية، ويبين نظام الخروج ومبادئه وشروطه وسننه، وهذا شيعي يبني صرح الوفاء لأهل البيت، وما يجب أن يكون لهم من حرمة في ميدان الحكم وتدبير شئون المدنية الإسلامية الجديدة، وهذا مرجئ يفتح أبواب التسامح والاعتدال، باسم الرحمة الربانية وسماحة الدين، فجميعهم مسلمون، وجميعهم يمكن لهم أن يزعموا أنهم سنيون؛ لأن كل فريق منهم يعتبر الرسول العربي أسوة حسنة، ويشتق إلهامه وهديه من الآيات القرآنية»[(١)]، **وهكذا** نجد هذا الكاتب كحاطب ليل، لا يفرق بين الحق والباطل، ولا بين السنة والبدعة، ويظن أن الأمة يمكن أن تجتمع على الضلالات، والمذاهب المتباينة، أو كذا يحلم هو وأمثاله.

كذلك يشيد أحمد زكي أبو شادي بإخوان الصفا الباطنية الفلاسفة أعداء المسلمين، إذ يقول عنهم:

«فإن أولئك الفضلاء الحكماء الذين ازدانت بهم المائة الرابعة من الهجرة كما ازدان بهم الإسلام، والذين اجتمعوا على القدس والطهارة على حد تعبير أبي حيان التوحيدي، تفتقت أذهانهم على روحانية الإسلام وحاجته الحقيقيتين، فصاحوا أن الشريعة قد دنست بالجهالة واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة».

إلى أن قال: «فمن العيب الفاضح بعد مرور هذه القرون الطويلة أن ننسى قدوتهم المثالية، والصورة النقية الرائعة التي رسموها للإسلام الصحيح من ناحية السلوك والفكر، إن المسلم الحقيقي هو من آمن بالوصايا الأخلاقية السالفة الذكر وقدسها وطبقها دون تذبذب»[(٢)].

---

(١) في سبل السنة الإسلامية ـ لمحجوب بن ميلاد ص٢٤، ٢٥.

(٢) ثورة الإسلام. أحمد زكي أبو شادي ص٤٨ ـ ٤٩.

ويعني بها وصايا إخوان الصفا، إذ يرىٰ أن تطبق دون تذبذب وكأن المسلمين يفتقدون التعاليم الأخلاقية، في كتابهم وسنة نبيهم ﷺ.

إن الإلحاح والتركيز الذي نراه من الاتجاهات العقلية الحديثة علىٰ نبش الفرق القديمة الضالة من قبورها، إنما هو للتصدي لأهل السنّة، وقطع خط الرجعة عليهم في العصر الحديث، وأهم شيء يميز أكثر الفرق العقلية القديمة عن أهل السنّة ـ وهو الذي يجعل العقلية الحديثة تهتم بها ـ أن القديمة أكثر معايشة وتقاربًا مع العقلية والحياة الغربية الحديثة، التي ينشدها العقلانيون المحدثون.

وهي كذلك نظرتهم للأفراد من مشاهير للأمة، فهناك شخصيات من المتقدمين، تعتبر شاذة في الفكر والخلق والاعتقاد، أو في السُّلوك من بين المسلمين، ولهم مذاهب ونحل تخالف العقيدة الإسلامية والأخلاق الحميدة.

ولنأخذ علىٰ سبيل المثال (شخصيات) طه حسين التي اهتم بها، أمثال: كثير عزّة، مجنون ليلى، أبو نواس، بشار، أبو العلاء المعري، ونحوهم.

وكل هؤلاء معروفون إمّا بالسكر والعربدة، أو الشك في الدين، أو المجون والغزل الفاضح، إلخ، وكأن تاريخ المسلمين عَقُمَ إلا من هؤلاء، أو أنهم من يستحقون العطف والتقدير لما قدموه للأمة من علم وجهاد أو قدوة حسنة في الفضائل! ويتضح هذا إذا علمنا أن طه حسين لم يكتب عن الصالحين في سلك المسلمين، بقدر ما كتب عن المفسدين والفساق الذين جعل منهم عظماء، أو مظلومين، وحكم علىٰ المجتمع الإسلامي من خلالهم.

ومن جانب آخر، نجد العقلانيين المحدثين عمومًا يهتمون بالشخصيات التالفة عقديّاً ودعاة الضلالة ورؤوس البدعة كغيلان الدمشقي القدري، والجعد ابن درهم مؤسس الجهمية، والجهم بن صفوان، وابن الراوندي، والمرِّيسي، وابن عربي، وابن سيناء، وابن سبعين، والحلاج، ومن هم علىٰ شاكلتهم، وكل هؤلاء منحرفون عن الحق مضطربون في عقيدتهم، وهم ما بين متصوف مخرِّف

وفيلسوف مخلِّط ومبتدع ضال، ومن جهة أخرىٰ يلاحظ اهتمام العقلية الحديثة بالمشبوهين والعقلانيين المعاصرين كالزهاوي (جميل صدقي) وأتاتورك، وضياء كوك ألب، والسيد أحمد خان، ومحمد إقبال، وجمال الدين الأفغاني، وعبدالناصر، ومحمد عبده، وطه حسين، وقاسم أمين، ليجعلوا منهم أبطالاً ومصلحين عظماء!

سادسًا: **التهويل من شأن العلم المادي الحديث**، وأثره على الأديان بما فيها الإسلام إلىٰ حد التقديس لهذا العلم، والرغبة والرهبة التي لا تجوز إلا لله تعالىٰ، وكأن القول الفصل في الدين والغيب إنما هو للعلم الحديث، ولم يعد لقول الله ورسوله اعتبار. وحين يقول أحد الغربيين أو المستشرقين كلمته أو يبدي رأيه في أي حكم أو أصل من أصول الإسلام، وكذلك حين يزعم الغربيون الماديّون أن هذا الشيء حق وذلك باطل، عندئذ ـ وإن افتقد الدليل ـ يقف العقلانيون موقف التسليم لهذه الدعوىٰ وإن خالفت كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولو لم تثبت علميّاً أيضًا[١].

فيقول محمد فريد وجدي في هذا:

«لقد أصبح القول الفصل للعلم (يقصد العلم الغربي المادي الحديث!)، العلم الذي اتفق قادة الفكر الإنساني علىٰ تسميته بهذا الاسم[٢]، وهو جملة المقررات اليقينية، علىٰ الوجود وكائناته، مما سرت عليه أصول الدستور العلمي، فكل قول لا يحصل علىٰ تأييد هذا العلم، أو علىٰ الأقل لا يماشي أسلوبه، ويرتسم حدوده، لا ينال من العقلية العصرية المكانة التي يراد أن تكون له، وقد رفض هذا العلم كل ما عرض عليه، من أساطير الأولين، حتىٰ العقائد

---

(١) من المعلوم أنه إذا ثبت أن العلم قرر حكمًا قاطعًا في شيء من الأشياء التي يملك العلم الوسيلة للحكم القاطع فيها فإنه لا يمكن أن يخالف القرآن أو صحيح السنة.

(٢) لكن الله سماه خوضًا وسماه ظنّا، وسمىٰ أولئك بالخراصين.

التي بادت في سبيل الدفاع عنها أمم برمتها، وهذا العلم اليوم واقف لنا بالمرصاد، ليفعل بعقائدنا، مثل ما فعل بعقائد الذين سبقونا إليه، والأمم الإسلامية اليوم محفوزة إليه بحكم التربية العصرية»[١].

فتأمل جيداً هذه الكلمات لترىٰ مدىٰ الانهزامية والضعف من رجل فاضل، فكيف بأنصاف العلماء، إذ كيف وصل الأمر بالأستاذ وجدي، إلىٰ أن يقول: العلم يرفض حتىٰ العقائد، ثم هو يخاف علىٰ عقائدنا من علمية الغرب الوهمية. **وأنا أعجب لهؤلاء** القوم كيف توهموا أن الإسلام والعقيدة علىٰ خلاف مع العلم، وأن عقائدنا مهددة بالعلم وأنهما خصمان؟ ولعلهم يقصدون عقائد الصوفية والمقابرية والمتكلمين، فهل علموا أن عقيدة أهل السنة والجماعة ليست كذلك، إذ هي تتطابق مع مقررات أي علم حقيقي؟ لست أدري.

وكذلك ترىٰ مدىٰ إعجاب محمد حسين هيكل بالعلم المادي إلىٰ حد التقديس، حيث يقارنه بدعوة الرسول ﷺ، بل إنه ينزل هذه الدعوة الربانية لتكون شبيهة بالطريقة العلمية الحديثة فيقول: «وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكر ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوي. فهذه الطريقة تقتضيك إذا أردت بحثًا أن تمحو من نفسك كل رأي وكل عقيدة سابقة لك في هذا البحث»[٢]، **وهذا مبدأ** علماني جاهلي، وإلاّ فماذا سيبقىٰ للمسلم إذا محا من نفسه كل رأي وعقيدة سابقة، لكنه تقديس العلم جعل المؤلف ينعق بما لا يسمع إلاّ دعاء ونداء! ثم يقول بعد ذلك:

«وهذه الطريقة العلمية هي أسمىٰ ما وصلت إليه الإنسانية في سبيل تحرير الفكر، وها هي ذي طريقة محمد وأساس دعوته، فكيف اقتنع الذين اتبعوه

---

(١) عن مجلة الأزهر، المجلد العاشر (السنة العاشرة) الجزء الأول ص١٥ من عدد المحرم لعام ١٣٥٨هـ.

(٢) (حياة محمد) محمد حسين هيكل ص١٥٠.

بدعوته وآمنوا بها؟ نزعوا من أنفسهم كل عقيدة سابقة، وبدأوا يفكرون فيما أمامهم»[١].

ونقول له: نعم إن العقيدة التي نزعها الذين أسلموا في عهد النبي ﷺ عقيدة شركية جاهلية باطلة من الطبيعي أن يأمرهم النبي ﷺ بنزعها. أما عقيدتنا فهي عقيدة التوحيد التي أمرنا الله باتباعها، فهل ننزعها من أجل طريقة هيكل العلمية المزعومة؟!

والمؤلف من فرط إعجابه بالعلم، أراد أن يخلع المسلم ـ من أجل البحث العلمي ـ كلّ عقيدة سابقة، مع أننا مسلمون وعقيدتنا ليست كعقيدة عبّاد الأصنام الذين أمرهم الرسول ﷺ بنزع كل عقيدة سابقة. إن المسلم إذا نزع عقيدته من أجل البحث العلمي، كفر وارتد؛ لأن عقيدة المسلم، عقيدة إلهية، عقيدة التوحيد، التي أخرجه الله بها من الظلمات إلى النور، أفيلقي بنفسه للتهلكة وهو يبصر، باسم الطريقة العلمية؟! إنها طريقة جاهلية إلحادية، **لكن الكاتب وأمثاله** ربما ظنوا بأن العقيدة هي ما عليه دراويش الصوفية الطرقية، ومتكلمة الأشعرية والماتريدية ومقالاتهم الفلسفية، وجهلوا عقيدة السلف النقية الصافية.

فالعقلية الحديثة حين جعلت المنهج العلمي الحديث هو المقياس الذي تقاس به كل العلوم، وتعرف به الحقائق، أجرت هذا المفهوم على كل شيء، حتى تلك الأشياء التي لا يملك العلم أن يقول فيها كلمته نفيًا، ولا إثباتًا، إلا بهدى من الله، فأجرت هذا المفهوم العلمي المنحرف على الوحي والنبوة، والمعجزات والغيبيات وأصول العقيدة والسنة، وسائر أصول الدين، فما لا يؤمن به العلم الحديث (أي العلم الغربي المادي الحسّي) فلا سند له من الصحة، عند أكثر رواد المدرسة العقلية الحديثة، وهذا ولا شك منزلق خطير، ومنهج هو أبعد ما يكون عن العلمية والمنهجية، وكان ضرره على المسلمين أشد من ضرر الحروب العسكرية

(١) نفس المرجع السابق.

الدامية، التي خاضها الكفار المحتلون عندهم.

نعم إن العلم التجريبي الذي يقوم على البراهين المحسوسة علم محترم وصحيح، لكنه لا شأن له بالوحي والغيب والدين وأصوله، والأحكام الشرعية وحكمها، فإنه إن لم يؤيد فلا يملك أن يعارض أو ينفي شيئًا مما ثبت في القرآن والسنة، لكن ذلك ليس من مجالات العلم الذي يزعمون أنه يحكم على الدين، ولو كان لهذا العلم لسانًا لكذبهم، ولو كان يملك فعلاً وقوة وصولاً لأقام عليه حد الشرع بافترائهم على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ وعلى العلم نفسه.

سابعًا: الإشادة بالحياة الغربية والحكم على الإسلام من خلالها:

من منهجهم - أي العقلانيين - الإشادة بالحياة الغربية، فكرًا، وسلوكًا، والتغاضي عن عيوب المدنية والحضارة الغربية، وجعلها المثل الأعلى في سلوكهم وغاياتهم وآمالهم، والتطلُّع للوصول إليها، الجارِّ إلى صهر المسلمين في بوتقتها.

يقول الدكتور أحمد زكي أبو شادي، بعد أن نوه بمدرسته الأمريكية الإسلامية التي خطت في زعمه في تفسير الإسلام خطوات واسعة جاوزت تفسير الأفغاني، ومحمد عبده، ومن تبعهما، والتي لا تعتمد في رأيه إلاّ على القرآن والقلّة الضئيلة من الحديث، وعلى الأصول العلمية أيّـًا كان مصدرها[1]، فقال بعد ذلك: «هذا هو الإسلام كما يفهم ويفسر ويبشر به في العالم الجديد بين المتعلمين وكما حاولنا بيانه بأحاديثنا العربية والانجليزية على السواء، وعلى الأخص بالنسبة لتفاعله مع الحضارة الأمريكية ومع الديمقراطية الأمريكية، فاسترعت تلك الأحاديث - وما زالت - أسماع الآلاف في العالم الإسلامي بأسره»[2].

---

(١) راجع ثورة الإسلام ص٤١، ٤٢.

(٢) راجع ثورة الإسلام ص٤٢، و ص٨٢.

وكأن الإسلام لم يفهم ولم يفسر ولم يبشر به، حتىٰ جاء الدكتور أبو شادي بهذا الإسلام الأمريكي.

وليت الأمر يبقىٰ عند التفاعل مع الحضارة الغربية الأمريكية، لكنه يذهب إلىٰ أن مبادئ الإسلام علميّاً ونظريّاً وفكريّاً وسلوكيّاً هي أقرب للحياة الأمريكية! حين يقول أكثر من مرة:

«ولذلك قلنا مراراً إن مبادئ الإسلام نظريا وعلميا هي أقرب ما تكون لمبادئ الحضارة الأمريكية، والحياة الأمريكية، تفكيراً وسلوكًا، فهل ينتبه المسلمون إلىٰ هذه الحقيقة الراسخة فيفلحون» الله أكبر! هكذا تبعية صريحة لسنن الكافرين كما قال النبي ﷺ: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»**[1].

وهذا المبدأ هو ما تسعىٰ إليه كثير من اتجاهات العقلية الحديثة فعلاً، وقد خطت في سبيل تحقيقه في العالم الإسلامي خطوات واسعة، أما ما نلاحظه من تخصيص أمريكا في مثل هذه العبارات، فلا يعدو أن يكون وجهة نظر الكاتب حين يتغنىٰ بعشيقته أمريكا، فأمريكا هي الممثل الأول للغرب أو الحضارة الغربية الجاهلية الآن، وقد ذكرت أكثر من مرة في هذا البحث أنه من أكثر العقلانيين المحدثين حماسًا للإشادة بالحياة الغربية والتغني بها الدكتور طه حسين، وسلامة موسىٰ، ثم أحمد زكي أبو شادي، ومن أشياعهم نجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، ومن حذا حذوهم من المتفرنجين وهم غالبية من يسمون بالمثقفين والمفكرين وأساتذة الجامعات في العالم الإسلامي، فيما يبدو.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما بألفاظ وطرق متعددة، لكن لم أجد فيها عبارة «حذو القذة بالقذة»، بل لفظهما المتفق عليه عن أبي سعيد الخدري هو «شبراً بشبر وذراعًا بذراع...» الحديث بتمامه مع اختلاف يسير في الألفاظ. انظر الحديث (٧٣٢٠) في البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٠٠)، والحديث (٢٦٦٩) في مسلم (٤/ ٢٠٥٤).

أما لفظ «حذو القذة بالقذة» فقد أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٢٥)، وانظر جامع الأصول (١٠/ ٣٤).

لكنا ـ بحمد الله ـ نرىٰ بوادر الوعي، والرجوع إلىٰ الحق ونبذ الشعارات الجاهلية تزداد في صفوف هؤلاء ـ في الآونة الأخيرة ـ بعد إفلاس تلك الشعارات القومية والغربية والفوضوية التي سادت في العالم الإسلامي منذ مطلع القرن الرابع عشر الهجري.

فنسأل الله تعالىٰ أن يعلي كلمته، وينصر دينه، وأن يقيم علم الجهاد في سبيله، ويجمع شمل المسلمين، ويوحد كلمتهم، ليقفوا صفّاً واحداً أمام عدو الله وعدوهم.

ثامنًا: عدم التفريق بين المسلمين وغير المسلمين في الولاء والتقدير والحب والاقتداء، وكذلك في البراء والبغض والمجانبة، فالمدرسة العقلية الحديثة، في الوقت الذي تسبّ فيه الصحابة، وأهل السنَّة، والسلف الصالح، وعلماء المسلمين، نجدها تعظم وتقدس الكافرين المشركين والماديين والملحدين والفساق والحداثيين ورؤوس البدع وأئمة الضلالة من الفلاسفة والباطنية والزنادقة والمنحرفين.

وأكثر ما يتبين لنا ذلك، من هذا التقدير والإكبار الذي يُكنُّه العقلانيون للمستشرقين، وعلماء الغرب، ورواد الفرق والنظريات والاتجاهات والحركات الهدامة في العالم.

وكان من أبرز الذين تصوروا الدعوة إلىٰ الولاء للكفار: السيد **أحمد خان**، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد عبده، ومحمد فريد وجدي، **وأحمد أمين**، وعبد المتعال الصعيدي، وحسن صعب، ومحمد فتحي عثمان، وأحمد كمال أبو المجد، والجارودي، ولذلك نجد غالب هؤلاء دعاة إلىٰ ضلالة **(التقريب بين الأديان)** وإلىٰ تعظيم أئمة الكفر والضلالة.

فهذا هو الأستاذ: خالد محمد خالد، في كتابه: **(أفكار في القمة) يجعل** من الشخصيات الوثنية في العالم عمالقة، ويدرجهم مع الرسول ﷺ **في صف** واحد، ويمنحهم من العظمة والتقديس، كما لو كانوا من أنبياء الله **المرسلين**.

ولقد بدأ بنبينا محمد ﷺ فقال: «محمد ضد العجز والكذب والألم»[1].

وقال: «وحين نغادر هذه القمة فنلتقي بلاويش وكنفيشيوس، ومنشيس، عمالقة يستطبون الحكمة من أعماقها ويهدون سواء السبيل»[2].

كذا بهذه العبارة (ويهدون سواء السبيل) وهو سبيل الوثنية وسبيل جهنم ـ نسأل الله السلامة ـ.

إلىٰ هذا الحدّ الاستهانة بقيم الإسلام وموازينه.

ثم يقول: «وفي الهند نلتقي مع بوذا، يا له من طود شامخ هذا البوذا العظيم»[3].

وتأمل أخي القارئ هذا الإطراء للأصنام، واسأل ربك العافية! ومثله قوله:

«وفي مصر القديمة نصغي إلىٰ لامنوبي وبتاح حوتب وخيتي وهم يفكرون تفكيرًا أخلاقيًا عذبًا».

وقوله:

«ويتلاشىٰ الزمان والمكان فنرىٰ أنفسنا أمام توم بين، أتعرفونه إنه إحدىٰ معجزات العبقرية البشرية والضمير الإنساني، إنه القائل: هذا العالم قريتي»[4].

«ونلتقي بعده بجوجري فتأخذنا صلصلة فكره المقتحم وتشجينا تغاريده وهو يغني للحقيقة وللمستقبل»[5].

---

(١) أفكار في القمة ـ خالد محمد خالد ص٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ص٩.

(٤) أفكار في القمة ـ خالد محمد خالد ص٩.

(٥) المصدر السابق ص٩.

ثم يمر على إقبال[١] ليقول :

«وبعد إقبال نصافح فرويد، إنه رجل يُخشى ويحذر، فله على فضح النفوس وكشف خفاياها[٢] قدرة خارقة، بيد أنه مع هذا يهدي إلينا من خير أطايب الفكر البشري وأكثرها نفعًا»[٣]. **وتأمل أخي القارئ هذا الإطراء** والإذلال للنفس والتبعية المقيتة لهذا الكافر المسمى (فرويد) حيث يصفه بصفات لا تليق إلا بالله تعالى، فالله وحده هو الذي يُخشى، وهو وحده الذي يكشف خفايا النفوس، وهو وحده سبحانه الذي له القدرة الخارقة.

وهكذا يسبح في أوحال الجاهلين مع : أمرسون الفرنسي، وتولستوي، ويعتذر عن البقية من العظماء الأفذاذ «مثل فيثاغورس، وابيقور، وسقراط وأرسطو وأفلاطون، وماركس، وأريلوس، وابن رشد، والفارابي ، وابن سينا، وشكسبير ودانتي وماركس وهيجل وجيته، وبقية الرفاق»[٤].

هكذا يجمع خالد محمد خالد في جمعيته، كل أقطاب الجاهلية الحديثة والقديمة، ولم أر منهم رجلاً صالحًا، من عباد الله الصالحين، عدا محمد ﷺ، وقد أهانه حين جعله مع فرويد وماركس والفارابي وشكسبير وجوركي وبوذا الوثني.

كذلك نجد طه حسين في مؤلفاته يتهكم بالصحابة والتابعين، ثم هو يعظم شخصياته المفضلة: المعري، بشار، أبو نواس، بل إنه يعظم مفكرين غير مسلمين، ويرفعهم أبطالاً وعظماء في التاريخ.

أما تعظيمه الكفار وأقطاب الجاهلية الحديثة فنراه في كتابه (مع المفكرين) وغيره من مؤلفاته ومقالاته.

---

(١) المصد السابق ص١٠.

(٢) المصدر السابق ص١٠، ١١، ١٢.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

هذا غيض من فيض، فغالب العقلانيين والمثقفين المحدثين على هذا النمط بل هم أضل[1].

تاسعًا: تبني الطرح العلماني أو بعضه:

تأثرت الاتجاهات العقلانية بمشاربها الغربية والعقلانية والأممية وغيرها التي تدعو إلى عزل الدين عن الحياة والدولة وشؤون المجتمع.

وهذا التأثر متفاوت بين فصائل العقلانيين واتجاهاتهم، لكنهم يشتركون في قصور نظرتهم للإسلام، ونفورهم من بعض الأحكام الشرعية، واستيحاشهم من تطبيقها، كالحدود، والحجاب، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - بمفهوم أهل السنة - ونحوها، فإن سائر العقلانيين يضيقون ذرعًا بذلك.

وكان من أوائل الداعين إلى هذا الاتجاه العلماني السيد أحمد خان، ومحمد إقبال في الهند، ومدرسة محمد عبده في مصر، وكبار تلاميذه مثل قاسم أمين، ومحمد فريد وجدي، وعلي عبد الرازق، ومحمد أحمد خلف الله، وأحمد أمين، وسيد أمير علي.

ثم تبعهم خالد محمد خالد (وقد تراجع فيما بعد عن ذلك)، وفؤاد زكريا، ومحمد النويهي، وحسين أحمد أمين، وفرج فودة، وفتحي القاسم، وشبلي العيسمي، وأضرابهم.

وأغلب هؤلاء يدعون إلى العلمنة صراحة ودون أي استدراك.

وغالب العقلانيين هم سائرون في ركب العلمنة ولكنهم قد لا يصرحون بذلك، أو يدعون إلى العمل بشرع الله لكن على نهج علماني في حقيقة الأمر، أو لهم آراء ومناهج ليست علمانية صريحة لكنها في سبيل العلمنة، وهذا هو المسلك العام للعقلانيين الإسلاميين (إن صح التعبير).

عاشرًا: الاهتمام بعمارة الدنيا وبهرجها والغفلة عن الآخرة:

---

(١) راجع مبحث (العمل على إلغاء الفوارق العقائدية) في هذا الكتاب.

المتأمل لكتابات العقلانيين وآرائهم وأطروحاتهم يجد أن جهودهم وآراءهم منصبة إلىٰ الاهتمام بالدنيا علىٰ غير هدىً من الله، ولا التفات إلىٰ شرعه في ذلك، والغفلة والإعراض عن أمور الآخرة والثواب والعقاب.

ويزعمون الاهتمام بالأبدان والمعايش وليس لهم في إصلاح القلوب والعقائد كبير اهتمام، بل غالبًا ما يسخرون من هذه المعاني الشرعية الإيمانية، ويصرح كثير منهم بذلك، وأن المسألة مسألة تحقيق العيش في هذه الحياة الدنيا، كما فعل زكي نجيب محمود في (تجديد الفكر العربي).

* * *

المبحث الثاني

أهداف المدرسة العقلية الحديثة

إن المتتبع لجهود الاتجاهات العقلية الحديثة العلمية منها والعملية يدرك بوضوح، أن هناك أهدافًا وغايات عامة تلتقي عليها سائر الاتجاهات في المدرسة العقلية الحديثة، وقد تنفرد بعض الاتجاهات العقلانية وبعض الأفراد بأهداف وغايات خاصة.

فمن الأهداف المشتركة بينهم إجمالاً:

* العمل على فصل الدين عن الحياة والدولة كليّاً أو جزئيّاً، وبعض الاتجاهات العقلانية قد تسعى إلى تطبيق الإسلام في الحياة لكن من منظور علماني، يقوم على تحريف الدين وتطويعه لأهوائهم، ورغبات البشر.

* محاولة إخضاع الإسلام عقيدة وشريعة لمسايرة الحياة الغربية الراهنة.

* العمل على إلغاء الفوارق العقائدية والمذهبية بين الأديان والفرق والمذاهب، تحت شعارات التقريب بين الأديان والمذاهب، وأقرب مثل لذلك فكرة التقريب بين الإسلام والمسيحية واليهودية، وبين السنّة والشيعة، وقد بذلت العقلية الحديثة كل جهودها ـ ولا تزال ـ للعمل على إنجاح هاتين الفكرتين، ونلاحظ أن أكثر رموز العقلانية المعاصرة مندفعون بحماس وقوة في أنشطة التقريب بين الأديان وبين الفرق، وحوار الحضارات، بشتى مجالاته ومراكزه ومؤسساته، بل هم المحرك الأول لهذا الاتجاه.

* الوقوف في وجه أهل السنة والحيلولة دون نشر السنة وانتشارها، بدعوى أنها تمثل مرحلة الجمود والضعف، وأنها تجاوزها الزمن ونحو ذلك، وتوهين

العقيدة الإسلامية النقية والحد من أصالتها وقوتها، وصرف الناس عنها، ومحاكمتها. وتبنى عقائد الفرق المخالفة للسنة والانتصار لها وتلميعها.

* إبطال الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام، واعتباره مرحلة تاريخية انتهت.

* تعطيل الحدود أو تعديلها أو بعضها بدعوى أنها لا تلائم العصر.

* العمل على إفساد المرأة المسلمة (بدعوى تحريرها) وإخراجها من البيت، ونزعها للحجاب، وتعميم الاختلاط المحرم بين الرجل والمرأة، خاصة في المدارس، والجامعات، وأماكن العمل.

أما الأهداف الخاصة، فإننا نجد من العقلانيين الأوائل من يحملون ميولاً اشتراكية قبل انهيار دولتها، وآخرون لديهم ميول رأسمالية، فالأولون من أهدافهم تحقيق الاشتراكية، وصبغها بالصبغة الإسلامية، والآخرون يسعون لتحقيق الرأسمالية، تحت شعار الحرية الاقتصادية، وقداسة الملكية الفردية والديمقراطية.

ومنهم من لديهم ميول وطنية أو قومية، ومنهم من يتحمس لمفاخر تاريخية جاهلية، كالفرعونية، والفينيقية، فهو يحاول الالتفاف حولها كشعار قومي أو وطني، وآخرون من ذوي الميول الفرقية وأتباع الفرق المفترقة كالمعتزلة والخوارج، والقدرية، والمرجئة، والفرق الكلامية والباطنية والصوفية والفلسفية وغيرها.

وهكذا نجدهم طرائق قدداً، كل حزب بما لديهم فرحون.

أمّا الأفراد فإنّ هناك من كانت لهم أهداف خاصة مع اشتراكهم في الأهداف العامة، فعلى سبيل المثال، نعرف أن الأستاذ أحمد زكي أبو شادي ينادي بقيام مدينة أمريكية إسلامية مزدوجة[1]، والدكتور طه حسين يدعو إلى الفكر والأدب

---

(١) راجع كتاب ثورة الإسلام.

الفرنسي على وجه الخصوص[1]، وآخر متعلق بالأدب الانجليزي، وآخر بالألماني، ومنهم من يتغنى بحضارة معينة، أو مذهب معين، أو فرقة كالمعتزلة أو الصوفية أو الباطنية أو الفلاسفة، أو مدرسة من المدارس الفكرية أو الأدبية أو غيرها وهكذا.

وأرى أنه من المفيد أن نتعرف على الأهداف العامة التي نستطيع أن ننسبها إلى العقلية الحديثة كمدرسة.

أما الأهداف الخاصة فلا أرى أنه من المناسب البحث فيها؛ لأنها لا تدخل في مسمى الأهداف العامة التي يجوز لنا أن نلقي تبعتها على عامة الاتجاهات العقلية الحديثة.

وشيء آخر هو: أن الأهداف الخاصة بكل اتجاه، إنما هي أمور يختلفون عليها، فتبقى خارج نطاق الإطار والمنهج العام للمدرسة العقلية الحديثة.

أما الأهداف العامة فأهمها في نظري ما سبق ذكره وهي:

أولاً: فصل الإسلام عن الدولة والحياة العامة[2]:

من المعروف أن فصل الدين عن الحياة، وعن الدولة، وهو ما يطلق عليه (العلمانية)، إنما هو تقليد من التقاليد الجاهلية الحديثة، وقد ذكرت في عدة مناسبات في هذا البحث سبب هذا الفصل.

وجاء هذا المفهوم الجاهلي إلى المسلمين، عن طريق الغزو الفكري والمحاكاة العمياء للغرب، من قبل المفتونين بالحضارة الغربية الجاهلية.

وقد تبنت المدرسة العقلية الحديثة هذا المبدأ علميّاً، وسعت إليه علميّاً، حتى

---

(١) راجع كتاب مستقبل الثقافة في مصر.

(٢) بعد كتابة هذا البحث طرأت اتجاهات عقلانية جديدة تدعو إلى تطبيق الإسلام وربما تحارب العلمانية، لكن من منظور عقلاني يحمل خصائص العلمنة ومناهج العلمانيين.

تحقق تطبيقه في كثير من دول العالم الإسلامي، سواء من الناحية الثقافية والفكرية؛ حيث اصطبغت به مناهج التربية والتعليم، والدراسات الأكاديمية، ووسائل الإعلام والتوجيه، وتربت عليه الأجيال الحاضرة من المسلمين.

أو من الناحية التشريعية والسياسية، حيث سارت على هذا المنهج سائر الدوائر، والمؤسسات التشريعية والتنفيذية، كالقضاء، والأحكام المدنية والهيئات والنظم الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، والعلاقات الدولية والأحلاف، وغير ذلك من سائر شئون الحياة الأخرى.

ولا تزال ـ عمليّاً على الأقل ـ ولم يسلم من هذا الاتجاه إلا قليل من الدول وعلى رأسها المملكة العربية السعودية التي حملت راية التوحيد وتعمل ـ بحمد الله ـ بمقتضى الشريعة الإسلامية ـ زادها الله عزًا وتوفيقًا وثباتًا على الحق.

وأرى أنّ فصل الدين عن الدولة؛ يدخل في مباحث العقيدة الإسلامية دخولاً أوليّاً؛ لأنه يتعلق بتوحيد الألوهية، الذي لا يتحقق إلا بتحكيم شرع الله وطاعته واتباع أمره، وأن البشر متعبدون بذلك، ومخالفة هذا المبدأ شرك؛ لأنه طاعة لغير الله، لذلك أفردت له هذا المبحث.

فقد عملت العقلية الحديثة ومنذ وقت طويل، على ترسيخ هذا المفهوم (مفهوم فصل الدين عن الحياة)، وتعميمه وغرسه في أذهان الأجيال.

فيقول الدكتور أحمد زكي رئيس تحرير مجلة العربي الكويتية عن منهج مجلته، في العدد الأول الصادر عام ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٧م:

«و(العربي) لا تصل معنى العروبة بدين، فكل الناس عباد الله، وكُلٌّ سالك إليه سبيلاً، والسُّبُل اختلفت والغاية واحدة، والحي يسعى لتأمين الحياة، وبالدين هو يسعى لما بعد الحياة، والتجربة الإنسانية الدامية عبر القرون، دلّت على أن الدين وهو سبيل الناس لتأمين ما بعد الحياة، ذهب بأمن الحياة ذاتها، فلم يبق

عاقل مفكر يتمسك بحرية الفكر، التي هي هبة من هبات الله، إلا يقول اليوم: دعوا الناس تسلك إلى الله أي طريق تشاء، وحتى غير السالك عليه وحده تبعة أنه لا يسلك لا على الناس»[1] **وهذه دعوة مكشوفة سافرة** من أحد رموز العقلانية الكبار وعبر منبرهم الأول ـ مجلة العربي ـ إلى نبذ الأديان وفصل الدين عن الحياة الدنيا، بل واتهام الدين بأنه ذهب بأمن الحياة، وهل نسي هذا القومي ما فعلته القومية بالعرب وغيرهم، وما فعلته المذاهب والاتجاهات الحديثة بأمن الحياة؟

والدين في نظرهم يجب أن يحصر في حياة الفرد، فلا شأن له بحياة الأمة والمجتمع والدولة، كما أن الدين لما بعد الحياة، أما الحياة الدنيا فهو يفسدها، كما يظهر من عبارات أحمد زكي، التي ذكرتها. ويقول عبد اللطيف شرارة في هذا:

«الدين في حياة الفرد شيء، وفي حياة الأمة شيء آخر»[2].

«ففي حياة الفرد هو تجربة خاصة ذاتية، ينتهي إليها بمعلومات قد يتلاقى وقد لا يتلاقى بها مع سواه».

«وفي حياة الأمة هو كاللغة أي دلالة على تاريخ، أما أن يكون الدين قاعدة في تكوين الأمة وبناء الدولة فهذا ما يخالف طبيعة التاريخ البشري؛ لأنه ما من دين على أديم هذه الأرض ألا وهو طارئ على حياة الجماعة حديث في وجود الأمة»[3].

وكان هذا الاتجاه قد ظهر في العالم الإسلامي، وأول ما ظهر في تركيا وقد تمخضت عنه الثورة الكمالية التي أعلنت وعملت على فصل الدين عن الدولة فصلاً تامًا وصارمًا، وكان أعضاء جمعية الاتحاد والترقي هم أبرز من سعى في

(١) مجلة العربي ـ افتتاحية العدد الأول ص٨ المجلد الأول عام ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م.

(٢) مجلة العربي العدد التاسع مرآة الرأي العربي ص٢٢ محرم ٧٩ هـ أغسطس ٥٩م.

(٣) المصدر السابق.

هذا الاتجاه، يقول أحد زعمائهم ـ ناظم بك ـ: «إننا نحن العثمانيين لا يمكن أن نترقى إلا إذا نبذنا الدين وراء ظهورنا وعصرنا العلماء عصراً نمحقهم به محقًا»[١].

ويرون أن الأمة هي مصدر السلطات والتشريع، ويؤكد هذا عبدالمتعال الصعيدي في كتابه (حرية الفكر في الإسلام)[٢].

وبناء على هذا قالوا: إن الفكرة الإسلامية ـ على حد تعبيرهم ـ غير قادرة على جمع كلمة العرب واتحادهم عليها، فيجب أن تبقى في حيز الفرد وتستبدل بشعارات أخرى.

يقول الدكتور محمد أحمد خلف الله عن الحركة القومية ومواقفها من الفكرة الإسلامية:

«إن هذه الحركات لم تتخذ من الإسلام خاصة ومن الدين عامة أساسًا لها وإنما مضت على أساس عربي خالص»[٣].

«وان الفكرة العربية أوسع انتشاراً ونفوذاً من الفكرة الإسلامية»[٤] إلى قوله: «يجب ألا نخلط بين الفكرتين ويجب أن نميز بين الفكرتين ويجب أن نعلم أن هذا لصالح القومية»[٥].

أي من صالح القومية فصلها عن الإسلام!

ويرون أنه ليس بين المسلمين وبين التقدم والرقي الحضاري إلا ترك الدين

---

(١) عن مجلة المنار المجلد ١٦ ص٢ عدد صفر ١٣٣١هـ ص١٣٢.

(٢) راجع حرية الفكر في الإسلام، لعبد المتعال الصعيدي ص٣٣.

(٣) مجلة العربي، العدد الأول من السنة الأولى في مقالة لمحمد أحمد خلف الله بعنوان «القومية العربية كما يجب أن نفهمها» ص٢٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

وفصله عن الدولة وسائر مرافق الحياة، يقول أحدهم :

«حصل التقدم في تركيا بعد نبذها تعاليم رجال الدين وفتاويهم وفصلها الأمور الزمنية عن الدينية، واستغنائها عن قراءة البخاري في السنن البخارية»[١].

ولست أدري لماذا هو ضائق بقراءة البخاري؟!

ويقول أيضًا :

«إن الحكومة التركية المسلمة، وهي المتمسكة اليوم بلباب الديانة ليس لها أية صلة بالشئون السياسية أو بما تضعه الدولة من تشريعات زمنية مختلفة»[٢].

ويذكر أنها حين فعلت ذلك تخلصت من الشيوخ والدراويش ـ ويعني بهم علماء الشريعة. ولعله لم يفقه حقيقة الأمر وهو أن من سماهم الدراويش لعلهم شيوخ الطرق الصوفية الذين شقيت بهم الدولة التركية في آخر عهدها فانحرفت عن العقيدة السليمة، ووقعت في أوضار البدع، وكان هذا من أسباب سقوطها وقيام العلمانية على أنقاضها.

ولا غرابة فقد فتنت الثورة الكمالية أول أمرها كثيرين ممن هم أرسخ علمًا وأكثر اعتدالاً، أمثال الأستاذ محمد فريد وجدي الذي قال عن تلك الثورة «فكانت مثالاً حيّاً ماضيًا في قطع أمة برمتها صلاتها بالتقاليد والموروثات القديمة وفي اقتباس أصول المدنية الغربية على ما هي عليه بدون قيد أو شرط»[٣].

والإسلام داخل في مفاهيمهم المستورة في التقاليد والموروثات القديمة.

ويقول حسن صعب: «ونبني ولسنا بحاجة لأن نعلن الإسلام دين الدولة، فالإسلام دين الله ودين الإنسان وليس دين الدّولة»[٤]. وهو بهذا يبرهن على جهله بالإسلام أو هو ممن يتبع هواه، نسأل الله العافية.

---

(١) هذا هو الإسلام ـ فاروق الدملوجي ـ ص٢١٣.

(٢) هذا هو الإسلام ـ فاروق الدملوجي ـ ص٢١٥.

(٣) عن مجلة نور الإسلام، المجلد الثالث، الجزء الأول، عدد محرم ١٣٥١هـ ص١٦.

(٤) الإسلام وتحديات العصر للدكتور حسن صعب ص٤٨.

وأهم ما تثيره العقلية الحديثة حول هذا الموضوع: مسألة نظام الحكم في الإسلام، فهم يزعمون أن الإسلام لا يشتمل على أي نظام للحكم والشورى والقضاء وسائر الأمور التشريعية للدولة.

وأن الدين لا يملك نصوصًا تحدد تدخله في الدولة.

وأن الخلافة الإسلامية إنما هي أمر اصطلح وتواضع عليه المسلمون، ولا سند شرعي له.

وقد صدر كتاب (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبدالرازق[1]، لتأكيد هذا المعنى، ومحاولة إثباته علميّاً على ضوء الكتاب والسنّة والتاريخ بزعمه، ويعتبر هذا الكتاب أخطر كتاب في موضوعه؛ لأنه يحمل طابع العلمية الشرعية كما أنه صدر من قاضٍ وعالم أزهري ينتسب إلى العلوم الشرعية.

ويعتبر هذا الكتاب: الوثيقة أو المستند الأوّل من الناحية العلمية لكثير من العقلانيين في دعوتهم إلى فصل الدين عن الدولة.

وإليك نبذة من آرائه، وسأسردها مع الاختصار في التعليق عليها، فقد تصدى لها كثير من العلماء وفندوها بقوة ومنهجية[2].

يقول: «وعندهم أن الله جلّ شأنه كما اختار محمداً ﷺ لدعوة الحق، وإبلاغ شريعته المقدسة إلى الخلق، قد اختاره أيضًا لحفظ ذلك الدين، وسياسة الدنيا به»[3] يعني بذلك المسلمين.

ثم يقول: «فلما لحق ﷺ بالرفيق الأعلى قام الخلفاء من بعده مقامه في حفظ الدين وسياسة الدنيا به»[4].

---

(١) صدر هذا الكتاب عام ١٩١٥م.

(٢) من هؤلاء: الشيخ محمد نجيب المطيعي، مفتي مصر الأسبق، في كتاب (حقيقة الإسلام وأصول الحكم).

(٣) الإسلام وأصول الحكم لعلي عبدالرازق ص١٣.

(٤) المصدر السابق.

ويقول عن الخليفة: «عليهم أن يسمعوا له ويطيعوا ظاهراً وباطنًا؛ لأن طاعة الأئمة من طاعة الله، وعصيانهم من عصيان الله»[١] «وجملة القول أن استمداد الخليفة لسلطانه من الله تعالىٰ، مذهب جارٍ علىٰ الألسنة فاش بين المسلمين»[٢].

يقول كل هذا مستنكراً علىٰ المسلمين ما ذهبوا إليه.

ثم يشرع في الاستدلال ـ علىٰ حد زعمه ـ علىٰ أن الخلافة من اختراع المسلمين، فيقول:

«ليس القرآن وحده هو الذي أهمل تلك الخلافة ولم يتصدَّ لها، بل السنّة كالقرآن أيضًا قد تركتها ولم تتعرض لها»[٣]. وهذه دعوىٰ لا تثبت عند التحقيق، فالقرآن والسنّة اشتملا علىٰ نصوص كثيرة، وأحكام قطعية لا يمكن تطبيقها إذا فصلنا الدين عن الدولة.

ثم سرد بعض الأدلة التي وردت في السنّة علىٰ الإمامة والخلافة ورفضها بقوله:

«ثم لا نجد في تلك الأحاديث بعد كل ذلك، ما ينهض دليلاً لأولئك الذين يتخذون الخلافة عقيدة شرعية، وحكمًا من أحكام الدين»[٤].

ويقيس هذه الأحاديث النبوية بموقف عيسىٰ عليه السلام، حين تكلم عن «حكومة القياصرة وأمر بأن يعطىٰ ما لقيصر لقيصر»[٥].

فيقول: «وكل ما جرىٰ من أحاديث النبي ﷺ من ذكر الإمامة والخلافة والبيعة.. إلخ لا يدل علىٰ شيء أكثر مما دلّ عليه المسيح، حينما ذكر بعض

---

(١) المصدر السابق ص١٤.

(٢) الإسلام وأصول الحكم ص٢١.

(٣) المصدر السابق ص٤٢.

(٤) الإسلام وأصول الحكم ص٤٥.

(٥) المصدر السابق ص٤٥.

الأحكام الشرعية عن حكومة قيصر»[١]. **وهذا قياس خاطئ علميّاً**؛ لأن شريعة محمد ﷺ أكمل الشرائع وأشملها، كما أنها شريعة عالمية وباقية، ومن ضرورات عالميتها وبقائها: اشتمالها على أنظمة الحياة والدولة.

ثم يقول: «إن يكن الفقهاء أرادوا بالإمامة والخلافة ذلك الذي يريده علماء السياسة بالحكومة كان صحيحًا ما يقولون، من أن إقامة الشعائر الدينية وصلاح الرعية يتوقفان على الخلافة بمعنى الحكومة، في أي صورة كانت الحكومة، ومن أي نوع، مطلقة أو مقيدة، فردية أو جمهورية، استبدادية أو دستورية أو شورية، ديمقراطية أو اشتراكية أو بلشفية، لا ينتج لها الدليل أبعد من ذلك، أما إن أرادوا بالخلافة ذلك النوع الخاص من الحكم الذي يعرفون فدليلهم أقصر من دعواهم وحجتهم غير ناهضة»[٢].

ويقال له: بأن الحكومة الإسلامية قامت على الإسلام بما فيه من أحكام وتشريعات وحدود، وليس من الضروري أن تكون موافقة لأي من الأنواع التي ذكرها، كما أنه نقل لنا التاريخ، بكل وضوح، كيف قامت الدولة الإسلامية وكيف تقوم، والمسلمون يعرفون طبيعة الحكومة الإسلامية التي قامت منذ أربعة عشر قرنًا، أكثر مما يعرفون طبيعة الحكومات العالمية الكبرى، القائمة اليوم، والتي لا يعرف لها إلا الشعارات الكاذبة، والخدع السياسية الماكرة.

ثم يتساءل: «هل كان محمد ﷺ ممن جمع الله له بين الرسالة والملك؟ أم كان رسولاً غير ملك؟»[٣].

ثم يجيب:

---

(١) المصدر السابق ص٤٥.

(٢) المصدر السابق ص٤٧.

(٣) راجع الإسلام وأصول الحكم ص١١٣.

«إن المسلم العامي يجنح غالبًا إلىٰ اعتقاد أن النبي ﷺ كان ملكًا رسولاً، وأنه أسس بالإسلام دولة سياسية مدنية، كان هو ملكها وسيدها، لعل ذلك هو الرأي الذي يتلاءم مع ذوق المسلمين العام»[١].

إن المؤلف مع أنه يدعي العلمية، لم يحدد لنا مقصوده بالملك هنا، أمَّا أن الرسول ﷺ لم يُقم دولة، فهذه مغالطة ليست من العلمية في شيء؛ لأنه يرد علىٰ نفسه في قوله:

«وإذا كان ﷺ قد لجأ إلىٰ القوة والرهبة فذلك لا يكون في سبيل الدعوة إلىٰ الدين وإبلاغ رسالته إلىٰ العالمين، وما يكون لنا أن نفهم إلا أنه كان في سبيل الملك»[٢]. وكلامه الفاسد هذا يعني أن الشطر الأكبر من حياته وأعماله وسيرته ﷺ كان بمعزل عن الوحي والنبوة، فالوحي في جانب وأعمال الرسول في جانب آخر؟ أو أنه يقول بأنه ﷺ تعدىٰ حدود ما أمره الله به؟ لأنه ﷺ قضىٰ الشطر الأكبر من حياته بعد النبوة في الغزوات والحرب والجهاد والصراع مع المشركين وأهل الكتاب، أفيكون هذا كله لا صلة بالدين ولا الوحي ليكون مجرد سعي إلىٰ الملك؟!

ثم يقول: «الإسلام دعوة دينية إلىٰ الله تعالىٰ، ومذهب من مذاهب الإصلاح لهذا النوع البشري وهدايته إلىٰ ما يدنيه من الله تعالىٰ جلّ شأنه»[٣].

وعلىٰ قوله هذا: كان الأجدر بالرسول ﷺ، أن يقعد في بيته يعظ الناس، ويذكرهم ويشرح لهم مذهبه، فالمطلوب من المؤلف أن يفسر لنا ذلك الصراع الدموي الذي حدث بين المسلمين والكفار باسم الإسلام، وما كان الرسول ﷺ يفعله ويعقده من عقد الولايات، وتطبيق الحدود، وتشريع المعاملات الاقتصادية

---

(١) المصدر السابق ص١١٣.

(٢) المصدر السابق ص١١٨.

(٣) الإسلام وأصول الحكم ص١٥١.

والاجتماعية والمدنية والأخلاقية، وإجراء المنافع والمصالح بين الناس، والعهود مع الدول والقبائل والملل، إذا لم يكن ذلك من شؤون الدولة فماذا يكون؟

ويقول: «ولكنك إذا تأملت وجدت أن كل ما شرعه الإسلام وأخذ به النبي المسلمين من أنظمة وقواعد وآداب لم يكن في شيء كثير ولا قليل من أساليب الحكم السياسي، ولا من أنظمة الدولة المدنية»[1].

«إن كل ما جاء به الإسلام من عقائد، ومعاملات، وآداب، وعقوبات، فإنما هو شرع ديني خالص لله تعالى، ولمصلحة البشر الدينية لا غير»[2].

ونقول له: إن أحكام البيوع، والمواريث والديات والنفقات وأحكام الولايات والعهود والقتال وكثير من العقوبات دنيوية لا دينية ـ بالمعنى الذي يعنيه ـ كما سيأتي.

«ويختم ذلك بقوله: «والحق أن الدين الإسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون»، و«الخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية، كلا ولا القضاء، ولا غيرهما من وظائف الحكم، ومراكز الدولة، وإنما تلك كلها خطط سياسية صرفة، لا شأن للدين بها»[3].

«كما أن تدبير الجيوش الإسلامية، وعمارة المدن والثغور، ونظام الدواوين، لا شأن للدين بها»[4].

ولست أدري ماذا يبقى للدين من شئون الدنيا؟! لا شيء. **فنقول للمؤلف وأشياعه:** إذا كان الدين لا شأن له بالدولة، ولا بتدبير الجيوش الإسلامية، فبم

(١) المصدر السابق ص١٧١.

(٢) المصدر السابق ص١٧١.

(٣) المصدر السابق ص١٧١.

(٤) المصدر السابق ص١٧١.

تفسرون آيات الجهاد والسلم والغنائم والصلح، وآيات الحدود والعقوبات، وآيات الولاية وآيات الحكم؟ مع أن كل هذه الآيات والأحكام، وغيرها في الكتاب والسنَّة كثير، لا يمكن تطبيقها إلا في نظام الدولة الإسلامية.

وإذا قالوا: إن تلك الأحكام خاصة بالرسول ﷺ أو مؤقتة، وليست للمسلمين من بعده، فعليهم دليل التخصيص، كما أن هناك نصوصًا لا يمكن تخصيصها.

ويتابع كثير من العقلانيين زميلهم الشيخ علي عبدالرازق.

فيقول الدكتور طه حسين:

«وأكاد أعتقد أن الخلافة الإسلامية كما فهمها أبو بكر، وعمر، إنما كانت تجربة جريئة، توشك أن تكون مغامرة، ولكنها لم تنته إلىٰ غايتها، ولم يكن من الممكن أن تنتهي إلىٰ غايتها؛ لأنها أجريت علىٰ غير العصر الذي كان يمكن أن تجري فيه»[1]. **وهذا تفسير عجيب**، أن تكون الخلافة الراشدة التي قال فيها النبي ﷺ **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي»**، أن تكون مغامرة، وأن يكون أبو بكر الخليفة الراشد خيار الرجال بعد النبيين رجلاً مغامراً، وبم غامر؟

ثم يقول:

«قد يظن بعض الذين تخدعهم ظواهر الأمور، أن هذه الحكومة، أو بعبارة أدق: أن نظام الحكم في هذا العصر القصير، قد كان نظامًا ثيوقراطيّاً يعتمد قبل كل شيء وبعد كل شيء علىٰ الدين، ولمّا كان الدين في هذه البيئة الخاصة دينًا سماويّاً منزلاً، فقد يظن أصحاب هذا الرأي أن الحكومة التي كانت تحكم المسلمين إلىٰ هذا العهد، إنما كانت تستمد سلطانها من الله ومن الله وحده»[2].

---

(١) إسلاميات طه حسين ـ الفتنة الكبرىٰ (عثمان) ص٦٦٢.

(٢) المصدر السابق ص٦٧٥.

ونقول له: بأن التاريخ شاهد في أن الخلفاء الراشدين كانوا يحكمون بما أنزل الله، وعليه أن يخبرنا من أين كانوا يستمدون سلطانهم، وعليه الدليل، لكنه لم يفعل.

يقول: «وربما كان من أصدق الأدلة وأقطعها على ما نذهب إليه، أن القرآن لم ينظم أمور السياسة تنظيمًا مجملاً أو مفصلاً، وإنما يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ورسم لهم حدوداً عامة، ثم ترك لهم تدبير أمورهم كما يحبون، على ألا يتعدوا هذ الحدود»(١).

وأن هذه الأشياء:

«تدل على أن نظام الحكم في أيام النبي وصاحبيه لم يكن إلهيّاً منزلاً من السماء»(٢). **إذًا فمن أين كان؟ هذه مغالطة لا دليل عليها.**

ويقول الدكتور محمد أحمد خلف الله:

«لقد كان محمد أول وآخر رئيس عربي للدولة العربية القومية التي كان يمكن أن تسمى دولة دينية»(٣) «ولكن هذه الرئاسة الدينية للدولة لم تستمر بعد وفاة محمد ﷺ»(٤) ويقول: «إن رياسة الخلفاء الراشدين للدولة العربية لم تكن دينية بحال من الأحوال، وإنما كانت مدنية صرفة»(٥).

ومن العجيب أنهم حين تكون الدولة عربية قومية يعترفون بأن محمداً ﷺ بنى دولة عربية قومية!!

---

(١) إسلاميات طه حسين ـ الفتنة الكبرى (عثمان) ص٦٦٢.

(٢) المصدر السابق ص٦٧٥.

(٣) إسلاميات طه حسين ـ الفتنة الكبرى (عثمان) ص٦٧٧.

(٤) المصدر السابق ص٦٧٧.

(٥) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة للدكتور محمد أحمد خلف الله ص٨٢.

وحين تكون الدولة إسلامية يتوقفون، وهذا يلزمهم أن يفسروا الفتوحات والغزوات التي قام بها الرسول ﷺ وخلفاؤه بأنها إنما كانت استعماراً عربيّاً، وتعديًا على حقوق الشعوب والقوميات الأخرى، نعم: بأي حق تفرض العروبة على فارس والروم، وتدك بها عروش وحضارات كسرى وقيصر، وتراق فيها دماء الملايين، وتسترق فيها النساء والصبيان؟

وهذا يعني أن تاريخ صدر الإسلام تاريخ أسود قام على الظلم والخطأ والتجربة الفاشلة، وأي عاقل يتصور ذلك؟ **قاتلهم الله أنى يؤفكون**.

ولماذا تفخر العقلية الحديثة بالعروبة والفتح العربي، إذا كان الأمر كذلك؟

إن العقلانية لا تبالي بأن تقول ذلك!

وتبعًا لهذا الهدف الأساس، تسعى العقلية الحديثة إلى استبدال القيم، والمفاهيم، والمصطلحات، والتصورات الإسلامية الأصيلة، بقيم ومفاهيم ومصطلحات وتصورات غربية.

وتنادي بالتجديد، وتعني بالتجديد: تغيير أسلوب المعيشة والحياة، لتكون على النمط الغربي، وتغيير أسلوب التفكيروالعمل، ليكون على طريقة التفكير والعمل الغربي، وتجديد أساليب التعامل الأخلاقي والاجتماعي، وتجديد الأنظمة التشريعية والقضائية والجزائية (أنظمة العقوبات) باستمدادها من الأنظمة والتشريعات الغربية.

ونقول:

إن التجديد هو سنة الكون والحياة، فيما يخص الإنسان، كأساليب المعيشة والعمل، ما دام في حدود القواعد الشرعية العامة.

أما مايزعمونه من التجديد في القيم والأفكار والعقائد الشرعية، والأحكام والنصوص التشريعية والحدود، فهذا أمر لا يسلَّم لهم؛ لأن هذه الأمور توقيفية ربانية، نزلت من الله العليم الخبير. وجعلها صالحة لكل زمان ومكان مهما بلغ

من تطور الحياة وأساليب المعيشة، فهي ربانية عالمية لا تصطدم مع أي تطوّر نافع.

وأمّا ما يعنونه من التجديد بتقليد الغرب فهو الانحراف والرجعية والتأخر والجمود والتبعية الذليلة.. أفلا يعقلون؟

وأخيراً نذكر العقلانيين، ونذكر الأمة الإسلامية كلها كذلك، بالتجربة العلمانية التي مرت بها تركيا المسلمة، على يد أتاتورك، وسائر العقلانيين الذين ساندوه، والذين باركوا خطوته إلى الردة، والذين تَغَنَّوا بتركيا العلمانية، وجعلوها مثالهم وقدوتهم.

نذكر هؤلاء جميعًا بواقع تركيا اليوم، وندعوهم إلى مقارنتها بتركيا الخلافة. فتركيا بالأمس كانت مهيبة - قبل أن تحمل لواء البدع والتصوف - كل الدول من حولها ترهبها وتخطب ودها، فلما بدلت بدل الله حالها فوقعت في حبائل العلمانية، فأصبحت اليوم ذليلة تسعى إلى الهوان لتخطب ودّ الدول الأوروبية والغربية بكل وسيلة، فأين هذه الصورة من تلك؟

لقد كانت تركيا - أيام الخلافة - أكبر قوة في الأرض تُخشى، وكانت تستطيع تحريك العالم الإسلامي كله إلى الجهاد، وكانت الكابوس الجاثم على أوروبا الغرب، وعلى روسيا الشرق، وعلى كل أعداء الإسلام.

فقد كانت حقا - وباعتراف العقلانيين أنفسهم - قوة رهيبة تُخْشَى رغم ما كانت تعانيه آخر الأمر، من ضعف مادي ومعنوي، ورغم ما كانت تلاقيه من تكالب الأعداء في الخارج، ومن فساد الأوضاع في الداخل، ومن مكائد العقلانيين والقوميين في صميمها.

رغم هذا كله كانت تركيا الأمس الإسلامية، أعظم وأقوى وأصلح من تركيا العلمانية اليوم، التي فصلت الدين عن الدولة والسياسة.

إنها لم تصلح أوضاعها الداخلية، بل زادت سوءاً وتعقيداً، ولم تصبح دولة قوية عالميّاً، بل صارت دولة ضعيفة هزيلة مغمورة، فالتفتت إلى الغرب، تبحث

عن ملجأ أو مغارات أو مُدَّخَلاً تتوارىٰ به، فانضمت إلىٰ الأحلاف والوصايات الغربية، حيث لم تستطع الاستقلال التام.

وها هي اليوم تلقي بنفسها في أحضان الغرب تلتمس الود والعطف والنصرة والعون من العدو اللدود!

فأي نصر، وأي عز، وأي تقدم ورفعة كسبته تركيا، وكسبه العالم الإسلامي من بعدها من العلمانية، وفصل الإسلام عن الدولة وإن العقلانيين يعرفون ذلك، لكنهم يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم.

إنهم يخربون بيوتهم، ويفسدون بلادهم، بأيديهم وأيدي الكافرين، فليعتبر أولو الألباب.

ثانيًا: محاولة إخضاع الإسلام (عقيدة وشريعة) لمسايرة الحياة الغربية الحديثة:

فالمدرسة العقلية الحديثة تسعىٰ جادة لمحاولة إخضاع تعاليم الإسلام لتساير الحياة الغربية الحديثة، وذلك يتمثل أحيانًا بالتماس الأدلة والنصوص الإسلامية، التي يزعمون أنها تدل علىٰ ما يريدونه ـ أو يزعمونه ـ من أن الإسلام سبق إلىٰ كثير مما دلت عليه النظريات العلمية والفكرية والأدبية وغيرها في الغرب من المفاهيم والأفكار والآداب والعلوم التي تنافي الدين والأدب.

وباستحداث الأحكام الشرعية. التي توافق النظم والتشريعات الغربية الوضعية، ولو خالفت الأدلة الشرعية الثابتة.

وأحيانًا بالمطالبة بإلغاء الأحكام الشرعية، التي تمنع المسلم من الالتقاء مع الأفكار والثقافات وأنماط السلوك لغير المسلمين، مثل عدم موادة من حاد الله ورسوله، ومثل الحدود الشرعية ومكافحة الجريمة بها.

ومرة ثالثة بدعوىٰ أن ما حصل في الغرب من تقدم ورقي مدني واجتماعي واقتصادي وأخلاقي، هو بعينه ما دعا إليه الإسلام وأراد تحقيقه.

ويرددون ما يُذْكَر أن الشيخ محمد عبده قاله حين زار الغرب، إذ قال ما معناه: وجدت في الغرب إسلامًا بلا مسلمين، ووجدت في الشرق مسلمين بلا إسلام.

فالعقلانيون على وجه العموم، يجعلون مثلهم الأعلى في هذه الحياة: المدنية والتطور الغربي المادي، وأعلى أمانيهم وآمالهم: الوصول إلى مستوى الحياة الغربية، وجل همهم وشغلهم الشاغل: اللحاق بركب الغرب، ودعوة المسلمين، باقتفاء أثره، ليوردوهم موارد الهلكة والجاهلية، وبئس الورد المورود.

وقد رأيت ـ حسب اطلاعي ـ أن الدكتور أحمد زكي أبو شادي، من أكثر الناس حماسًا لهذه الفكرة، وكرس كثيراً من وقته وجهده في الدعوة إليها.

ومن أقواله في سبيل هذا المبدأ:

قال: «هذا هو الإسلام كما يفهم وينشر ويبشر به في العالم الجديد بين المتعلمين، وكما حاولنا تبيانه بأحاديثنا العربية والانجليزية على السواء، وعلى الأخص بالنسبة لتفاعله مع الحضارة الأمريكية، ومع الديمقراطية الأمريكية»[1].

ويقول: «ولذلك قلنا مراراً: إن مبادئ الإسلام نظريّاً وعمليّاً هي أقرب ما تكون لمبادئ الحضارة الأمريكية، والحياة الأمريكية، تفكيراً وسلوكًا، فهل يتنبه المسلمون إلى هذه الحقيقة الراسخة فيفلحون؟»[2]. ثم يقول: «وليس هدفنا سوى المواءمة مع الحضارة الأمريكية الرفيعة التي هي صفوة المدنية الحديثة»[3].

وقد دعا كل من الدكتور طه حسين، وسلامة موسى، وغيرهما، إلى أن ينهل المسلمون من الحضارة الغربية، دون قيد ولا شرط، فألَّف الأول لذلك كتابه

(١) ثورة الإسلام ـ د. أحمد زكي أبو شادي ص٤٢.

(٢) المصدر السابق ص٥٧.

(٣) المصدر السابق ص٨١.

(مستقبل الثقافة في مصر) وألف الثاني كتابه (اليوم والغد) لهذا الغرض أيضًا[١].

والواقع السياسي والاقتصادي والتعليمي الذي يشهده المسلمون في عالمهم اليوم، يسير وفق هذا الهدف، فقل أن ترىٰ دولة أو حكومة من حكوماته إلا ولها انتماء وتبعية، إما لدول رأسمالية، أو دول شيوعية، وكلاهما نتاج غربي أو شرقي جاهلي مادي.

وهذا يعطينا مدىٰ عمق الأثر العقلاني في حياة الأمة الإسلامية علميّاً وعمليّاً، وأنها لا تزال تسير في كثير من أحوالها وفق أهداف الاتجاهات العقلية الحديثة.

ثالثًا: العمل على إلغاء الفوارق العقائدية [التقريب بين الأديان] أو إلغاء عقيدة الولاء والبراء:

إن الدعوة إلىٰ التقريب بين الأديان، كانت في أصلها دعوة علمانية غربية واستغلتها اليهودية ومن تابعها لامتصاص نقمة أصحاب الأديان الأخرىٰ ضد اليهود، بعد أن فشلت عن طريق الماسونية في إلغاء الأديان ومحوها من الأرض[٢].

وقد انخدع أكثر العقلانيين المحدثين بهذه الفكرة ـ أي فكرة التقريب بين الأديان ـ وانصبوا إلىٰ جمعياتها، وأجهزتها، ومؤسساتها، ومؤتمراتها.

وشارك كثير منهم في كتب وبحوث لتأييدها.

وقد تحركت لها دول ومنظمات في العالم الإسلامي بأسره، وسخَّرت في سبيلها بعض العلماء الذين لم يدركوا حقيقتها وخطورتها.

وعلىٰ أية حال، فإن المدرسة العقلية الحديثة انساقت مع هذا التيار وبذلت في سبيله مجهودات علمية وعملية كبيرة، خاصة في التقريب بين الإسلام والنصرانية، أو بين المسلمين والنصارىٰ، وبين فرق المسلمين أهل السنَّة والشيعة.

---

(١) راجع الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص٢٢١، ٢٢٩ جـ٢.

(٢) انظر: الماسونية لأحمد عبدالغفور عطار ص٥٠، ٥٢، ٥٣.

وترىٰ العقلية الحديثة أنه من الضروري للمسلمين عمومًا، وأهل السنة علىٰ الخصوص، من الاستجابة لهذه الفكرة، ولو أدىٰ ذلك إلىٰ تنازلات عقدية؛ لأن ذلك - في زعمهم - أمر حتمىٰ ضروري، تقتضيه المصلحة الخاصة، والعامة للحفاظ علىٰ السلام العالمي؛ ولمشاركة الإنسانية في مسيرتها نحو التعاون والتآلف والسلام، لتحقيق الرخاء المنشود؟!

يقول الدكتور حسن صعب في وصف الحياة المنشودة بزعمه: «نبني بدون أن تكون منا حاجة لأن نميز بين المسلم وغير المسلم داخل البناء، فالله لا يفرق بين أحد من عباده! والإسلام لا يفرق بين أحد من رسله، ودار الإسلام الحديثة لا تميز بين مواطن باعتقاد ديني، بل بعلمه الفاضل، ونبني، ولانفرق بين رجل وامرأة، ونبني ولسنا بحاجة لأن نعلن الإسلام دين الدولة»[1].

إنها دعوة براقة وخادعة لكنها تحمل الباطل بعينه؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ** ﴾ [١٢٠: البقرة]، ويقول سبحانه آمرًا نبيه ﷺ وكل مسلم: ﴿ **لكم دينكم ولي دين**﴾ . . . ثم كيف لا نفرق بين أحد من العباد والله تعالىٰ يقول: ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾ [٣٥، ٣٦: القلم] وقال سبحانه: ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [٢٨: ص].

ويقال: إن أول من شارك في هذا المضمار هو الأستاذ محمد عبده فقد ألف جمعية سياسية دينية سرية في بيروت، هدفها التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة، وإزالة الشقاق بين أهلها[2]، وله في هذا المضمار جهود كبيرة ومقالات

---

(١) راجع الإسلام وتحديات العصر للدكتور حسن صعب ص٤٧، ٤٨.

(٢) راجع الفكر الإسلامي المعاصر لغازي الثوبة ص١٩.

مشهورة في التقريب بين الإسلام والنصرانية[١]، ويوافقه على بعض هذا محمد رشيد رضا، كما أن من رواد هذا الاتجاه: السيد أحمد خان، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد فريد وجدي، وأحمد أمين، والجارودي، وغيرهم ممن ذكرتهم سابقًا وسأذكر بعضهم هنا.

وقد انتصر الشيخ محمود أبو ريّة لهذه الفكرة في كتابه (دين الله واحد على ألسنة جميع الرسل).

ودعا إلى وجوب صهر الأديان بعضها ببعض، حتى تزول الفوارق والشَّحناء، وجعل لهذا المبدأ الجديد قواعد تجمع الأديان كلها، وبعد أن ساق رأيًا ينسب إلى الأفغاني بأن دين المستقبل[٢] قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [٦٢: البقرة].

فقال أبو ريّة بـ «أن الناس سيصلون إن شاء الله بعلومهم وعقولهم إلى مرتقىً تزول فيه الجنسيات الدينية، وتختفي العصبيات المذهبية، ويجتمعون على دين واحد، يشمل الناس جميعًا، **وهذا الدين يقوم على ثلاث قواعد:**

(١) إيمان بالله.

(٢) عمل صالح في الحياة.

(٣) إيمان باليوم الآخر.

أما ما وراء ذلك مما هو خارج عن علمهم فأمره مفوض إلى ربهم، وبذلك يعيشون الحياة تحت السعادة ظليل متحابين متعاونين على عمل ما فيه الخير لكل قبيل»[٣].

---

(١) راجع الأعمال الكاملة لمحمد عبده ٢/ ٣٥٥، ٣٥٦.

(٢) راجع: دين الله واحد، لأبي ريّة ص١٦٧.

(٣) دين الله واحد على ألسنة جميع الرسل ـ محمود أبو ريّة ـ ص١٦٨.

فهل علم أنه بذلك يلغي الإسلام، ويتبع دينًا جديدًا ما أنزل الله به من سلطان؟

ويقول في قصة له مع بعض المسلمين، حين ترحم (أبو ريّة) على أحد النصارى فاستنكر عليه بعضهم كيف يترحم على كافر؟ يقول:

«فقلت لهم: إذا كان حكمكم على الكافر صحيحًا فإن النصراني ليس بكافر»[1].

«إذا كان النصراني كافرًا فكيف يباح للمسلم أن يتزوج بالنصرانية؟»[2] هكذا يقرر المسألة بعقله، لكنه يجهل أو يتجاهل أن الله تعالى هو الذي حكم بكفر النصارى في كتابه، ثم هو الذي حكم سبحانه بحل طعامهم ونسائهم، فهذا حكم الله القائل في كتابه العزيز: ﴿ **إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية** ﴾ [٦: البينة].

ثم يقول: «إن للمسلم أن يتزوج النصرانية وعليه أن يرافقها في أيام الآحاد والأعياد إلى كنيستها»[3] فتأمل هذا التخليط، عافانا الله وإياك.

ويقول عن منهجه في دعوته:

«ولأنني قضيت حياتي كلها في الدعوة إلى اتحاد رجال الأديان كما اتحدت أصول الأديان، وأن ينبذوا ما نشأ من خلاف بينهم يكرهه الله مالك الملك، وأن يعتصموا بحبل الله جميعًا ولا يتفرقوا، وأن يعقدوا الخناصر على القيام بنشر ما يدعو إليه الدين الحق من كرائم الآداب وأمهات الفضائل»[4].

ويقول: «وقد استخرت الله في أن أنشر هذه الرسالة الموجزة لأبين لإخواني

---

(١) دين الله واحد ـ لأبي ريّة ـ ص٢٨.

(٢) المصدر السابق. ص٢٨.

(٣) المصدر السابق ص٢٨.

(٤) المصدر السابق ص٣٣.

المخلصين من أهل الأديان أجمعين وهم المتبعون لموسىٰ وعيسىٰ ومحمد صلوات الله عليهم . . . »[١] .

ويذهب إلىٰ هذا الشيخ عبد العزيز جاويش[٢] .

ويقول آخر :

«فهم المسيحية واجب علىٰ كل مسلم ، بل الإيمان بها حتم عليه ، إذ قبل أن يكون المرء مسلمًا يجب أن يكون مسيحيّاً ، فالإسلام بني أصلاً علىٰ المسيحية كما بنيت المسيحية علىٰ الموسوية ، وهو بمثابة طبعة جديدة منهما» .

ويقول : «وفهم المسيحية واجب مقدس علىٰ كل مسلم ومسلمة فهو ـ كطلب العلم ـ بمثابة الفريضة»[٣] . وعلىٰ هذا المبدأ العقلاني فالمسلمون كلهم آثمون ويجب قتالهم ؛ لأنهم تركوا فرض عين وأجمعوا علىٰ تركه وهو ما يزعمه هذا الجاهل من وجوب فهم النصرانية ! لكن يأبىٰ الله ورسوله والمؤمنون ذلك .

ويقول بمثل هذا القول عبد العزيز جاويش .

ومن المؤسف أن نجد من أهل العلم والفضل من يساير هؤلاء الجهلة ، كما فعل رشيد رضا[٤] ، ومصطفىٰ المراغي[٥] .

ويستمر الجيل المعاصر من العقلانيين في سلوك هذه المسيرة (التقريب بين الأديان) ودعوىٰ عدم التميز للإسلام ، ثم هم علىٰ منهجهم في الاستدلال ؛ يستدلون بالنصوص علىٰ غير وجهها ، حين يستدلون بالآية قوله تعالىٰ : ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل**

(١) دين الله واحد ـ لأبي رية ـ ص٣٣ .

(٢) راجع مجلة الهداية ، عدد فبراير ومارس ص٣١ سنة ١٩١٢م .

(٣) ثورة الإسلام لأحمد زكي أبو شادي ، ص١٢٤ و١٢٩ .

(٤) راجع (رشيد رضا طود إصلاح) لخالد فوزي آل حمزة ص٥٥ ، ٥٦ .

(٥) راجع الولاء والبراء للدكتور محمد القحطاني ص٣٧٤ .

صالحًا فلهم أجرهم عند ربهم...﴾ [٦٢ : البقرة]، فيخالفون إجماع أهل العلم من أن المقصود بذلك: من آمن بكل ديانة صحيحة قبل نسخها، وأن الإسلام نسخ جميع الديانات، وأنه بعد مبعث النبي ﷺ فإن من لم يتبع دينه فليس ممن آمن ولا عمل صالحًا، ولا تشمله الآية المذكورة.

أما دعوىٰ أن الديانات واحدة فهي مذهب الفلاسفة خصوم الأنبياء، ومذهب الزنادقة أصحاب الاتحاد ووحدة الوجود والباطنية الطغام.

ويذهب إلىٰ هذا المذهب المتميّع أمثال حسن الترابي حيث يرىٰ اجتماع المسلمين مع غيرهم «علىٰ أصول الملة الإبراهيمية بتراث التاريخ الديني المشترك، وبرصيد تاريخي من المعتقدات والأخلاق، وإننا لا نريد الدين عصبية عداء ولكن وشيجة إخاء من الله الواحد»[1] . وهكذا يصور التمسك بالإسلام ونبذ غيره بأنه عصبية؟!

وكذلك نجد هذا الاتجاه لدىٰ فهمي هويدي في كتابه (مواطنون لاذميون)! وغيره، ومثلهم عبد اللطيف غزالي حين يزعم أن المسلم هو من أسلم وجهه لله وهو محسن وإن كان يهوديّاً أو نصرانيّاً أو صابئيّاً، وأن الحرية بين الأديان هي التوحيد! وأن العداء بين الأديان يعتبر شركًا[2] !

ويتابع علىٰ هذا الاتجاه محمد عمارة في كتابه (التراث والمستقبل) وكتابه (الطريق إلىٰ اليقظة) وغيرهما، فيذهب إلىٰ أن معنىٰ «أن يكون الدين كله لله» أن يعبد الجميع الله الواحد، بصرف النظر عن الشرائع التي يسلكونها (هكذا) وبصرف النظر عن الرسالات السماوية والرسل الذين حملوها إلىٰ أممهم[3][4] .

---

(١) راجع مجلة المجتمع الكوينية العدد (٧٦٣) ١٩٨٥م.

(٢) انظر نظرات في الدين له ص١٦ ـ ٣٦.

(٣) انظر التراث والمستقبل، له ص١٦٤.

(٤) يراجع الاتجاه العقلاني لدىٰ المفكرين الإسلاميين المعاصرين للشيخ سعيد الزهراني (رسالة دكتوراه).

وأنا أتساءل (بجدّ) : هل هؤلاء مسلمون؟ وهل يعقل أن يجهل كل واحد منهم أن الإسلام ألغى اليهودية والنصرانية فضلاً عن غيرهما وأنه نسخ الديانات السابقة، وأن الله تعالى لا يقبل من العباد غير هذا الدين، وأن اليهود والنصارى كفار مشركون بحكم الله تعالى لا بحكمنا.

إنه الهوى يعمي صاحبه ويصمه عن معرفة الحق وقبول الهدى. نسأل الله السلامة.

بل يذهب محمد عمارة إلى أبعد من ذلك في كتابه (الاسلام والوحدة الوطنية) حين يزعم أن الفكر المستنير(!) «طوى صفحة للتاريخ الذي كان يقسم الناس إلى مؤمنين وكفار؛ ليبسط مكانها صفحة الحضارة الحديثة التي تميز بين الأمم والشعوب على أساس من التحضر والخشونة والبداوة»[1] .

أما علم هذا الجاهل أن الذي قسم العباد إلى مؤمن وكافر هو الله تعالى؟ كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [٢ : التغابن] ثم ألا يستحي أن يشيد بالأحكام الغربية الجاهلية الجائرة الظالمة التي تقسم الناس على أساس من التحضر والخشونة والبداوة؟ ثم ليعلم أنه هو وأشياعه من العقلانيين لا يزالون يُحسبون عند الغربيين من أهل الخشونة والبداوة!

ومهما فعل هؤلاء من محاولات الخروج عن أحكام الله فسيبقى الحق ظاهراً بحول الله وقوته، وسيبقى الحكم الإلهي الأزلي بأن الناس مسلمون وكفار، وأن اليهود والنصارى وسائر الديانات من الكفار والمشركين.

ونذكر هؤلاء بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [١٩ : آل عمران]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [٨٥ : آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [٦٧ : آل عمران] .

---

(١) الإسلام والوحدة الوطنية ص٢٣ .

ونذكرهم بأن اليهود والنصارى غيَّروا دين الله، وحرَّفوا عقيدة التوحيد، وأنكروا رسالة نبينا محمد ﷺ، وبذلك كفروا وصاروا من أهل النار، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [٦: البينة]، والله نهانا عن اتباعهم وطاعتهم، وأمرنا بقتالهم حتى يسلموا أو يسلِّموا ويرضوا بحكم الله وشريعة الإسلام، وقد فعل الرسول ﷺ ذلك وقاتلهم عليه، وفعله من بعده المسلمون. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [١٤٥: البقرة].

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [١٢٠: البقرة].

كما أن اليهود والنصارى وجميع الخلق مأمورون باتباع الإسلام، وهذا من أصول ديانات أهل الكتاب، وطريق السلام والائتلاف هو هذا لا غيره، فكان الرسول ﷺ يخاطب ملوكهم وكبارهم بقوله: أسلم تسلم، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [٣١: آل عمران].

وورد في السنّة أحاديث كثيرة، تدل على وجوب قتال أهل الكتاب وغيرهم حتى يشهدوا ألا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، ويقبلوا حكم الإسلام، ويطبق عليهم شرعه.

قال ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»** رواه مسلم[1]، ومعلوم أن اليهود والنصارى ـ وغيرهم من أهل الديانات المحرَّفة والمنسوخة ـ لم يشهدوا أن لا إله إلا الله، ولا أن محمداً رسول الله، ولم يقيموا الصلاة، ولا غير ذلك من أركان الإسلام، وقال

---

(١) الحديث رواه البخاري، الحديث رقم [٢٩٤٦]، ومسلم، الحديث رقم [٢٢] واللفظ لمسلم.

ﷺ: **«والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»**[١].

كما أنه تبعًا لهذا المبدأ الذي تدين به العقلية الحديثة، وهو (مبدأ الوفاق بين الأديان) سعىٰ العقلانيون إلىٰ إلغاء الجهاد وإبطاله واعتباره اعتداء من المسلمين علىٰ غيرهم، والاهتمام بآيات السِّلم، وتحريف وتأويل آيات القتال والجهاد في الإسلام، كل ذلك لإبطال الجهاد، وهو هدف أساس، من أهدافهم وأهداف أساتذتهم الغربيين من المستشرقين وغيرهم؛ لأن الجهاد هو الشعار العملي للمسلمين فهو بحق يشكل خطرًا يهدد الجبناء ويهدد الكافرين والمنحرفين والوثنيين في كل مكان.

كذلك تمييع العقيدة الإسلامية، والحد من صلابتها، لتكون بزعمهم أقرب إلىٰ التسامح والملاينة للملل الأخرىٰ.

فقد ألغت العقلية الحديثة من قواميسها كثيرًا من المفاهيم والمصطلحات الإسلامية، مثل الجهاد والغزو في سبيل الله، والقتال في الدين، وطلب الشهادة في ساحة القتال، والحسبة، وأحكام الردة والحدود، والرق، وأحكام أهل الذمة.

وكذلك الكفر والفسق والفجور والنفاق والزندقة والضلال والبدعة، والكافرون، والمشركون، وأعداء الله، مع أنها مصطلحات ضرورية، ما دام الصراع بين الحق والباطل قائمًا، كما أنها هي مصطلحات القرآن والسنة (دستور المسلمين) وأبدلوا هذه المصطلحات الإسلامية الإيجابية بمصطلحات انهزامية كالدفاع، وتحرير الأرض، والقتال في سبيل الوطن والأخوة الوطنية والقومية والإنسانية.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٥٣).

بل وصل الأمر عند بعضهم أن يتحاشى اطلاق كلمة (الكفار) (الأعداء) ونحوها، ويدعو إلى عدم تمييز المسلم عن غيره، كما فعل محمد فتحي عثمان في مقاله (المسلمون والآخرون)(١) وكما فعل فهمي هويدي حينما أطلق على غير المسلمين (الكفار): الآخرين، وزعم أن الآخر ليس عدوا ولا مناهضًا ولا هو في مرتبة دونية! وأنكر تميز المسلمين(٢).

كما أشاعوا في بحوثهم وكتاباتهم أن الحرب في الإسلام دفاعية فحسب، فلا يسوغ عندهم القتال والجهاد لنشر الإسلام، وحتى يكون الدين كله لله كما أمر الله، وكما جاء في الحديث السابق ذكره.

رابعًا: قطع خط الرجعة على استئناف تطبيق الإسلام:

إن الاتجاهات العقلية الحديثة حيثما كانت تميل إلى فصل الدين عن الدولة والحياة، وحين تحاول تربية الأجيال المتأخرة من أبناء المسلمين على المفاهيم والأفكار التي عزلتهم عن عقيدتهم، وعن فهم الإسلام على الوجه الحق، حين تحاول ذلك تجعل نصب عينيها الترصد والكيد لكل محاولة جادة لاستئناف الدعوة إلى عقيدة السلف، والتصدي لكل من يدعو إلى ذلك، خاصة تلك الدعوات والحركات السُّنِّيَّة؛ لأنها أكثر صلابة وخطرًا، على العقلية الحديثة، والجاهلية الغربية.

فهي ـ أعني الاتجاهات العقلانية المعاصرة ـ لا تزال تحارب دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الإصلاحية، وجماعات أهل الحديث والجماعات السلفية في كل مكان، وتحارب وتؤلب على التوجهات الإسلامية السُّنية القائمة في كل مكان اليوم(٣).

وذلك هدف أساسي من أهداف العقلية الحديثة بمختلف اتجاهاتها.

---

(١) انظر مقالته في مجلة العربي ص٤٩ العدد ٢٦٧.

(٢) انظر مقالته في مجلة المسلم المعاصر ص٩، ١٠، العدد ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) من المفارقات العجيبة أن العقلية الحديثة تعتبر نفسها هي رافعة لواء الحرية والتسامح الديني والفكري وحماية حرية الكلمة وحرية الاعتقاد وحرية السلوك.

خامسًا: إفساد المرأة المسلمة:

قد يتصور القارئ لأوّل وهلة أن هذا الموضوع، صلته بالعقيدة التي هي مرتكز هذا البحث ـ بعيدة، فموضوع المرأة من مباحث الفقه أو التفسير والحديث، وهذا حق من الجانب النظري.

لكني جعلته من الأهداف الأساسية للاتجاهات العقلية الحديثة، وفي مبحث عقائدي؛ لخطورته.

فإن قضية المرأة في هذا العصر أريد لها أن تكون من القضايا الأساسية، لكن من منطلق منحرف، والحق أنها من القضايا الأساسية، لكن من المنطلق السليم، وتأتي خطورتها على العقيدة من كونها اتخذت ـ من قبل المنحرفين ـ سلمًا لكل مفسدة.

وذلك أمر له سببه، وهو أن المرأة هي الركيزة الأولى في إعداد الأمة وتربية الأجيال، وتكوين الأسرة والبيت الصالح، الذي هو اللبنة الأساسية في كيان الأمة.

فالمرأة من حيث هي أم وربّة بيت، وموجهة للنشء، ثم هي مربية في المدرسة، هي الركن الأول والأساسي في التربية والتوجيه وصياغة الأجيال.

فإذا كانت المرأة مسلمة، متحجبة، محتشمة، متسترة، واعية لدينها، وعقيدتها، مدركة لمصلحة أبنائها وصلاحهم، ومهتمة بمصالح دينها وأمتها؛ صاغت الجيل المسلم الراسخ العقيدة القوي الأخلاق.

وإذا ضاعت المرأة وهتكت الستر، وتبرجت واختلطت بالرجال، وتركت البيت، ووقفت في واجهات المتاجر والمعارض، ومقدمات المداخل، وبين آلات المصانع، وانسابت في متاهات الحياة الهازلة، وانساقت مع مغريات الشهوة والشهرة، والمتعة الحرام، ضاع المجتمع كله؛ لأن هذا التشرد، يبعد المرأة عن واجباتها الأساسية، وأهمها رعاية البيت والأسرة التي هي اللبنة الأولى والضرورية لكل مجتمع، وتربية الأطفال والناشئين، مما يجعلهم ينسابون ويعيشون حياة الضياع والفوضى.

وتركيز الاتجاهات العقلية الحديثة على إفساد المرأة، من الأمور التي أصبح يدركها ويدرك آثارها وخطرها جميع الناس على مختلف مستوياتهم، وقد فعلت وقطعت في ذلك خطوات واسعة، ولا أظنني مبالغًا حين أرى أن نجاح الاتجاهات العقلية في إفساد الأمة والعقيدة والناشئة الإسلامية عن طريق إفساد المرأة أكثر منه عن طريق غيره من الوسائل الأخرى الفكرية والعملية.

فقد أثارت الاتجاهات العقلية ما يسمى بتحرير المرأة، وأن المرأة مظلومة، وأن قوامة الرجل عليها، وتفضيله في بعض الأحكام كالإرث؛ إنما هو من بقايا العصور المظلمة، وأن المرأة نصف المجتمع، وأن الحجاب قيود وأغلال، والاهتمام بالمنزل إنما هو بمثابة الإقامة الجبرية، أو السجن والاسترقاق لهذه المرأة.

ومع أن كثيراً من العقلانيين يزعمون العلمية والموضوعية، فإنّا نراهم يجافون العلمية والموضوعية ـ كعادتهم ـ حين يدّعون أن المرأة مثل الرجال في كل شيء! وفي القدرة على القيام بالواجبات والأعمال التي عُرفت من أعمال الرجال، والتي تتطلب الخشونة والقسوة، كالقتال، والعمل في المصانع والمناجم، وأعمال المواجهة في الدوائر والمؤسسات، والحرف والعمليات الخشنة الأخرى؛ لأنه من طبيعة المرأة وفطرتها: اللين والحنان والرقة، فإن الخروج بها عن نطاق طبيعتها ظلم لها وأي ظلم، إن الإسلام يكرم المرأة حين يأمرها بالحجاب والقرار في المنزل والتفرغ لرعاية البيت والأطفال، وحين يفرض عليها القيام بالأعمال النسائية، التي هي نصف أعمال الأمة، إن الإسلام حين يفعل ذلك فإنه يكرم المرأة، وإنه كلّفها وأكرمها بتكاليف لا يقدر عليها الرجال، كما كلف الرجال بتكاليف لا تقدر عليها النساء.

وإن الكثير من مطالب الأمم الضرورية لا يقدر عليها إلاّ النساء، كما أن الكثير من مطالب الأمم لا يقدر عليها إلاّ الرجال، والإسلام وزع الواجبات بين

الرجل والمرأة على هذا الأساس العادل وعلى مقتضى الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

وحين تنزع المرأة حجابها، وتخرج من منزلها، وتترك واجباتها ومهامها، وتختلط الاختلاط المحرم، وتهتم بالإغراء والفتنة، فماذا سيبقى لها من نفسها، وماذا سيبقى للأمة منها، ومن يخلفها في واجباتها الأساسية؟ وأين يذهب الرجل حين تطارده في وظائفه وواجباته؟! أسئلة تطلب الإجابة من العقلانيين، وما أردت بها إلاّ كشف دعاويهم الكاذبة.

وماذا سيقولون لو عكسنا عليهم القضية وطالبناهم بالقيام ببعض ما هو من خصوصيات المرأة كالحضانة والتدبير المنزلي، بل العشرة الزوجية وفراش الرجل!؟

وكل هذا رَدٌّ عليهم بأسلوبهم وعلميتهم وموضوعيتهم التي يزعمونها، وإلاّ فالحق إنما يلتمس مما قاله الله تعالى وقاله رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ**﴾ [٣٣: **الأحزاب**].

وقال: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾ [٣١: **النور**].

وقال سبحانه: ﴿**الرجال قوامون على النساء**﴾. [٣٤: **النساء**].

وقال سبحانه: ﴿**وليس الذكر كالأنثى**﴾. [٣٦: **آل عمران**].

* * * * *

المبحث الثالث

من سمات المدرسة العقلية الحديثة

نظرًا لهيمنة الاتجاهات العقلية في العالم الإسلامي، فكريّاً وثقافيّاً، وتربويّاً، وإعلاميّاً، ولكثرة مؤلفاتها وبحوثها، وتمكنها من مناهج التعليم، والدراسات، نظرًا لذلك كله يستطيع الباحث المتخصص أن يترسم لهذه الاتجاهات العقلية الحديثة سمات ومعالم، وملامح واضحة.

ومن أوضح وأهم تلك السمات:

* **الجهل بالعقيدة والشريعة الإسلامية وأدلتها** وأهميتها، والجهل بالتبعة التي تترتب على مخالفتها.

* **التلبيس والمكر والخداع** في عرض مبادئهم وأفكارهم المنحرفة وآرائهم الشاذة وإلباسها الصبغة الشرعية.

* **ضعف الالتزام بأصول الإسلام** وأحكامه وأخلاقه وسننه، والتذمر من التكاليف الشرعية.

* **الترابط العضوي بين روادها، والذي يتضح** من التضامن والتمادح، والتعاون شبه المنتظم بينهم.

* **الإشادة بالحياة الغربية**، والأفكار والمفاهيم والمعارف وأنماط السلوك في الغرب.

* **البعد عن المصطلحات الشرعية والمفاهيم الإسلامية الأصيلة** والاستعاضة عنها بقيم ومصطلحات ومفاهيم غربية.

* **اتباع الأهواء في مواقفهم وآرائهم في** الدين والتدين، والسنة وأهلها.

وإليك شيئًا من التفاصيل عن بعض هذه السمات لتوضيحها والقياس عليها.

السمة الأولى: الجهل ـ عند الأكثر ـ بالعقيدة الإسلامية وأدلتها، وأحكام الإسلام عمومًا، والتساهل والاستهانة وعدم التثبت، في إطلاق الآراء والأحكام.

ويبدو لي أن الاستدلال على جهل اتجاهات المدرسة العقلية الحديثة بالعقيدة الإسلامية وكثير من أحكام الدين لا يحتاج إلى أدنى جهد؛ لأن كل ما تصدره هذه العقلية من آراء حول الإسلام يدل على جهلها أو تجاهلها، فأي جانب من جوانبها الفكرية أو العملية، تجده كله يبرهن على الجهل والتساهل بدين الله والإعراض عن منهج الإسلام في التلقي والاستدلال، والعقيدة والأحكام.

فإذا رأيت استهانتها بالنصوص الشرعية الإلهية وتحكيم العقل فيها مطلقًا، حكمت دون تردد على جهلها.

وإذا رأيت خوضها في الغيب، دون علم، ولا وسيلة للعلم، بل تستهين بالدليل وتفتري على العلم، عرفت أنها بذلك تبرهن على جهلها.

ولعله من المفيد، أن أورد بعض الأمثلة التي تصور جهل روّاد العقلية الحديثة في بديهيات الإسلام، التي يعرفها من له أدنى علم، بل يعرفها من لديه أقل معرفة بدينه من المسلمين، من ذلك قول أحدهم:

«فهم المسيحية واجب على كل مسلم، بل الإيمان بها حتم عليه إذ قبل أن يكون المرء مسلمًا يجب أن يكون مسيحيّاً»[1].

ويقول أيضًا: «وفهم المسيحية واجب مقدس على كل مسلم ومسلمة فهو ـ كطلب العلم ـ بمثابة الفريضة»[2].

وهل يقول بهذا الهراء إلا جاهل أو معرض عن دين الله؟ لأنه لو كان يعلم

(١) ثورة الإسلام لأحمد زكي أبو شادي ص١٢٤.

(٢) المصدر السابق ص١٢٩.

الحقيقة لما ناقضها بهذا الأسلوب المكشوف، فأساتذته المستشرقون أكثر حكمة وأعلم بهذه الحقيقة، لذلك فهم يراوغون عند إثارة الشبهات حولها.

ويقول عن الزكاة بأنها: «تعادل اثنين ونصف بالمائة من رأس المال يؤدىٰ سنويّاً قبل شهر رمضان»[1] هكذا قبل شهر رمضان!

فبرغم من أن كل عبارة الكاتب تنم عن جهل، وبعد عن أحكام الإسلام المستفيضة، إلا أنه يسف في الجهل، حين يزعم أن الزكاة تؤدىٰ قبل شهر رمضان.

وعلىٰ أية حال، فإنا نرىٰ من خلال المباحث التي مرت، مواقف كثيرة للعقلانيين، تدل علىٰ الجهل بأحكام الله ودينه، وحقه تعالىٰ وحق رسوله ﷺ وحق الإسلام.

وبإمكاننا أن نستعرض ذلك علىٰ الإجمال:

فإنكارهم للمعجزات الثابتة بالسُّنَّة الصحيحة، دليل جهل.

وتأويل المغيبات، التي لا يعلمها إلا الله، علىٰ مقتضىٰ النظريات البشرية المادية، برهان قصور وجهل، والخوض في أسماء الله وصفاته بغير علم دليل جهل بحق الله تعالىٰ.

والطعن في حجية السنة النبوية وثبوتها، دليل جهل بدين الله وحق رسوله ﷺ، واستهانة بالتراث الإسلامي، وبالإسلام نفسه.

والتهكم والسخرية من الصحابة والتابعين، والقرون الأولىٰ الفاضلة، مع الإشادة والتعظيم لأعلام الغرب، والماديين والملاحدة ورؤوس البدع، برهان **انحراف وجهل، وهكذا**.

إذًا فالجهل هو السمة الأولىٰ - في رأيي - من سمات الاتجاهات العقلية الحديثة في العالم الإسلامي.

---

(١) ثورة الإسلام لأحمد زكي أبو شادي ص٦٨.

وأقصد بالجهل هنا ـ الجهل بمعناه العام، سواء كان عدم العلم بالحقيقة، أو إنكارها وجحودها مع العلم بها، أي سواء كان جهلاً أو تجاهلاً.

السمة الثانية: قلة الدين وضعف الالتزام بأحكام الإسلام وأخلاقه وسننه:

وهذا أمر واضح، لا أظنه يحتاج إلىٰ استدلال، بعد هذه الرحلة الطويلة التي قضيناها في متاهات المدرسة العقلية الحديثة وسراديبها؛ لأننا رأينا كيف تجرأت علىٰ الله، وعلىٰ رسله، وعلىٰ القرآن، وعلىٰ السنّة وعلىٰ سلف الأمة الصالحين، وعلىٰ الإسلام، وكيف ظاهرت الغرب وخضعت له، وأنها شككت وارتابت في كثير من أصول العقيدة، وأحكام الإسلام، كل ذلك لا يحدث إلاّ من قلة الدين ورقة الإيمان، وضعف التقوىٰ، وقلّة الثقة بالله تعالىٰ، وعدم اكتراث بلقاء الله واليوم الآخر.

نجد ذلك في عموم أحكامها، لا في خصوص أفرادها، والأفراد لا نملك أن نطلق علىٰ كل واحد منهم حكمًا، بصلاح أو فساد؛ لأن أمر ذلك والحكم فيه إنما هو لله وحده، فهو وحده الذي يطلع علىٰ القلوب والنيّات والخواتيم، إنما نحن مكلفون أن نحكم بالظاهر، وأن ننزل الناس منازلهم في الحياة الدنيا علىٰ ضوء ما قالوا وأنتجوا وخلفوا من أفكار وأقوال وأشياء.

أما عن قلة الدين وضعف الالتزام بأحكام الإسلام الظاهرة، في العبادات والواجبات التي فرضها الإسلام، فإن ذلك واضح في سلوك كثير من العقلانيين علىٰ العموم ولا نملك الآن وسيلة لاستقصاء واستقراء سلوك كل فرد منهم، إنما البعرة تدل علىٰ البعير، والأثر يدل علىٰ المسير، فمن الغالب أن من يتساهل في عقيدته يتساهل في سلوكه الإسلامي، والعكس كذلك، ومراقبة سلوك كثير من العقلانيين أعطت هذه النتيجة، لكني لا أرىٰ التسمية والتشخيص في هذه المسألة.

بل إن الإفساد الأخلاقي، يبدأ بالدعوة إلى التبرج والاختلاط، وينتهي بتحطيم كيان الأسرة المسلمة، ثم الأمة الإسلامية كلها، إن ذلك من الأهداف الأساسية للمدرسة العقلية الحديثة كما رأينا في فصل: أهداف المدرسة العقلية الحديثة.

وللدلالة على ذلك نسوق عبارة لمصطفى كمال أتاتورك، الذي يعتبر أول رائد سياسي من رواد المدرسة العقلية الحديثة، والذي تربى على أفكار جمعية الاتحاد والترقي، وهي من أكبر دور الحضانة العقلية الحديثة، فيقول:

«وكل أمة تهمل الرقص أو تكرهه محكوم عليها بالخراب والاندثار، إن الشعوب الانكلوسكوسنية قد سادت العالم بسبب ولعها بالرقص»[1].

وما الحرص على فصل الدين عن الحياة، وحصره في ضمير الفرد، إلا برهان على فقدان صفة التسليم والالتزام لأحكام الله تعالى وأوامره.

ومن أوضح الدلائل على قلة الدين وضعف الإيمان، ذلك الشقاء النفسي الذي يعانيه كثير من العقلانيين، حتى كثر بينهم الانتحار؛ لأن الانتحار وتبريره دليل عدم الثقة بالله تعالى، ودليل ضعف الإيمان في الغالب.

فانتحار المسلم محرّم بالإجماع؛ لأنه قتل نفس، والله تعالى يقول في وصف المؤمنين:

﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [٦٨: الفرقان]، وقال: **﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾** [١٥١: الأنعام].

فالله حرم قتل النفس، وقال ﷺ فيما رواه مسلم: **«من قتل نفسه بحديدة فحديدته بيده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا»**[2].

(١) عن صحيفة الفتح، المجلد الثاني، العدد (٥٥) ٢٩ محرم ١٣٤٦هـ ص٦٧.

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان، رقم ١٧٥.

ثم ينبري أحد رواد العقلية الحديثة، ليقول بأن الانتحار صواب لا يعاب صاحبه، فالضوائق الاقتصادية، والفشل في الحياة، والرسوب في الامتحان، والتعذيب، والمرض، والحب، والشقاء في الزواج، كل هذه الأمور يشرع فيها الانتحار، ولا يلام المنتحر لهذه الأسباب ونحوها»[1] كذا يزعم الدكتور أحمد زكي.

السمة الثالثة: الترابط العضوي المنظم بين العقلانيين عمومًا:

وذلك بالتضامن والتمادح والتكافل بينهم، ويتضح ذلك حين نجد أنهم تكاملت جهودهم في مهاجمة الإسلام وإبعاد المسلمين عن التمسك بالسنة، ومحاولة عزل الإسلام عن الحياة والدولة، وكل منهم في الغالب يثني ويعطف على الآخرين، ويدافع عنهم، وقد تكاملت هذه الجهود تكاملاً شبه منظم.

أمّا عن التضامن بينهم فإننا نجده في إشادة بعضهم ببعض في مؤلفاتهم، ودفاع بعضهم عن بعض عندما يتعرض أحدهم للمهاجمة والرد، وتزكية بعضهم لبعض أيضًا في كل مناسبة، واستدلال بعضهم بآراء الآخرين منهم.

وعلى سبيل المثال، نجد أن الدكتور طه حسين يشيد بأحمد أمين في مقدمة فجر الإسلام، كما يشيد بعبد الحميد العبادي[2]، وكلهم من رواد المدرسة العقلية الحديثة.

كما يشيد الدكتور طه بأبي ريّة ويشجعه على بحثه (أضواء على السنّة المحمدية) حين قدّمه له[3]، مع العلم أن أبا ريّة هاجم السنّة وأساء إليها، وإلى

---

(١) مختصراً في مجلة العربي في مقالة عن الانتحار لأحمد زكي رئيس التحرير آنذاك. العدد الثامن يوليو عام ١٩٥٩ من ص٥٩ إلى ٩٤.

(٢) راجع مقدمة الطبعة الأولى للدكتور طه حسين على (فجر الإسلام) لأحمد أمين.

(٣) راجع كلمة الدكتور طه حسين على أضواء على السنة بعنوان (أضواء على السنة المحمدية جهد وعبء ثقيل) ص٧ إلى ص١٤.

نقلتها من أصحاب رسول الله ﷺ وكذلك وَصَفَ أبو ريّة الدكتور طه حسين بأنه «نصير الفكر والدين والعلم»[١].

ويا ليت أبا ريّة بين لنا كيف كان الدكتور طه حسين نصيراً للدين، ومتىٰ كان ذلك؟

أما التكامل المنظم أو شبه المنظم في جهود رواد المدرسة العقلية الحديثة، فيبدو واضحًا حين نستعرض بعض الموضوعات التي تناولوها بالبحث والدراسة.

فنرىٰ أن:

الدكتور محمد أحمد خلف الله بحث في القرآن الكريم بحثًا عقليّاً فيه إساءة إلىٰ الإسلام[٢]، وتحريف للعقيدة، وتكذيب للقرآن.

ومحمود أبو ريّة بحث في السنّة المطهرة وقال مثل سلفه[٣].

والدكتور طه حسين بحث في حياة الصحابة، والمجتمع الإسلامي الأول وغير ذلك[٤] وصورها تصويراً مشيناً قد أساء إلىٰ السلف حيث وصفهم بأوصاف المجتمعات المتفلتة والفوضوية وغير الملتزمة.

والشيخ علي عبدالرازق بحث في نظام الدولة والحكم، ودعا إلىٰ فصل الإسلام عن الدولة.

والدكتور أحمد أمين بحث في الحياة العقلية والفكرية، والعقيدة والفقه

---

(١) راجع أول الصفحة ٧ من أضواء علىٰ السنة المحمدية لأبي رية.

(٢) راجع كتبه (الفن القصصي في القرآن) و (محمد والقوىٰ المضادة) و (القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة).

(٣) راجع كتابيه (دين الله واحد) و (أضواء علىٰ السنة المحمدية).

(٤) راجع كتبه (حديث الأربعاء) و (الفتنة الكبرىٰ) و (علىٰ هامش السيرة).

والتشريع والفرق الإسلامية، وحرف كثيراً من الحقائق.

والدكتور محمد حسين هيكل بحث في السيرة والسنّة والمعجزات، فساهم في الإساءة إلى السنة والسيرة.

وأمين الخولي المشرف على رسالة (الفن القصصي في القرآني الكريم) لمحمد أحمد خلف الله، تفانى في الدفاع عن تلك الرسالة التي يزعم صاحبها فيها أن القرآن اشتمل على أساطير،[1] حتى قال الخولي: «إنه لَحَق، ألقوا بي في النار»[2]. ثم المعاصرون منهم يشيدون بأسلافهم كما فعل محمد عمارة[3]، وكما فعل عبد المتعال الصعيدي[4].

وذلك الترابط إنما هو على وجه العموم، أما عند التخصيص فإنّا قد نجد بين بعض الأفراد عداوات، أو سوء تفاهم شخصي، لكن هذا لا يؤثر في اتجاه المجموعة، التي تجمعها وحدة الهدف، ووحدة الاتجاه.

وإن الأمثلة على الترابط العضوي بين العقلانيين كثيرة، وأظن هذا القدر الذي سقته من الأمثلة كاف لإعطاء الحكم؛ لأن المقام لا يتسع لأكثر من هذا.

أما ارتباط العقلانية الحديثة بأسلافها رؤوس البدع وأئمة الفرقة والضلالة وأصحاب المجون والفسق، فسبق بيان بعضه.

* * * * *

(١) راجع: الفن القصصي في القرآن ص٢٠٨، ٢٠٩.

(٢) راجع: موقف العقل جـ١ ص٣١٩.

(٣) راجع: الطريق إلى النهضة الإسلامية، له ص١٨٤.

(٤) راجع: المجددون في الإسلام، له.

المبحث الرابع

أثر المفاهيم العقلانية فيما يسمى بالفكر الإسلامي الحديث

أقصد بالفكر الإسلامي الحديث: تلك البحوث والمؤلفات والكتابات ومجموع الدراسات والأفكار والتصورات، التي قام بها علماء ومفكرون ومثقفون مسلمون، وبأسلوب معاصر.

وقد تأثر ما يسمى بالفكر الإسلامي الحديث بالدراسات والمفاهيم والمصطلحات والأفكار العقلانية بعض التأثير، وخاصة في الشّكليّات والمصطلحات والأساليب، أي: أنه لم يتأثر بالأصول والأهداف إلا نادراً.

وسأذكر الآن ـ وبإيجاز ـ بعض الشواهد على تأثر الكتاب والمفكرين الإسلاميين بالمصطلحات والأساليب العقلانية، وهذه أمثلة:

(١) إنه من السنّة ومما جرى عليه عمل المسلمين عمومًا ـ أنهم يبدؤن خطبهم، ومؤلفاتهم، ومجالسهم العلمية، وسائر أحوالهم، ببسم الله الرحمن الرحيم، وبالحمد لله والصلاة والسلام على رسوله (عليه الصلاة والسلام)[١] لذلك أطلقوا على خطبة زياد (البتراء) حينما لم يبدءها باسم الله ولا بحمده، مما يدل على ندرة هذا الحديث وشذوذه. لكن العقلانيين تركوا هذه السنّة وأهملوها ـ في الغالب ـ تقليداً للغربيين، الذين فصلوا الدين عن العلم! حتى في تلك

---

(١) راجع صحيح مسلم بشرح النووي، المجلد الأول ص٣٤، ٤٤، وزاد المعاد لابن القيم، الجزء الأول ص ٦٥.

المؤلفات ذات الصبغة الإسلامية[١]، التي كتبها العقلانيون المحدثون.

وقد تأثر بعض مفكري وكتاب ما يسمى بالفكر الإسلامي الحديث، وكذلك روّاد العقلانية الحديثة من باب أولى، فبعضهم لم يبدأ باسم الله أصلاً[٢]، وكثير منهم بدأ باسم الله لكنه لم يحمد الله، ولم يصلِّ على رسول الله[٣]، وهذا ولا

(١) راجع الكتب التالية فكلها لم تبدأ باسم الله ولا بحمده ولا الصلاة والسلام على رسوله:

١ - أكثر كتب العقاد ومنها العبقريات كلها (بما فيها عبقرية محمد) وكتاب (الله) وإبراهيم أبو الأنبياء، وكل كتب موسوعته الإسلامية لم تبدأ باسم الله تعالى ولا بحمده.

٢ - الألوهية وفكر العصر - د. حامد عوض الله.

٣ - الإسلام وتحديات العصر - د. حسن صعب (طبعة ثالثة).

٤ - بين الدين والفلسفة - محمد يوسف موسى.

٥ - حياة محمد ورسالته - مولانا محمد علي - ترجمة منير بعلبكي (طبعة ثالثة).

٦ - هذا هو الإسلام - فاروق الدملوجي (طبعة ثانية).

٧ - الله - مصطفى محمود (طبعة أولى).

٨ - نظرات استشراقية في الإسلام - د. محمد غلاب.

(٢) الكتب الإسلامية التي بدأها مؤلفوها بدون أن تفتح باسم الله وحمده قليلة منها:

١ - يا مسلمي العالم اتحدوا وواجهوا أعداءكم - د. سلامة المغير.

٢ - شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، لأنور الجندي.

٣ - في النقد الإسلامي المعاصر - د. عماد الدين خليل.

(٣) الكتب التي بدأها مؤلفوها بدون الحمد لله والصلاة على رسوله كثيرة جداً، منها على سبيل المثال:

١ - أكثر كتب محمد الغزالي/ ومنها فقه السيرة، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، الإسلام المفترى عليه، ظلام من الغرب، دفاع عن العقيدة والشريعة، كفاح دين، وهذا ديننا.

٢ - عامة كتب أنور الجندي/ ومنها: الأيدلوجيا والفلسفات المعاصرة في ضوء الإسلام، الإسلام في وجه التغريب.

٣ - عامة كتب محمد قطب/ ومنها: جاهلية القرن العشرين، والتطور والثبات، هل نحن مسلمون، قبسات من الرسول.

=

شك انهزامية أمام الموجة العقلانية التي تستهين بشأن السنن والعادات الإسلامية الحسنة، وتتعمد مخالفة ما تعارف عليه السّلف، لا سيما وأن ذلك من سنن الإسلام التي كان الرسول ﷺ يواظب عليها ولا يتركها، ولا عذر ولا ضرر لهؤلاء الكتاب بتركها.

كما أنه ليس غريبًا أن تكون هناك قلة من الكتب الإسلامية لم تبدأ بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله، لكن الملفت للنظر والمؤسف أن تكون كثيرة، ومن المؤلفين الذين ساهموا في بناء الفكر الإسلامي الحديث، وأن تكون أيضًا عادة لبعضهم، بحيث يندر أن تجده مبتدئًا بحمد الله، وذلك مثل كل من: محمد الغزالي، سيد قطب، محمد قطب، أنور الجندي، وحيد الدين خان، عبدالله دراز، وغيرهم كثيرون!

وكل هؤلاء ساهموا مساهمة فعالة في خدمة الفكر والثقافة الإسلامية.

بل إن محمد الغزالي، وسيد قطب، ومحمد قطب، يعتبرون ـ بحق ـ من بناة الفكر الإسلامي الحديث، وأنا سقت هذا كمثال على أثر المفاهيم العقلانية على الفكر الإسلامي الحديث، **فأرجو أن لا يفهم القارئ أن ذلك ينقص من قدرهم، أو من قيمة مؤلفاتهم وأصالة فكرهم الإسلامي.**

(٢) وقع كثير من الكتّاب والمفكرين المنتصرين للدين، في أخطاء من جراء التساهل في التعبير، وعدم التقيد والالتزام للمصطلحات الإسلامية الشرعية.

= ٤ ـ عامة كتب سيد قطب، ومنها: في ظلال القرآن، معالم في الطريق، دراسات إسلامية.

٥ ـ عامة كتب د. عبدالله دراز، ومنها ـ الدين ـ دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية الدولية، نظرات إسلامية.

٦ ـ الحلال والحرام في الإسلام، ومشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، د. يوسف القرضاوي.

٧ ـ علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحي الصالح.

وأخطر هذه الأخطاء تعبير بعضهم عن أسماء الله وصفاته بتعبيرات لا سند لها، ولم ترد عن الله ورسوله؛ لأن أسماء الله وصفاته توقيفية لا يزاد فيها ولا ينقص.

مثل التعبير عن الله تعالىٰ بأنه «قوة كبرىٰ»[(١)] أو أنه (قوة)، أو (عقل)، أو أنه (لا حدود له)[(٢)]، وإسناد الخلق لغير الله، ووصف المخلوقات ـ كالطبيعة، والأنبياء والعظماء ـ بصفات لا تجوز إلا لله.

والتعبير عن بعض المصطلحات الشرعية بتعبيرات علمانية ومادية، ونحو ذلك.

(٣) من المعروف أن التصوير لغير ضرورة مقدرة شرعًا، ورفع الصور، محرّم، فقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ ما رواه البخاري ومسلم، والترمذي، وأبو داود، والنسائي **«عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم النبي صلى الله عليه وسلم من سفر، وقد علقت درنوكًا فيه تماثيل، فأمرني أن أنزعه فنزعته»**[(٣)].

ويزيد التحريم تأكيدًا، **إذا** كانت الصورة لعالم، أو مفكر، أو رئيس أو

---

(١) راجع تفسير سيد قطب ـ في ظلال القرآن ـ جـ١ ص٣٩.

(٢) راجع الإسلام يتحدىٰ لوحيد الدين خان ص٥٣ تعريب ظفر الإسلام خان.

(٣) رواه البخاري في كتاب اللباس، باب ما وطئ من التصاوير، ومسلم في كتاب اللباس، باب تحريم تصوير الحيوان، حديث رقم (من ٨١ ـ ١٠٢).

ومنها قوله في رواية أخرىٰ عن عائشة رضي الله عنها قالت« قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل، فلما رأىٰ رسول الله ﷺ هتكه وتلون وجهه فقال: **«يا عائشة، أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة الذين يُضاهون بخلق الله..»** الحديث رواه البخاري في كتاب اللباس، باب ما وطئ من التصاوير، ومسلم كتاب اللباس، باب تحريم صورة الحيوان، حديث رقم (٩٢).

نحوهم ممن تحترمهم العامة؛ لأن ذلك مظنة التقديس والبدع.

وأعظم من هذا كله، إذا كانت الصورة مرفوعة، أو موضوعة في أماكن محترمة كأغلفة الكتب وصدور المجالس.

والذي يهمنا هنا: وضع الصور في أغلفة الكتب المحترمة، فإنه من العادات الغربية، التي يتبعها العقلانيون ومُحبّو الشهرة في العالم الإسلامي، وقد تأثر بهم - مع الأسف - بعض الكتاب والمفكرين والعلماء المسلمين[1]. وهذا في نظري خطأ من المسلمين آكد؛ لأنهم قُدَوات، لا سيما وأن فعلهم ذلك قد يفضي إلى تقديسهم عبر صورهم ولو بعد حين.

فلو لم يكن التحريم إلا من باب سد الذريعة لكفى، فكيف والنهي وارد عن الرسول ﷺ، وأن الذين يصورون الصالحين منهم هم شرار الخلق عند الله، فكيف إذا صور الصالحون أنفسَهم، وروّجوا صورهم؟!

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما اشتكى النبي ﷺ ذكر بعض نسائه كنيسة يقال لها: مارية، وكانت أم سلمة وأم حبيبة أتتا أرض الحبشة، فذكرتا من حسنها، وتصاوير فيها، فرفع رأسه فقال: **«أولئك قوم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه ذلك الصور، أولئك شرار خلق الله»** أخرجه البخاري ومسلم[2].

(٤) ومن أوضح الأمثلة التي تبين مدى أثر المفاهيم العقلانية في الفكر والثقافة الإسلاميين: ظهور كثير من المؤلفات الإسلامية لمؤلفين يتصرون للفكر الإسلامي، تحمل عناوين انهزامية، من ذلك مثلاً: بعض مؤلفات أنور الجندي،

---

(١) من ذلك مجموعة مؤلفات الشيخ عبد الحليم محمود - شيخ الأزهر الأسبق.

(٢) رواه البخاري في الجنائز، باب بناء المسجد على القبر، ورواه مسلم في كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد في القبور، حديث رقم (١٦).

فإنها من الكتب التي تدافع عن الإسلام وتحارب الاتجاهات الهدامة، ومع هذا نجدها في عناوين تحمل مفاهيم وشعارات العروبة والقومية[1]، في حين أن مضامينها إسلامية في الغالب، فيستعمل ألفاظ: الفكر العربي والثقافة العربية، مع العلم أن كثيراً من الفكر العربي، والثقافة العربية في العصر الحديث نتاج نصراني، شارك فيه النصارىٰ في لبنان وسوريا وفلسطين ومصر وغيرها، وهم عرب، وثقافتهم وفكرهم عربيان، بل إنهم رواد اليقظة العربية القومية التي يحاربها الإسلام، أو علىٰ الأصح التي حاربت الإسلام وسعت إلىٰ علمنة الدول والتعليم والإعلام والثقافة والفكر العربي!

وكثيرون من مؤلفي وكتاب الفكر الإسلامي الحديث، وقعوا في مثل هذه المصطلحات المتساهلة والدخيلة، والتي تؤدي إلىٰ إضعاف المفاهيم الإسلامية القوية الأصيلة، المستمدة من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وتراث سلفنا الصالح، في حين أننا لا نجد أن لاستعمالها مبرراً، لا ضرورة عقلية ولا شرعية، إلا الضعف والانهزامية في نظري.

---

(١) من ذلك كتبه:

١ - الإسلام والثقافة العربية في مواجهة التغريب (مع العلم أن الثقافة العربية - غير الإسلامية - ساندت التغريب).

٢ - الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر العربي (ومن الأخطاء والشبهات إطلاق كلمة فكر عربي).

٣ - أضواء علىٰ الفكر العربي الإسلامي.

٤ - مخططات الاستشراق في غزو الثقافة العربية (والمستشرقون إنما تهمهم الثقافة من حيث هي إسلامية فقط).

٥ - يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار (والفكر العربي غير الإسلامي ساند الاستعمار وخدمه).

٦ - يقظة الفكر العربي في مواجهة التغريب (والفكر العربي غير الإسلامي من نتاج الغرب).

هذا وأحب أن أنبه أن هذا لا يعني أني أنكر قيمة لغة القرآن اللغة العربية وفضلها، فهذا شيء لا شك فيه، لكنني أنكر أن يكون الإسلام عربي والتاريخ الإسلامي تاريخ عربي، والتراث الإسلامي تراث عربي، والفكر الإسلامي فكر عربي، فالإسلام دين الله للناس كافة، والله تعبد به الخلق بكل لغة من لغاتهم، فلم تكن العربية والعروبة شرط من شروط الإسلام، وما كان الإسلام عربيّاً بمفهومهم الخاطئ، ولا العرب هم المسلمون فقط، كما أنه قد ساهم في تاريخ الإسلام وثقافته وفكره أناس من المسلمين غير العرب وبغير اللغة العربية أيضًا في شتىٰ بقاع الأرض، في الهند وأندونيسيا وباكستان وأفغانستان وتركيا، بل في أوربا وأمريكا. وفي العرب يهود ونصارىٰ، ومجوس وشيوعيون وملاحدة، ولهم فكر عربي، وثقافة عربية، يأبىٰ الله ثم المسلمون أن تكون من الإسلام في شيء.

(٥) كذلك وقوع بعض الكتاب الإسلاميين في تأثير بعض النظريات الغربية التي تخالف نصوص كتاب الله تعالىٰ، وسنّة رسوله ﷺ، أو تخالف أصلاً من أصول الدين.

أو علىٰ الأقل، متابعتها قبل التثبت ومراجعة أصول الإسلام ومقرراته وأحكامه، فنجد أن بعض الكتاب يسوق الرأي الغربي أو النظرية وكأنها هي الأصل[1]، وهذا ظاهر في العلوم الاجتماعية والدراسات النفسية والتربوية علىٰ الأخص.

أما عن أسباب تأثر ما يسمىٰ بالفكر الإسلامي الحديث بالمفاهيم والمصطلحات والأفكار العقلانية فأهمها في نظري ما يلي:

---

(١) من ذلك مثلاً ما وقع فيه الشيخ: وهبة الزحيلي، من متابعة النظريات الاجتماعية الغربية القائلة: بأن الأصل في حياة الإنسانية الشرك والوثنية ثم تطورت حتىٰ وصلت إلىٰ التوحيد، فقد جعل ما أسماه بـ (مرحلة الوثنية) من أول مراحل البشرية، وذلك في كتابه (الأصول العامة لوحدة الدين الحق) ص١٥ ـ ١٦ وهذا منزلق خطير.

أولاً: انتشار تلك المفاهيم والمصطلحات والأفكار وشيوعها، وتمكنها من مصادر الثقافة الحديثة و مناهج التعليم والصحف وسائر وسائل الإعلام، وأساليب التخاطب والتعامل، والكتابات الأدبية والثقافية والعلمية، والتي جلها كتبت بأقلام العقلانيين، والعلمانيين المستغربين، حتى تمكنت من ألسنَة الناس وأقلام الكتَّاب وعقول الناشئة، إلى أن أصبحت كأنها الأصل وغيرها هو الشذوذ. فهذا مما جعل التخلص منها، ليس بالأمر الهين، ويحتاج إلى جهود كبيرة ووقت طويل.

ثانيًا: التساهل والسلبية من قبل المسلمين في قبول تلك الأفكار والمفاهيم والمصطلحات، فلم يدركوا خطرها وأثرها حتى تغلغلت وأصبحت جزءاً من مصطلحاتهم وكيانهم الثقافي، وقد استهان المسلمون في أمرها أول الأمر، مما أوهم كثيراً من الناس بأنهم راضون عما حدث، أو أن الإسلام ليس له رأي في هذه الأمور، فلما تيقظ بعض المسلمين وجدوا أنه قد فاتهم الآوان أو كاد في تخليص أنفسهم من هذا الوباء.

ولا يعني هذا أنه لم يوجد من علماء المسلمين من لم ينتبه ولم يتصدَّ لذلك التيَّار العلماني من المفاهيم والمصطلحات والأفكار، فإنه قد وجد منهم من بذل جهدًا مشكوراً، لكن كانت تلك الجهود محدودة وفردية في الغالب وتنقصها الوسائل؛ لأن هذا الأمر يحتاج إلى مجهودات كبيرة ومؤصلة، وتملُّك وسائل علمية وعملية وإعلامية تناسب طبيعة المعركة القائمة، أو تضاهي وسائل التغريب والعلمنة التي يملكها العقلانيون.

ثالثًا: قوة التيارات التي يحملها المد الحضاري الغربي الجاهلي المهيمن على أكثر العالم، والذي يحمل تلك المفاهيم العقلانية والعلمانية، مما ساعد على سرعة انتشارها وقوتها ونفوذها في العالم الإسلامي.

رابعًا: اضطرار المفكرين والباحثين الإسلاميين لمواجهة الهجوم العقلاني

العلماني على العقيدة والمفاهيم والمصطلحات الإسلامية، والتصدي له، مما ألجأهم - في كثير من الأحيان - إلى استعمال مفاهيم وأساليب ومصطلحات العقلانيين أنفسهم، لتفنيدها وإبطالها، أو تصحيحها، فكان لهذا الموقف أثره في وقوع بعض الإسلاميين في تأثير تلك المفاهيم العقلانية.

ومع هذا كله، فإني لا أرى مبرراً للتهويل والمبالغة من خطر وأثر المفاهيم والاصطلاحات العقلانية على الاتجاه الإسلامي الأصيل؛ لأنه ما دام سيعتمد على الكتاب والسنّة وتراث سلفنا الصالح؛ فإنه لن يضل - بإذن الله - إلا بقدر ما يبعد عنهما، فالاعتماد الكلي في استمداد العقيدة والعلوم الإسلامية على هذه الأصول، كفيل بأن يزيل آثار المفاهيم العقلانية إن شاء الله.

وبعد ذلك يحتاج الأمر إلى مزيد من اليقظة والانتباه، والعزم الأكيد - من قبل العلماء والباحثين المستمسكين بالسنة - على التخلص من آثار المصطلحات والمفاهيم العقلانية في كتاباتهم ومصطلحاتهم الإسلامية.

وما دام الأمر يتعلق بقضية سلامة العقيدة، ونصرة الدين وحمايته وحفظ مصادره، ونصرة الحق وأهله، فإن هذا سيتحقق بوعد الله بحفظه إلى يوم الدين، إنما علينا العمل والجهاد، وعلى الله قصد السبيل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

* * * * *

الخاتمة

وتشتمل على:

توطئة، ثم النتائج التالية:

أولاً : أن الاتجاهات العقلانية الحديثة تمثل فرقًا واتجاهات منحرفة.

ثانيًا : أن الاتجاهات العقلانية الحديثة تمثل خطرًا على المسلمين.

ثالثًا : تمكن الأفكار والمفاهيم العقلانية بين المسلمين.

رابعًا : أن الاتجاهات العقلانية الحديثة تخدم أهداف أعداء الإسلام.

خامسًا : أن العقلانيين رغم اختلافهم فهم يلتقون على دفع العالم الإسلامي لمسايرة الغرب.

سادسًا : أن العقلانيين لهم أثر في المسيرة الفكرية والعلمية في العالم الإسلامي في الوقت الحاضر.

سابعًا : أن أهم أسباب ما يعانيه المسلمون اليوم من انحطاط وفوضى وفرقة: الانحراف في العقيدة.

ثامنًا : موقف أهل السنة والجماعة من ذلك كله.

* * * * *

الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة ٢٨٦].

وبعد هذه الرحلة السريعة في أكثر من ميدان من ميادين الاتجاهات العقلانية الحديثة ووصفها، وبعد استطلاع آراء العقلانيين في أكثر أصول الدين ومبادئه، من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والدين والتوحيد، والغيب والوحي، والنبوة والقرآن، والسنّة، والسلف الصالح، والقدر والإسلام على وجه العموم.

وبعد أن حاولتُ التعرُّف على منهج الاتجاهات العقلانية الحديثة في دراسة الإسلام عقيدة، وشريعة، وتاريخًا، والحكم عليه الأهواء والنظريات البشرية المادية.

وبيَّنتُ ما ظهر لي أنه من أهم أهدافها.

واستعرضت أهم سمات تلك المدرسة ومعالمها التي يمكن أن تُعرف بها من خلال دراستها وأعمالها وسلوكها.

وبيّنت مدى أثر المفاهيم العقلانية في الفكر الإسلامي الحديث.

وبعد هذا كله أرجو أن نكون مع القارىء قد خرجنا بنتائج مهمة ـ ولعلها أن تكون مفيدة ـ أجمل أهمها فيما يلي:

أولاً: أن الاتجاهات العقلانية الحديثة، التي درسنا طرفًا من آرائها ومنهجها وأهدافها؛ إنما تمثل في الحقيقة فرقًا ـ أو اتجاهات ـ منحرفة، بالمصطلح الشرعي الإسلامي، مثلها كمثل فرق المعتزلة، والجهمية، والخوارج، والمرجئة، والرافضة والباطنية، وغيرها من الفرق التي ظهرت في تاريخ الإسلام وخرجت عن السنة وفارقت الحق، وأساءت إلى العقيدة الإسلامية، وأشغلت المسلمين، وفرّقت جماعتهم، بل تعد هذه الاتجاهات العقلانية امتدادًا لتلكم الفرق عمومًا وغيرها، وامتدادًا للمعتزلة بوجه خاص، كما أسلفت في أول البحث، وقد صارت هذه الاتجاهات على تفاوتها تمثل مدرسة اعتزالية جديدة هي امتداد للقديمة وتزيد عليها.

ويتجلى ذلك في وحدة أصولهما ومناهجهما، وفي عطف الأخيرة على القديمة وتمجيدها لها، والاختلاف بينهما إنما هو اختلاف زمني تغيرت معه الشعارات والأساليب اللفظية فحسب، أما الأصول والمناهج وكثير من الأهداف والمضامين فهي متقاربة.

ثانيًا: أن الاتجاهات العقلانية الحديثة، أخطر على الإسلام والمسلمين اليوم، من الفرق العقلانية القديمة؛ لأنها تتكلم وتعمل في هذا العصر من منطلق الأقوى، وبمنطق المتفوق؛ لأنها تستند في منطلقاتها على الغرب، والغزو الفكري الغربي، الذي تدفعه القوى الغربية المهيمنة، في حين أن الفرق المنحرفة القديمة كانت تصدر من منطلق الضعف والقلة يوم كان الإسلام هو المهيمن على العالم.

وهذا ما يفرض على المسلمين اليوم أن يكونوا أشد يقظة وحذرًا، وأكثر استعدادًا للتخلص من هذا الداء، وأن تكون أساليبهم العلمية والفكرية والعملية بقدر مستوى التحدي وأكثر امتثالاً لأمر الله بالجهاد والقوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثالثًا: أن الأفكار والمفاهيم العقلانية قد تمكنت وتغلغلت في عقول كثير من مثقفي المسلمين، علميًا، وعمليًا، فصارت هي الأصل وهي الصبغة العامة، وهي الشعار الظاهر عند هذه الفئات، وبالمقابل صارت السنّة والمفاهيم والأفكار الإسلامية السنِّية السلفية الأصيلة خافتة، ومحصورة في كتب وأفراد، وجماعات مغمورة في أكثر بلاد المسلمين، غير مهيمنة ولا متمكنة في حياة المسلمين العامة وعقائدهم وأفكارهم، وقد تمثل الشذوذ في نظر بعض القوىٰ والأحزاب المسيطرة في غالب العالم الإسلامي، وليس للسنة شعارٌ ظاهر في دولة تحميه وتعمل به إلا في المملكة العربية السعودية، وبعض المجاورين، فيما أظن.

رابعًا: أن الاتجاهات العقلانية الحديثة، زيادة علىٰ أنها تمثل الانحراف، والخطر علىٰ الإسلام والمسلمين من الداخل في ذاتها لأنها ترفع شعارًا إسلاميًا، فهي أيضًا تمثل خطرًا أكبر وأعمق في كونها تخدم أهداف الأعداء ـ أعداء الإسلام ـ في الغرب والشرق، حيث اتخذها الأعداء مطية يعملون من خلالها علىٰ إفساد عقيدة المسلمين وأفكارهم، وتشتيت جهودهم، وتفريق كلمتهم، وقطع خط الرجعة علىٰ الجهود التي يبذلها أهل السنّة، والتي تمثل العقيدة الإسلامية الصحيحة، والمستمدة من كتاب الله والسنة، والتي يحسب لها الكفار والمفسدون والمنافقون ألف حساب، ويخشونها كل الخشية؛ لأنهم يعلمون ـ وقد علَّمتهم تجارب التاريخ ـ أن قيام كيان إسلامي علىٰ السنة ومستقل يحكم في الأرض، إنما يعني قيام الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، وتطهير الأرض من الفساد والبغي، وإقامة العدل، وإعادة الحقوق والمظالم لأهلها.

وكل تلك الأمور لا تريدها أم الكفر والجاهلية والإلحاد في الشرق والغرب، وتدرؤها بكل ما تملك من وسائل فكرية وثقافية، وإعلامية، وعسكرية وغيرها.

خامسًا: رأينا أن رواد الاتجاهات العقلية الحديثة، رغم اختلاف نزعاتهم

واتجاهاتهم إلاّ أنهم متكافلون، يلتقون علىٰ الهدف الواحد لهم، وهو دفع الحياة في العالم الإسلامي إلىٰ مسايرة الحياة الغربية، كما أنهم يلتقون عند الوقوف في وجه أهل السنّة والتصدي لهم.

فيلتقون في سائر الأهداف العامة، بالرغم من وجود نزعات واتجاهات وأهداف فردية وحزبية بين صفوفهم.

سادسًا: أن العقلانيين هم المؤثرون ـ في الغالب ـ في مسيرة ما يسمي بالفكر والثقافة في العالم الإسلامي اليوم، وهم المهيمنون علىٰ أكثر وأهم أجهزة الإعلام ومراكز التوجيه والتأثير والإدارة والقيادة، سواء علىٰ شكل أحزاب أو أفراد، أو هيئات أو غيرها.

والمستعرض لواقع المسلمين اليوم يجد أن كثيرين منهم فرقتهم الأهواء والبدع والفرق الصوفية والكلامية والشعارات والحزبيات والحركات الهدامة، فمنهم الفِرَقِيُّون والطُّرُقيُّون والقبوريُّون ومنهم البعثيون، والاشتراكيون، والناصريون، والشيوعيون، والماركسيون، والحداثيون، والقوميون، والرأسماليون، وغيرهم.

وهؤلاء كلهم إن لم يكونوا من العقلانيين الذين نعنيهم، فإن العقلانيين منضمون تحت ألويتهم، ويخدمونهم، إما مباشرة أو غير مباشرة.

ومن جانب آخر ـ وهو الأكثر وضوحًا ـ نجد أن جانبي التشريع، والتربية والتوجيه، يسيران في أكثر بلاد المسلمين، وفق آراء وأهداف الاتجاهات العقلانية.

فالتشريع ـ ومنه العقوبات والحدود والقضاء ـ أكثره مستصدر من أنظمة وتشريعات مستمدة من غير الشريعة الإسلامية، وهذا إنما حصل كثير منه بمجهود العقلانيين أنفسهم ومن يدور في فلكهم.

والتربية والتوجيه والإعلام، كذلك، تسير سيرًا علمانيّاً ماديّاً يعزل الدين عن العلم، وعن الحياة العامة، حتى وصل الأمر بأكثر بلاد المسلمين إلى اعتبار مادة الدين في المناهج المدرسية مادة غير أساسية، وربما لا يمتحن فيها الطالب!

وهذا واقع.

كل ذلك حصل ـ أول ما حصل ـ بمجهود الاتجاهات العقلانية الحديثة ومن ورائها الغزو الفكري الغربي.

سابعًا: بهذا نتوصل إلى نتيجة واضحة؛ وهي: أن أهم أسباب انحطاط المسلمين وانحرافهم، وما يعانونه اليوم، من تشتت، وفرقة، وفوضى، وفساد؛ إنما هو الانحراف في العقيدة، والإخلال بالتوحيد، فقد كثرت بينهم البدع والمحدثات في الدين، وتقاسمتهم الفرق الخارجة عن السنة، والطرق الصوفية البدعية، والمذاهب والحزبيات والشعارات، واستمدوا أحكامهم ونظمهم من غير الإسلام، فهم بذلك قد أعرضوا عن دينهم الذي هو شرط نجاحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ [طه: ١٢٤].

ذلك أنهم استعانوا بغير الله، وجعلوا ولايتهم للقوى البشرية في الشرق أو الغرب، وهذا خلل في توحيد الألوهية والعبادة.

ومنهم كثيرون اتجهوا إلى التوسل بغير الله، فقدسوا الأشخاص والقبور والأنظمة، والمنفعة، والمادة، وصرفوا لهذه الأشياء من الطاعة والانقياد والحب والتقديس ما لا يجوز إلا لله، وهذا خلل في توحيد العبادة.

والعقلانيون في عمومهم يمثلون جزءًا كبيرًا من هذه الأخلاط، ، بل هم من أشدها إنحرافًا وضلالة وابتداعًا وإعراضًا في الجملة.

ثامنًا: بعد ذلك كله: ما هو موقف أهل السنّة، الذين هم أصحاب القضية، وهم الذين يعنيهم الأمر، وهم أنصار الحق، وحملة الدين، وأهل راية التوحيد،

وأين جهودهم في هذا الخِضَمّ؟

هذا ما سأحاول استجلاءه في هذه الكلمات:

إن أهل السنّة وحملة التوحيد ـ بحمد الله ـ موجودون في كل العالم الإسلامي وغير الإسلامي، ويقولون كلمتهم في كثير من القضايا والمواقف، ومن ذلك ما نجده في آثار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، في كثير من العالم الإسلامي عمومًا وفي الجزيرة العربية بصفة خاصة، وفي المملكة العربية السعودي بصفة أخص.

ومع ذلك فأهل السنّة الخلّص اليوم في عموم المنتسبين للإسلام قليل، ولا يضرهم ذلك؛ لأن النبي ﷺ أخبر بخبره الصادق أن الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها هالكة إلا واحدة.

وأهل السنة بحمد الله يزيدون وينمو أثرهم في كل العالم اليوم، لكنهم بحاجة إلى مزيد من التعاون والتناصر، والإفادة من الوسائل المشروعة.

فالوسائل التي يستخدمها أهل السنّة لا تزال أقل من مستوى الحاجة القائمة وضخامتها ـ سواء كانت وسائل علمية ونظرية، أو وسائل عملية وإدارية ومؤسسية.

ونرى أنه لابد لأهل السنّة، من أجل أن يستعيدوا مكانتهم، ويقوموا بدورهم في إعلاء كلمة الله، ورفع راية التوحيد، والجهاد في سبيل الله، حتى يكون الدين كله لله، لابد لهم من أجل ذلك من عزمة قوية تقاوم الشرك والكفر والبدع والأهواء والشعارات والفساد والضلال والجهل، ولابد لهم من عزمة محكمة تجمع شملهم أولاً، وتجمع جهودهم ثانيًا، وتوحد كلمتهم وتدفع عنهم التواكل واليأس ثالثًا، وتعيد لهم اعتبارهم وثقة جماهير المسلمين بهم بعد ذلك.

ولابد لهم أن يكثفوا وسائلهم ويستعينوا ـ بعد الله ـ بكل وسيلة حلال تعينهم على استصلاح الفرد، والأسرة، والأمة، والبشرية جمعاء.

إنهم لا بد أن يستفيدوا من أية قوة مادية أو معنوية، علمية أو عملية، شرقية أو غربية ـ في حدود ما أحلّ الله ـ امتثالاً لأمر الله تعالىٰ: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [٦٠: الأنفال].

لابد من التوسع في وسائل العلم والدعوة والإصلاح والجهاد في سبيل الله، حتىٰ تكون فوق مستوىٰ وسائل أعداء الله، بالقلم والكتاب، وبالآلة، واللسان، واليد.

ومن خلال تأصيل المناهج، والدراسات، والمؤتمرات، والندوات، والمؤسسات والمدارس والجامعات، وغير ذلك من الوسائل الحلال.

ومن هنا أحب أن أنبه إلىٰ أهمية الدراسات العليا، وما يجب أن تؤديه لخدمة هذا الغرض، ألا وهو تصحيح المفاهيم والأفكار الخاطئة، ودفع الشُّبهة والشكوك عن العقيدة الإسلامية، وتجليتها وإيضاحها، والوقوف أمام هجمات أعدائها، وبيان خطر الدراسات والآراء والأفكار العقلانية، كما أنه لابد من تفرغ العلماء وطلاب العلم لمهماتهم الأساسية في استصلاح الفرد والأمة، وبعدهم عن المطامع والمناصب والأعمال التي تستفرغ طاقاتهم وتعزلهم عن الناس، وقبل ذلك: البعد عن الشعارات والحزبيات، والعواطف غير الرشيدة، ومعالجة أدواء الأمة بالحكمة والإشفاق والحلم والصبر.

هذا مع وجوب التزام الكتاب والسنّة، والحفاظ علىٰ الطابع السَّلفيّ الأصيل في ذلك كله، وعدم التساهل أو الملاينة في أمر من أمور العقيدة وأصول الدين، فإنه وإن كان هذا شيئًا بدهيّاً عند أهل السنّة، لكن لأهميته وخطورة التساهل فيه، رأيت وجوب التذكير به، كماأنه لابد من صدق النية، واستقامة الخلق، ونزاهة السلوك، والتأكيد علىٰ ذلك، في الفرد والمجتمع.

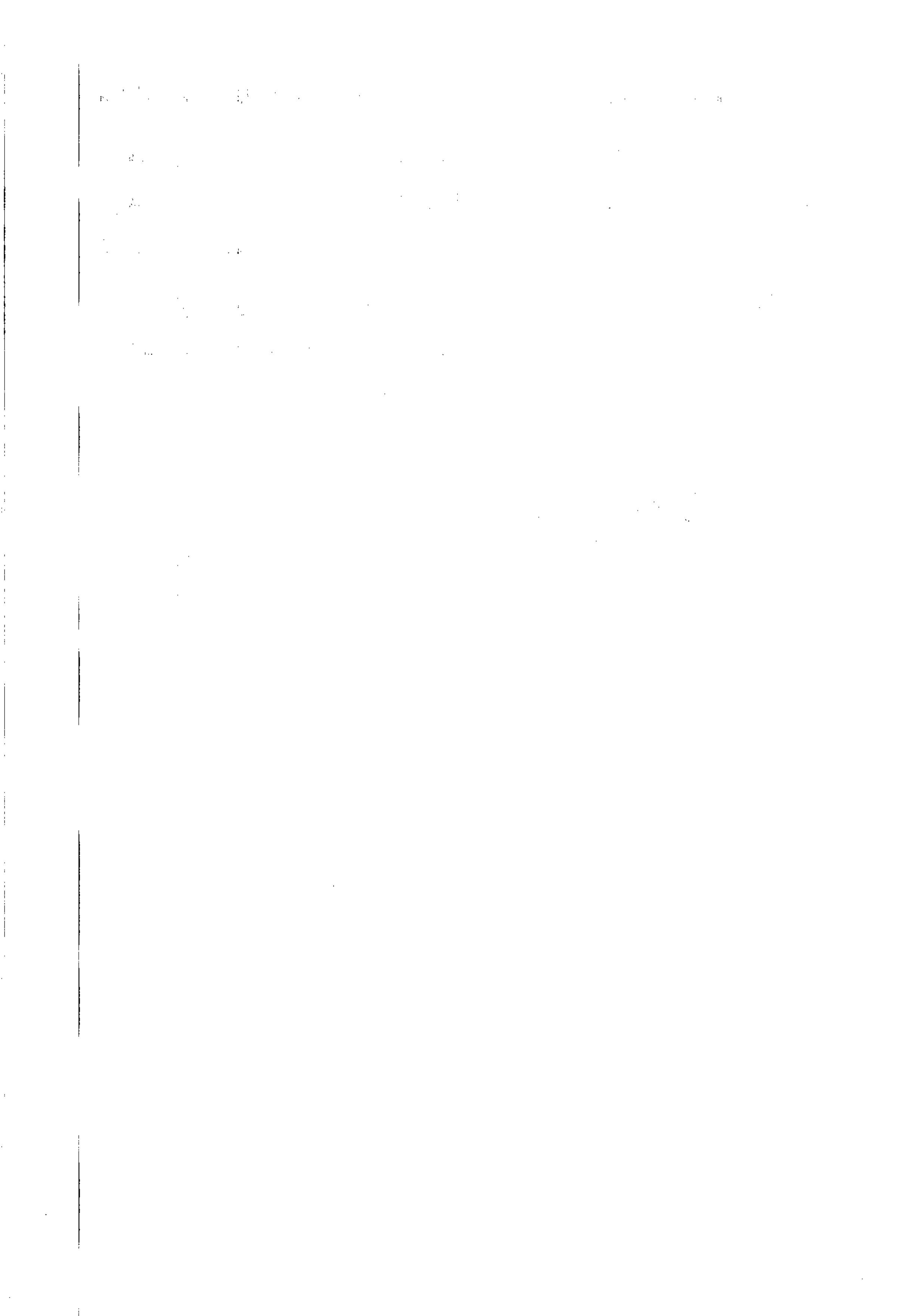
وأخيرًا أرجو أن يكون هذا البحث إسهامًا في الجهاد في سبيل الله، وخدمة دينه، وأعتذر عن كل ما فيه من ضعف وتقصير، فإن الموضوع لا يزال بحاجة إلىٰ

من هم أقدر مني من أساتذتنا وعلمائنا وزملائنا الأفاضل، فإن الأمر بحاجة إلىٰ المزيد من الجهد والجهاد؛ لإعلاء كلمة الله عز وجل، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنه هو الغفور التواب الرحيم.

وصلّىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلىٰ يوم الدين، وسلام علىٰ المرسلين، والحمد لله رب العالمين

وكتب

ناصر بن عبدالكريم العقل



فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

* * * * *